تيسير التفسير

لقطب الأيمّة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء التاسع)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

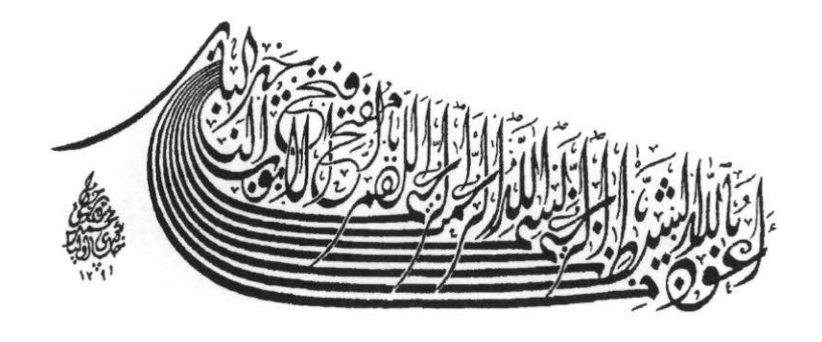
بمساعدة لجنة من الأساتذة

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى اشريفي ومصطفى طلاي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبّت الذين

ءامنوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾

(سورة النحل آية ١٠٢)

تفسير سورة مريم وآياتها ٩٨

هذه التسمية جاءت عن الطبري وأبي نعيم والديلمي، بسندهم إلى أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغسَّاني عن أبيه عن جدِّه، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية ولعلَّه سمَّاها مريم فقال: «**والليلة أنزلت عليَّ سورة مريم**»[1].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كٓهيعٓصٓ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ⑨ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪﴾

دعاء زكرياء عليه السلام طالبا الولد وبشارته بيحيى

﴿**كهيعَصَ**﴾ كافٍ هادٍ يُجير عظيمٌ صادق ﴿**ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ**﴾ هذا المتلوُّ

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٨٣. وقال: أخرجه الطبراني وأبو نعيم والديلمي من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي موسى الغساني عن أبيه عن جدِّه مرفوعا.

ذكر رحمة ربِّك، أو ممَّا يتلى عليكم ذكر رحمة ربِّك ﴿عَبْدَهُ﴾ مفعول به لـ«ذِكْرُ»، والذكر فعل للرحمة على التجوُّز في الإسناد، فإنَّ الذاكر هو الله وأسند الذكر للرحمة.

ومعنى كون الرحمة ذَكَرتْ عبده أنَّها أصابته، كما تقول: «ذَكَرَني معروفُك» بتخفيف الكاف وضمِّ الفاء، أي بلغني، أو شبِّهت بالإنسان ورمز إلى ذلك بذكر ما للإنسان وهو الذكر، على أنَّ الرحمة: الخير لا صفة لله، أو «عَبْدَ» مفعول لـ«رَحْمَة» لأنَّه مصدر مبنيٌّ على التاء من أول، وإنَّما الذي لا يعمل إلاَّ شاذًّا هو الذي زيدت فيه التاء للوحدة ﴿زَكَرِيَّآءَ﴾ عطف بيان، ولا دليل على نصبه بـ«أعني».

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ متعلِّق بـ«رَحْمَة» أو بـ«ذِكْرُ» المجهول فعلا لـ«رَحْمَة» أو بدل اشتمال من «عَبْدَ» أو «زَكَرِيَاءَ» ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ في جوف الليل لا أحد معه مراعاة لجلال الله بأنَّ السرَّ والجهر عنده سواء، ولأنَّ ذلك أحضر للنفس. والنداء لا ينافي الخفاء لأنَّا نقول: يا رَبِّ، ولا تسمع أذننا، أو تسمع ولا يسمع من معنا، وإذا جهرنا بالنداء فذلك أيضا خفاء حيث لم يسمع لعدم من يسمع هناك، وقصدنا أن لا يسمع؛ أو ذلك كناية عن الإخلاص **والأوَّل أولى** لأنَّه الظاهر مع المناسبة، فإنَّه قصد الإخفاء للإخلاص، ولئلاَّ يلام على حبِّ الولد في كبر سنِّه، ستِّين سنة أو خمس وستِّين أو سبعين أو خمس وسبعين أو ثمانين أو خمس وثمانين أو اثنتين وتسعين أو تسع وتسعين أو مائة وعشرين، وهو أشدُّ خفاء للصوت، وقد قيل: خفاء صوته لضعفه بالكبر.

وممَّا يناسب الخفاء حذف حرف النداء في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ وهذه جملة مستأنفة جواب لقائل: ما نداؤه الخفيُّ؟ أو مفسِّرة لـ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾ ضعف ﴿الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أفرد لإرادة الجنس، فشمل عظامه كلَّها، لأنَّ

كلّ فرد منها يصدق عليه أنّه عظم، والعظم دعام البدن فإذا ضعف ضعف البدن، فيجوز أن يكون ضعفه كناية عن ضعف البدن.

وعن قتادة: العظم السنُّ، ووهنها سقوطها، ولا دليل له على هذا التخصيص، ولو كان له وجه وهو أنّ ذلك من شأن كبار السنِّ، وأنّ مِن شأنه ضعف البدن لانتفاء أكله ما يؤكل بالأسنان، وأيضا سقوط الأسنان ليس وهنا لها بل انتفاؤها من الفم، ولو كان سقوطها لسبب الوهن.

و لم يقل: وهن عظمي، مع أنّه أقلُّ حروفا لعدم التفصيل بعد الإجمال فيه، بخلاف ما إذا قال: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ﴾ وقال بعده: ﴿مِنِّي﴾ بالتفصيل ولأنّ «العظم» أدلُّ على الجنسيَّة من «عظمي».

(بلاغة) ولا يخفى ما في كمال الرغبة إذ نادى المنعم عليه المربِّي له، وأدخل إنّ وقال: ﴿مِنِّي﴾ ونسب الوهن للعظم الموجب وهنُه وهنَ باقي البدن، وزاد بذكر الشيب وما بعده إلى ﴿رَضِيًّا﴾.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل بمعنى انتشر شيب الرأس، ولا حاجة إلى دعوى أنّ «شَيْبًا» مفعول مطلق وأنّ «اشْتَعَلَ» بمعنى شاب.

(بلاغة) شبَّه الشيب بشواظ النار لجامع عدم السواد فيها وثبوت بعض بياض فيها، وشبَّه انتشاره في الشعر باشتعالها لجامع التنقُّل، ففي «اشْتَعَلَ» استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، وفي الشيب مكنيَّة، والتحقيق جواز انفكاك المكنيَّة عن التخييليَّة كما بيَّنته في شرحي[1] على شرح عصام الدين وبيان البيان[2]، وفائدة بناء الكلام على

١- شرح للمؤلِّف مخطوط على متن الاستعارات لعصام الدين إبراهيم بن محمَّد بن عرب المُتَوَفَّى سنة ٩٤٥ هـ. انظر: الأعلام للزركلي.

٢- تقدَّم التعريف به في ج٨ ، ص ٢٩٨.

التمييز إفادة العموم، إذ لو قيل: اشتعل شيب الرأس لم يفد العموم مع أنَّه مراد، كما إذا قلت اشتعل البيت نارا أفاد العموم تصريحا، وإذا قلت: اشتعل نار البيت لم يفده ولو أريد بالنية.

﴿وَلَمَ اَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ بطلبي لك أن تفعل لي كذا ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ تعبا بلا فائدة فيما مضى من عمري، فأحسن إليّ بالولد كما أحسنت إليّ في ما مضى بالإجابة، ولا سيما أنّي الآن أشدُّ احتياجا منِّي فيما مضى. وهذا كما سأل سائل معاوية أو معن بن زائدة أو حاتما الطائي، فقال: بم تتوسَّل إليَّ؟ فقال: بإعطائك إيَّاي وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسَّل بنا إلينا، فأعطاه.

وكما ذكر لفظ الرُّبُوبِيَّة المشعر بتقدُّم إنعام سابق، وإفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى المربوب، وذلك أولى من أن يكون المعنى: لم أكن بدعائك إيَّاي إلى الطاعة شقيًّا بتركها، أو مفسدا لها بالرياء، بل عبدتك مخلصا، إذ ليس فيه تصريح بالرغبة ولو تضمَّنها بذكر موجب القرب وهو الدعاء إلى الطاعة، وذكر الرُّبُوبِيَّة.

روي أنَّ موسى عليه السلام قال: يا ربِّ، فقال الله جل جلاله: لبَّيك يا موسى، فقال موسى: أهذا لي خَاصَّةً؟ فقال الله تبارك وتعالى: لا، ولكن لكلِّ من يدعوني بالرُّبُوبِيَّةِ، وروي أنَّ العبد إذا قال: يا رَبِّ قال الله: لبَّيك يا عبدي.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَٰلِيَ﴾ عصبتي كما روي عن ابن عَبَّاس ومجاهد، أو بني عمِّي التالين لي في النسب، أو قرابتي التالين لأمري، وكان هؤلاء الموالي شرار بني إسرائيل، فخاف أن لا يحسنوا الخلافة في أمَّته بعده ﴿مِن وَّرَآئِي﴾ أي وإنِّي خفت الموالي من بعد موتي أن يجوروا في أمَّتي، وهو حال من «الموالي»، فالخوف الآن والموالي بعد موتي، أو يقدَّر وإنِّي خفت جور الموالي من ورائي، فيتعلَّق بـ«جور»، ويجوز تعلُّقه بالموالي لتضمُّنه معنى الولاية للأمر بعدل.

وقيل: الآية في الميراث، فالموالي بنو العمِّ أو العصبة أو الكلالة أو الورثة، أقوال، لكن ليس إرث مال، لأنَّ الأنبياء لا تورث وما يتركونه صدقة، ويبعد أن يشفق نبيء على ماله، وإنَّما المراد ميراث العلم ونحوه.

﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ لا تلد، يقال امرأة عاقر ورجل عاقر كلاهما بلا تاء ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا**﴾ من عندك وفيضك الواسع وكيف شئت. «مِنْ» للابتداء سواء علِّقت بـ«هَبْ» أو بمحذوف حال من «وَلِيًّا» وهو الولد كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾(سورة آل عمران:٣٨) [قلت:] وبعد هذا التخصيص في سورة آل عمران لا يصحُّ دعوى أنَّ المراد وليًّا مَّا من قرابته يرثه ولدا أو غيره، ولا دعوى أنَّ ما في آل عمران قبل الإيَّاس من الولادة بحسب عادة البشر، وما هنا بعده. طلب قريبا لحسن الخلافة، وكان يكفي: «هب لي وَلِيًّا»، لكن زاد ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تلويحا بعظم ما يوهب لأنَّ الموهوب من الكريم لا يكون إلاَّ كاملا، إذ لا يهب الناقصَ المنافي لكرمه.

﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنَ ءَالِ يَعْقُوبَ**﴾ أي يرث علمي، فحذف المضاف، ويرث العلم من آل يعقوب. واختلف الأسلوب بذكر «مِن» لكثرة ما يرث من زكريَّاء وقلَّة ما يرث من آل يعقوب، أو لأنَّه يرث منه الحبوريَّة، وكان زكريَّاء رئيس الأحبار.

ويرث من آل يعقوب -وهم بنو ماتان- الملكَ، وكان بنو ماتان ملوكا، أو لأنَّه يرث من زكرياء النبوءة ومن آل يعقوب الملك؛ وقيل: يرث مالي، ويردُّه أنَّه لا شأن للمال عنده حتَّى يعتني به، [قلت:] إلاَّ أنَّ طلب أن يرثه وليٌّ له مطيع ليصرفه في وجوهه لا من يفسد به، رغبة في إقامة الدين به، لا خوف أن يعاقب بإفساد المفسد به بعده، إذا لا عقاب بذلك على الموروث إذا لم يقصد الإفساد، لا يقال: هلاَّ تصدَّق به لأنَّه رجا الانتفاع به في الإسلام بعده على استمرار، **وهذا منِّي مجرَّد**

توجيه لا ترجيح، فالراجح أنَّ المراد وراثة العلم أو النبوءة أو الملك والعدل أو الحبورة، وكان زكريَّاء رأس الأحبار.

(لغة) ولا يستدلُّ على أنَّ الموروث المال بأنَّ الإرث حقيقة فيه خَاصَّةً، وإن سلَّمنا فاستعماله في غيره مجاز مشهور، ومن ذلك ما ورد أنَّ «**العلماء ورثة الأنبياء**»[1] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾(سورة فاطر:٣٢) وقوله: ﴿خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ﴾(سورة الأعراف:١٦٩) وقوله: ﴿وَإِنَّ الذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾(سورة الشورى:١٩) وقوله: ﴿إِنَّ الاَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَّشَآءُ﴾(سورة الأعراف:١٢٨) ﴿وَلله مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ﴾(سورة آل عمران: ١٨٠) وقول الكلبي عن أبي عبد الله: إنَّ سليمان ورث داود، وإنَّ محَمَّدًا ﷺ ورث سليمان، والأنبياء لا يرثون مالا ولا يورثون، وقيل: يرثون ولا يورثون، وعن ابن عَبَّاس في الآية: يرثني مالي، وعن الحسن عنه ﷺ : «**رحم الله تعالى زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله**»[2]، ورجَّح بعض أنَّ الموروث المال لأنَّ الإرث لا كسب فيه، والعلم بالكسب، فتبقى النبوءة إذ لا كسب فيها فتحتمَّلها الآية.

ولا مانع أن يعطى نبيء بعض ما دعا دون بعض، بأن أعطاه يحيى ومات قبله، والأكثر أنَّه مات بعد زكرياء. والآل من يؤول إليه الأمر لقرابة أو صحبة أو دين، وزكرياء من ولد هارون، وهارون من ولد لاوي بن يعقوب، وكان زكرياء

١-رواه **ابن ماجه** في المقدِّمة (١٧) باب فضل العلماء والحثُّ على طلب العلم، رقم٢٢١. من حديث أبي الدرداء، وأوَّله: «كنت جالسا عند أبي الدرداء...». وأورده **الهندي** في الكنز في كتاب العلم (١) باب في الترغيب فيه، ج١٠، ص١٣٥. وقال: أخرجه البخاري عن أنس مع زيادة.

٢-أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٨٤، مع زيادة. وقال: أخرجه ابن عبد الرزَّاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن.

متزوِّجا بأخت مريم، وهي من ولد سليمان، وسليمان من ولد يهوذا.

﴿**وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾ دليل على أنَّه ليس الموروث النبوءة، لأنَّه لا يكون نبيء إلاَّ رضيًّا، فلا يدعو زكرياء أن يكون رضيًّا مع أنَّه يكون نبيئا، و«رَضِيًّا» فعيل بمعنى مفعول أي مرضيًّا عندك قولا وفعلا، وبين عبادك فيتبعوه.

﴿**يَا زَكَرِيَّآءُ اِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ**﴾ أي قال الله، أو قيل لزكرياء: ﴿يَا زَكَرِيَّآءُ اِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾وذلك بواسطة ملك كما في آية أخرى، أو بإلقاء كلام في سمعه يخلقه فيه، أو حيث شاء فيسمعه، وهذا جواب ندائه وإجابة دعائه.

وما في الوعد من التراخي لا ينافي التعقيب فإنَّ التعقيب بحسب ما تعورف وناسب المقام، كما يقال: تزوَّج فلان فولد له، أو نقول: الفاء في مثل ذلك للسببيَّة دون التعقيب، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿فاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾(سورة الأنبياء:٧٦) وللتأخير قال بوعد واستجابة في قوله: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ ولم يقل: أعطينا، بل الوعد استجابة متَّصلة فهو تعقيب متَّصل.

والمشهور أنَّ هذا القول إثر الدعاء ولم يكن بين البشارة والولادة إلاَّ أشهر، وقيل: رزق الولد بعد دعائه بأربعين عاما، وقيل: بسنتين، وأكَّد الوعد بذكر اسم الولد وبأنَّه لم يسمِّ به أحدا قبله كما قال: ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ، مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ مماثلا لاسمه.

وقيل: لم نجعل له مماثلا في اجتناب المعصية، والروايتان عن ابن عَبَّاس قائلا: إنَّ النبيء ﷺ قال: «**إنَّ يحيى لم يفعل خطيئة ولا همَّ بها وكلُّ ابن آدم همَّ بها أو فعلها**»[1] أو مماثلا في أنَّه من امرأة عجوز عاقر وشيخ فان. وهو لفظ عجميٌّ وافق

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٨٨. وقال: أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن خزيمة والدارقطني في الإفراد وأبو نصر السجزي في الإبانة والطبراني عن ابن عَبَّاس. وأوَّل =

العَرَبِــيَّة، وقيل: عربيٌّ، فهو من جملة غرابة شأنه فإنَّه ليس من عادهم التسمية بالألفاظ العَرَبِــيَّة، وعليه فهو تفاؤل بحياة طويلة، أو حياة حتَّى يرث أباه ويبنى على العَرَبِــيَّة، [ويضعف] ما قيل: سمِّيَ لأنَّه يحيى بالحكمة والعفَّة، وما قيل: إنَّه سمِّي لأنَّه حيي به رحم أمِّه، وما قيل: لأنَّه حيي بــين عجوز عاقر وشيخ فان، وما قيل: لأنَّه يحيى بإرشاد الخلق، وما قيل: يموت شهيدا والشهداء أحياء.

ولا يخفى أنَّه من رغب في شيء ولا سيما الشيء الغريب ووعد به يتشوَّق إلى معرفة شأنه وكَيفيــَّة حصوله، ولا سيما مع حضور الموانع، ولذلك قال ـــــ مع علمه بوعد الله له مع علمه بفنائه وكبر زوجه وعقرها ـــ ما ذكر الله عنه في قوله: **﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا﴾** ولا يتبادر ما قيل إنَّه جواب سؤال كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام ؟ ولا يخفى أنَّه قال بنفسه والله عالم بقوله، ولا حاجة إلى توسُّط ملك يرسله إلى الله، اللهمَّ إلاَّ على سبيل تفخيم الأمر لكن مثل هذا يحتاج إلى نقل أو حجَّة.

(نحو) ومعنى ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ كيف يكون؟ أومن أين يكون؟ أو متى يكون؟ وقوله: ﴿كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حال من ياء «لي» على تقدير «قد» لأنَّ الماضي المثْبت المتصرِّف إذا كان من جملة الحال لا بدَّ من قرنه بـــ«قد» والواو، وجملة «قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا» عطف على الجملة الحالية.

والعتيُّ: يبس المفاصل، وأصله: عُتُويٌ اجتمعت الواو والياء وسكنت الأولى فقلبت الواو وأدغمت وقلبت الضمَّة كسرة. وعقر امرأته من شبابها وشبابه إلى الآن فكيف تلد وحالها ذلك مع بلوغها ثمانيا وتسعين، وأنا أكبر

=

الحديث عنده هو: «كُنَّا في حلقة في مسجد النبيء ﷺ نتذاكر فضائل الأنبياء فذكرنا نوحا...» مع اختلاف في اللفظ.

منها سنـــًّا.

(نحو) و«مِنْ» للتعليل متعلّق بـــ«بَلَغْتُ» أو للابتداء فيما قيل: إنَّه ابتدأه العتيُّ من كبره لأنّ هذا راجع إلى التعليل، وقيل: للتبعيض متعلّقة بمحذوف حال من «عُتيًّا» وفيه أنّ العتيَّ ليس ببعض الكبر بل يكون به، وفي آل عمران: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾(سورة آل عمران:٤٠) وهنا: ﴿بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عُتِــيًّا﴾ وما بلغك من المعاني فقد بلغته إلاّ أنّ المسند إليه هنا المتكلّم وهناك الكبر.

ولعلّه دعا أوّلا فقال: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أدركني المانع من الولادة وهو الكبر تشبيها بالإنسان الذي يتبع الآخر ليمنعه مما أراد فأدركه، ودعا بعد ما زاد كِبَرًا بأنّه كالإنسان الفارِّ حتَّى حبسه من قدَّامه حابس لتابعه، أو دعاء واحد في وقت واحد ذكره الله ﷻ بالمعنيين في الموضعين.

(بلاغة) وبدأ هنا بحال المرأة وهناك بحاله، وأخَّر هنا ذكر كبره البالغ أقصى مراتب الكبر عن ذكر عقمها لأنّه قد ذكر حاله من وهن عظمه، واشتياقه إلى الولد، فما ذكر الكبر هنا إلاّ تتمَّة لما سبق وتوسُّط ذكر عقمها، وأمَّا هناك فلم يتقدَّم لحاله ذكر فذكر حاله قبل حالها، لأنّ ذكر قصور شأنه عن الولادة أهمُّ بذكر قصور شأنها أو تخالف ذلك للتفنُّن مع تضمُّن كلٍّ ما لم يتضمَّنه الآخر، وعرف من نفسه أنَّه لم يكن عاقرا أو عرَّفه الله ذلك، ولذلك لم يذكر العقم بل الكبر.

﴿قَالَ﴾ الله أو الملك المبشِّر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر كذلك، على حدِّ ما مرَّ في السابق، والإشارة إلى تحقُّق مضمون التبشير، أو إلى الاستبعاد إلاّ أنَّه سهل عند الله ولو صعب عندك كما قال: ﴿قَالَ رَبــُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ والخطاب كلُّه لزكرياء. ويجوز كون «كَذَلِكَ» معمولا لـــ«قَالَ» بعده ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الولد

المبشَّر به، أو من قبل أبيك في الأصلاب حتَّى كنت في صلبه ثمَّ خرجت منه ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ موجودا متشخِّصا بل في الأصلاب، أو خلقتك في آدم من تراب وكلُّ آدميٍّ كذلك، أو لم تَكُن شَيْئًا معتدًّا به، كقول أبي الطيِّب:

وضاقت الأرض حتَّى كان هاربهم إذا رأى غـــير شيء ظنَّه رجلا

أي غير شيء معتدٍّ به، أو غير شيء خيالا غير محقّق، والآية ظاهرة في أنَّ المعدوم غير شيء، وتؤوِّل بتقدير النعت كما رأيت.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ ءَايَةً﴾ علامة تدلُّني على تحقُّق الموعود بأن يعلم متى وقع يحيى في الرحم، ليشكر الله عَزَّ وَجَلَّ من حينئذ ولا يؤخِّر الشكر إلى ظهوره المعتاد في البطن، ولا إلى أن يولد، وليزداد يقينا بالوعد كقول الخليل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾(سورة البقرة: ٢٦٠) وليزداد فرحه كشأن الراغب في حصول شيء غريب يتعرَّف شؤونه باشتياق، وذلك منه في الطاعة لأنَّه طلب الولد لدين الله، وهذا الطلب بعد التبشير بمدَّة لأنَّ يحيى أكبر من عيسى بستَّة أشهر أو ثلاث سنين.

وكان الطلب في صغر مريم لأنَّها ولدت عيسى وهي ذات عشر سنين أو ذات ثلاث عشرة سنة، والمعنى: أبدِعْ لي آية، فـ«لي» متعلّق بـ«اجْعَلْ» أو حال من «آيةً» والأوَّل أولى، أو صيِّر لي آية فـ«آيةً» مفعول أوَّل و«لي» ثان.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ لا تقدر على أن تكلِّمهم. لَمَّا وقع في بطنها لم يستطع أن يكلِّم أحدا كلاما مَّا، والتوراة والذكر يطيقهما ﴿ثَلاَثَ لَيَالٍ﴾ مع أيامهنَّ كما صرَّح بالأيـــَّام في سورة آل عمران [آية ٤١]، واكتفى بذكر الأَيـــَّام فيها لأنَّها مَدَنيـــَّة متأخِّرة واليوم متأخِّر، وبذكر الليالي هنا لأنَّ السورة مَكِّيـــَّة سابقة والليل متقدِّم.

(صرف) و«ليال» كجوار مما زيدت الياء فيه من المجموع كأَهْلٍ وأَهَالٍ،

فإذا لم ينوَّن للإضافة أو بـ«الـ» أو في القافية، أو نصب ثبتت الياء، أو هو جمع ليلات فالياء بعد اللام هي ألف ليلة وهي زائدة ﴿سَوِيًّا﴾ حال من ضمير «تُكَلِّمَ» أي تامَّ الخَلق والخُلق بلا مرض ولا خرس، وهذا أولى من جعله حالا من «ثَلاَثَ» أي مستويات كاملات.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ خرس لسانه عن أن يتكلَّم للناس من أوَّل المغرب، وأصبح فخرج على قومه من المحراب، أي المصلَّى أو الغرفة، وأصله مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذبًّا عن أهله، فسمِّي محلُّ العبادة محرابا لأنَّ العابد يحارب الشيطان فيه، و لم يكن المحراب على عهد رسول الله ﷺ .

وكانوا ينتظرونه أن يفتح لهم الباب ليصلُّوا فخرج متغيِّر اللون وقالوا ما لك؟ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمُ، أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أشار إليهم كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾(سورة آل عمران: ٤١) أو كتب لهم على تراب الأرض كما روي عن ابن عَبَّـاس، أو على ورقة كما روي عن عكرمة، كقول عنترة:

كوحي صحائف من عهد كسرى فأوحاها لأعجم طمطمي[١]

وقول ذي الرمَّة:

سوى الأربع الدهـــم اللواتي كأنَّها بَقِــيَّة وحي في بطون الصحائف

و«أن» تفسيرية بلا تقدير، قيل: أو مخفَّفة بتقدير الباء، و﴿سَبِّحُواْ﴾: صلُّوا كما روي عن ابن عَبَّـاس، سمَّى الصلاة باسم بعضها وهو التسبيح فيها، و﴿بُكْرَةً﴾ وقت صلاة الفجر و﴿عَشِيًّا﴾ وقت صلاة العصر، فالتسبيح الصلاة في

١- رجل طمطم وطمطميٌّ في لسانه عجمة لا يفصح.

الوقتين على الكَيفيَّة التي أمر بها، و لم يتعبَّدوا بالصلوات الخمس، أو التسبيح ذكر الله وتنزيهه، أمروا أن يسبِّحوا شكرا للنعمة كما أمرَ، أو المراد استغراق اليوم بالذكر وذَكَرَ طرَفي اليوم فقط، أو خصَّ التسبيح لأنَّه من ير أمرا غريبا يقل:.

سبحان الله تعالى، سبحان الخالق جَلَّ جلاله ، ومثل هذا، أو أخبر قومه قبل طلب العلامة بما بشِّر به، ولَمَّا تعذَّر عليه الكلام أشار إليهم بحصول ما بشِّر به، فسرُّوا بذلك.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

إيتاء يحيى عليه السلام النبوءة والحكم صبيًّا

ولَمَّا ولد وبلغ سنـــًّا يؤمر مثله فيه قلنا: يا يحيى كما قال: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ**﴾ التوراة المعهودة، أو صحف إبراهيم، أو كتابا خصَّ به. و«الـــ» للعهد الحضوري، أو جنس الكتب المنزَّلة ولَمَّا يأت الإنجيل ﴿**بِقُوَّة**ٍ﴾ بجدٍّ منك في قراءته والعمل به، والأمر به، وعن أنس: القوَّة الدرس بجدٍّ ومواظبة، وفي الأمثال: «عليك بالدرس فإنَّ الدرس هو الغرس».

قيل لعبد الله بن عَبـــَّاس: بم نلت العلم؟ فقال: بلسان سؤول وقلب عقول وفؤاد غير ملول، وكفٍّ بذول، وبدن في الضرَّاء والسرَّاء صبور. وقيل لبزرجمهر: بم نلت؟ فقال: ببكور كبكور الغراب، وتملُّق كتملُّق الكلب، وتضرُّع كتضرُّع السنَّور، وحرص كحرص الخنزير، وصبر كصبر الحمار.

وقال بعض إنَّ القائل: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أبوه لَمَّا ترعرع قال له

أبوه ذلك، [قلت:] ولا دليل في الآية عليه فلا تحمل عليه، ويزيده بعدا قوله تعالى: ﴿**وَءاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً**﴾ فإنّ الأنسب أن يكون قائل هذا هو قائل: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾وذلك في ذاته من الجائز، فيكون «وَءاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ» عطفا على ما قبل «يَا يَحْيَىٰ» لكن أيُّ دليل على إدخال الأب في ذلك؟ فالقائل الله.

والعطف على «قلنا» المقدَّر. والحكم: الفهم والعبادة، قال ابن عَبَّاس: قال رسول الله ﷺ : «**أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين**»[1] رواه أبو نعيم وابن مردويه والديلمي، وعن بعض السلف: «من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبيًّا»[2] وعن ابن عَبَّاس قال ﷺ : «**قال الغلمان ليحيى اذهب بنا نلعب، فقال: أللّعب خلقنا؟ اذهبوا نصلِّ فهو قوله: ﴿وَءاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾**»[3]، والحكم على هذا: الحكمة.

وقيل: هي العقل، وقيل: معرفة آداب الخدمة، وقيل: الفراسة الصادقة، وقال كثير: إنَّها النبوءة أوتيها وهو ابن سبع سنين، أو ابن ثلاث أو ابن سنتين. وأكثر الأنبياء لم ينبَّئوا قبل الأربعين. والحنان: الرحمة، ونكِّر هو و«زكاة» للتفخيم، وزاد التفخيم للحنان بوصفه بقوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ وهذه الرحمة من الله له إنعام عليه بأمر الدين، كما أنّ الزكاة طهارة موهوبة له من الله، ونموٌّ في الدين منه عَزَّ وَجَلَّ له، وهذا أبلغ من أن يقول: ورحمناه.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٨٦. وقال: أخرجه أبو نعيم ومردويه والديلمي.
٢- نسبه ابن كثير لعبد الله بن المبارك عن معمر أثرا. انظر: ابن كثير: ج٣، ص١١٣.
٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٨٦. وقال: أخرجه الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عَبَّاس.

ويجوز أن يكون الحنان من يحيى للخلق أي جعله الله راحما لعباده عاطفا عليهم، ثمَّ رأيت عن بعض أنَّ المعنى: وآتيناه رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما، وعليه فالوصف بقوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ تحرُّز عن رحمة تؤدِّي إلى ترك واجب كالحدود، أو إشارة إلى أنَّها زائدة على ما في الناس من التراحم، ولا بأس في إفراط لا يؤدِّي إلى بأس.

وهذه المعاني صالحة أيضا مع تعلُّق «مِن لَّدُنَّا» بـ«ءَاتَيْنَاهُ». وعن ابن زيد[1] وعكرمة: الحنان المحبَّة، أي جعلناه محبوبا عند الناس، كموسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾(سورة طه:٣٩) أو جعلناه محبًّا لله. والزكاة: البركة فيما روي عن ابن عَبَّاس، وذلك أنَّه نفَّاع للخلق معلِّم للخير، أو الطهارة من الذنوب، وقيل: الزكاة الصدقة، والمراد ما يتصدَّق به.

﴿**وَكَانَ تَقِيًّا**﴾ عظيم الحذر عن المعاصي، ما عمل معصية ولا همَّ بها، وذكر مالك وأحمد وابن المبارك وأبو نعيم عن مجاهد أنَّ طعامه العشب، وأنَّه كثير البكاء من خشية الله حتَّى اتخذت الدموع مجرى في خدِّه ﴿**وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ**﴾ محسنا إليهما.

[قلت:] قيل: لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من برِّ الوالدين، لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(سورة الإسراء:٢٣) والمراد العبادة التي بين مخلوق وآخر، فلا يبحث بأنَّ الصلاة أفضل لأنَّها بين الخالق والمخلوق، أو المراد أنَّه لا أعظم من برِّ الوالدين بعد التوحيد، وأمَّا المُساوي فموجود على أنَّ الصلاة تكون مساوية لبرِّهما، أو قائل من السلف يعتقد أنَّ برَّهما

١- أحمد بن محمد بن زيد فاضل دمشقي، من علماء الحنابلة، له تآليف منها اختصاره لسيرة ابن هشام توفي سنة ٨٧٠هـ. الأعلام للزركلي ج١ ص٢٣٠.

أفضل من الصلاة.

والعطف على خبر كان، ولا حاجة إلى تقدير بعض: وجعلناه برًّا، ولا دليل عليه ولو ناسب نظيره حكاية عن عيسى ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبِّرا عن الحقِّ، أو متطاولا على الخلق، أو لا يرى لأحد عليه حقــًّا، وعن ابن عَبــَّاس: الجبَّار من يقتل ويضرب على الغضب، أومن يجبر نقصه بادِّعاء مترلة لا يستحقُّها ﴿عَصِيًّا﴾ مخالفا لأمر الله ونهيه، أو عاقًّا لوالديه.

(صرف) وهو فعيل للمبالغة، ولا دليل على أنَّه «فعول» وأنَّ أصله عَصُويٌ، بضمِّ الصاد وإسكان الواو وأنَّه قلبت الواو ياء وأدغمت، وقلبت الضمَّة كسرة، وذلك لصرفه عن ظاهره، بخلاف «فعيل» فإنَّه على ظاهره، والمراد المبالغة في النفي، بمعنى انتفى عنه كونه جبَّارا عصيًّا انتفاء عظيما لا نفي مبالغة كونه جَبــَّارًا عصيًّا وإلاَّ بقي بعض عصيان وإجبار وهو ممنوع.

﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ﴾ أمان عليه من الله عن أن يمسَّه الشيطان كما يمسُّ كلَّ مولود كذا قال الطبري.

وأقول: بل التحيَّة المتعارفة من الله كانت تشريفا له في وقت أحوج ما يكون إليها، ثمَّ رأيته لابن عطيَّة، ويدلُّ له حديث أحمد عن الحسن أنَّه التقى عيسى ويحيى فقال لعيسى: «ادع لي أنت خير منِّي» فقال عيسى: «ادع الله لي أنت خير منِّي سلَّم الله عليك وأنا سلَّمت على نفسي» وقيل: سلام عيسى أفضل لما فيه من إقامة الله تعالى له في مقام نفسه مع إفادة اختصاص جميع السلام به، ونفيه عن أهل العداوة.

﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ أمان من وحشة القبر، وفراق الدنيا وعذاب القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من عذاب النار وهول يوم القيامة. و«حَيــًّا» حال مؤكِّدة لعاملها لأنَّ المبعوث لا يكون إلاَّ حيًّا، وللإشارة إلى أنَّه حيٌّ لأنَّه

مات مقتولا، والشهداء أحياء، [قلت:] وإلى أنَّ المبعوث الجسد والروح لا الروح وحدها، ولا سيما أنَّ يحيى اسم للجسد والروح لا للروح وحدها.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

-١-

قصّة مريم وحملها بعيسى عليه السلام

﴿**وَاذْكُرْ**﴾ يا محمَّد للناس ﴿**فِي الْكِتَابِ**﴾ في هذه السورة إذ صدرت بقصَّة زكرياء المستـــتبعة بقصَّة مريم، وقصص الأنبياء، كما تناسبت هذه السورة وسورة الكهف في الاشتمال على عجائب من أصحاب الكهف والجنَّتين وقصَّة موسى والخضر وذي القرنين وولادة يحيى وعيسى، ولا سيما ما قيل: إنَّ أصحاب الكهف من قوم عيسى، وأنَّهم يــبعثون ويحجُّون معه، والجمهور **على أنَّ الكتاب القرآن وهو المتبادر** ﴿**مَرْيَمَ**﴾ أخبار مريم ﴿**إِذِ انـــتَبَذَتْ**﴾ اعتزلت، قيل: متعلِّق بـــ«أخبار» الذي قدَّرته مضافا لـــ«مَرْيَـــمَ».

وقدَّر أبو حيَّان: «واذكر مريم وما جرى لها إذ انتبذت» وهو أولى لأنَّ جرى أدلُّ على الحدث من الأخبار جمع خبر، أومن نبأ إن قدِّر، بل لا يجوز تقدير نبأ أو

أخبار لأنّه لا أخبار وقت الانتباذ، فلو قدِّر «حوادث مريم» لكان أولى لاختصاره وظهور الحدث.

(نحو) وقيل: حال من «نبأ» المضاف لمريم، أي اذكر نبأ مريم ثابتا إذ انتبذت، وفيه أنّه لم يثبت حين انتبذت كما مرَّ، ويجوز أن يكون بدل اشتمال ولو كان الزمان لا يخبر به عن الجثة، ولا توصف به، ولا يجيئ حالا منها، وقيل: بدل مطابق، وفيه أنّ وقت الانتباذ غير مريم، وغير نبئها، والقول بأنّ «إذ» حرف مصدر على معنى التعليل أي لأَنْ انتبذت **تخليط.**

﴿**مِنَ اَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾ متعلّقان بـ«انـتَبَذَتْ» وقيل: «مَكَانًا» مفعول به لتضمُّن «انـتَبَذَتْ» معنى أتت. والمراد: مكانا شرقيًّا من بيت المقدس، أو من دارها تتخلّى به للعبادة معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشرفة لتغتسل محتجبة بحائط، أو جبل عند ابن عَبّاس، وبثوب عند بعض، وذلك كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿**فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا**﴾ وكون المكان شرقيًّا اتّفاقي لا قصد لها، ولا تفضيل.

لعنة الله على النصارى كتب الله عليهم الصلاة إلى الكعبة والحجِّ فما صرفهم عن ذلك إلاّ انتباذها من أهلها مكانا شرقيًّا، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عَبّاس، فجعلوا المشرق قبلة، روي أنّهم كانوا في زمان عيسى يستقبلون بيت المقدس، وما استقبلوا الشرق إلاّ بعد رفعه، وروي أنّهم زعموا أنّه ظهر لبعض كبرائهم فأمره بذلك، ويجوز أنّ الله اختار لها الشرق بقصدها أو بدونه لأنّه مطلع الشمس والقمر، وغيرهما من الأنوار الحسِّيَّة المطابقة للنور العقلي، وروي أنّ الشرق موضعها في المسجد إذا طهُرت وإذا حاضت تحوَّلت إلى خالتها.

[قيل:] أتاها ملك في صورة شابٍّ أمرد وضيء الوجه، حسن شعر الرأس وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿**فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا**﴾ جبريل عند الجمهور، سمِّي روحا لأنّ

الدين يحيى به، والإضافة للتشريف، أو لحبِّ الله إيـَّاهُ، كما تقول لمن تحبُّه: هو روحي، وفي هذا أيضا تشريف، أو لأنَّه من المقرَّبين الذين لهم روح وريحان، وقيل: هو عيسى كقوله تعالى في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(سورة النساء:١٧١) وفي الإضافة ما مرَّ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي تمثَّل لها روحنا أي تصوَّر لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ كامل البنية والأدب، لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا، وقيل: تمثَّل في صورة قريب لها يوسف من خدم بيت المقدس لتأنس بكلامه، وتتلقَّى منه ما يلقى إليها من كلماته، ولو بدا لها على صورة ملك لنفرت.

[قلت:] لم يجيء إليها لتنحدر نطفة منها من صدرها إلى رحمها لتكون عيسى، فإنَّ هذا خطأ كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿قَالَتِ انِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ منكَ إن كُنتَ تَقيًّا﴾ لله عَزَّ وَجَلَّ حاذرا للزنى والمعاصي، وإن لم تكن تقيا لم أطمع أن تؤثِّر فيك استعاذتي بالله، بأن تَرْهَبَهَا إلاَّ إن يشاء الله، بمعنى إنَّ تقواك مانعة من الفجور، وهذا تذكير، وهذا شاهد عدل على ورعها، ويقوِّي عدم النطفة ما ذكره الله من النفخ في الدرع.

ومن عادة الملَك ــ بفتح اللام ــ إذا تمثَّل في خير أن يتمثَّل بصورة حسنة كما كان جبريل يتمثَّل لرسول الله ﷺ وفي مصالحه ﷺ بصورة دحية الكلبي.

(نحو) وما قبل «إنْ» مغن عن جوابها، وذلك أولى من أن تقدَّر: إن كنت تقيا اتَّعظتَ، أو فاذهب عنِّي، أو فلا تتعرَّض لي، أو إن كنت تقيًّا تعوَّذت منك، فكيف إن لم تكن تقيًّا ؟ ومن أن تجعل «إنْ» نافية مستأنفة أي ما كنت تقيًّا بحضورك عندي منفردا، ومن أن تقيًّا رجل طالح حقيق بأن يستعاذ منه، أو صالح حقيق بأن تؤثِّر فيه الاستعاذة.

[قيل:] وابتلاها الله عَزَّ وَجَلَّ بصورة [الشخص] الجميل اختبارا لعفَّتها وإظهارا لها واستعاذتها بالله خوف أن يكون البشر السويُّ مريدا للزنى، وحذرا من اشتهائها

الطبيعي، وهو لا ينافي ورعها بل يحققه إذ غلبته و لم تعمل به، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(سورة يوسف:٣٣) وقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(سورة يوسف:٢٤) وقفنا على «هَمَّ بِهَا» أو وصلْناهُ على أنَّه مما بعده، وذلك مع أنَّه من الطبع استعاذ منه فقال: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ (سورة يوسف: ٢٣).

(أصول الدين) وكفر من قال: خلْق شيء لا من شيء محال، وهو قول يوجب التسلسل والتسلسل باطل مناف للقدرة، بل يخلق الله الشيء لا من شيء، ويخلق منه ما يريد.

والمَلَك: جسم عظيم لكن أقدر الله الملائكة على الانطواء، أو له أجزاء أصليَّة قليلة تمثَّل بها وأجزاء فاضلة أسقطها، وإمَّا على أنَّه روحاني فلا إشكال في أنَّه يتصوَّر تارة بهيكل عظيم وتارة بصغير، ولا يقال: إجازة التمثيل يرفع الوثوق بكلِّ ما نراه، فلعلَّه غيره لأنَّا نرى الشيء مستمرًّا، وأيضا يعاد في ذلك إلى نفس التخييل، لعلَّه غير تخييل.

وإسناد الأشياء إلى الاتِّصَالات الفلكيَّة كفر قام الدليل القاطع على بطلانها والعقل، ولو أجاز التخييل لكن بطل بالمشاهدة ودلائل الشرع. وذَكَرَت «الرحمن» مبالغة في الحذر بأن يرحم ضعفها وعجزها عن الدفع، واستجلابا لرحمة الله الدافعة.

وعن ابن عَبَّاس: لَمَّا قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ...﴾ تبسَّم جبريل فقال ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عنه في قوله: **﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ﴾** [كأنَّه قال لها:] ما أنا إلاَّ رسول الذي ملك أمرك ونظر مصلحتك الذي استعذت به، لست من أهل الشرِّ **﴿لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا﴾** لأهب بالهمزة، لأكون سببا وواسطة في هبته لك

بالنفخ في الدرع، أو «ليهب» بالياء فوق الأيمن[1] أي ليهب الله لك، ودعوى أنّ الأصل الهمزة قلبت ياء لكسر ما قبلها تكلُّف بلا داع، مع ما فيه من الإلباس، واللام على كلٍّ حال متعلِّق بـ«رَسُولُ» لأنّه بمعنى مرسل كأنّه قيل: أرسلني لأهب أو ليهب، وإذا صير إلى التقدير فقدِّر: جئت أو أرسلت. و«زَكِيًّا»: ينمو من خير إلى خير فوقه، وتقدَّم تفسيره، فإنّ هذا هو ذاك. ولا دلالة في الآية على نبوءة مريم، لأنّ تكلُّم جبريل لها ليس على طريق النبوءة، وأيضا لم يوح إليها بشرع.

﴿قَالَتَ اَنّـَىٰ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ في حلال، والجملة حال ﴿وَلَمَ اَكُ بَغِيًّا﴾ زانية يمسني بشر في حرام فأحمل منه. واقتصر في سورة آل عمران على ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾(سورة آل عمران:٤٨) فحمل فيها على الحلال والحرام إجمالا، والتفصيل هنا للإجمال هناك، وأجملت هناك لعلمها أنّهم ملائكة، وهنا تخوَّفت من البشر السويِّ.

ويجوز أن يكون المسُّ هنا أيضا شاملا للحلال والحرام، فيكون: ﴿وَلَمَ اَكُ بَغِيًّا﴾ تأكيدا بعطف خاصٍّ على عامٍّ، وذلك من غاية استبعادها للولادة، حتَّى قالت ذلك بعد قوله: ﴿لأَهَبَ...﴾.

(صرف) ولم يقل بغيَّة لأنّ وزنه «فعول» بمعنى «فاعل»، وما كذلك لا يؤنَّث، تقول: امرأة ضروب كما تقول: رجل ضروب. وأصله: «بَغُويٌ» بفتح الموحَّدة وضمِّ الغين وإسكان الواو اجتمعت الواو والياء وسكن السابق منهما، فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء، وكسرت الغين لتسلم الياء، ولم يقل بَغْوٍ بقلب الياء واوا كنهوٍّ في نهوي لأنّ نهو شاذ، وقيل: وزنه «فعيل» بمعنى «فاعل»،

١- في الطبعة العمانية: «الإيمان».

و لم تلحقه التاء حملا على «فعول»، لأنَّ كلاًّ للمبالغة، والمعنى: أنَّها تبغي الرجال للزنى، نفت رضي الله عنها ذلك عن نفسها.

(صرف) وقيل: للمبالغة كطالق وحائض وما كذلك لا يجب تأنيثه، أو لم تلحقه لاختصاصه بالمؤنَّث كالمثالين، والرجل بَاغٍ قيل: «فعيل» بمعنى «مفعول»، وما كذلك لا تلحقه التاء إذا ذكر في اللفظ ما يدلُّ على المؤنَّث، كامرأة كحيل. ومعنى «مفعول» أنَّه يبغيها الرجال للزنى، نفت رضي الله عنها ذلك عن نفسها.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ هذا إبطال للاستبعاد وتقرير للتحقيق، وتقدَّم كلام في مثل هذا، ولا يبعد أن يجعل هنا كذلك مبهما و﴿قَالَ رَبُّكِ...﴾ تفسير له، ويكون الأمر كذلك تصديقا للاستبعاد، أو الأمر كما وعدت تحقيقا له و﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ إبطال للبعد، وتقرير للتحقيق، ومقول القول الثاني هو: ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وإن ردَّ القول لِمَا قبله قدِّر: قال هو عليَّ هيِّن، لأنَّ جبريل لا يقول هو علي هيِّن.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي وفعلنا ذلك أو قضينا ذلك لنجعله آية للناس، أي لنجعل ذلك الفعل أو القضاء أو الغلام، أو وَهْبَ الغلام أو لنجعله آية لها وبرهانا ولنجعله آية للناس كلِّهم، أو المؤمنين كما لابن عبَّاس، يستدلُّون به على كمال قدرتنا، أو لنبيِّن به عظم قدرتنا ولنجعله آية، أو يعطف «لِنَجْعَلَهُ» على «لأَهَبَ» بالهمزة بلا التفات، أو على «لِيَهَبَ» بالياء على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم، وفي الوجهين بعد بين المتعاطفين.

﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة ﴿مِّنَّا﴾ يهتدون بهداه ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ محكما قضي به في الأزل، أو المعنى أنَّه كتب في اللوح، أو اقتضته الحكمة ورحمتنا الواسعة، والجملة تذييل لهبة الولد وما يتعلَّق بها ولجعله آية ورحمة، فاطمأنَّت إلى قول البشر السويِّ، فدنا منها فنفخ في جيبها فدخلت النفخة في جوفها، فكان ما

ذكر الله عَزَّلَ في قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ وقيل: نفخ من بعيد فوصل النفخ جوفها كما روي عن ابن عبَّاس.

(قصص) وقال ابن جريج: في كمها، وقيل: في ذيلها، وقيل: في فيها. وسنُّها: ثلاث عشرة حينئذ، وعن وهب ومجاهد: خمس عشرة، وقيل: ست عشرة، وقيل: أربع عشرة، وقيل: اثنا عشرة، وقيل: عشر، وكان الحمل بعد حيضتين، وقال محمَّد بن الهيصم رئيس الكرامية[1] الهيصمية: لم تحض، كما قيل: إنَّها مطهَّرة البتَّة.

ومدَّة حملها تسعة أشهر، أو نحوها على المعتاد، كما روي عن ابن عبَّاس ومحمَّد الباقر إذ لو خالفت ذلك لذكر في غرائبها المذكورة في السورة، وقيل: ساعة واحدة كما دلَّ له التعقيب على ظاهره، بلا تأويل في قوله: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها.

(نحو) والباء متعلِّق بـ«انتَبَذَتْ» أو بحال محذوفة وجوبا كونا عامًّا أي ثابتة معه، أو جوازا كونا خَاصًّا أي ملتبسة به.

(بلاغة) ويدلُّ أيضا لكونه ساعة أنَّها محلُّ الرحمة مع ذكر الرحمة قبل، ولو طالت المدَّة لطال عتاب الناس لها إن ظهر حملها، ويدلُّ له أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ... ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران: ٥٩) ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ المقتضي للسرعة ولو بقيت طينة آدم مدَّة طويلة.

وعن عطاء وأبي العالية والضحَّاك: حملته سبعة أشهر، قيل: سِتَّة، وشُهر ثمانية

١- الكرامية أتباع أبي عبد الله محمَّد بن كرم، وهم فرق متعدِّدة.

أشهر، و لم يحيى مولود في ثمانية أشهر غيره فذلك من خصوصيَّاته، وقيل: حملته ساعة وصوِّر في ساعة ووضعته في ساعة عند الزوال من يومها، وأقلُّ ما يتحرَّك الولد بعد أربعة أشهر، أو في آخرها، وقيل: بعد ثلاثة أشهر، وقيل: شهران، وهما ثلث أقلِّ الولادة وهو ستَّة أشهر أقلُّ ما يحيا به الجنين، وزعم بعض أنَّ الخلقة تتمُّ في أقلّ من خمسين يوما[1].

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدا من أهلها، لَمَّا أثقلت وجعت وجع الحوامل.

(قصص) وهربت من بيت النبوءة حياء إلى جهة المشرق، وكان قومها يسألون عنها فلا يجدون مخبرا، وكان معها ابن عمٍّ لها يوسف النجار ذهب معها إلى مسجد عند جبل صَهيون، وكانا يخدمان هذا المسجد، ولا أشدَّ عبادة واجتهادًا منهما في زمانهما، وهو أوَّل من علم بحملها وهو عالم بصلاحها لا تغيب عنه، وقال: وقع في قلبي شيء ذكره أشفى لصدري، فقالت: قل قولا جميلا، فقال: هل ينبت بذر بغير زرع؟ وشجرة من غير غيث؟ وولد من غير ذكر؟ فقالت: أنبت الله الزرع يوم خلقه بلا بذر والشجرة بلا غيث أيعجز الله عن ذلك؟ قال: لا، فإنَّ الله يقول للشيء كن فيكون، قالت: والله خلق آدم وحوَّاء بلا ذكر ولا أنثى، فزال همُّه، وناب عنها في خدمة المسجد لضعفها بالحمل والهمِّ.

قيل: أوحى الله عَجَلَّ إليها لَمَّا دنت ولادتها: «اخرجي من أرض قومك لِئَلاَّ يقتلوا ولدك» فحملها يوسف على حماره إلى مصر، وولدت في أهناس من أعمال مصر، وقيل: ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: في دارها، وهو أنسب لقرب مدَّة الحمل.

١- وهذا القول يؤيِّده ما ثبت علميا.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

-٢-

ولادة عيسى وما اقترن بها

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي صيَّرها جائية إليه وهو جاء، دخلت عليه همزة التعدية، جاء بها المخاض إلى جذع النخلة لتستند إليه عند الولادة، ولتستتر به، والمخاض: وجع لتحرُّك الجنين للخروج.

(قصص) و«الـــ» في «النَّخْلَة» للجنس، و لم يعلمها ﷺ ، وقيل: للعهد بأن أراه الله تعالى إيـــاهَا ليلة الإسراء، وهي على أكمة ولا سعف فيها، وقيل: خلقها الله لها حين أشرفت على الولادة، وشاهدت حدوثها، وذلك لتعلم قدرة الله على إيجاد ما شاء، أو رأت جذعا ميِّتا فأحياه الله وأسعفه وأثمره في غير وقت الثمر فتسكن للولادة بلا وجل، وفي ذلك تلويح إلى أنَّ ولدها يحيي القلوب والموتى بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ .

(قصص) كتب بعض ملوك الروم إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : بلغني أنَّ بـــيدك شجرة تخرج ثمرا كأنَّها آذان الحمر، ثمَّ تنشقُّ عن أحسن من اللؤلؤ المنظوم، ثمَّ تخضرُّ فتكون كالزمرّدة ثمَّ تحمرُّ أو تصفرُّ فتكون كشذور الذهب وقطع الياقوت، ثمَّ تينع فتكون كأطيب الفالوذج فتكون قوتا، وتدَّخر مؤونة، فلله درُّها شجرة، وإن صدق هذا الخبر فهذه من شجر الجنَّة، فكتب إليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «قد صدق المخبر

وإنَّها الشجرة التي ولد تحتها المسيح، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ فلا تدع مع الله إلها آخر». ﴿**قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا**﴾ قبل هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت، أو قبل هذا الحمل، أو قبل هذا الوقت وقت الولادة، وقالت ذلك مع علمها بما قال جبريل لنسيانها بالهول، أو استحياء من الناس وخوفا من لومهم ولو تذكّرت قول جبريل.

تمَّنت بالطبع ما لم يقضه الله ﷻ مع جزمها بأنَّه لا يكون ما لم يقض، أو حذرا من أن يعصي الناس بنسبتها إلى الزنى، أو لِمَا روي أنَّها سمعت قائلا: «اخرج من بطنها يا من يُعبد من دون الله» ولا يكره لها هذا لأنَّه خوف معصية وذلك تمنٍّ بعد وقوع الضرر، فلا يدخل في قوله ﷺ : «**لا يتمنَّينَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به** ـــ أي يترل به ـ **فإن كان ولا بدَّ متمنِّيا فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرا لي**»[1]. ولا يصحُّ أن تتمنَّى الموت لشدَّة الوجع.

﴿**وَكُنتُ نِسْيًا**﴾ شيئا حقيرا لا يعتدُّ به حتَّى إنَّ من شأنه أن يُنسى ولو لم ينس ولم يخطر بالبال ﴿**مَّنسِيًّا**﴾ لا يخطر ببال.

(صرف) أصله «مَنْسُويًا» اجتمعت الواو والياء وسكن السابق منهما فقلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء وقلبت الضمَّة كسرة.

﴿**فَنَادَاهَا**﴾ أي عيسى، أي فولدت فناداها بإذن الله ﷻ ﴿**مِن تَحْتِهَا**﴾ قبل تمام خروجه لتحقُّق التحتيَّة أو بعده فالتحتية اعتبار لِمَا قبل التمام، أو لعلوِّ جسدها عليه، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنه : نادها جبريل عليه السلام ، وقرأ: «فنادها ملك»

١- رواه **البخاري** في كتاب الدعوات (٣٠) باب الدعاء بالموت والحياة، رقم ٦٣٤٩. ورواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمنِّي الموت، رقم ٢٦٨٠. من حديث أنس.

فمعنى ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: من تحت الكدية التي ولدت عليها، و لم يحضرها احتراما لها وخوف أن تنكشف عورتها.

[قلت:] فما قيل من أنَّ جبريل تحتها عند الولادة يقبل الولد مما لا ينبغي. قيل: هاء «تَحْتِهَا» للنخلة، وأقسم الحسن البصري أنَّه ما كان هذا وأنَّه ناداها من أرض تحت أرض هي فيها.

﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول دون حروفه لا مَصدَرِيَّة بتقدير الباء، وعلَّل النهي بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ عين ماء كما رواه البخاري[1] ومسلم عن البراء مرفوعا، وفي رواية للبخاري وقفه على أبي سعيد وصحَّح السيوطي أنَّه موقوف، قيل: وهو عين من الأردن أجراه الله عزَّ وجلَّ إليها إذ عطشت.

(قصص) وروي أنَّ جبريل ضرب الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا، فيحتمل أنَّ الله جلَّ جلاله أنبعها من الأردن لضربه، وقال أبو جعفر: نبعت بضرب عيسى عليه السلام، وقيل: العين موجودة من قبل نبَّهها الله إليها، وقيل: عين يابسة أجراها الله تعالى لها، [قلت:] وسياق الآية ومقام الخوارق للعادة يقضيان إحداثها. وسمِّيت العين سريًّا لأنَّ ماءها يسري، وعين الماء يذكَّر ويؤنَّث.

(صرف) و[السريُّ] لامه عن ياء، وقيل: السريُّ عيسى من السرو وهو الرفعة شأنا وقدرا، والسخاء والمروءة، فلامه عن واو قلبت ياء لتقدُّم ياء ساكنة عليها. و«قد» ولفظ الربوبـيَّة لتأكيد التعليل وتكميل التسلية، وفي الإضافة تشريف.

١- انظر: **البخاري**، كتاب الأنبياء (٤٩) باب قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، رقم ٣٢٥٢ عن البراء موقوفا.

(نحو) ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ﴾ زعموا أنَّه لا يعمل الفعل في ضميرين متَّصلين لمسمًّى واحد ولو جرَّ الثاني بالحرف إلاَّ في باب ظنَّ وعلم وفقد وعدم ورأى الحُلمية، قلت: لا مانع من ذلك إذا كان بحرف الجرِّ كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمِ الَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ﴾ (سورة القصص:٣٢) وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٧) وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ (سورة الأحزاب: ٥٩) وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٠) وهو كثير في القرآن [قلت:] **وما كثر لا يحسن منع القياس عليه ولا تأويله**. و لم يجئ في القرآن بلا حرف وهو ممنوع، نحو ضربتَكَ بفتح التاء وضربتُني بضمِّها وزيد ضربَهُ بردِّ المستتر والهاء إلى زيد، فهو متعلّق بـــ«هُزِّي» ولا حاجة إلى تقدير « أعني إليك»، وأيضا إلى في هذه العناية إن علّقت بـــ«هزِّي» محذوف فقد رجعت إلى المحذور ولو قدّر مضافا أي إلى جهتك لكان أولى مع أنَّه لا حاجة إليه.

ولا حاجة إلى جعل «إلى» اسما بمعنى عند، ولا إلى جعلها اسم فعل وعدِّي بـــ«إلى» لتضمُّنه معنى الإمالة، بل لا يحتاج إلى تأويل، ألا ترى صحَّة قولك هزَّه إلى كذا وكأنَّه قيل: حرَّكه إلى كذا، والهزُّ: التحريك إلى أي جهة بعنف أو بلا عنف، والهزُّ إلى جهتها أو يمينا وشمالا فيسقط التمر قدَّامها.

﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الباء صلة للتأكيد، والجذع مفعول به، وإن جعلنا الباء للآلة فالمفعول محذوف تقديره: «هزِّي بجذع النخلة فروعَها، أو قنوانَها»، ولا يحسن «هزِّي ثمارها»، وقد كان يكفي عن هزِّها هزُّ محلِّها، فلا يحسن جعل «رُطَــبًا» مفعولا به لـــ«هُزِّي». ومن خوارق العادة قدرتها على هزِّ جذع النخلة، أو خلقه الله رقيقا ليِّنا، وكون ذلك في غير أوان الرطب خارق آخر، ويروى أنَّ عيسى أو جبريل ضرب الأرض بعقبه فجرت العين اليابسة واخضرَّت النخلة وأثمرت وأينعت.

﴿تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ﴾ تتساقط أدغمت التاء الثانية في السين، والفاعل ضمير النخلة ﴿رُطَبًا﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل، الأصل: « تتساقط عليك رطبها»، وهي نضيج البسر والواحدة رطبة، ومعنى «عَلَى» العلوُّ على قدَّامها، ويحتمل السقوط على رأسها أو حجرها، أو على مطلق جسدها، فذلك بيان لكثرة الثمار الساقطة، وأكّد الكثرة بإسناد السقوط إلى نفس النخلة وأكّدها أيضا بصيغة التفاعل.

﴿جَنِيًّا﴾ تمّ نضجه كلُّها، خرج عن البسر و لم يصل التمر، وكان بحيث يستحقُّ أن يجنى أي يقطف من متعلَّقه، وما يجنى خير مما يسقط في الجملة لأنّه يلتصق بالتراب، وقد تأكل منه نملة وقد يكون قديما، وما قرب عهدا أحسن مما بعد عهده، ولكن جمع الله تبارك وتعالى كونه ساقطا في نظافة ما يجنى، وما مفرده بالتاء هكذا يذكّر ويؤنَّث، ولذا قال: ﴿جَنِيًّا﴾ و لم يقل جنيَّة.

(قصص) وعن ابن عبَّاس: لَمَّا هزَّت الجذع أسعف فأطلع فاخضرَّ فأبلح فاحمرَّ أو اصفرَّ فأزهى فأرطب في ساعة واحدة، وهي تتنظر، وكان بَرْنيا أو عجوة وهو المشهور، وقيل: حملت أيضا الموز و لم يذكر لأنّ غاية النفع للنفساء في الرطب.

(فوائد الرطب) وعن محمَّد الباقر لم تستشف النفساء بمثل الرطب، إنّ الله أطعمه مريم في نفاسها، وقالوا: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل، قيل: ولاسيما إذا عسر نفاسها، وذكروا أنّ التمر للنفساء من ذلك الوقت، وكذا تحنيك الصبي به إذا ولد.

وفي أمرها بالهزِّ إشارة إلى الأمر بالكسب، وإنّه لا ينافي التوكُّل قيل:

ألم تر أنّ الله أوحى لمريم وهزّي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزّه إليها ولكن كلُّ شيء له سبب

[قلت:] والله تعالى عَجَّلَ أجرى الأمور على الأسباب ليكون للخلق فيها مدخل بالكسب، ورجاء وطمع وهروب عن المكروه، وذلك إجراء فيما يكون وما لا يكون، كما في الإمداد بالملائكة بشرط أن يكون كذا، وقد علم الله أنّه لا يكون كذا فلا إمداد، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْـتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ (سورة الأنفال: ٤٢) وقد علم الله تعالى لا تواعد بينهم ولا تخالف.

﴿فَكُلِي﴾ من الرطب **﴿وَاشْرَبِي﴾** من السـرِيِّ، وهذا هو الظاهر، وقيل: اشربي من عصير الرطب وكان في غاية الطراوة، وفيه أنّه لا ذكر في الآية للعصر، وقدِّم ذكر وجود الماء وأحضره لأنّ الماء أشرح للنفس ولا سيما الجاري، والاهتمام به أشدُّ، وهو للتنظيف والشرب معا، وأخَّر الشرب عن الأكل لاعتياد ذلك، وليتَّصل الأكل بلفظ المأكول وهو الرطب. وأمرُها بالأكل والشرب للوجوب بمعنى إنّ الله عَجَّلَ قضى حياتها وحياة ولدها وقوتهما بالأكل والشرب وهو الأصل، وكيف تترك ضيافة الله؟، وقيل: إباحة، وقيل باحتمال الوجوب والندب.

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ هذا أمر للوجوب، لكن ليس على ظاهره لأنّ قرَّة العين ضروريَّة لا كسبيَّة، بل باعتبار ما أريد بها وهو ترك الحزن، كأنّه قيل: اتركي الحزن إلى الانشراح، فلا يتكرَّر مع قوله: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ وهو المراد إلاّ أنّ دمعة الحزن حارَّة والعين حارَّة عنده، ودمعة الفرح باردة بمعنى أنّها ليست حارَّة فعبَّر عنها بالقرِّ وهو البرد، ويجوز تفسير ﴿قَرِّي﴾ بـ«اسكني» عن الاضطراب بالضيق، أَمَرها بالسكون وترك الحزن.

كما روي أنّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿لاَ تَحْزَنِي﴾ فقالت: كيف لا أحزن وأنت معي ولست ذات زوج ولا مملوكة؟ فما عذري عند الناس؟ فقال لها: اسكتي وأتكلّم عنك، كما قال الله عَجَّلَ : **﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾** «إِمَّا»: «إن»

الشرطية و«ما» المؤكّدة. ﴿**فَقُولِي**﴾ له إن كلّمك وأراد جوابا ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ**﴾ وعدت، فالنذر يكون بلا شرط كما يكون الوعد بلا شرط ﴿**لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا**﴾ لا تنتصري لنفسك فتتعبي، أنا أجيب عنك السفهاء.

[قلت:] فيه أنّ السكوت عن السفيه مأمور به مؤكّد حتّى قيل: واجب، وأيضا الله يجيب عنها وأجاب عنها عيسى، وذلك أقوى من أن تجيب هي، أو لَمَّا أذعنت للصمت أنطق الله لها عيسى مجيبا عنها. و﴿صَوْمًا﴾: إمساكا عن الكلام، أو عنه وعن المفطرات.

(**فقه**) وكانوا إذا أرادوا التقرُّب إلى الله تعالى لم يتكلّموا يومهم، أو إلى العشيِّ ولو بلا صوم، ويعدُّون ذلك عبادة عظيمة، وكانوا لا يتكلّمون في صيامهم، **ونسخ في شرعنا فمن نذره لم يجز له الوفاء به،** دخل الصدِّيق ﷺ على امرأة نذرت أن لا تتكلّم فقال: «إنّ الإسلام هدَم هذا فتكلّمي».

[قلت:] ولا دليل على اختصاص مريم به في رواية حارثة بن مضرب، كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلّم أحدهما و لم يسلّم الآخر ثمّ جلسا فقالوا: ما لصاحبك لم يسلّم؟ فقال: نذر صوما لا يكلّم اليوم إنسيًّا، فقال له ابن مسعود: «بئس ما قلت إنّما كانت تلك المرأة ـــ يعني مريم ـــ قالت ذلك ليكون عذرا لها إذا سئلت فكلّم وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر خيرا لك»[1]، وخصّها بالذكر لأنّها التي علم منها ذلك في القرآن.

[قلت:] ولعلّ الرجل أتى قبل الذي سلّم بحيث لا يكفي أحدهما عن الآخر، وإلاّ لم ينتظر منه السلام، وسلام الواحد يكفي عن غيره، أو أرادوا بسلامه مطلق الكلام لَمَّا رأوه ساكتا.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٩٦. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن حارثة بن مضرب.

وتبادر إلى الأفهام أنّها نذرت الصوم من قبل بأمر الله عز وجل، وأنّه أباح الله عز وجل أن تتكلّم بهذا الإخبار ثمّ لا تتكلّم، أو أن تخبر بالإشارة، واستظهره بعض.

وعن الفرّاء: الكلام يصدق بكلّ ما يفهم به إلاّ إذا أكّد بالمصدر فباللسان، نحو كلّمته تكليما لأنّ المجاز لا يؤكّد، وإطلاق الكلام على غير النطق مجاز، وعلى كلّ حال لم يكن هنا إلاّ أمرها بالإخبار بالنذر، وليس فيه إخبار به بل الإخبار به في قوله: ﴿فَأَشَارَت اِلَيْه﴾ فهو بالإشارة ﴿فَلَنُ اكَلِّمَ الْيَوْمَ﴾ كلّ يوم كلّموها فيه، قالت: لن أكلّم اليوم، أو أرادت باليوم كلّ زمان كلّموها فيه ﴿إِنسِيًّا﴾ تأكيدا لنذر الصوم، وزيادة بيان، ويحتمل أنّها نذرت من حين قولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ...﴾ لا أكلّم اليوم إنسيا بل ربّي والملك، أُمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء وللاكتفاء بنصّ عيسى عليه السلام .

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

-٣-

نبوءة عيسى ونطقه وهو في المهد

﴿**فَأَتَتْ به**﴾ معه أو صيّرته آتيا، أي أحضرته ﴿**قَوْمَهَا**﴾ وجملة ﴿**تحْملُهُ،**﴾ حال من المستتر في «أتت» أو من هاء «به». وهذا المجيء بعد أربعين يوما من نفاسها إذ طهرت من النفاس، رواه سعيد بن منصور عن ابن عبّاس.

(قصص) [قيل:] ذهب بها يوسف إلى غار فمكثت فيه أربعين يوما، وقيل: حنَّت إلى الوطن وعلمت أن ستكفى أمرها فلمَّا رآها قومها تباكوا، وهمُّوا برجمها فتكلَّم عيسى فكفُّوا، وقيل: فقدوها من محرابها فسألوا يوسف فقال: لا أدري، ومفتاح محرابها عند زكرياء، وفتح زكرياء الباب فلم توجد، ووبَّخوا يوسف على إهمالها، وقال رجل: رأيتها في موضع كذا فخرجوا إليه، وسمعوا صوت عَقْعَقٍ على رأس الجذع فرأهم فتلقَّتهم بعيسى، وقيل: أرسلوا إليها: احضري بولدك، وقد أخبرهم الشيطان به فجاءهم به.

فكان ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به في قوله: ﴿**قَالُواْ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾ عظيما أو عجيبا كشيء صنع صنعا عظيما من الفرَّاء بتخفيف الراء وهو الجلد، إلاَّ أنَّهم أرادوا هنا عظيما في شرٍّ ﴿**يَآ أُخْتَ هَارُونَ**﴾ نداء متَّصل بما قبل، أو مستأنف لمَا بعد تعظيما لتجديد العتاب.

(قصص) وهارون: رجل صالح، والأُخوَّة دِينيَّةٌ، اتَّبَعَ جنازته أربعون ألف رجل، اسم كلٍّ «هارون» سوى سائر الناس، رواه عبد الرزاق عن قتادة، وعن الكلبي: أخ لها من أمِّها فالأخوَّة دِينيَّة ونَسَبيَّة، وكانوا يسمُّون بأسماء الأنبياء والصالحين، قال المغيرة بن شعبة: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون: ﴿يَآ أُخْتَ هَارُونَ﴾؟ وإنَّ موسى قبل عيسى بألف سنة، فأخبرت بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ألا أخبرتهم أنَّهم كانوا يسمُّون بأسماء الأنبياء والصالحين**». وعلى كلِّ حال شبَّهوها بالرجل الصالح تهكُّما بها كما إذا قلنا أرادوا أخا موسى كما روي عن السدِّي وعليِّ بن أبي طلحة[1]، أو كانت من

١-عليُّ بن طلحة بن كردان: نحويٌّ من أهل واسط، كان متصوِّفا نزيها، قال الحافظ السلفي: «صنَّف كتابا كبيرا في إعراب القرآن يقارب خمسة عشر مجلدا» توفي سنة ٢٣٢هـ.

نسل من هو أخ لموسى فهي واحدة منهم.

أو هارون اسم لذلك النسل لهارون أخي موسى كهاشم وتميم، ولكن لا ينبغي العدول إلى هذا عن حديث المغيرة المتقدِّم الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي والطبراني وابن حبَّان وغيرهم، وقيل: رجل فاسق أضافوها إليه بالأخوَّة في الشرِّ شتما لها.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ شرٍّ كالفسق ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [قلت:] وارتكاب الفحش من أولاد الصالحين أقبح من ارتكاب أولاد غيرهم، وصلاح الأصل يورث الصلاح للفرع أصالة في الجملة أو غالبا.

﴿فَأَشَارَتِ الَيْهِ﴾ إلى الولد أن كلِّموه، فهنا أخبرت بنذرها إشارة لا نطقا فليفسَّر بها قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا﴾ فلا تحاور إنسانا، وقيل: أشارت إلى عيسى أن أجب عنِّي، وقد قال لها في رجوعها من الغار: أبشري فإنَّ الله تعالى يبرِّئك، ويؤيِّد الأوَّل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أنكروا جوابها حتَّى قالوا: استخفافُها بنا إذ ردَّتنا إلى خطاب من في المهد أشدُّ من زناها، قلنا: حاشاها.

(لغة) والمهد: ما يفرش للمولود أو يطوى فيه، وقال قتادة: حِجر أمِّه، وقال عكرمة: مصنوع للولد يعلَّق ويحرَّك له، وقيل: سرير[1].

١- في الطبعة العمانية إضافة، هَذَا نصُّها:

«وإن قلت: كُـلٌّ من كلَّمناه أو نكلِّمه قد كان في المهد صبيًّا فما معنى الآيَـة؟ قلت: معنى ﴿كَانَ﴾: ثبت، والثبوت مستمرٌّ، وَكَأَنَّـهُ قيل: من كان الآن، أي ثبت؛ وإن منعنا عملها عَلَى هَذَا المـَعْنَى فـ«صَبِيًّا» حال، أو كان أمس، أو في زمان قريب إِلَى زماننا هَذَا في المهد صبيـًّا وَاسْتَمَرَّ إِلَى الآن فيه، وَالمـُرَاد: عيسى عليه السلام؛ أو كيف نكلِّم من مضى في المهد صبيًّا قبل ولدك هَذَا، لا يتَصَوَّرُ ذَلِكَ، فكيف يتَصَوَّرُ مع ولدك، فالمراد: غير عيسى عليه السلام. و«نُكَلِّمُ»

﴿قَالَ﴾ وهو ابن يومه، وقيل: ابن أربعين يوما على ما مرَّ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ قيل: كان يرضع فترك الثدي إذ سمع كلامهم واستقبلهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبَّابته فقال: إنِّي عبد الله، وقيل: استنطقه يحيى فأجابه بذلك.

ولو كان ولدا لله ـــ تعالى الله عن الولادة ـــ لم يقل إنِّي عبد الله، والولد لا يكون عبدا لأبـيه، وكان أوَّل ما نطق به إثبات العُبُوديَّة على نفسه لله تعالى نفيا للألوهيَّة عن نفسه، وتباعدا عن أن يتَّخذ إلها وفي نطقه قبل ـــ أو إنَّ النطق مطلقا ـــ إزالة التهمة عن أمِّه، وفي ذكر ما مرَّ عن مريم وذكر صفات عيسى ما دلَّ على براءها، وبقي يتكلَّم بعد ذلك لتأكيد براءها، وقيل: لا حتَّى بلغ أوان الكلام، كما رواه بعض حديثا عنه ﷺ .

﴿ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل، أو إيـّاهُ والتوراةَ والصحف ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيئًا﴾ أي أثبت لي في قضائه أو في اللوح إيتاء الكتاب والنبوءة لأوانهما بعد إذا بلغت أربعين عاما على أنَّه حيي حتَّى بلغ الأربعين، كما قال ﷺ : «**كنت نبيئا وآدم بين الروح والجسد**»[1]، أو الأفعال الماضيات لتحقُّق الوقوع بعدُ فكأنَّه قد وقع ذلك، وقيل: ثبت ذلك في حينه بأن أكمل عقله واستنبأه وآتاه الكتاب وهو طفل، كما روي عن الحسن، وجاء عن أنس أنَّ عيسى درس الإنجيل وأحكمه في بطن

=

للاستمرار، أو زيد «كَانَ» للتأكيد، لا يَدُلُّ عَلَى زمان ولا حدث. و«فِي الْمَهْدِ» صلة، و«صَبِيًّا» من المستتر فيه أو الماضي بمعنى مضارع الحال. و«مَن» في ذَلكَ موصولة أو موصوفة لا تختص الموصولة بما إذا فسِّر بعيسى، والموصوفة بغيره كما قيل. وَكَأَنَّــهُ قيل: فماذا كان بعدُ؟ فأجاب بما في قوله: ﴿قَالَ﴾ وهو ابن يومه...».

١- روى **أحمد** في مسند الشاميين رقم ١٦٥٢٥ حديثا عن عرباض بن سارية يوافقه معنى وهو قوله ﷺ : «إنـِّي عبد الله وخاتم النبـيئين وإنَّ آدم لمنجدل في طينته».

أمه وعن الحسن إنَّه ألهم التوراة في بطن أمِّه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ نفّاعا من صغري كإبراء الأكمه والأبرص وتعليم الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقضاء الحوائج ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَـوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ أمرني أمرا أكيدا كما هو شأن الإيصاء بالشيء بصلاة الركوع والسجود وبزكاة المال على وجه مخصوص في شريعتهم، وقيل الزكاة زكاة الفطر.

وقيل: الصلاة الدعاء والزكاة طهارة النفس من الذنوب والمكاره، وهو مُكَلَّف من حين ولد إذ ولد بالغا عاقلا كما هو ظاهر قوله: ﴿أَوْصَانِي﴾ وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَـيًّا﴾ وكان يعقل عقل الرجال الكمَّل.

وقيل: **أمرني بذلك أن أفعله إذا بلغت أوانه،** قلت: ويبحث في تفسير الزكاة بزكاة المال بأنَّه لا مال للأنبياء وما في أيديهم لله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك لا يورثون، وقد نزَّههم الله عن الدنيا، ولأنَّ الزكاة تطهير للمال وما في أيديهم طاهر. والقول بأنَّ المراد إيجاب الزكاة على أمَّته خلاف الظاهر، أو المراد إيجاب الزكاة عليه إن ملك مالا ﴿مَا دُمْتُ حَـيًّا﴾ معكم في الأرض، وإذا رفعت إلى السماء فلا زكاة مال عليَّ، إذ لا يتصوَّر ملك المال في السماء، وأمَّا الصلاة فكلِّف بها في السماء كما كلِّفت الملائكة بالعبادة.

﴿وَبَرًّا﴾ عطف على «مُبَارَكًا»، ولو فصل لظهور المعنى وارتكاب الإعراب على الفصل لظهوره أولى من تقدير: وجعلني بارًّا ﴿بِوَالِدَتِي﴾ ظاهر في أنَّه لا أب له ولابدَّ من هذا ففيه إشارة إلى براءتها من السوء ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ متكبِّرا ظالما، وقيل: عاقًّا، ويقال: لا تجد العاقَّ إلاَّ جبَّارا شقيًّا، أي لم يقض عليَّ في الأزل واللوح المحفوظ بذلك.

وكان في غاية التواضع يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب، ولم

يتَّخذ مسكنا بالتملُّك ولا بالكراء ولا بالعارية ولا بوجه ما، و لم يضع طوبة على طوبة، ويقول: «سلوني فإنِّي صغير في نفسي ليِّن القلب».

﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَـيًّا﴾ مرَّ مثله. و«الــ» للجنس. وسلَّم على نفسه تعريضا بأنَّه لا سلام على متَّهمي أمِّه من اليهود، بعد ما بـيَّن لهم، كأنَّه قال: السلام عليَّ دونكم وعليكم اللعنة، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّـبَعَ الْهُدَىٰ﴾ (سورة طه: ٤٧).

(فقه) وقبل تبيـين عيسى لا يعاتب من عاتبها أو ظنَّ بلا جزم لمخالفة شأنها للمعتاد، والغيب يعلمه الله خاصَّة لا يكلَّفون بالغيب.

وليست «الــ» للعهد، لأنَّ السلام المتقدِّم ليحيى منقطع لم ندر أنَّ عيسى علم بسلام يحيى حين قال هذا، ولعلَّه علمه لكن لا يدري أنَّ الناس علموا به حتَّى يجيء به على طريق العهد لهم، اللهمَّ إلاَّ على طريق الاستخدام كالضمير في الاستخدام فإنَّ الاستخدام يقع بالضمير والظاهر والإشارة، وما أمكن.

وأيضا يمكن أن يكون كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَذَا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾(سورة البقرة:٢٥) أي مثله، أي مثل سلام يحيى، لكن يعارض ما ذكرت من الانقطاع، وفي حمله على سلام يحيى فوت التعريض به والتلويح إلى أنَّ اليهود عليهم اللعنة لا السلام، إلاَّ أنَّ من الجائز أن يراد العهد والتلويح معا إذ لا مانع من أن يقول: السلام المعهود لي لا شيء منه لهم.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ

يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾

-٤-

اختلاف النصارى في شأن عيسى

﴿ذَٰلِكَ﴾ الموصوف بالنعوت الجليلة المتميِّز عن غيره بها، البعيد المترلة، المترَّل مترلة المشاهَد ﴿عِيسَى﴾ خبر «ذَلِكَ» ﴿ابْنُ مَرْيَـمَ﴾ عطف بيان، أو بدل، أو نعت وعليه الأكثر، أو خبر ثان. وذلك ردٌّ على النصارى، أي ذلك عيسى بن مريم المتَّصف بتلك الصفات: العُبُوديَّة وغيرها، لا بالبنوَّة لله سبحانه، ولا بالألوهيَّة مع الله، ولا بألوهيَّته دون الله.

(بلاغة) وهذا حصر من خارج لأنَّ الحصر بتعريف الطرفين لا يتصوَّر مطلقا على ما رجِّح، بل مع كون المسند بــ«الــ» أو مضافا لِمَا فيه «الــ»، أو مع ضمير الفصل، نحو: زيد هو ابنك، أو القائم هو ابنك.

(نحو) ﴿قَوْلُ الْحَقِّ الذي فيه يَمْتَرُونَ﴾ خبر لمحذوف، أي هو قول الحقِّ، وتناسبه قراءة النصب على أنَّه مفعول مطلق لــ«قَالَ»، من قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ ولو كثر الفصل لأنَّ الفصل من مقول القول، إلاَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَـمَ﴾ فمن قول الله ﷻ، وهو تصديق لتلك المقولات وكأنَّه بعضها، أو مفعول مطلق لمحذوف أي أقول قول الحقِّ، فهو من كلام عيسى، أو من كلام الله، وعلى أنَّه من عيسى ينتهي في ﴿يَمْتَرُونَ﴾ أو في ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ أو مفعول مطلق مؤكِّد لمضمون ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَـمَ﴾ لا حال، لأنَّ لفظه مصدر، ولأنَّه معرفة، فيتكلَّف لذلك بتأويله بمقول وبــأنَّ إضافته لنائب الفاعل، ولا داعي إلى ذلك.

والحقُّ: الصدق، والإضافة للبيان أي قولا هو الحقُّ، وهذا أولى من جعله إضافة موصوف لصفته، أو الحقُّ: الله، من الإضافة للفاعل. و«الذي» نعت القول أو الحقُّ، أو القول هو عيسى والحقُّ: الله، كما يسمَّى عيسى كلمة الله، لقوله تعالى: كن فكان، ومعنى ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكُّون أو يتمارون أي يتنازعون، فقالت اليهود: ساحر، والنصارى: إله أو ابنه، جلَّ الله عن ذلك علوًّا كبيرا.

﴿مَا كَانَ لله أَنْ يَّتَّخذَ منْ وَّلَد﴾ أي ما يليق به ذلك تعالى ﴿سُبْحَانَهُ،﴾ سبَّح الله نفسه عن ذلك تسبيحا، أو أمر الله أن نسبِّحه عن ذلك أي سبِّحوه بكسر الباء تسبيحا ﴿إِذَا قَضىٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُن فَيَكُونُ﴾ بلا علاج ولا كسب في أسرع وقت، ومَن قدرتُه ذلك لا يُتوهَّم له ولد، فإنَّ الولد من أمارات الحاجة، ومن شأن ما يلد أن يموت، والله لا يموت، وهذا وما قبله تبكيت للنصارى وقد صحَّ عندهم أنَّه يعبد الله ويأمر بعبادته، فهو عبد لله تعالى لا إله.

﴿وَأَنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ تقدَّر اللام قبل «أَنَّ» وتعلَّق بـ«اعْبُدُوهُ» على أنَّ الفاء زائدة لتأكيد الربط، أي اعبدوه لأنَّه ربِّي وربُّكم، ولَمَّا قدَّم أظهر لفظ الجلالة كقوله تعالى: ﴿وأَنَّ الْمَسَاجدَ لله فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَدًا﴾(سورة الجن: ١٨) إذا قلنا: المعنى لا تدعوا مع الله لأنَّ المساجد لله، وذلك قول الخليل وسيبويه.

أو يقدَّر العطف على الصلاة، أي وأوصاني بالصلاة والزكاة وبأنَّ الله ربِّي وربُّكم، أو خبر لمحذوف، أي والأمر: إنَّ الله ربِّي وربُّكم، ولا يصحُّ العطف على «أَمْرًا» لأنَّه يكون المعنى: إذا قضى أمرا وأنَّ الله ربِّي وربُّكم فإنَّما يقول له كن فيكون، لأنَّ كون الله ربًّا غير حادث ولا محدث بكن بل قديم، ويضعف عطفه على «الكتاب» على معنى آتاني الله أنَّه ربِّي وربُّكم ﴿هَذَا﴾ أي ما ذكر من التوحيد ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضلُّ صاحبه ولا شدَّة فيه.

﴿فَاخْتَلَفَ الاَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ ما ذكر من مدح عيسى سبب لمبالغة من بالغ وجاوز الحدَّ، وتقصير من قصَّر حتَّى كذَّب به، كما دلَّت الفاء، فصار ما هو سبب للاتِّفاق سببا للاختلاف بين الأحزاب، قيل: هم المسلمون وهم قالوا بما قال الله عَزَّ وَجَلَّ، واليهود والنصارى ومشركو العرب.

والهاء للأحزاب كذَّبته اليهود وبهتوه وعادوه حتَّى عملوا في أن يقتلوه، وقال نسطور من النصارى بعد رفعه: هو ابن الله أظهره ثمَّ رفعه، وقال يعقوب: هو الله هبط ثمَّ صعد، وقال ملكان: هو عبد الله ونبيئه، وقال أتباعه بعده: عيسى ناسوت قديم أزليٌّ ولدته مريم، والصلب والقتل وقع على الناسوت، ومن قال هو إله قال: وقع القتل والصلب على الناسوت. ويحكى عن أتباع ملكان أنَّ المسيح ناسوت كلِّيٌّ لا جزئيٌّ، وأنَّه قديم وقد ولدت مريم إلها قديما أزليًّا، وأنَّ القتل والصلب وقعا على الناسوت واللاهوت معا، وقال مشركو العرب بعدم تصديق أنَّ ما في القرآن من الله عَزَّ وَجَلَّ، ومنهم من تنصَّر ومن تهوَّد.

وقيل: ﴿الاَحْزَابُ﴾ اليهود والنصارى لأنَّهم قوم عيسى، وفيهم ولد ونشأ لأنَّه إسرائيلي كما أنَّ اليهود والنصارى إسرائيليون ثمَّ دخل في دين النصارى غير الإسرائيليين، ومن كان منهم غير إسرائيلي أكثر، وأهل الكتاب شهروا به ما بين معاد ومسالم، فهم المراد بالأحزاب، ومن النصارى من قال بقول المسلمين ولم يخالطه بكفر وهم قليل، وقيل: الأحزاب اليهود والنصارى ومشركو العرب، ويدلُّ لعدم دخول المسلمين في الأحزاب لأنَّ معنى ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾: أنَّهم اختلفوا اختلافا صادرا من أنفسهم، أو ثابتا منها، ومخالفة المسلمين لهم لمتابعة كلام الله سبحانه لا تبع لأنفسهم.

(نحو) و«مِنْ» للابتداء، وأجاز أبو حيَّان زيادتها تأكيدا، وأجاز أن تكون للتعليل على أنَّ معنى ﴿بَيْنِهِمْ﴾ انفصالهم عن الحقِّ، وعلى زيادتها

جاز دخول المسلمين ومن قال كقولهم، ويناسبه قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلذِينَ كَفَرُواْ**﴾ تحرُّزا عن المسلمين ومن قال مثلهم لا ويل لهم، فلو أريد بالأحزاب المشركون اليهود وغيرهم لقال: فويل لهم، إلاَّ أن يقال: ذكرهم باسم الكفر تقبيحا وتصريحا بسبب الويل، ومن قال بقول المسلمين وكفر بأمر آخر فويله ليس من جانب عيسى، ويجوز دخول المسلمين ومثلهم فيقدَّر: فويل للذين كفروا منهم أي من الأحزاب.

﴿**مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ «مِنْ» بمعنى في، والإضافة للبيان، و﴿مَشْهَدِ﴾: زمان الشهادة وهو يوم القيامة، أو «مِنْ» للتعليل، أو ﴿مَشْهَدِ﴾: نفس الشهادة، أو مكان الشهود في يوم عظيم، أو مشهود به في حقِّ عيسى وأمِّه من السوء، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنَ افْوَاهِهِمْ﴾ (سورة الكهف:٥) وعلى كلِّ حال أضيف ليوم القيامة لأنَّه يوم الهول تشهده الملائكة والأنبياء، وتنطق فيه ألسنتهم وجوارحهم، ويضعف تفسير ذلك بوقت قتل المسلمين الكُفَّار وليس وقتا واحدا.

﴿**اَسْمِعْ بِهِمْ**﴾ الباء صلة والهاء فاعل لـ«أَسْمِعْ» بمعنى سُمُعوا بضمِّ الميم أي اشتدَّ سمعهم، ولَمَّا كان بصورة الأمر جرَّ بالباء ﴿**وَأَبْصِرْ**﴾ حذف الفاعل لأنَّه بصورة الفَضْلَة المجرورة بالحرف، نحو مررت بزيد والأصل: وأبصر بهم ﴿**يَوْمَ يَاتُونَنَا**﴾ ببعثنا إيَّاهُم للحساب، يكونون أَشَدَّ ما يسمعون ويبصرون بعد أن كانوا في الدنيا كالصمِّ والعمي، وذلك تعجيب للمسلمين وتهديد للكافرين.

وقيل: «أَسْمِعْ» و«أَبْصِرْ» فعلاَ أمرٍ، وفاعلاهما مستتر، والباء صلة في المفعول به، وعلى هذا فـ«يَوْمَ» ليس ظرفا بل مفعول، أي صيِّرهم سامعين الآن مبصرين وعيد ذلك اليوم، أخبرهم به يا مُحَمَّد إخبارا عظيما فإنَّه يوم قاطع لقلوبهم مُسَوِّد لوجوههم، ويناسبه الاستدراك في قوله سبحانه:

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي لكن لا ينفعهم إخبارك إذ هم في الضلال، أو الاستدراك متعلّق بقوله: ﴿فَوَيْلٌ...﴾ أو بالتعجيب و لم يقل: لكنّهم تصريحا بأنّهم ظلموا أنفسهم والمسلمين بكفرهم، والمراد باليوم الدنيا، ونكّر الضلال للتعظيم، أي ضلال عظيم لا تدرك غايته بهدى لإهمالهم أسماعهم وأبصارهم بالكلّيــّة.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ الهاء للظالمين المذكورين، أو للناس الكُفّار لقوله: ﴿وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ على أنّ الظالمين ليسوا من ذُكر قبلُ بل عامٌّ، وعلى عمومه صحَّ الاستدراك لدخول من ذكر فيه دخولا أوّليًّا.

ويوم الحسرة يوم القيامة يتحسَّر فيه المسيء لإساءته، والمحسن لعدم زيادة الإحسان كما هو حديث مرفوع، ويتحسَّر الكفّار على منازلهم في الجـَنـّة ضيّعوها للمؤمنين، وحين يقال لهم: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨) وحين يقال: ﴿وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة يس: ٥٩) وحين إذ برزت النار ورمت بشررها، وحين يأخذون كتبهم بشمائلهم، وحين يظهر الموت لهم في صورة كبش أملح فينادى أهل الجنَّة وأهل النار فيعرفونه فيذبح وهم ينظرون، وينادي ملك: يا أهل الجنَّة ويا أهل النار خلود لا موت، كما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ[1].

وهذا تمثيل لا تحقيق لأنّ الموت عرض لا جسم، وقد يقال: الله قادر أن يخلق من العرض جسما كما يخلق شيئا من شيء، وشيئا من لا شيء، قال أبو

١- رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن (١) باب قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة} رقم ٤٧٣٠. ورواه **مسلم** في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (١٣) باب النار يدخلها الجبارون والجنَّة يدخلها الضعفاء رقم ٢٨٤٩. ورواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنة (٢٠) باب ما جاء في خلود أهل الجنة رقم ٢٥٥٨. من حديث أبي سعيد الخدري.

سعيد الخدري: لو أنَّ أحدا مات فرحا لمات أهل الجنَّة من الفرح بذبح الموت، ولو أنَّ أحدا مات حزنا لمات أهل النار من الحزن بذبحه، وقيل: ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم الموت، و«إِذْ قُضِيَ الاَمْرُ» بدل من «يَوْمَ الْحَسْرَةِ»، أو متعلِّق بـ«الْحَسْرَةِ». وقضاء الأمر: إظهار شأن الشقاوة والسعادة، ويضعف تفسيره بسدِّ باب التوبة.

﴿**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُومِنُونَ**﴾ الجملة الأولى حال من المستتر في قوله: ﴿فِي ضَلاَلٍ﴾ أو من هاء «أَنذِرْهُمْ». ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (سورة يس:٦) أو معطوفة على قوله: ﴿الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلاَلٍ﴾ والثانية معطوفة على الأولى، أو حال من المستتر في قوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الاَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا**﴾ لا يبقى فيها مُلك لأحد لموت من فيها كلِّهم، وتبقى الأرض ومن عليها، والمراد بمن عليها: العقلاء وغيرهم ﴿**وَإِلَيْنَا**﴾ لا إلى غيرنا وحده، ولا إليه معنا ﴿**يُرْجَعُونَ**﴾ بالبعث وللجزاء.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَاتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيَ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ انتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا

نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

قصّة إبراهيم السَّلام عليه

مناقشته لأبيه في عبادة الأصنام

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمَّد لقومك [العابدين للجماد](1)، فإنَّهم أضلُّ ممن يعبد عيسى، والآية مناسبة لمَا قبلها في عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، عطف على «أَنذرْ» أو «اذْكُرْ» ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن أو السورة، والصحيح الأوَّل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ قصَّته كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الشعراء:٦٩) ونسبة الذكر إلى رسول الله ﷺ حقيقة لأنَّ من نطق بكلام غيره هو متكلِّم به وذاكر له، أمره الله بذكر ما ذكره الله وهو قصَّة إبراهيم لأنَّهم ينتمون إليه، فلعلَّهم يتَّعظون، وسواء في هذا عطف على «أنذر» أو على «اذكر»، ولا يختصُّ بالعطف على «أنذر» ﴿إِنَّهُ، كَانَ صِدِّيقًا﴾ عظيم الصدق في كلِّ فرد من أفراد الصدق وكثير أفراد الصدق، وما كذب قطُّ، والأنبياء كلُّهم كذلك.

وليس من التصديق لكتب الله ووحيه كما زعم بعض أنَّ الصدِّيق من صدَّق الله في وَحدَانيــتّه، وصدَّق أنبياءه ورسله، وصدَّق بالبعث وقام بالأوامر وعمل بها، لأنَّ هذا من الرباعي، وصدِّيق من الثلاثي، ولا يكون فعِّيل بشدِّ العين من فعَّل بشدِّها اللهمَّ إلاَّ أن يقال: لَمَّا كثر تصديقه وعظم لزم منه أنَّه كثير الصدق وعظيمه، لأنَّه يذكر للناس ما صدَّق به وهو صادق في ذكره لهم، والصدِّيق: من صدق في قوله واعتقاده وحقَّق صدقه بفعله، ورُتْبَةُ الصدِّيقيَّة قريــبة من النبوءة، فقال: ﴿نَبِــيئًا﴾ خبر ثان مخصِّص للأوَّل لأنَّ الصدِّيق قد

١- ما بــين معقوفين إضافة من الطبعة العمانية.

يكون غير نبيء، أو نعت «صدِّيقًا».

(نحو) ﴿اِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ بدل اشتمال من «إِبْرَاهِيمَ» اعترض بينهما بجملة تعليليَّة، وذلك من خروج «إِذْ» على الظرفيَّة كما خرجت عنها بالإضافة إليها في «يومئذ» و«حينئذ»، أو متعلِّقة بـ«كَانَ» لأنَّ الصحيح جواز التعليق بـ«كَانَ» التي لها خبر، وأنَّها تدلُّ على الحدث ولو شهر منع ذلك، وقيل: متعلِّق بـ«نَبِيئًا» وفيه أنَّه يلزم أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جعله نبيئا حين القول لأبيه ويجاب بأنَّه يطلق الوقت على ما قبله وما بعده مما يليه، فإذا وقع شيء في شهر مثلا صحَّ إطلاق أنَّه وقع فيه مع أنَّه وقع في جزء منه، وكذا البحث والجواب إذا علِّق بـ«صدِّيقا».

﴿يَآ أَبَتِ﴾ التاء عوض عن ياء المتكلِّم. وأبوه: آزر، وهو ظاهر القرآن، وقيل: هو عمُّه، ويصحِّح أنَّه أبوه ظاهر ما رواه أبو نعيم والديلمي عن أنس عن رسول الله ﷺ : «**حقُّ الوالد على ولده أن لا يسمِّيه إلاَّ بما سمَّى به إبراهيم أباه «يا أبت» ولا يسمِّيه باسمه**»[1].

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ﴾ ثناءَك عليه ولا صوتك بالخضوع إليه ولا صوتا ما من الأصوات ﴿وَلاَ يُبْصِرُ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه ولا شيئا مَّا من الأشياء ﴿وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ أي إغناء مَّا، أو لا يدفع عنك شيئا ولا يفيدك شيئا، والجماد من شأنه أن يكون نسْيًا مطروحا إلاَّ إذا احتيج أن ينتفع به فعل به بلا احترام له، فكيف يحترم غاية الاحترام ويعبد وهو دون عابده؟ مع أنَّ العاقل المميِّز القادر على النفع والضرِّ بإذن الله سبحانه لا يستحقُّ العبادة، لأنَّه محتاج ليس بخالق ولا رازق، ولا محيي ولا مميت، ولا مثيب ولا معاقب، وذلك

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٩٦، وقال: أخرجه أبو نعيم والديلمي عن أنس.

حجَّة عَقليــَّة.

واحتجَّ بالنقليَّة في قوله: ﴿**يَآ أَبَت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ**﴾ متعلِّق بــ«جَاءَ»، و«مِنْ» للابتداء، أو حال من «مَا» و«مِنْ» للتبعيض من قوله ﴿**مَا لَمْ يَاتِكَ**﴾ استماله برفق إذ لم يسمِّه بجاهل ولا نفسه بعالم ﴿**فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ مستقيما سهلا لا يضلُّ سالكه، موصلا إلى أسنى المطالب منجِّيا من المعاطب، وهو ما أوحى الله إليه من التَّوحيد والعمل بما يجب، وترك ما يحرم والوعد والوعيد، وإن كان ذلك قبل الوحي إليه صحَّ أيضا لأنَّه على دين الله قبله أيضا، ثمَّ حذَّره بأنَّ عبادة الأصنام التي تعبدها عبادة للشيطان لأمره بها، وهو عدو لله الذي منه النعم كلُّها المسمَّى الرحمن، أي المنعم، أفلا تخاف أن يسلبها عنك؟ فقال: ﴿**يَآ أَبَت لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا**﴾ «فعيل» للمبالغة، أو «فعول» أدغمت واوه في يائه وكسر ما قبلها، وأراد عصيانه على الإطلاق أو عصيانه بترك السجود لآدم تذكيرا له بعداوة أبيه، فيجتنب مصادقة من هو لأبيه عدوٌّ كما رسم في القلوب.

ثمَّ صرَّح له بالتحذير من أن يعاقبه الله على مصادقة عدوِّه وقال: ﴿**يَآ أَبَت إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يَّمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾ والخوف هنا العلم، عبَّر به مجاملة له واستنزالا، أو على ظاهره إذ لا جزم له بأَنــَّهُ يصيبه عذاب الدنيا ولا بأن يصيبه عذاب الآخرة لإمكان أن يؤمن. ونكَّر العذاب للتعظيم أو للتقليل تلويحا بأنَّه لا طاقة له على قليل منه.

(بلاغة) وذكر الرحمن مع أنَّ الرحمة تستدعي عدم العذاب لأنَّه المذكور قبل، وللإطماع بأنَّ الرحمة باقية له على كلِّ حال، ما لم يمت مصرًّا، ولأنَّ العقوبة من الكريم أشدُّ لأنَّ فيها اعتبار جحود نعمه وإلغائها، وللإشارة بأنَّ كونه رحيما لا يؤمن عذابه، وإلى أنَّ العذاب ليس انتقاما لشيء ضرَّه إذ لا

يضرُّه شيء، بل حكمة وبأنَّ الرحمة سبقت الغضب.

ولا دلالة للمسِّ [المذكور] على تقليل العذاب لقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال:٦٨) ومعنى كونه وليًّا للشيطان أنَّهما يقرنان في العذاب، وفي هذا تغليظ عليه بعدما ألان وهو من نفس الرحمة، لأنَّ المراد إنزجاره عَمَّا يضرُّ إلى ما ينفع قال بعض:

فَقَسَا لِيزْدَجِرُواْ وَمَن يَكُ حازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا على من يَرحَمُ

وفي قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ حجَّة عَقليَّة، وفي قوله: ﴿يَآ أَبَتِ﴾ تحبُّب وترغيب في التوحيد، وتمهيد للانتباه، نبَّهه أوَّلا على ما يمنع من عبادة الأصنام، ثمَّ أمره باتِّباعه في الإيمان، ثمَّ بأنَّ طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، وختم الكلام بالوعيد الزاجر.

وكأنَّه قيل: فما حال أبيه بعد ذلك الوعظ العظيم الطويل؟ فقال الله عزَّ وجلَّ: **﴿قَالَ﴾** أبوه مصرًّا مقابلا لاستعطافه بالغلظة **﴿أَرَاغِبٌ اَنتَ عَنَ ـ الِهَتِي يَآ إِبْراهِيمُ﴾**.

(نحو) «رَاغِبٌ» مبتدأ و«أَنْتَ» فاعله أغنى عن خبره لتقدُّم الاستفهام، وهو هنا توبيخي تعجُّبي، و«عَنَ ـ الِهَتِي» متعلِّق بـ«رَاغِبٌ» ولا يضرُّ الفصل بـ«أَنْتَ»، لأنَّه فاعل كما يفصل الفاعل الفعل عن المفعول وهو الأصل، ولو أغنى عن الخبر، أو «رَاغِبٌ» خبر و«أَنْتَ» مبتدأ ولا يضرُّ فصل «أَنْتَ» لأنَّ «رَاغِبٌ» في رتبة التأخير عن «أَنْتَ»، والأصل: أأنت راغب عن آلهتي ؟ .

(نحو) [قلت:] ومن التخليط تقدير لفظ «راغب» آخر بعد «أَنْتَ» يفسِّره المذكور تحرُّزا عن هذا الفصل، بل المبتدأ ليس أجنبيًّا من الخبر من كلِّ وَجْهٍ، ولا سيما أنَّ المفصول الجارُّ والمجرور وهم يتوسَّعون فيهما وفي سائر

الظروف، وليس في جعل «أَنْتَ» مبتدأ إلباس بالفاعل بل اللفظ إجمال، إذ في كلّ وجه خلاف الأصل الرفع بالوصف لما يغني عن الخبر خلاف الأصل، وكونه خبرا مقدَّما خلاف الأصل، بخلاف «قام زيد» لو جعل «قام» خبرا مقدَّما فإنَّه إلباس بالفاعل، وعلى كلّ حال جعل «رَاغِبٌ» تاليا للهمزة لأنّ محطّ التوبيخ والتعجُّب بالذّات الرغبة عن الآلهة وراغب للحال أو للماضي المستمرّ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن الرغبة عن آلهتي وعن النهي عن عبادتها وعن الدعوة إلى ما دعوتني إليه، أقسم بآلهته لا بالله لأنَّه لم يؤمن إلاَّ إن آمن به وعبد غيره ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة عند الحسن، وبشتم اللسان عند ابن عبَّاس والسدِّي والضحَّاك وابن جريج ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عطف على «لأرجمنَّك» عطف إنشاء على إخبار، أجاز سيبويه ذلك وعكسه، وفي ذلك جعل جواب القسم غير الاستعطافي إنشاء وهو لا يجوز، والمعطوف على الجواب جواب، أو العطف على محذوف تقديره: احذرني واهجرني. ﴿مَلِيًّا﴾ زمانا طويلا عند الحسن ومجاهد وجماعة ورواية عن ابن عبَّاس، وأبدا عن السدِّي، وكأنَّه تفسير بالمراد، وهو منصوب على الظرفـيَّة كما رأيت، أو مفعول مطلق أي هجرا مليـّا أي طويلا، وعن ابن عبَّاس: ﴿مَلِيًّا﴾ سالما قادرا على الذهاب قبل أن أثخنك بالضرب فلا تطيق التنقّل، فهو حال.

﴿قَالَ﴾ كأنَّه جواب سؤال عَمَّا قال إبراهيم ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكَ﴾ سلام موادعة ومقابلة السيِّئة بالحسنة، أي لا يصيبك منِّي ما يؤذيك من دعاء إلى الخير إذ لم تقبل منّـي، كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة القصص: ٥٥) إلاَّ أنَّه هنا ما ذَكَرَ الجهل.

(فقه) وقيل: تحيَّة مفارقة بناء على جواز أن يبدأ المسلم الكافر بالسلام وهو مذهب سفيان بن عيينة، مستدلاًّ بقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ لَمْ

يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (سورة الممتحنة: ٨) وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ، إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية (سورة الممتحنة: ٤) ويردُّه أنَّ ذلك مقيَّد بما في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : «**لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام**»[1]، وقد يخالف شرع إبراهيم في هذا شرعنا. ﴿**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي**﴾ أن يوفِّقك إلى التوبة، ووفَّى بهذا الوعد بعدُ كما قال الله عزّ وجلّ عنه: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِيَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ﴾ (سورة الشعراء: ٨٦) ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ (سورة التوبة: ١١٤) أي وعدها لأبيه، لا كما قيل وعدها أبوه له أن يؤمن بالله.

(أصول الدين) والاستغفار: بمعنى طلب الهداية، ولَمَّا تبيَّن له أنَّه قضى الله أن لا يؤمن وجب عليه أن لا يطلب له الهداية، إلاَّ أنَّه إذا كان الاستغفار بمعنى طلب الهداية فهو جائز لكلِّ فاسق أو مشرك ما لم يمت أو يجئ الوحي أنَّه لا يؤمن لأحاديث: «**اللهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون**»[2] ومشهور مذهبنا في المغاربة منع ذلك، وقد يكون الاستغفار على ظاهره مبنيا على اشتراط الإسلام، مثل أن يقول: اللهمَّ اغفر له على أن يتوب.

(أصول الدين) وأمَّا أن تقول فيمن ظهر لك موجب ولايته: اللهمَّ اغفر له إن كان سعيدا، أو موجب براءته اللهمَّ العنه إن كان شقيًّا فلا يجوز على المشهور، بل تتولَّ أو تتبرَّأ بلا اشتراط لذلك، وَاتَّفَقُوا على أن لا اشتراط في

١- رواه **مسلم** في كتاب السلام (٤) باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام... رقم ٢١٦٧، من حديث أبي هريرة مع زيادة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء (٦٣) باب حديث الغار، رقم٣٤٦٥. **ومسلم** في كتاب الجهاد والسير (٣٧) باب غزوة أحد، رقم ١٧٩٢. بلفظ «اغفر لقومي» عوض «اهد قومي». من حديث ابن مسعود.

المنصوص عليه، [قلت:] والصحيح أن لا يستغفر لمشرك مطلقا إلاّ إن جاء الوحي أنَّه سيؤمن، وكلٌّ من علمت بشركه فقد تبيَّن لك أنَّه من أصحاب الجحيم بحسب الظاهر لك، ولا تُكَلَّف الغيب.

﴿إِنَّهُ، كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ عظيم البرِّ والإكرام لي وكثيره، والجملة تعليل لما قبلها، و«بِي» متعلِّق بـ«حَفِيًّا» قدِّم للفاصلة والاهتمام الذي علمه الله من إبراهيم، ولا يخفى ما في كلام إبراهيم من الرحمة، كما هو شأن الأنبياء كلِّهم، وخصوصا للأقارب وخصوصا من الأقارب الأبوين أداءً لبعض حقوقهما كما هنا، وإن كان عمًّا فالعمُّ كالأب.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ عطف على «أَسْتَغْفِرُ» فالسين مسلَّطة عليه أيضا كما سلِّطت على «أَسْتَغْفِرُ» أو عطف على «سَأَسْتَغْفِرُ» فلا معنى للسين فيه، والاعتزال بالبدن، بمعنى: أتباعد عنك وعن قومك، وإن قلنا: الاعتزال بالقلب والاعتقاد على خلاف الظاهر فلا يعطف على مدخول السين، لأنَّ اعتزاله بذلك غير مستقبل بل ماض مستمر، أخبرهم بحاله، إلاَّ أنَّ الظاهر بالبدن فقد هاجر إذ لم تؤثِّر فيهم نصائحه من أرضه «كوثى» إلى «الشام»، أو إلى «حرَّان»، وفي هجرته هذه تزوَّج سارة ولقي الجبَّار وأعطاه هاجر لخدمة سارة.

﴿وَمَا تَدْعُونَ من دُون اللهِ﴾ عطف على الكاف ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أعبده وحده، عبَّر بالدعاء أوَّلا لمناسبة قوله: ﴿أَرَاغِبٌ اَنتَ...﴾ مع قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ...﴾ وثانيا بالدعاء لأنَّه أظهر في الإقبال المقابل للاعتزال، أو أراد مطلق الدعاء في مصالحه الدِّينيَّة وَالدُّنيَوِيَّة، أو في هبة الحكم والإلحاق بالصالحين، كما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٨٣) وفي طلب الولد كما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٠٠) أو كلٌّ ذلك.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ خائبا ضائع السعي تعريضا بهم إذ خابوا وضاع سعيهم في عبادة غير الله، و«عَسَى» تواضع ومراعاة للأدب، وتلويح بأنّ إجابة الدعاء وقبول السعي تفضُّلٌ من الله لا واجب على الله، وإنّ العبرة بالخاتمة والغيب لله عز وجل .

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ من دُون الله﴾ كما وعد ﴿وَهَبْنَا لَهُ، إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بعد الاعتزال بمدَّة بدلا من مفارقة أبيه وقومه، وأقاربه الكفرة، وهب الله له تعالى أوَّلا إسماعيل لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (سورة الصافات: ١٠١) بعد قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٠٠) وكان من هاجر فغارت سارة فحملت بإسحاق عليه السلام وَلَمَّا كبر ولد له يعقوب، وذكرهما الله بعد ذكر الاعتزال لأنّ أكثر الأنبياء منهما وهما شجرتان للأنبياء وذوي شرف شأن والجنود الكثيرة، وذكر إسماعيل على الانفراد.

وروي أنّه أتى حرَّان وتزوَّج سارة وولدت له إسحاق وولد لإسحاق يعقوب وبعد ولادة إسحاق ولد إسماعيل والمشهور الأوَّل وهو أظهر وأقرب.

﴿وَكُلاًّ﴾ من إسحاق ويعقوب أو منهما ومن إبراهيم، وعليه لا يظهر أنّ إبراهيم نبيء قبل الاعتزال. وقدَّم «كُلاًّ» للفاصلة ـــ وهو مفعول أوَّل ـــ وللحصر. إنَّما جعلنا نبيئا كلاًّ منهما أو منهم لا بعضا فقط ﴿جَعَلْنَا نَبِيئًا﴾ ويدلُّ على إرادة إبراهيم في «كُلاًّ» ضمير الجمع في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ إذ لم يقل: «لهما»، لكن لا مانع من إرادته بلا إدخال في «كلاًّ» لأنّ المقام له عليه السلام . والرحمة هنا المال والأولاد والصحف، وكلُّ خير دينيٍّ أو دنيويٍّ.

وحذف مفعول «وهب» للعموم والكثرة، أي وهبنا لهم شيئا كثيرا من رحمتنا، أو وهبنا لهم المال والأولاد...الخ من جملة رحمتنا الواسعة. وعن الحسن:

النبوءة، وعليه فإنَّما أعاد ذكرها بعد قوله: ﴿نَبِيئًا﴾ ليـبـيِّن أنَّها من الرحمة الموهوبة المخصوص بها من يشاء.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي ذكرا شريفا بخير، عبَّر عنه بآلته وهو اللسان كما يعبَّر باليد عن العطية، لأنَّ اليد آلتها، وأضاف الصدق ونعته بـ«عليًّا» تعظيما لما يمدحون في الأقاليم والأعصار المتطاولة، وفي جميع الدول والملل، كأنَّه نار على علم، ولا يفسَّر بقوله ﷺ : «**كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**»[1] فقط. وفي ذلك إجابة لقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الاَخِرِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٨٤).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيئًا ۝٥١ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيئًا ۝٥٣﴾

قصَّة موسى عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ قدَّمه على إسماعيل لِئَلاَّ ينفصل عن ذكر جدَّيه يعقوب وإسحاق، وليستعجل ما يجلب أهل الكتاب، بعد ذكر ما فيه جلب العرب وهو إبراهيم وشأنه، وقيل: إسماعيل الآتي غير ابن إبراهيم ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ يعبد الله وحده عبادة خالصة عن الشرك والرياء وكلِّ ما ينقصها، أو لا اشتغال له بغير الله جَلَّ جَلَالُهُ .

١-رواه **الربيع** في كتاب الأذكار (٢٣) باب التسبيح والصلاة على سورل الله ﷺ في حديث طويل. ورواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب، رقم ٣٢٢٠، من حديث أبي مسعود الأنصاري.

﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ قدَّم رسولا مع أنَّه أخصُّ للفاصلة، كلُّ رسول نبيء وليس كلُّ نبيء رسولا، أو لاعتبار أنَّه أعمُّ من النبيء لأنَّ الرسالة تكون بنبوءة وتكون بهديَّة ووصيَّة وإخبار وغير ذلك، أو اعتبر نبيئا بمعنى مخبرٌ أو مخبَر وذلك غير مفهوم الرسالة، أو هو بمعنى الطريق، كما قال الكسائي: النبيء الطريق، والأنبياء عليهم السلام طرق الهدى، أو باعتبار أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أرسله إلى الخلق فأنبأهم، أو المراد معنياهما اللغويان، وتوزع تلك المعاني على لفظ نبيء في هذه الفواصل، فيفسَّر كلٌّ بغير ما فسِّر به الآخر، أو قصد بتكريرها ما قصد بتكرير ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الاَيْمَنِ﴾ نعت لـ«جَانِبِ» بدليل أنَّه لَمَّا نصب «جَانِبَ» في الآية الأخرى نصب، وذلك هو الناحية التي تلي يمين موسى، لأنَّ الطور وهو الجبل المعروف بين مصر ومدين لا يمين له ولا يسار، ويجوز أن يكون اليمين من اليمن وهو البركة، وهو نعت لـ«جَانِبَ» لا لـ«الطُّورِ»، ولا دليل على أنَّه نعت له، وأنَّ النصب في الآية الأخرى على القطع.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ تقريب تشريف كما يقرِّب السلطان رجلا يختصُّ به للمناجاة، وهي المسارَّة والإخفاء عن الغير. و«نَجِيًّا» «فعيل» بمعنى «مفاعل» بضمِّ الميم كجليس بمعنى مجالس، ونديم بمعنى منادم؛ وهو حال من هاء «قَرَّبْنَاهُ» أو هاء «نَادَيْنَاهُ» ووجه الأوَّل أنَّه متَّصل بـ«قَرَّبْنَاهُ» ووجه الثاني أن يعتبر أنَّ العمدة النداء وذكر التقريب تبع له، والأوَّل أولى، وقيل: «نَجِيًّا» مترفعا من النجوة.

(قصص) روى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير والحاكم وصححه وغيره، عن ابن عبَّاس أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أردف موسى حتَّى سمع صرير القلم والتوراة تكتب له، أي كتابة ثانية لأنَّ في الحديث الصحيح

الوارد في شأن محاجَّة آدم موسى عليهما السلام أنَّ التوراة كتبت قبل آدم بأربعين عاما[1]، فسيِّدنا محمَّد ﷺ خصَّ بالمعراج الأكمل لا بالمعراج مطلقا، وقيل: ﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى ناجيا عن المهالك بصدقه، روي عن قتادة، وهو بعيد.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ، مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ من جملة رحمتنا الواسعة، و«مِنْ» للابتداء، أو لرحمتنا له فهي للتعليل ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيئًا﴾ أي معاونة أخيه له بالمعاضدة والمؤازرة إجابة لدعائه: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنَ اهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (سورة طه: ٢٩-٣٢) وليس المراد نفس هارون للإعانة لأنَّه ولد قبل موسى، و«أَخَاهُ» مفعول به و«هَارُونَ» بيان أو بدل.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ، كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيئًا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ، بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

قصَّة إسماعيل عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم على الصحيح، وهو الحقُّ وهو مذهب الجمهور، وقيل: المراد هنا إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيَّره الله فيما شاء من عذابهم، فاستعفى الله ورضي بثوابه وفوَّض أمرهم إلى الله تعالى في العفو والعقوبة، رواه الإمامية [قلت:] ولعلَّه لا يصلح.

﴿إِنَّهُ، كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ تعليل جملي، وكذا نظائره مما مرَّ أو يأتي، وصفه الله بصدق الوعد لمبالغته عليه السلام في صدقه، كما روي أنَّه وعد رجلا أن يقيم له في موضع فغاب عنه حولا، ولَمَّا جاء قال: ما برحت من مكانك؟ قال:

١- لا تنس ما يلاحظ في هذا الخبر من الاسرائليات.

نعم والله ما كنت لأخلف وعدي، وقيل: غاب عنه اثني عشر يوما، وعن مقاتل: ثلاثة أيـــّام، وعن سهل بن سعد: يوما وليلة، والمشهور الأوَّل.

وعن سعيد بن المسيَّب إذا أطلق الوعد فإلى آخر اليوم، إن كان نهارا وآخر الليل إن كان ليلا، وقيل: إلى آخر وقت صلاة كان فيه، والحقُّ أنَّ القول قبلَ هذا للشعبي لا لسعيد بن المسيب.

ومن صدق وعده أنَّه وعد أباه أن يصبر للذبح فصبر ﴿سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٠٢) ﴿**وَكَانَ رَسُولاً نَبِيئًا**﴾ بشريعة أبيه، بعث بها إلى جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ، وقحطان أبو قبائل اليمن من العرب، نزل جرهم على هاجر وابنها إسماعيل في وادي مَكَّة، إذ تركهما إبراهيم فيه.

(أصول الدين) ولا يشترط في النبيء أن يكون له كتاب ولا أن تكون له شريعة مخصوصة، بل يبعثون بشريعة من قبلهم وكتابه، كغالب أنبياء بني إسرائيل. وقدَّم الرسول مع أنَّه أخصُّ للفاصلة، ولو كانت الواو تغني ردفا عن الياء وبالعكس، لأنَّ الأصل مقابلة الياء بالياء، والواو بالواو، أو قدَّم الرسول لأنَّه أعمُّ باعتبار الرسالة لغة، لأنَّ الإنسان ولو كان غير نبيء يرسل إلى غيره.

﴿**وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ**﴾ يبدأ بهم، لأنَّ القرابة قبل غيرهم في تعليم الدين بعد استكمال المعلِّم نفسه بالدين، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِــينَ﴾(سورة الشعراء: ٢١٤) وقال: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ (سورة طه:١٣٢) وقال: ﴿قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (سورة التحريم: ٦) وقيل: ﴿أَهْلَهُ﴾ أمَّته، أي أُمـــَّة الإجابة، لأنَّ النبيء كالأب لأمَّته، وقيل: أكَّد الاشتغال بقرابته لأنَّهم ينوبون عنه في التعليم ويقتدى بهم بعده ﴿**بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ**﴾ بمعناهما المشهور، وقيل: الزكاة مطلق الصدقة، وقيل: تزكية النفس من الذنوب، ومرَّ غير ذلك، وقيل: يأمر أهله بالصلاة ليلا والصدقة نهارا.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامة فعله وقوله وقلبه، اسم مفعول أصله مَرْضُويٌ قلب الواو ياء وأدغم وكسر ما قبله، وهذه الياء أصلها واو لأنَّه من الرضوان.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

قصّة إدريس عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هو نبيء قبل نوح بألف سنة، كما روي عن ابن عبَّاس، وهو أُخنوخ ـــ بضمِّ الهمزة وفتحها ـــ ابن برد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيت بن آدم عليه السلام ، وعن وهب: إنَّه جدُّ نوح، والمشهور أنَّه جدُّ أبيه على أنَّه ابن لَمك بن متوشلخ بن أخنوخ.

وهو أوَّل من نظر في النجوم والحساب جعل الله ذلك من معجزاته، وأوَّل من خطَّ بالقلم وخاط الثياب، ولبس المخيط، ومن قبل يلبسون الجلود، وأوَّل مرسل بعد آدم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وأوَّل من اتَّخذ المكاييل والموازين والأسلحة وكان يقاتل بني قابيل [كذا قيل].

وعن ابن مسعود: إنَّه إلياس بعث إلى قومه أن يقولوا: لا إله إلاَّ الله، ويعملوا ما شاءوا أي مما ليس من مساوئ الأخلاق فأبوا وأهلكوا، [قلت:] وهو غير صحيح، ولو روى الْقَوْلَ بأنَّه إلياس ابْنُ أبي حاتم بسند حسن عن ابن مسعود. وإدريس لفظ سرياني عند الأكثر لا مشتق من الدرس لأنَّ الاشتقاق من غير العربي لا يقول به أحد، ولو كان عربيًّا لصرف إلاَّ أن يكون في تلك اللغة قريب المعنى من ذلك فلقِّب به لكثرة درسه.

﴿إِنَّهُ، كَانَ صِدِّيقًا نَبِيئًا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ في السماء الرابعة عند أنس وأبي سعيد وكعب ومجاهد، وفي السادسة عند ابن عبَّاس والضحاك، وفي الجـنـّـة عند الحسن لأنَّه لا أعلى منها إلاَّ العرش.

لَمَّا أنشد النابغة الجعدي للنبيء ﷺ قصيدته المختومة بقوله:

بلغنا السماء مجدنا وسـناؤنا وإنا لنرجـو فوق ذلك مظهرا

قال ﷺ : «**إلى أين يا ابن أبي ليلى**» قال: إلى الجنَّة يا رسول الله، قال: «**أجل إن شاء الله**».

وعن الحسن والجياني وأبي مسلم: الرفعة رفعة شأن ونبوءة، وفي السابعة عند قتادة يعبد الله مع الملائكة، ورفع عنه الأكل، وقيل: إذا شاء أكل من الجنَّة، وشذّ ما روي عن مقاتل: إنَّه مات في السماء، وهذا الرفع ولو كان حسـِّيًّا لكن فيه مدح لأنَّه إلى محلّ الملائكة والعبادة، وهل سمع رفع عاص إلى ذلك! وروح الشقي تردُّ من السماء ولا تدخلها، وقد تكون الرفعة المكانيَّة معنويَّة كما فسَّرها الحسن في رواية وكما قال:

وكُن في مَكانٍ إذا ما سَـقَطـ ـتَّ تَقُومُ ورِجـلُكَ في عَافِية

(سيرة) وفي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصة عن رسول الله ﷺ : «**إنَّه رأى ليلة الإسراء إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج**».

(قصص) وعن كعب الأحبار: أصاب إدريس حرُّ الشمس فقال: كيف بمن يحملها كلّ يوم مسيرة خمسمائة عام!. فدعا الله تعالى للملك الحامل لها فخفّفت عليه، فقال: يارب خفّفت عليَّ بماذا ؟ قال الله ﷻ : بدعاء إدريس، فقال: يا ربِّ اجعل لِّي معه خلّة، فاستجاب الله ﷻ فأتاه، فقال له إدريس: أُخبِرْت أنَّك أمكن الملائكة عند ملك الموت فاسأله أن يؤخِّر أجلي لأزداد عبادة

وشكرا، فقال: لا يؤخِّر الأجل، لكن أخبره، فرفعه إلى مطلع الشمس، فقال لملك الموت: لي صديق آدمي طلب تأخير الأجل، قال: لا يؤخَّر لكن أخبره بأجله ليقدِّم لنفسه، فنظر في الديوان فقال: كلَّمتني في إنسان لا يموت أبدا، أي لأنَّه قد مات فلا يزداد موتا آخر وإنِّي أجد موته عند مطلع الشمس، قال: إنِّي تركته هناك، قال: فانطلق فإنَّه قد مات، فوجده ميِّتا وقد عرف ملك الموت أنَّه أراد إدريس.

(قصص) وكان كما روى ابن المنذر عن عمر مولى عفرة عن النبيء ﷺ أنَّه قسَّم دهره ثلاثة أيـــَّام لتعليم الناس، وأربعة للعبادة والسياحة، مجتهدا يرفع من عمله مثل أعمال بني آدم، فأحبَّه ملك الموت فلقيه في سياحته وطلب صحبته، فقال: لا تقدر، فقال: بلى إن شاء الله، فمرَّا آخر النهار بغنم فقال له كالمختبر: لا ندري أين نمسي فلنفطر بجفرة من الغنم، فقال: أتدعوني إلى ما ليس لي؟ لا تعد إلى مثل ذلك، يأتينا رزقنا من الله فأتاه حين أمسى ما يأتيه من الرزق، فقال: كلْ، فقال: والله ما أشتهي، فأكل وحده، فصلَّيا حتَّى فتر ونعس و لم يفتر الملك، فصغرت نفسه إليه، وأصبحا وساحا، ومرَّا آخر النهار بحديقة عنب فقالا مثل ذلك فأتاه رزقه فدعاه فأبى فأكل وحده، فصلَّيا حتَّى فتر دون الملك، فقال: والذي نفسي بيده ما أنت آدمي، فقال: إنِّي ملك الموت، فقال: أمرت بي؟ فقال: لو أمرت ما أنظرتك، ولكن أحبك وصاحبتك في الله تعالى، فقال: لم تقبض روحا من حين التقينا ؟ قال: قبضت روح من أمرت به، والدنيا كلُّها لي كمائدة بين يدي الرجل، فقال: أسألك بالذي أحببتني له أن تقضي لي حاجة، فقال: ما هي؟ قال: تقبض روحي ويردُّها الله إليَّ، فقال: أستأذن ربِّي فأذن له ففعل، فقال: يا نبيء الله كيف وجدت الموت؟ فقال: أعظم مما حدِّثت.

وسأله رؤية النار فنادى بعض خزنتها، فجاء يرتعد إذ علم أنّه ملك الموت، فقال: أمرت فينا ؟ فقال: لو أمرت لم أنتظر، لكن نبيء الله إدريس سأل أن تُرُوه لمحة من النار، ففتح قدر ثقب المخيط فصعق، فقال: أغلقوا، وجعل يمسح وجه إدريس ويقول: ما أحبُّ أن يكون هذا حظُّك من صحبتي، وقال: كيف رأيت؟ قال: أعظم مما حدِّثت.

وسأله لمحة من الجَنّة فكان مثل ما مرَّ، وأصابه بردها وطيبها، فطلب الدخول والأكل والشرب [وقال:] لتشتدَّ رغبتي، فدخل ففعل، فقال له: اخرج يا نبيء الله قد أصبت حاجتك حتَّى تدخلها مع الأنبياء عليهم السلام، فتمسَّك بشجرة، فقال: لا وإن شئت أخاصمك، فأوحى الله تعالى إليه خاصمه فقال: ما تقول يا نبيء الله، فقال: قد قال الله عزّ وجلّ : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾(سورة آل عمران:١٨٥) وقد ذقته، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾(سورة مريم:٧١) وقد وردتها وقال عزّ وجلّ : ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(سورة الحجر:٤٨) فأوحى الله إليه: خصمك عبدي إدريس، وعزَّتي وجلالي إنَّ في سابق علمي أن يكون ذلك، فدعه.

[قلت:] وتلك الآيات ألهمها الله له إلهاما أو رآها في اللوح المحفوظ بإذن الله، وقوله: «قد وردتها» نصٌّ في أنَّ الورود حضور كما هو مذهبنا، لا الدخول، وروي أنَّه أتاه ملك الموت قبل الرفع فقال: أين ملك الموت؟ فنظر في الحساب فقال: ما يوجد في الدنيا إلاَّ أن تكونه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ٥٨﴾

الأنبياء عليهم السلام
من جملة من أنعم الله عليهم وهداهم

﴿اولَئكَ﴾ إشارة ببعد علوِّ المرتبة إلى المذكورين في السورة الكريمة ﴿الذِينَ﴾ خبر على حذف مضاف أي بعض الذين، لأنَّ الله تبارك وتعالى أنعم أيضا على غير من ذكر في السورة من سائر الأنبياء وغيرهم، أو نقول الحصر إضافيٌّ بالنسبة إلى غير الأنبياء بجعل نعم غير الأنبياء كلا نعمة بالنسبة إلى نعمة من ذكر فيها قبل.

﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم﴾ بنعم الدين والدنيا والآخرة ﴿مِّنَ النَّبِيـئِينَ﴾ «مِنْ» للبيان للموصول، أو لهائه، أو للتبعيض، حال من أحدهما، ويدفع إشكال الحصر جعل «مِنَ النَّبِيـئِينَ» خبر «اولَئِكَ» و«الذِينَ» تابع، وفائدة الإخبار أنَّ لله أنبياء كثيرين وما هؤلاء إلاَّ بعضهم وبجعل الخبر قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّـةِ ءَادَمَ﴾ وفائدته ما عطف عليه، بمعنى أنَّهم من آدم ونوح...الخ وبالحصر على طريقة العرب في المبالغة، وبجعل الإشارة إلى الأنبياء كلِّهم على طريق الاستخدام، أو بجعل الخبر إلى ﴿تُـتْلَىٰ عَلَيْهِم...﴾، ورجَّحه بعض المحقِّقين.

(نحو) وقيل «مِنْ» للبيان، وهي ومدخولها بدل من قوله: ﴿مِنَ النَّبِيـئِينَ﴾ بدل بعض من كلٍّ، على أنَّ المراد بالذرِّيَّـة الأنبياء، وقيل: «مِنْ» تبعيضيَّة لأنَّ المنعم عليه أخصُّ عن الذرِّيَّـة من وجه لشمولها، بناء على الظاهر المتبادر منها غير المنعم عليه دونه.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن ذرِّيَّـة من حملنا مع نوح وهو سام وحام ويافث إذ لم يلد غيرهم ممن في السفينة، ولا ممن لم يغرق، وإن ولد نوح الثلاثة بعد الطوفان فهم في صلبه معه في السفينة، والمراد: من عدا إدريس لأنَّه قبل نوح

عليهما السلام، وأجمعوا أنّ إبراهيم من ذرِّيـــّة سام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الباقون، وأنت خبير بأنّ هودا وصالحا عليهما السلام قبل إبراهيم فهم من ذرِّيـــّة نوح ﴿وَإِسْرَآئِيلَ﴾ يعقوب، أي ومن ذرِّيـــّة إسرائيل كموسى وهارون وزكرياء ويحيى وعيسى، فأولاد البنات من الذرِّيـــّة لدخول عيسى ولا أب له، وجعل إطلاقها عليه مجازا بطريق التغليب خلاف الظاهر.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ﴾ عطف على «مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ»، و«مِنْ» للتبعيض، أي ومن جملة من هديناهم إلى الحقّ واخترناهم للكرامة والنبوءة، أو عطف على «مِنَ النَّبِيئِينَ» و«مِنْ» للبيان، وفيه أنّ ظاهر العطف المغايرة فيحتاج إلى أن يقال: المراد من جمعنا له الهداية والنبوءة والاجتباء للكرامة، وهو خلاف الظاهر.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استـــئناف أو خبر ثان لـــ«أُوْلَئِكَ» وهما جمعَا ساجدٍ وباكٍ.

(صرف) أصله: «بُكُويًا» قلبت الواو ياء وأدغمت وكسر ما قبلها، وذلك كشاهد وشهود، وقاعد وقعود، وجالس وجلوس، وحالية «سُجَّدا» مقدَّرة على أنّ السجود كون الجبهة في الأرض، أمَّا على أنّه الانحناء إليه فمقارنة، وحالية «بُكِيًّا» مقارنة.

والسجود كسجود الصلاة، والخضوع والخشوع، أو الصلاة، وهو ضعيف، أو سجود التلاوة إذا قرئ آياتها عليهم، فالمراد آيات السجود، [قلت:] وهو لا يتبادر فضلا عن أن يستدلّ بالآية على وجوب سجود التلاوة، والصحيح آيات القرآن مطلقا والكتب الإلهيَّات قبله. والسجود: الخضوع.

وقيل: آيات العذاب، وقيل: الجنَّة والنار، والوعد والوعيد، قال رسول الله ﷺ : «**اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا**»[1] رواه ابن ماجة وإسحاق بن راهويه والبزار عن سعد بن أبي وقاص.

وقرأ عمر رضي الله عنه سورة مريم فسجد ثمّ قال: هذا السجود فأين البُكيُّ؟ أي أين الذين يبكون كما في الآية؟ رواه الطبري، وابن أبي حاتم والبيهقي، بـياء مشدَّدة مصدر في كلام عمر، ولا يتعيَّن به ولا يقرب أن يكون في الآية مصدرا.

(ما ينبغي أن يدعو به الساجد) وينبغي أن يدعو الساجد بما يناسب آية السجود التي تلاها فيقول هنا: «اللّهُمَّ اجعلنا من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك» وفي الإسراء: «اللهمَّ اجعلنا من الباكين إليك الخاشعين لك» وفي تتريل السجدة: «اللهمَّ اجعلنا من الساجدين لوجهك المسبِّحين بحمدك ورحمتك، وأعوذ بك أن أكون من المتكبِّرين عن أمرك» وفي الحجِّ: «اللهمَّ لا تهنَّا وأكرمنا وافعل بنا من الخير ما أنت أهله ولا تفعل بنا من الشرِّ ما نحن أهله».

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها (١٧٦) باب في حسن الصوت بالقرآن، رقم ١٣٣٧، من حديث أبي وقاص.

حال من جاء بعد هؤلاء الهداة

(لغة) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ قوم سوء ويطلق على المفرد أيضا والاثنين، ومفتوح اللام في الصلاح وهو الأكثر، قال أبو نصر رحمه الله في مخمَّسته[1]:

لنا خَلَف قد قام من بعده خَـلْف فما اشتبها إلاَّ كذا الحرف والحرف

وقال النظر بن شميل: السكون في الخير والشرِّ، والمفتوح في الخير فقط، ومن استعمال المفتوح في السوء قول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلَف كجلد الأجـرب

بفتح اللام، ولا يتعيَّن إلاَّ إن كان رواية صحيحة، وإلاَّ فالإسكان يقبله الوزن، غايته إسكان ثاني السبب الثقيل، وقيل: الإسكان في الأولاد والفتح فيهم وفي غيرهم، وسواء فيهما السوء والصلاح، ونسب لابن أبي حاتم، وعليه فيتبيَّن السوء بقوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ جنس الصلاة، أخَّروها عن وقتها كما قيل عن ابن مسعود والنخعي ومجاهد وإبراهيم وعمر بن عبد العزيز.

(فقه) أو الإضاعة الإخلال بشروطها من الطهارة والوقت، وقد قيل: تأخيرها حتَّى يخرج وقتها، وقيل: إقامتها في غير جماعة، [قلت:] وهو تشديد إلاَّ أن يكون حيث يخاف خراب المسجد أو ضعف الجماعة.

والآية في تلك الأقوال واردة على الموحدين، وأخرج أبن أبي احاتم عن محمد بن كعب القرظي أنَّ إضاعتها تركها فتحتمل أهل التوحيد والشرك، ففي أهل الشرك خطاب لهم بفروع الشريعة، كما قيل: إنَّها فيمن لم يعتقد وجوبها

١- تقدَّم التعريف به في الجزء ٧، ص١٣٩.

فإنَّه مشرك خوطب بالفروع، والمشهور عن ابن عبَّاس أنَّها في اليهود، وعن السدِّي أنَّها في اليهود والنصارى، والمختار **أنَّها في الكفرة مطلقا** بقوله بعد ذلك: ﴿وَءَامَنَ﴾. وزعم بعض أنَّها في قوم يأتون عند ذهاب الصالحين غير مشركين، يزنون بالذكور في الطرق لا يستحيون من أحد، وقولهم: «يأتون» يخالف الماضي في الآية.

﴿وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ﴾ المحرَّمات لا يتركون إلاَّ ما لم يقدروا عليه، وفيها أيضا مع حرمتها الاشتغال عن الصلاة، وعدَّ بعض منها تزوُّج اليهود بالأخت من الأب ولا يصحُّ هذا عنهم، وإنَّما الذي صحَّ عنهم أنَّهم يجيزون نكاح بنت الأخ وبنت الأخت ونحوهما.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَـيًّا﴾ قال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ : «**هو نهر في أسفل جهنَّم، يسيل فيه صديد أهل النار، لو ألقيت فيه صخرة ما بلغت قعره سبعين خريفا**»[1] رواه الطبري والطبراني وغيرهما. وأخرج جماعة عن ابن مسعود: «إنَّ الغيَّ نهر ـــ أو واد ـــ في جَهَنَّم من قيح، بعيد القعر خبيث، يقذف فيه الذين يتَّبعون الشهوات». وعبارة بعض: «إنَّه آبار في جَهَنَّم يسيل فيها صديد أهل النار وقيحهم». وعن ابن عبَّاس: «واد في جهنَّم تستعيذ من حرِّه، أعدَّ للزاني المصرِّ، وشارب الخمر المدمن، وآكل الربا الذي لا ينزع ـــ أي لا يكفُّ ـــ والعاقِّ وشاهد الزور». وعن قتادة: «الغيُّ السوء» وقال مرقش الأصغر:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغـيِّ لائما

١-أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٣٠٥. وقال: أخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي أمامة مع زيادة.

وعن ابن يزيد: «الغيُّ الضلال»، وهو المشهور وعليه الضحَّاك والزجَّاج، وعلى ذلك فالمراد جزاء الغيِّ، وهو ما ذكر، وقيل: ضلالا عن طريق الجنَّة.

﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ الاستثناء متَّصل، فإنَّ المعنى: إلاَّ من تاب من الإشراك، وآمن...الخ، فإنَّ الإيمان ظاهر في أنَّ ما قبل ذلك في الإشراك، فالآية كالنص في أنَّ الخلف المضيِّعين للصلاة المتَّبعين للشهوات مشركون إذ لا يقال في الفاسق الموحِّد: له الجنَّة إن آمن بل يقال: إن تاب وعمل صالحا، إلاَّ أن يقال المراد من جمع بين التوبة والإيمان والعمل الصالح، أو يقال: المراد الإيمان الكامل إلاَّ **أنَّهما خلاف الظاهر وأنَّه يغني عنه ذكر التوبة والعمل الصالح**.

وإن جعلنا ما قبل هذا في الفسَّاق والموحِّدين كان الاستثناء منقطعا، لأنَّ قوله: ﴿ءَامَنَ﴾ يدلُّ على تقدُّم الإشراك، وإن جعلناه فيهم وفي المشركين كان الاستثناء متَّصلا باعتبار حصَّة المشركين، وقد يقال: ﴿ءَامَنَ﴾ بمعنى صلَّى في مقابلة الصلاة كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾(سورة البقرة:١٤٣) أي صلاتكم، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ في مقابلة ﴿اتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ﴾ فيكون الاستثناء متَّصلا إن كان ما قبلُ في الموحِّدين الفاسقين، ومنقطعا إن كان في المشركين وهذا في الموحِّدين.

﴿**فَأُوْلَئِكَ**﴾ الذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحا ﴿**يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾ لم يقل: سوف يدخلون الجنَّة لطفا بهم ﴿**وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا**﴾ لا يظلمون بنقص ثوابهم ظلما، أو لا ينقصون ثواب أعمالهم نقصا مَّا ، أو لا ينقص أعراضهم نقصا مَّا، بل يعظَّمون أو لا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم.

(أصول الدين) والآية وأمثالها من القرآن والأحاديث شرطت في دخول الجنَّة العمل الصالح لمن أمكنه والتَّقْوَى، ومن آمن فمات أو جنَّ، قبل أن

يكلَّف بفرض فله الجنَّة، **وضلَّ من تكلَّف وقال:** شرط العمل الصالح لدخولها بلا تسويف، أو لكون جنَّته جنَّة عدن، أو لعدم نقص شيء من ثوابه وينقص لغيره، ويردُّه ما ورد في القرآن وغيره من أنَّه: من فعل كبيرة كترك فرض فهو في النار إلاَّ إن تاب، وكذا إن فعل كبيرة غير ترك، إلاَّ إن تاب كمن زنى أو اغتاب، ومن تاب لم ينقص من ثوابه بل تثبَّت له أعماله الصالحة وتبدَّل سيِّئاته حسنات، [قلت:] وكلُّ جنَّة هي جنَّة عدن أي إقامة لا يرحل عنها.

﴿جَنَّات عَدْنٍ﴾ كلُّ الجنَّات الثمانية جنَّات عدن، ألا ترى أنَّه جمعها فلو كان اسما لواحدة عنها لم تجمع، فقد ذكر الجنَّة أوَّلا باسم مفرد مراد به الجنس وجمعها ثانيا بيانا بأنَّ كلَّ واحدة من ذلك الجنس جنَّة عدن، وما ورد من أنَّ جنَّة عدن اسم لواحدة منها غير مراد في القرآن، وكلُّ جنَّة عدن في القرآن عَامــَّة.

وهو بدل من الجنَّة، أو عطف بيان بالنكرة للمعرفة على قول جواز ذلك، ولا نسلِّم أنَّ «عدنا» علم للإقامة فيكون «جنَّة» معرفة لإضافته إليه، إذ لا دليل على تلك العَلَميَّة، وذلك بدل كلٍّ، ولا نسلِّم اشتراط وصف النكرة في إبدالها بدل كلٍّ من المعرفة فائدة، واشترط أبو عليٍّ إفادتها فائدة لم يفدها المبدل منه، وقد أفادت العدن، ولم يكن في لفظ الجنَّة، ولا حاجة إلى دعوى نصب جنَّات على المدح.

(نحو) **﴿التِي وَعَدَ الرَّحْمَــٰــنُ عِبَادَهُ، بِالْغَيْبِ﴾** نعت الجنَّة، والموصول المقرون بـــ«الـــ» ينعت به كالمشتقِّ، أو بدل من «جَنَّاتِ عَدْنٍ» على جواز إبدال المشتقِّ أو ما في تأويله. و«بِالْغَيْبِ» متعلِّق بحال محذوفة جوازا كون خاص من هاء «وعدها» المحذوفة، أي ملتبسة بالغيب غير حاضرة لهم، أو من «عباد» أي ملتبسين بالغيب غير مبصرين لها، فالباء للمصاحبة، أو تعلّق بـــ«وَعَدَ» فتكون للسببــيَّة على حذف مضاف، أي بتصديق الغيب، أو بإيمان

الغيب، أو متعلّق بـ«عِبَادَهُ» على معنى الذين يعبدونه بالغيب، أي في السرِّ كما يعبدونه في الجهر.

﴿إِنَّهُ، كَانَ وَعْدُهُ مَاتِيًّا﴾ إنّ الرحمن أو الشأن، والمعنى: موعوده الذي هو الجنَّة، أو كلُّ ما وعد فيشمل بالأولى الجنَّة لمن آمن وتاب وعمل صالحا، و«مَاتِيـًّا» اسم مفعول أصله «ماتويا» قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها، أي يأتيه الذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحا، وما وعد لك يصدق أنَّك تأتيه أي تستقبله حتَّى تصله، كما يصدق أنَّه يأتيك.

(صرف) ولا حاجة إلى دعوى أنَّه اسم مفعول بمعنى اسم فاعل، ولا إلى دعوى أنَّه من قولهم: إنَّه أتى إليه إحسانا أي فعل ما يعدُّ إحسانا، وإن الوعد على ظاهره من المصدريَّة، وإنّ معنى كونه مفعولا أنَّه منجز لأنّ فعل الوعد بمعنى صدوره، وإيجاده إنَّما هو تنجيزه، أي إنَّه كان وعده عباده منجزا.

﴿لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي لا لغو فيها بسبٍّ ولا بغيره، إذ لو كان لسمعوه، كنَّى عن نفي الملزوم بنفي لازمه، أو عن نفي السبب بنفي المسبَّب، واللغو: كلام لا فائدة فيه، فهو كلغو العصافير بالنظر إلى سماعنا له، وإلاَّ ففي أصواهَا كلام بعض لبعض وتسبيح، [قلت:] فإذا نفي عن أهل الجنَّة كان ينبغي اجتنابه في الدنيا.

﴿إِلاَّ سَلاَمًا﴾ استثناء متَّصل، بمعنى: إن كان فيها لغو فبالسلام، والسلام لا يكون لغوا، فهو نفي له بطريق البرهان من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب[1]

١-البيت للنابغة، وهو من الشواهد المتداولة. إميل يعقوب: المعجم في شواهد اللغة، ج١، ص٣٤٥.

أو بمعنى: إنّ السلام فيها لغو باعتبار أنّه دعاء بالسلامة من الآفات، مع أنّه لا آفة فيها، ولو كان القصد به التَّحابُّ وأنَّه حقٌّ مقصود، أو [الاستثناء] منقطع، أي لكن يسمعون سلام الملائكة عليهم، أو سلام بعض على بعض، أو كلاما ذا سلامة من العيب أو سالما، وقيل: سلام الله يخلقه حيث شاء أو على لسان ملك **﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾** أي في كلّ وقت شاءوا، فعبَّر بأطراف اليوم لا الوقتين ومن ذلك في غير الزمان قولنا: اللَّهُمَّ ارحم المهاجرين والأنصار، نريد الصحابة مطلقا. والمراد: كثرة الأرزاق بلا حساب.

وكانت للعرب أكلة واحدة ومن أصاب أكلتين سمِّي فلانا الناعم، فنزل اللفظ على رسم ما يرونه خصب عيش، والمعنى أكثر من ذلك، ولا بكرة وعشيا فيها، وجاء الأثر أنّه يُـبَـيِّنُ لهم مقدار الليل بإرخاء الستر وإغلاق الباب، والنهار برفع الستر وفتح الباب في ملك كلّ واحد، لكن الرزق يَعُمُّ البكرة والعشيَّة وغيرهما، أو في الوقتين لا بُدَّ، وفي غيرهما زيادةً بحسب ما شاءوا.

قال رجل: يا رسول الله هل في الجنَّة ليل؟ فقال: ما هيَّجك على هذا؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ...﴾ الآية فقال ﷺ : «**لا ليل بل ضوء الغدوِّ والعشي يتواردان، وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة في الدنيا، وتسلِّم عليهم الملائكة عليهم السلام**»[1].

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر وإشارة البعد للتعظيم **﴿التِي﴾** نعت الجنَّة **﴿نُورِثُ﴾** نورثها، هذه الهاء مفعول ثان **﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾** حال من الموصول في قوله ﷻ : **﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾** وهو مفعول أوَّل، أي نصيِّر من كان تقيًّا من عبادنا وارثا تلك الجنَّة، تعدَّى ماضيه لاثنين بالهمزة.

١- أورده ابن كثير في تفسيره للآية: ج٣، ص١٢٩، أثرا عن الحسن البصري.

وقرأ محبوب أبو محمَّد بن محبوب عن أبي عمرو بن العلاء، وكان يدخل البصرة : ﴿نُوَرِّثُ﴾ بفتح الواو وشدِّ الراء مكسورة، والتعدية لهما بالشدِّ أو الهاء أوَّل، أي نجعلها باقية تنال التقيَّ.

(بلاغة) والإيراث أو التوريث مستعار لتمليك، لا يقبل الفسخ والاسترجاع بخلاف التمليك بالبيع أو الهبة، وحيث ذكرت بالشراء فالمراد الشراء الذي كالميراث في ذلك.

والآية نصَّت على أنَّ الجنَّة كلَّها مورَّثة، ولا يصحُّ تفسيرها بإيراث الله المسلمين أزواج الكفرة وولدانهم، ومنازلهم وأملاكهم التي لهم في الجنَّة لو كانوا سعداء، كما جاء الأثر بذلك، فإنَّ هذا بعض، فإن صحَّ الأثر قيل به لكن لا تفسَّر الآية به.

ويحتمل أنَّ الآية تمثيل، لَمَّا ذكر الله عز وجل إساءة الكفرة بالأنبياء والأولياء وتكذيبهم والإجابة عنهم وذكر الإخلاف عقَّب ذلك بالتلويح إلى إساءتهم إلى رسول الله ﷺ وجوابه عنه إذ سألوه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، وقال: أخبركم غدا، ولم يقل: إن شاء الله، فطال عنه الوحي حتَّى قالوا: ودَّعه ربُّه، واشتدَّ حزنه واشتاق إلى الوحي، فترل جبريل فقال له: «**احتبست عَنـِّي حتَّى ساء ظَنِّي**» فأجابه بقوله:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾

تنزل الوحي بأمر الله تعالى

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وروي أنَّهَ قال ﷺ: «**ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟**» فقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّـكَ...﴾ والترُّل: الترول على مهل، وضمير «نَـتَـنَزَّلُ» لجبريل المعروف من المقام مع الملائكة.

﴿لَهُ،﴾ لا لنا ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما قدَّمنا من الزمان ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من الزمان ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الزمان، فلا نتزل إلاَّ في زمان أراده للنزول، وإنَّما فسَّرت ما بالزمان لأنَّه ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «**لم لم تنزل إلى هذا الوقت ولم لا تنزل زمانا كثيرا**» وإنَّما ذكر «مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ» مع أنَّه حين بدأ ذكره مستقبل، وكلُّ جزء من أجزاء الذكر ماض بعد تمامه، كما تقول: الحال أجزاء من أواخر الماضي ومن أوائل المستقبل لأنَّه يتشخَّص بذلك.

أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: قبل وجودنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: بعد فنائنا و﴿مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: مدَّة الحياة؛ أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: زمان الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: زمان البعث بلا تناه ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما بين نفخة الموت ونفخة البعث أربعون سنة، وقيل: أربعون يوما بين النفختين؛ أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: الآخرة لأنَّها مستقبلة و﴿مَا خَلْفَنَا﴾: الدنيا لأنَّها تمضي عنَّا ونخلِّفها شيئا فشيئا، و﴿مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما بين النفختين. وإنَّما يذكر الدنيا لأنَّه حين الخطاب مع رسول الله ﷺ .

وقد اختلف فيما ردَّت السماء فوق أهو من الدنيا وأنَّه يفنى؟ أو من الآخرة؟ أو واسطة وزمان ذلك تابع له؟ أو﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: السماء و﴿مَا خَلْفَنَا﴾: الأرض، أو بالعكس، و﴿مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما بينهما، أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: ما ينتقلون إليه و﴿مَا خَلْفَنَا﴾: ما ينتقلون منه و﴿مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما هم فيه، ولا يخفى أنَّ التفسير بالمكان غير مناسب لأنَّ المقام للزمان، وقيل: المراد الزمان والمكان معا، والهواء من المكان لا ننتقل في زمان أو مكان أو إليه إلاَّ بإذن مالكه تعالى، وقدَّر بعض: «له علم ما بين أيدينا»، واختار بعض تعميم الملك والعلم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تاركا لك، كما قال الكفرة لَمَّا تأخَّر عنه الوحي: تركه ربُّه، بل تأخَّر لحكمة؛ أو تاركا لأنبيائه وأنت منهم، فيكون نفي تركه بطريق البرهان، وقيل: النسيان على ظاهره، ولا بأس بنفي ما لا يتوهَّم ثبوته، وقد

ورد في القرآن لحكمة تذكير المخاطب إن غفل عن استحضاره، أو لكون الكُفَّار مثلا صدر منهم ما يناسب خلافه، ولا يبعد أن يكون بنسيان الله، أو لمناسبة المبالغة، فمبالغة «نَسيًّا» راجعة إلى النفي، أي انتفى النسيان عنه انتفاء بليغا، فلعلّه جواب لتوهُّم الكُفَّار أنَّه نسيه أو غفل عنه، فالنسيان بمعنى الغفلة.

وسلاَّه بذكر لفظ «ربّ» المشعر بالإنعام مع الإضافة، وقيل: أوَّل الآية إلى ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ من كلام المُتَّقِينَ في الجنَّة وتنزُّلهم في منازلهم من الجنَّة، وكلّ ما مرَّ أو يأتي أو حضر من التوفيق والنعم ملك له، وقرَّره الله بقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسيًّا﴾ لا يغفل ولا يتركنا ولا ينسانا ولا تاركا لثواب أعمالنا.

ويبعد ما قيل: إنَّه خطاب منهم في الجنَّة لبعض منهم فيها وكذا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسيًّا﴾ خطابهم لواحد، وذلك لا يوافق سبب النزول، فيرتكبون أنَّها لم تنزل جوابا، وهو خلاف المشهور.

﴿رَّبُّ السَّمَاوَات وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو ربُّ السماوات، أو بدل من «رَبُّ». و﴿السَّمَاوَات﴾: هنَّ السبع، و﴿الاَرْض﴾: الأرضون السبع، و﴿مَا بَيْنَهُمَا﴾: ما بين الفريقين تفصيلا، ما بين كلّ سماء وسماء، وما بين كلّ أرض وأرض، وما بين السماء والأرض بمعنى: ما بين أبعاض الفريقين.

والبينيَّة شاملة لمن سكن فيهنَّ وما في الهواء، كما قيل: إنَّ في الهواء طيرا وبحرا من ماء وحوتا، وذلك بعض ملكه ولا ينتهي ملكه لدوامه، كيف يليق بجلاله أن يغفل أو ينسى أو يلغي من أطاعه واصطفاه للنبوءة ؟!.

﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لعبَادَته﴾ إذا كان الأمر ما ذكر من أنَّه ﴿رَبُّ السَّمَاوَات...﴾الخ، أو ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ نَسيًّا﴾، أو ذلك كلّه، فاعبده لأنَّه المثيب على الأعمال. ولا تحزن على إبطاء الوحي، ولا لقولهم: تركه ربُّه أو

نسيه أو غفل عنه؛ أو عطف إنشاء على خبر هو قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ أو على قوله: ﴿وَمَا كَانَ...﴾، أي اعبده لسبب كونه لا ينسى، أو لكونه ﴿رَبُّ...﴾ واصطبر على عبادته لسبب ذلك. واللام بمعنى «على» كقوله تعالى: ﴿واصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، أو اللام لتضمُّن اصطبر معنى أثبت، وأجيز أن يكون ربُّ مبتدأ خبره اعبده، وهو ضعيف لاحتياجه إلى كون الفاء زائدة، وللإخبار بالأمر.

وأجيز أن يكون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ...﴾ من كلام المتَّقين على أنَّ ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ خبر لمحذوف، أي هو ربُّ السماوات، و«اصْطَبِر» «افتعل» من الصبر، أبدلت تاؤه طاء لتجانس الصاد في الجهر.

(أصول الدين) **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ، سَمِيًّا﴾** مماثلا له في اسم، مشارك له في المعنى مثل: خالق وقادر ورازق وعالم، بمعنى أنَّه يخلق كما يخلق الله ويرزق كما يرزق الله ويقدر على كلِّ شيء بلا علاج كما قدر الله، ويعلم كلَّ شيء بلا تعلُّم وبلا بدء ولا انتهاء، ولا مع عدم نسيان، ومثل الرحمن والرحيم على معنى أنَّه يرحم في الدنيا والآخرة، وتعمُّ رحمته كما أنَّ الله يرحم، ومثل إله والله على أنَّه يعبد بحقٍّ. ولم يجترئ المشركون مع عتوِّهم أن يسمُّوا أحدا الله، ومثل أن يسمَّى أحد ربُّ السموات والأرض، وذلك كلُّه منفيٌّ بأبلغ وجه حيث نفى المعلوم بالاستفهام الإنكاري، فإذا لم يكن له سميٌّ تعيَّن أن لا يعبد إلاَّ هو.

كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ، سَمِيًّا﴾ قال: لا، وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : **«من قرأ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُّحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ**

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ، يُومِنُونَ﴾ فليقل: آمنَّا بالله وحده»[١].

وروى أبو داود عن موسى بن أبي عائشة أنَّه كان رجل يصلِّي فوق بيته فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُّحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾(سورة القيامة:٤٠) قال: سبحانك بلى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿فَمَنْ يَّاتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾(سورة الملك:٣٠) قال: «**يأتي به ربُّ العالمين**».

روى الترمذي عن جابر عن عبد الله خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوَّلها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجنِّ ليلة الجنِّ، فكانوا أحسن منكم مردودا، كانوا كلَّما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربَّنا نكذِّب ولك الحمد**»[٢]، وفي رواية لغيره: «لا بشيء من آلائك ربَّنا نكذِّب» وفيها: «أحسن منكم ردًّا». ويجوز للقارئ أن يقوله إذا قرأ هؤلاء الآيات كما يقوله السامع، وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(سورة الزمر:٥٣) قال: «ولا يبالي إنَّه هو الغفور الرحيم» وكان إذا قرأ: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾؟(سورة الصافات:١٥٣) قال: لا، أو قال: «لم يلد و لم يولد» وكان إذا قرأ: ﴿ءَآنتُمْ تَخْلُقُونَهُ، أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾(سورة الواقعة:٥٩) أو قرأ

١-رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب مقدار الرقوع والسجود، رقم ٨٨٧، من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن (٥٦) باب: ومن سورة الرحمن، رقم ٣٢٩١، من حديث جابر.

﴿ءَانتُمْ تَزْرَعُونَهُ، أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾(سورة الواقعة:٦٤) قال: «أنت يا رَبِّ»، وإذا قرأ والضحى وختمها قال: «الله أكبر» وكذا كلّ سورة بعدها إلى آخر سورة الناس.

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ قال: ما أشدَّها آية على الغافلين. وفي تفسير البغوي عن ابن عبَّاس أنَّ النبيء ﷺ قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الاَعْلَى﴾ فقال: «سبحان ربِّي الأعلى الذي خلق فسوَّى» إلى آخر السورة، وكان عليٌّ إذا قرأه في الصلاة قال: سبحان ربِّي الأعلى، فقيل له: أتزيد في الصلاة؟ قال: أمرت بشيء ففعلته.

(**فقه**) وظاهر الإطلاق أنَّ ذلك في الفرض والنفل، وخصَّ بعضهم ذلك بالنفل، وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ آية عذاب سأل النجاة، وإذا قرأ آية رحمة سأل الرحمة وزاد ما بعد ذلك من القراءة.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ لا يمرُّ في صلاته بآية عذاب إلاَّ استعاذ ولا بآية رحمة إلاَّ سأل. وروى أبو داود والحاكم عن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ : «**كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾**[1] **قال: سبحان ربِّي الأعلى**».

وفي الترمذي عن حذيفة: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: «سبحان ربِّي العظيم» وفي سجوده: «سبحان رَبِّي الأعلى» وما أتى على آية رحمة إلاَّ وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلاَّ وقف وتعوَّذ.

فنقول: إذا قرأ الإنسان اسم محمَّد أو أحمد في القرآن وقف وصلَّى عليه وسلَّم وعلى آله، بصوت دون صوت القراءة ثمَّ يزيد قراءة ما بعد، وأمَّا في غير قراءة القرآن فينبغي رفع الصوت بالصلاة والسلام عليه ﷺ .

١- في الطبعة العمانية: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الاَعْلَى}.

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

الردُّ على منكري البعث، ومصيرهم يوم القيامة

﴿وَيَقُولُ الانسَانُ﴾ [قيل: هو] العاصي بن وائل كما أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير، أو الوليد بن المغيرة كما روى عطاء عن ابن عبَّاس، وقيل: أبو جهل، وقال الكلبي: أبي بن خلف، أخذ عظما باليا يفتُّه بيده ويذريه في الريح، ويقول: زعم محمد أنا نبعث بعد أن نكون هكذا، هذا شيء لا يكون أبدا.

و«الـ» في ذلك كلّه للعهد، وكذا إذا قيل: المراد جماعة معيَّنون مثل هؤلاء منكرون للبعث، ويجوز أن يكون المراد الجنس بإطلاق اسم الجنس وإرادة البعض، كما يطلق الكلُّ على بعض أجزائه، أو يكون من المجاز في الإسناد بأن أسند ما للبعض إلى الكلّ، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا، والقاتل واحد، ولا نسلّم في هذا اشتراط رضى الباقين، وإن سلَّمنا فمن المشركين من رضي ولم يقل، وأمَّا أن يقال: ذلك شرط للحسن بنكتة فلا للزوم أن يكون القرآن غير حسن العبارة، وأجيز أن يكون الباقون المؤمنين باعتبار ما ركّز في الطبع من منع ذلك مع قطع النظر عن الدليل، وفيه تكلُّف، والمضارع لاستحضار الصورة الماضية فهو للحال لتشاهد، والمعاينة أقوى من الإخبار أو للاستمرار.

﴿أَ.ذَا مَا متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ الاستفهام للإنكار، و«إذا» متعلّق بـ«أُخْرَجُ» محذوفا لا بالمذكور لأنّ اللام مانعة من تقدُّم معمول ما بعدها عليها، وأمّا «سَوْفَ» فلا صدر لها، وقد قدِّم معمول ما بعدها عليها في قوله ـــ وفي غيره من كلام العرب ـــ :

فلمَّا رأته آمنا هان وجدها　　وقالت: أبونا هكذا سوف يفعل[1]

وزعم الرضي أنَّها تعلَّقت بـ«أُخْرَجُ» بعد «سَوْفَ» وليس كما قال.

وفي الآية حذف هكذا: أئذا ما متُّ وصرت مفتوتا كهذا العظم. واللام للابتداء، كما تدخل على المبتدأ تدخل على "سوف" والسين و"قد"، ويبعد أن يقال: لام القسم، أي يقول: أئذا ما متُّ يقول الناس: والله لسوف أخرج، لأنّ المتبادر القول مطلقا لا القول بعد موته.

والمراد بالإخراج الإخراج من الأرض على الحقيقة، أو من حال الفناء على المجاز، ووجهه أنّ الخروج منه مشبه بالخروج من الأرض. والاستفهام مسلَّط على الإخراج لا على الوقت، كما زعم بعض أنّه جائز إذ لا يتوهَّم أن يخرج في غير ذلك الوقت فضلا عن أن يعتني بتسلُّطه عليه. و«مَا» صلة للتأكيد، كأنّه قيل: إذا تحقّق موتي، فقد لا يقدَّر المعطوف الذي قدَّرته لأنّ الاستبعاد يتحصَّل بالموت عند الكافر، إلاّ أنّه يدلُّ على التقدير مثل: ﴿أَ.ذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ (سورة الإسراء: ٤٨ و٩٨).

﴿اَوَلاَ يَذْكُرُ الانسَانُ﴾ قيل: الهمزة مما بعد العاطف، والصحيح أنَّها دخلت على معطوف عليه محذوف، أي: أيقول الإنسان ذلك ولا يذكر؟، وهي

١-البيت للنمر بن تولب في ديوانه ص٣٧١، وفي جمهرة أشعار العرب ج١ ص٥٣٧، اميل يعقوب المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العربية ج٦ ص٢٤٥.

للإنكار التوبيخي. و لم يضمر للإنسان وهو المذكور قبلُ لزيادة التقرير والإشارة إلى أنَّ الإنسَانيــَّــةَ من دواعي التفكُّر فيما من شأنه أن يتفكَّر فيه، كشؤون التكوين المصرِّح بالقدرة على البعث.

﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ﴾ من قبل حاله التي هو فيها أو من قبل البعث، فكما خلقناه نبعثه ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ والحال أنَّه لم يكن ﴿شَيْئًا﴾ موجودا بل شيئا سيوجد، ولا يخفى لبادي العقل أنَّ ردَّ ما عدم أسهل من الإيجاد الأوَّل بما سبق من الجسم وأعراضه، وأمَّا في الحقيقة فمن أثبت أنَّه أسهل فقد أشرك لإثباته بعض الصعوبة لله عزّ وجلّ.

﴿فَوَرَبِّـــكَ﴾ أقسم بلفظ الربِّ مضافا إلى رسول الله ﷺ رفعا لشأنه وتحقيقا للأمر ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعنَّ القائلين ﴿أَ.ذَا مَا مِتُّ...﴾ إلى جهنَّم، واختار أبو حيَّان أنَّ الضمير للناس كافريهم ومؤمنيهم، و﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ (سورة مريم: ٧١) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ (سورة الجاثية: ٢٨) [قلت:] والأوَّل أولى، لكن يقال: الأوَّل مفرد ـــ وهو الإنسان ـــ فكيف يردُّ إليه ضمير الجمع؟ فأمَّا على أنَّ الإنسان جماعة بالأوجه السابقة فلا إشكال، وأمَّا على أنَّ المراد واحد فلأنَّه مشعر بأنَّ له أتباعا فرجع الضمير إليه معهم. وفي ذكر الحشر دون البعث مع أنَّه بعد البعث تلويح بأنَّ البعث أمر واضح لا يحتاج إلى التصريح به، وإنَّما يحتاج إلى ذكر ما بعده، ويجوز أن يراد بالحشر البعث.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الهاء أو مفعول معه، والمراد أنَّهم يحشرون هم والشياطين الذين أغووهم فينتقم منهم جميعا ويزداد تحسُّرهم باتِّباعهم، أو المراد: يقرنون كلّ إنسان وشيطانه في سلسلة.

ويضعف التفسير بحشر الناس كلّهم مؤمنيهم وكافريهم، والمؤمن مع شيطانه بلا قرن في سلسلة والكافر مع شيطانه مقرونا معه في سلسلة، وهذا

وارد في الحديث لكن لا تفسَّر به الآية، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «**ما منكم من أحد إلاَّ وكِّل به قرينه من الجنِّ**» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «**وإيَّاي، إلاَّ أنَّ الله تعالى غلَّبني عليه** ـــ ويروى: أعانني عليه ـــ **فأسلم لا يأمرني إلاَّ بخير**»[1].

﴿**ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ**﴾ وأمَّا عموم الجثوِّ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ (سورة الجاثية: ٢٨) فليس في خصوص حول جهنَّم ﴿**جُثِيًّا**﴾ باركين على الركب، جمع جاث كشاهد وشهود.

(صرف) أصله جثُوٌّ بواو مشدَّدة قلبت ياء مشدَّدة، وكسر ما قبلها لثقل واوين بعد ضمَّتين، وثقل يائين بعد كسر دون ذلك الثقل، ولو كان فيه الانتقال من ضمٍّ إلى كسر، وزعم بعض أنَّه كسرت الثاء فقلبت الواو الأولى ياء فاجتمعت ياء وواو وسكن السابق فقلبت ياء وأدغمت فيها الياء، وقيل: مصدر بوزن «قعود» فلحقه الإعلال فأوِّل بالوصف، أو بتقدير مضاف.

وقيل: الحساب حول جهنَّم فيجثون للخصام، ثمَّ يتبرَّأ بعض من بعض، وقيل: يجثون لضيق المقام بهم، وقيل: لما دهاهم حتَّى لا يطيقون القيام، من هول المطلع، وقيل: الجثوُّ للمجموع لا للجميع فمنهم من لا يجثو، وهو حال مقدَّرة، لأنَّ بروكهم حولها عقب الإحضار لا مقترن بالإحضار وبعد الحساب وبعد وجودهم في المقام ضيِّقا، **وفي إحضارهم كذلك إهانة لهم**.

ولكن إن ردَّ الضمير للناس كلِّهم فالمؤمن لا تلحقه إهانة، اللهمَّ إلاَّ صورتها من شدَّة الهول، وفي جمعهم حول جهنَّم فوت الصراط الممدود الذي يرويه قومنا وما

١–رواه **مسلم** في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنار (١٦) باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه... رقم ٢٨١٤، عن ابن مسعود.

صراط الجحيم إلاّ طريقهم إلى ما حولها، وذلك حسن، وحكمة ذلك زيادة الحسرة على الكافر وزيادة الفرح للمؤمن إذا رأى ما نجّاه الله منه وأهلك به عدوَّه.

وقيل: يجثون باختيارهم تذلُّلا لله، ولات حين عمل، وعن ابن عبَّاس: ﴿جِثِيًّا﴾: جماعات، على أنَّهُ جمع «جثوة» وهو المجموع من تراب أو حجارة أو تمر أو غير ذلك.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ لنخرجنَّ كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ (سورة الأعراف: ١٠٨) أو لننزعنَّ الأشدَّ فالأشدَّ كقولهم نزعت السهم عن القوس أي رميته ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ جماعة تشايعت على الباطل أي تعاونت، أو شاعت في الباطل أو شاعت دنيا مطلقا المؤمن والكافر ﴿أَيُّهُم﴾ مبنيٌّ، وهو موصول ﴿أَشَدُّ﴾ أي هو أشدُّ ﴿عَلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ أي على عباد الرحمن أو على دين الرحمن عزَّ وجلَّ على حذف مضاف، بأن يشبه مخالفتهم لدين الله بمخالفة مبطل لحق متعلِّق بـ«أَشَدُّ» أو بقوله: ﴿عِتِيًّا﴾ فسادا بتعاصيهم عن الحقِّ كما قال الجمهور، وعن ابن عباس: جرأة، وعن مجاهد: كفرا، وقيل: افتراء بلغة تميم، وكلٌّ من الجرأة والكفر والافتراء عصيان. وأصله «عتوًّا» وفيه ما مرَّ في ﴿جِثِيًّا﴾ إلاَّ أنَّه مصدر، وهو تمييز؛ ولا حاجة إلى دعوى أنَّه جمع «عات» وأنَّ المعنى يظهر أيُّهم أشدُّ رجلا عاتيا، عتاتهم أشدُّ من عتاة غيرهم، فإذا جمع العتاة على قدر اختلافهم في شدَّة العتوِّ طرحوا في النار على ترتيبهم، ولا يخلو الموحِّدون من أن يكون في بعضهم شدَّة العتوِّ وأشدِّيته.

﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الذكري ﴿لَنَحْنُ﴾ اللام للابتداء ﴿أَعْلَمُ بِالذِينَ هُمُ، أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ مقاساة لها ومن هو دون الأولى صليًّا على ترتيبهم السابق، ومن لا صليَّ له البتَّة وهو السعيد، إذا حملنا الآيات ـــ كما قال أبو حيَّان ـــ على الناس كلِّهم، وعلى ذلك الترتيب يدخلون جهنَّم، كما روي عن ابن مسعود.

ويجوز أن يكون أشدُّهم: أئمَّتهم، لأنَّهم ضالُّون مضلُّون، كقوله تعالى: ﴿الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ (سورة النحل: ٨٨) وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٣) و﴿الذِينَ هُمْ، أَوْلَىٰ بِهَا﴾ هم من هو أشدُّ على الرحمن فهو من الظاهر المقام مقام المضمر. و«بِهَا» متعلّق بـ«أَوْلَى»، أو بـ«صُلِيًّا»، وتقديم معمول المصدر عليه جائز إذا لم يقصد به معنى الفعل وحرف المصدر، وأيضا يقدَّم للفاصلة وأيضا يتوسَّع في الظروف.

﴿**وَإِن مِّنكُم**﴾ ما واحد منكم ﴿**إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للتأكيد، كما يدلُّ له قراءة ابن عبَّاس: «وَإِن مِّنهُم إِلاَّ وَارِدُهَا»، ويحتمل أن يكون استـئـنافا خطابا للناس كلِّهم وهو واضح، لا لمن ذكر قبل خاصَّة فلا التفات، **و«هَا» في «وَارِدُهَا» للقيامة عند ابن مسعود**، والصحيح أنَّه لجهنَّم.

والورود هنا: المرور عليها بلا دخول، كما رواه عبد بن حميد، وابن الأنباري والبيهقي عن الحسن البصري، وكذا روي عن قتادة. والحضور عامٌّ للكافر والمؤمن.

أو نقول: الورود الدخول، ونقول: الخطاب لِلْكُفَّارِ، كما يدلُّ له قراءة ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «وَإِن مِّنْهُمْ». وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أنَّ الورود الحضور والقرب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ (سورة القصص: ٢٣) وكَمَا فَسَّره إدريس عليه السلام لملك الموت في قصَّته المذكورة آنفا واختار بعضهم أنَّ الورود حضورهم جاثين حولها.

وأخرج الترمذي والطبراني عن يعلى بن أميَّة عن النبيء ﷺ : **أنَّه تقول**

النار للمؤمن يوم القيامة جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لهبي[1]، فنقول: تقول ذلك عند مروره عليها. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحكيم عن خالد بن معدان: «**إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة قالوا: ربَّنا ألم تعدنا أن نرد النار؟ قال: بلى، ولكنَّكم مررتم عليها وهي خامدة**»[2] فهذا مرور حولها إذ لم يقل: مررتم فيها.

[قلت:] ولم **تَصِحَّ عندنا أحاديث دخول المسلمين فيها**، وقولها: «جُزْ يا مؤمن...»الخ، وأنَّها برد عليه وأنَّ لها ضجَّة من برده، ولا ينافي حضورهم حولها قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠١) لأنَّ المراد إبعادهم عن عذابها، أو إبعادهم عنها بعد أن يكونوا قريبا منها.

وعن مجاهد: «إنَّ ورود المؤمن النار مسُّ الحمَّى جسده في الدنيا» لقوله ﷺ : «**الحمَّى من فيح جهنَّم**»[3]، ولا دليل في الحديث هذا على أنَّ مسَّ الحمَّى هو المراد في قوله ﷻ : ﴿وإن مِّنكُمْ، إلاَّ وارِدُها﴾. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ دخل على رجل موعوك وأنا معه ﷺ فقال: «**إنَّ الله تعالى يقول: هي ناري أسلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظَّه من النار في الآخرة**» ولا دلالة فيه على عدم ورود المؤمن المحموم في الدنيا النار في الآخرة، وغايته أنَّ المؤمن يحفظ من نار الآخرة.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٣٠٩، وقال: أخرجه الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه والخطيب والبيهقي في الشعب عن يعلى بن أميَّة.

٢- أورده السيوطي في الدر: ج٤، ص٣٠٩، وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والحكيم وابن الأنباري عن خالد بن معدان.

٣- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (١٠) باب صفة النار وأنَّها مخلوقة، رقم ٣٠٨٨. **ومسلم** في كتاب السلام، باب لكلِّ داء دواء واستحباب التداوي، رقم ٢٢١٠، من حديث ابن عبَّاس.

وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول: أخبرني ربِّي أنِّي وارد ولم يخبرني أنِّي صادر، ويقول بعض الصحابة لبعض: هل أخبرك ربُّك أنَّك وارد؟ فيقول: نعم، فيقول: هل أخبرك أنَّك صادر؟ فيقول: لا، فيقول: ففيم الضحك.

﴿**كَانَ**﴾ ورودهم إيـاهَا ﴿**عَلَى رَبِّـكَ**﴾ متعلّق بمحذوف خبر «كَانَ»، والمنصوبان بعدُ خبران آخران، أو متعلّق بـ«كَانَ» أو بقوله: ﴿**حَتْمًا**﴾ واجبا فيكون الخبر «حَتْمًا» ﴿**مَّقْضِيًّا**﴾ **قضي بوقوعه قطعا**، خبر آخر أو نعت لـ«حَتْمًا» أو متعلّق بـ«مَقْضِيًّا» ولو كان «مَقْضِيًّا» نعتا للفاصلة بأن قدِّم متعلّقه على منعوته، أو يعلّق بـ«مَقْضِيًّا» إذا لم يكن نعتا.

ولا واجب على الله، والمعنى أنَّ ذلك كأنَّه واجب بأن أوجبه الله على نفسه، أو كأنَّه أوجبه أحد على الله سبحانه عن كلِّ نقص، لَكنَّ الكلام مجاز لا حقيق. والجملة في معنى القسم، أو قوله: ﴿وَإِن مِّنكُم...﴾ إِلَى: ﴿...مَقْضِيًّا﴾ في معنى القسم وليس قسما نحويًّا، ويدلُّ على أنَّه قسم في المعنى قوله ﷺ : «**لا يموت لمسلم ثلاث من الولد فيلج النار إلاَّ تحلَّة القسم**»[1] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة، يعني: ﴿وَإِن مِّنكُمُ، إِلاَّ وارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّـكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وقوله ﷺ : «**من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوِّعا لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه إلاَّ تحلَّة القسم**»[2] فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وإن مِّنكُمُ، إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ رواه أحمد والبخاري والطبراني عن معاذ بن أنس.

١- رواه **البخاري** في كتاب الجنائز (٦) باب فضل من مات له ولد، رقم ١١٩٣. ورواه **مسلم** في كتاب البر والصلة (٤٧) باب فضل من يموت له ولد... رقم ٢٦٣٢. ورواه **النسائي** في كتاب الجنائز (٢٤) باب ثواب من احتسب ثلاثا من صلبه، رقم ١٨٧٩. رواه **ابن ماجه** في كتاب ما جاء في الجنائز (٥٧) باب في ثواب من أصيب بولده، رقم ١٦٢٦. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **أحمد** في مسند المكـيِّين، رقم ١٥١٨٥، من حديث معاذ بن أنس.

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ المراد بورودها رؤيتها، وفيه بيان أنَّ القسم هو قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ، إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فقط وهو قسم معنويٌّ لا اصطلاحيٌّ كما مرَّ، إلاَّ إن عطف على جواب القسم الاصطلاحي وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالذِينَ هُمْ، أَوْلَىٰ بِهَا صُلِيًّا﴾ فإنَّه معطوف على الجواب والمعطوف على الجواب جواب.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الذِينَ اتَّقَواْ﴾ ننجِّي من دخولها المتَّقين بعد ورود ساحلها، أو المرور به، ومن زعم أنَّهم يدخلونها باردة يقول: ننجِّيهم من البقاء فيها بالإخراج **وقد علمت ضعفه ولو شُهِرَ.**

﴿وَنَذَرُ الظَّالمِينَ فِيهَا جُثِيًّا﴾ لم يذكر الإدخال لأنَّه أمر معلوم بل ذكر ما بعده وهو تركهم فيها جثِيًّا، أبدا، لا إلى مدَّة، قيل: كأنَّه قيل: ننجِّي المتَّقين من الجثوِّ حولها بعد ما جثوا، ونذر الظالمين على حالهم الذي أحضروا فيه جاثين، وهو خلاف الظاهر يكفي عنه ما ذكرت من أنَّه طوى ذكر الدخول وذكر ما بعده، كما مرَّ مثله في هذه السورة.

(أصول الدين) وأولى من ذلك أنَّ المعنى: نذر الظالمين فيها جثِيًّا بعد إدخالها أي فيها. و﴿الذِينَ اتَّقَواْ﴾: من مات تائبا غير مصرٍّ على ذنب، و﴿الظَّالمِينَ﴾: من مات مشركا أو مصرًّا على ذنب، أو من مات مشركا ويؤخذ المصرُّ من الآي الأخر والأحاديث، والعموم أولى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

اغترار المشركين بحسن الحال في الدنيا

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات المعاني والإعجاز، [قلت:] وما تَشَابَه بيَّنَــتْه الآية الأخرى، أو رسول الله ﷺ، وما بقي على إبهامه كأوائل السور على وجه إبقائه لم يَضُرَّ السامع و لم يوقعه في لَبس. ﴿قَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية مستأنفة فلا حاجة إلى أنَّها فيمن قبلها حتَّى يقال: وضع الظاهر موضع المضمر لينعى عليهم بذكر الكفر المتقدِّم منهم، وأنَّه الموجب لكفرهم، وهذا نقوله مع الاستــئــناف، كما شهر أنَّها نزلت في النضر بن الحرث وأتباعه الفجرة ﴿للذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اللام للتبليغ، أي خاطبوا المؤمنين بما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمن والكافر ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿قَالَتُ اولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ (سورة الأعراف: ٣٩) أو [اللام] بمعنى «في»، على معنى أنَّهم قالوا في شأن الذين آمنوا بلا خطاب لهم، أو بخطاب و لم يذكر الله الخطاب، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿قَالَتُ اخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبـــَّنَا هَؤُلآءِ اَضَلُّونَا﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) بلا خطاب، ويصحُّ التعليل، ولا يمنعه ــــ كما زعم بعض ــــ أنَّ المقول ليس في حقِّ المؤمنين خَاصَّةً، والمعنى: قالوا لأجل المؤمنين معهم، إذ لولا المؤمنون لم يكن فريقان.

(صرف) والمقام في الأصل موضع القيام أو زمانه أو نفسه، والأنسب هنا الأوَّل لكن قصد به المكان بمعنى الشرف. والنديُّ: موضع الاجتماع، أو مخصوص بموضع يجتمع فيه لحادث أو مشورة، أو بموضع يجتمع فيه أهل الندى، أي الكرم.

ويروى أنَّهم كانوا يدهنون شعورهم ويرجلونها ويتطيَّبون ويلبسون اللباس الفاخر ويقولون لفقراء الذين آمنوا: لو كنَّا أعداء الله وكنتم أولياء الله لما فعل الله هذا بنا وأفقَرَكم، والحكيم لا يهين أولياءه، فكذلك إن كان البعث نكون خيرا منكم حالا، وهو **قياس عقيم من قلب سقيم** فإنَّهم رأوا كثيرا من المؤمنين أغنياء وكثيرا من الكُفَّار فقراء.

وردَّ الله عليهم بقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿**وَكَم**﴾ مفعول به لقوله: ﴿**اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمُ، أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا**﴾ كم للتكثير كما هو الظاهر، ويجوز أن تكون للاستفهام التعجبي أو التقريري، إضرابا عن ذكر الكثرة لشهرتها والإذعان إليها، إلى حملهم على التعجُّب أو الإقرار.

وفي الآية على كلٍّ حال الردُّ عليهم والتهديد بالإهلاك كما أهلك من قبلهم ممن هو أكثر مالا وأحسن حالا وزينة، وأحسنيَّة الأثاث تدلُّ على كثرة المال على الغالب وفي الجملة. و«مِن قَرْنٍ» نعت لـــ«كَمْ» لا كما قيل إنَّها لا تنعت، وينبغي أن يكون الخلاف في نعتها بغير «مِنْ» ومجرورها اللذيْن لبيانها مثل قوله: ﴿هُمُ، أَحْسَنُ﴾ فهذه الجملة نعت لـــ«قَرْنٍ» كما هو واضح لا لـــ«كَمْ» وضمير الجمع لاشتمال القرن على أفراد.

(لغة) والقرن: مائة عام، وقيل غير ذلك، والأثاث: المتاع جَدَّ أو بلي والخرثي: ما بلي منه. والرِّئي: المنظر، نضارة اللون وحسنه من الرؤية البصريَّة، وهو بشدِّ الياء قلبت الهمزة ياء وأدغمت، أو من الرَّيِّ ضدُّ العطش مراد به النضارة والحسن، أو هو «رِئْـــيًا» بهمزة فياء وكلتاهما عن نافع.

﴿**قُلْ**﴾ يا محــمَّد للكفرة ﴿**مَن كَانَ**﴾ بماله ودنياه ﴿**فِي الضَّلاَلَةِ**﴾ منكم أو من غيركم ممن يبتهج بالمال ﴿**فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَـــٰـــنُ مَدًّا**﴾ في ماله وعمره مع تمكُّنه في الضلال، أو لتمكُّنه فيه، إخبار بصورة الأمر إشارة إلى أنَّ المدَّ حكمة لقطع العذر، كقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن

تَذَكَّرَ﴾ (سورة فاطر: ٣٧) فيكون أبعد في العذر، كما أنه أطال له المدَّة، أو حكمة للاستدراج كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُم لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ (سورة آل عمران: ١٨٧) أي من عادته أن يمدَّ له استدراجا، أو ذلك على طريق الدعاء لعدم بقاء عذر لهم مع البيان الكامل على طريقة ﴿لِيَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ (سورة يونس: ٨٨) إذَا حُمِلَ على الدُّعاء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من «أَوْعَدَ» بالهمزة المتعدِّية إلى مفعول آخر محذوف رابط، أي ما يوعدونه، والواو أوَّل ناب عن الفاعل. ولا تجعل «ما» مصدريَّة لأنَّ هذا المصدر يحتاج إلى معنى ما الاسميَّة فليحمل الكلام عليه من أوَّل، والواو لمعنى مَنْ كما أنَّ ضمير كان والهاء للفظها.

﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بدل من «ما» أو من الرابط المقدَّر بواسطة العاطف في الثاني وهو الواو، وذلك لمنع الخلوِّ لأنَّ العذاب عذاب الدنيا باستيلاء المؤمنين بالقتل ونحوه أو غير ذلك، كأنَّه قيل: إمَّا عذاب الدنيا وإمَّا عذاب الساعة، فحذف المضاف إليه لا لمنع الجمع، لجواز أن يعذَّبوا دنيا وأخرى.

و«الساعة»: يوم القيامة. ولم يذكر عذاب القبر إيذانا بأنَّه بالنسبة إلى عذاب يوم القيامة كلا عذاب، أو لأنَّ الساعة بمعنى ذهابهم إلى الآخرة فذلك من حين الموت إلى ما لا نهاية له إلاَّ البرزخ، أو لاعتبار القبر من الدنيا لأنَّه في الدنيا، وقيل: قيام الساعة. وليست «حتَّى» للغاية بل للتفريع وإن جعلت للغاية جارَّة ـــ كما قال ابن مالك، أو نزِّل التفريع منزلة الغاية ـــ كان من اتِّصَال الغاية بالمغيَّا لوجود الفصل، إلاَّأنَّ الدنيا لسرعة انقضائها كلا فاصل فذلك كأحد أوجه في قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ (سورة نوح: ٢٥) .

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب «إذَا» وعلى قول ابن مالك لا جواب لها لأنَّها خارجة عنده عن الشرط والظرفيَّة، فالجملة تفريع على مدخولها ﴿مَنْ﴾ مفعول «يَعْلَمُونَ» بمعنى يعرفون وهو موصول، أو استفهامية مبتدأ لما بعده، أو خبر له

عَلَّقت «يَعْلَمُ» عن مفعوله بمعنى يعرف، أو عن مفعوليه إن بقي على ظاهره ﴿هُوَ﴾ من الفريقين ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ عبَّر هنا بالمكان لا بالمقام مبالغة في إظهار سوء حالهم ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أنصارا، يتبيَّن لهم عكس ما يزعمون، بل إنَّهم شرٌّ مكانا وأضعف جندا والمؤمنين خيرٌ مكانا وأقوى جندا، والاسمان خارجان عن التفضيل لأنَّه لا شرَّ للمؤمنين ولا ضعف البتَّة، ولا جند البتَّة للكفرة يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ، فِئَةٌ ينصُرُونَهُ، مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (سورة الكهف: ٤٣) وذلك ردٌّ عليهم في دعواهم أنَّ لهم إعانة مما يعبدونه من الأوثان أو غيرها.

وقد يعتبر أنَّ للكفَّار يوم القيامة جندا ضعيفا يزعمونه في الدنيا أنَّه جند، ويطمعون أيضا في الآخرة أنَّه جند ينفع، وهو أذلُّ من ذلك، وهو ما يعبدون، ويكون «هو» ضمير فصل لأنَّه وقع بين معرفتين لأنَّ «شَرًّا» في معنى «الـــ»، أي من هو الأشرُّ.

وأجاز بعض أن يكون قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ...﴾ راجعا إلى قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وما بينهما معترض للإنكار عليهم، أي يستمرُّون على قولهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ...» حتَّى إذا عاينوا العذاب أو الساعة، وهو **بعيد لكثرة الفصل في التلاوة** وللفصل بموتهم عن يوم القيامة في أحد الأوجه.

﴿**وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى**﴾ عطف قصَّة على أخرى لبيان حال المهتدين إثر بيان حال الضالِّين، ولا يقال: عطف على قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ المجعول في معنى الإخبار، أو المحمول على الطلب، لأنَّ الجملة المعطوفة على ما يستحقُّ الرابط لا بدَّ فيها من رابط، ولا رابط في هذه، كما أنَّ في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ...﴾ رابطا عائدا إلى المبتدأ وهو «من».

(نحو) ولا ضعف في قولنا: عطف قصَّة على أخرى مثل أن تعطف على مجموع ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلاَلَة...﴾ فيتمُّ التقابل لأنَّه أمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يجيبهم عن قولهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ»، كأنَّه قيل: قل من كان في الضلالة من الفريقين فليمدد له الله تعالى وينفِّس في حياته ليزيد في الغيِّ، ويجمع له عذاب الدارين، ومن كان في الهداية منهما يزد الله تعالى هدايته ويجمع له خير الدارين.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الأعمال الباقيات الصالحات مطلقا، وقيل: [قولنا:] سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ من مال الكُفَّار وما يفتخرون به، أو مما يعدُّه الكُفَّار ثوابا لهم في الآخرة وهو أن ينفعهم ما يعبدون، أو سمَّى عقابهم ثوابا تهكُّما بهم، وجعل ثواب المسلمين خيرا منه على معنى أنَّ ثوابهم في حسنه أشدُّ من عقابهم في سوئه، ولا إشكال في ذلك فإنَّ في العذاب شدَّة كما في الثواب، فقال شدَّة الثواب أعظم من شدَّة العقاب، بناء على أنَّ رحمته سبقت غضبه، فتبنى على ذلك شدَّته، كقولك: الخلُّ أحمض من العسل، بمعنى أنَّه في حموضته أشدُّ من العسل في حلاوته، وكذلك الإسلام في حسنه أشدُّ من الكفر في قبحه، ويقرب من ذلك قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ (سورة الفرقان: ١٥) .

وجعل بعضهم الآية من باب يوسف أحسن الإخوة، بمعنى أنَّ لهم زيادة في الخير بقطع النظر عن الكفر وعدم اعتباره، وهذا في آية السورة هذه وليس كذلك بل يوسف أحسن الإخوة يحتاج إلى ما قلنا في الآية أو تأويل أحسن بحسن؛ أو «خير» جاء على طريق المشاكلة لقولهم: «شَرٌّ مَّكَانًا».

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ فيه ما في الذي قبله، والمراد: المرجع والعاقبة وهو الخير الدائم، وعاقبة الكفر الشرُّ اللازم، والجملة ليست من مقول القول لقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وفيها تتميم لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ وتسلية عن

مفاخرة الكُفَّار، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا...﴾ إلى قوله: ﴿...جُندًا﴾ تتميم لوعيدهم، وكلاهما تتميم للأمر بالجواب عن قولهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ».

وقيل: الجملة من مقول القول، و﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ خطاب منه ﷺ لبعض الكُفَّار، وكلُّهم ذلك البعض على سبيل البدلية.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

مقالة المشركين في البعث والحشر استهزاء وطعنا

﴿أَفَرَءَيْتَ الذي كَفَرَ بِئَايَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ كثيرا، لأنَّ الولد يطلق على ما فوق الواحد كما يطلق عليه.

(سبب النزول) قال خبَّاب بن الأرث: كنت قينا ــ أي حدَّادا ــ وكان لي على العاصي بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتَّى تكفر بمحمَّد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمَّد ﷺ حتَّى تموت ثمَّ تبعث، قال: فإنِّي إذا متُّ ثمَّ بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيك، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ الذي...﴾ وفي رواية: لا والله لا أكفر بمحمَّد ﷺ حيًّا ولا ميِّتا ولا إذا بعثت، فقال له العاصي: فإذا بعثت جئتني...الخ.

وفي رواية: أنَّ رجالا من أصحاب النبيء ﷺ أتوا العاصي بن وائل يتقاضونه دينا لهم عليه، فقال: ألستم تزعمون أنَّ في الجنَّة ذهبا وفضَّة وحريرا ومن كلِّ الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: موعدكم الآخرة، والله لأوتينَّ مالا وولدا ولأوتينَّ مثل كتابكم الذي جئتم به، فنزلت.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وقد كانت له أقوال تشبه ذلك، **قلت**: نزلت فيهم وفي أمثالهم إلاّ أنّ الأوَّل أولى لوروده في البخاري ومسلم والترمذي والطبراني وابن حبان.

والعطف على محذوف، أي أنظرت فرأيت؟ والهمزة تعجيب من كفرهم بالآيات الواضحة التي من حقّها أن يؤمن بها كلُّ من بلغته، ومن جملتها البعث، والمراد: لأوتينَّ في الآخرة كما صرَّحت به الأحاديث المذكورة، إلاّ الحديث المذكور الذي فيه: ولأوتينَّ مثل كتابكم ففي الدنيا ففسَّر به بعضهم الآية.

وقد يجمع بأنّ المراد: لأوتينَّ إيتاء مستمرًّا إلى الآخرة، والمعنى: انظرْ إليه بعينيك وتعجَّبْ من قبح اعتقاده وقوله.

(بلاغة) والرؤية مجاز عن الإخبار من إطلاق السبب على المسبَّب، أو الملزوم على اللازم لزوما بيانيًّا، والاستفهام في الأوجه كلّها مجاز عن الأمر بذلك لأنّ قولك ما فعلت؟ بمعنى: أخبرني، فهو استفهام تُجُوِّز به عن الأمر فذلك إنشاء عن إنشاء، ولا نسلّم ما قيل: من أنّ «أخبرني» المعبَّر عنه مجاز في الاستفهام لا أمر. والآية متعلّقة بقوله تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أو قوله: ﴿أَ.ذَا مَا مِتُّ﴾.

﴿اطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ بقطع الهمزة مفتوحة للاستفهام التوبيخي التعجبي، نقل فتحها للتنوين وهمزة الوصل المكسورة محذوفة، و«الْغَيْبَ» مفعول به على تضمين معنى «عرف»، أو «علم» الذي بمعنى عرف، أو على تقدير «على»، لا كما قيل: إنَّه يتعدَّى بلا تضمين ولا حرف، ولشعور لفظ الاطّلاَع على الظهور والعلوِّ والتملُّك عبَّر به لا بعرف أو علم، والمعنى: أَبَلغ من شأنه معرفة الغيب؟ أو النظر في اللوح أن يعطى مالا وولدا ؟!.

﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ وعدا منه تعالى أن يعطيه المال والولد

فلا يخلفه، ويحتمل التعريض بكفره على معنى أنَّه لم يتَّخذ عهدا عند الله بـــ«لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله ﷺ»، أو بالعمل الصالح فيطمع أن يثاب بالولد والمال، ولو كان ذلك لم يَصِحَّ له الجزم والقسم فكيف وهو لم يكن.

﴿كَلاَّ﴾ ارتدع أيُّها الإنسان، أو ارتدعوا عن الكفر.

(مواضع كلاّ في القرآن) وقعت «كلاّ» في ثلاثة وثلاثين موضعا هذا أوَّلها، وكلُّها في النصف الأخير وكلُّها لا يجوز الوقف فيها عليها، كما قال المبرِّد، واستثنى بعضهم ﴿كَلاَّ والْقَمرِ﴾ (سورة المدثّر: ٣٢) لوصله باليمين كقولك: أي وربِّي، وليست كذلك فإنَّه لا يكون وصلها به موجبا لوصلها وترك الوقف، ولو كان المزجور عنه يأتي بعد فكيف وقد صحَّ الزجر بها عمَّا علم من المقام؟ أو مما سبق.

وأقول: يجوز الوقف في كلِّها، وقال الفرَّاء: يحسن الوقف عليها ويحسن الابتداء بها في عشرة مواضع، هذه و﴿لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا كَلاَّ﴾ (سورة مريم: ٨٠ و٨١) و﴿فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٠) ﴿شُرَكَآءَ كَلاَّ﴾ (سورة سبأ: ٢٧) و﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ﴾ (سورة المعارج: ٣٨) و﴿أَنَ اَزِيدَ كَلاَّ﴾ (سورة المدثر: ١٥) و﴿مُنَشَّرَةً كَلاَّ﴾ (سورة المدثر: ٥٢) و﴿يَقُولُ رَبِّـــيَ أَهَانَنِي كَلاَّ﴾ (سورة الفجر: ١٦) و﴿أَخْلَدَهُ، كَلاَّ﴾ (سورة الهمزة: ٣) و﴿ثُمَّ يُنجِيهِ كَلاَّ﴾ (سورة المعارج: ١٥) يوقف عليها باعتبارها ردًّا لما قبلها، ويبتدأ بها على معنى حقًّا، أو إلاّ التنبيهية، ويحسن الوقف عليها لا الابتداء في ﴿أَن يَّقْـــتُلُونِ قَالَ كَلاَّ﴾ (سورة الشعراء: ١٤) و﴿لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ﴾ (سورة الشعراء: ٦١) .

ويحسن الابتداء لا الوقف في تسعة عشر موضعا: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (سورة عبس: ١١ وسورة المدثر: ٥٤) و﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ﴾ (سورة المدثر: ٣٢)

و﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة الانفطار: ٩) و﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَت التَّرَاقِيَ﴾ (سورة القيامة: ٢٦) و﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾ (سورة القيامة: ١١) و﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ﴾ (سورة القيامة: ٢٠) و﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ (سورة النبأ: ٤) و﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ﴾ (سورة عبس: ٢٣) و﴿كَلاَّ بَل رَّانَ﴾ (سورة المطفّفين: ١٤) و﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكرِمُونَ﴾ (سورة الفجر: ١٧) و﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ (سورة المطفّفين: ٧) و﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ﴾ (سورة المطفّفين: ١٨) و﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ﴾ (سورة المطفّفين: ١٥) و﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّت﴾ (سورة الفجر: ٢١) و﴿كَلاَّ إِنَّ الانسَانَ﴾ (سورة العلق: ٦) و﴿كَلاَّ لَئِن﴾ (سورة العلق: ١٥) و﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ﴾ (سورة العلق: ١٩) و﴿كَلاَّ سَوْفَ﴾ (سورة التكاثر: ٣) و﴿كَلاَّ لَوْ﴾ (سورة التكاثر: ٥) إذ ليست للردِّ في ذلك.

ولا يحسن الوقف ولا الابتداء في موضعين: ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة التكاثر: ٤) و﴿ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ (سورة النبأ: ٥) لا يوقف على «ثُمَّ» لأنَّه حرف عطف، ولا على «كَلاَّ» لأنَّ الفائدة بعدُ، وذلك خطأ، والصواب جواز الوقف على كلاَّ فيهما مع الحسن، إذ لا مانع من الوقف عليها مع نية الزجر عن مقدَّر معلوم مما قبل، غاية ذلك أنَّه كجملتين أكَّدت إحداهما الأخرى.

﴿**سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ**﴾ سنجازيه بما يقوله من اللفظ المخالف للشرع، بالكفر أو بقوله ذلك، فأطلق الكتابة على الجزاء لأنَّها سببه وملزومه في الجملة، لأنَّها للإنفاذ، فقوله كجريمة كتبت على الجاني لينقم منه.

(بلاغة) ويقرب من هذا أن يقال: الكتابة استعارة للوعيد، لكن لا يتبادر، ويجوز أن يكون «نَكْتُبُ» بمعنى نظهر الكتابة فيكون إظهار الشيء الموجود الخفيِّ منزّلا منزلة إحداث الأمر المعدوم، بجامع مطلق الإخراج من الكمون إلى الظهور، على الاستعارة الأصلية واشتقَّ من الكتابة بذلك المعنى «نكتب» بمعنى نظهر على التبعية كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة و لم تجدني من تقرِّي بها بدًّا[١]

أي ظهر أنّي لم تلدني لئيمة، ولا يصحُّ ما قيل: إنّ السين ليست للاستقبال بل للتأكيد، وإنّ المضارع للحال لأنّ الكتابة تقدَّمت على الترول، فالمضارع للاستقبال كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا يَلْفظُ من قَوْلٍ الاَّ لَدَيْه رَقيبٌ عَتيدٌ﴾ (سورة ق: ١٨) وقال عزّ وجلّ: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٨٠) ولأنّ السين تكون للتوكيد في المستقبل القريب لا في الحال.

﴿**وَنَمُدُّ لَهُ، مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**﴾ عطف على السين ومدخولها، أو على مدخولها فينسحب عليه معنى السين المذكورة، والمعنى: نطيل له العذاب بدل ما يفتخر به من أنّه يؤتى يوم القيامة مالا وولدا كثيرين ممتدّين، أو ستريده عذابا على عذاب. وأكّد بـ«مدًّا» لمزيد كفره وعظم استحقاقه العذاب لذلك.

﴿**وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ**﴾ نسلبه مضمون قوله وهو نفس الولد والمال، لا باعتبارهما في الآخرة بل يفني في الدنيا ماله فيها منهما، وذلك استخدام لأنّ الذي في كلامه ما يدَّعيه منهما أنّه في الآخرة. و«مَا» بدل اشتمال من الهاء أو مفعول به آخر لـ«نَرِثُ» على أنّه يتعدَّى لاثنين. و«يَقُولُ» للحال والماضي المستمرِّ في الموضعين.

﴿**وَيَاتِينَا**﴾ يوم القيامة ﴿**فَرْدًا**﴾ عن ماله وولده اللذين له في الدنيا فضلا عن أن يؤتى فيه بمثلهما زيادة أو بمثلهما فقط، بخلاف المسلم وأطفاله أو بُلَّغه المطيعين فتقرُّ عين المسلم بهم ويزاد غلمانا في الجنَّة.

أو يأتينا فردا ويبقى فردا بعدُ؛ أو حال مقدَّرة، أي يأتينا ناويا أن ينفرد لعلمه بالموت وما بعده أن لا يؤتى مالا ولا ولدا.

١- البيت لزائد بن صعصة الفقعسي حسب قول الأمير في حاشية المغني. المعجم المفصل، ج٢، ص١٧٥.

وأمَّا أن يلد المسلم في الجنَّة فلا يكون كما جاء من حديث لقيط الصحيح الطويل، قلت: يا رسول الله أو لنا فيها أزواج؟ أو منهنَّ مصلحات؟ قال ﷺ : «**المصلحات للمصلحين تلذونهنَّ ويلذنكم مثل لذاتكم في الدنيا غير أن لا توالد**»[1].

وعن أبي ذر العقيلي عن النبيء ﷺ : «**إنَّ أهل الجنَّة لا يكون لهم ولد**»[2] وقيل: تكون الولادة في الجنَّة لحديث الترمذي وقال: حسن غريب: «**المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنَّة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي**» ولحديث أبي نعيم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ ، قيل: يا رسول الله أيولد لأهل الجنَّة؟ فإنَّ الولد من تمام السرور، فقال: «**نعم والذي نفسي بيده، وما هو إلاَّ كقدر ما يتمنَّى أحدكم فيكون حمله ورضاعه وشبابه**»[3].

قلت: الجواب إنَّ المراد أنَّه يكون الولد فيها شاذاً ولا يعتبر الشاذُّ، وإنَّما يعتبر لو شاع كما في الدنيا.

وأيضا هو مشروط بالاشتهاء والتمنِّي فلا يلقي الله في قلوبهم الاشتهاء والتمنِّي، فلا يولد لهم، أو يلقي قليلا شاذًّا. و«إذا» هنا لمجرد التعليق، كأنَّه قال: إذا اشتهى إن كان يشتهي، وأيضا حديث أبي نعيم عن أبي سعيد ضعيف، كما قال البيهقي، وحديث الترمذي عنه غريب لا يعرف إلاَّ من رواية أبي الصديق الناجي، وقد اضطرب لفظه تارة يقول: «إذا اشتهى الولد» وتارة «إنَّه يشتهي الولد» وتارة «إنَّ الرجل من أهل الجنَّة ليولد له».

١- أورده الألوسي في تفسيره، ج٦، ص١٣٢. وقال: أخرجه جماعة من أئمـة السنَّة.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (٢٣) باب ما جاء لأدنى أهل الجنَّة من كرامة، رقم ٢٥٦٣، من حديث أبي سعيد.

٣- رواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (٢٣) باب ما جاء لأدنى أهل الجنَّة من كرامة، رقم ٢٥٦٣، من حديث أبي رزين العقيلي.

وقيل: «يأتينا فردا» عن ذلك القول بناء على أنَّ المراد به في الموضعين نفس القول لا مضمونه، فهو يبقى عن التلفُّظ بقوله: «لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا» وعلى اعتقاده حتَّى يأتينا بأن يموت فينفرد عنه وعن اعتقاده، وهو قول ضعيف لأنَّه يقول ذلك استهزاء وإنكارا للبعث، وقد يقال: يستمرُّ على قوله واستهزائه إلى أن يموت فردا عن ذلك الاستهزاء، وقد يقال ذلك مجاراة ومساوقة لكلام ذلك القائل.

وقيل: الإرث بمعنى الحفظ يحفظ قوله لنضرب به وجهه في الموقف، ويأتينا ولا ينال المال والولد، كما يقال: العلماء ورثة الأنبياء بمعنى يحفظون شرائعهم، ومن شأن ما ورث أن يحفظ لَكنَّ هذا الحفظ يغني عنه قوله عز وجل: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، ويحتمل أنَّه تمنَّى أن يعطى في الدنيا مالا وولدا حتَّى أقسم أن يعطاهما، فقال الله عز وجل: إنَّه ياتينا فردا عنهما ولو آتيناه، وهذا مع بعده ينافي ما تقرَّر أنَّ سبب النزول أنَّه أقسم أن يوتاهما في الآخرة.

﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

عاقبة من اتخذ الشياطين أولياء وغير الله إلها

﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ ءَالِهَةً﴾ من الجنِّ والملائكة والجماد، وهذا ذكر لكفر عامَّتهم بعد ذكر كفر خاصَّتهم ﴿لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ واسطة عزٍّ بأن يشفعوا لهم عند الله ﴿كَلاَّ﴾ نهيٌ لهم عن الطمع في العزِّ بعبادة غير الله عز وجل، وذلك من نهي الغائب ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ تقول الملائكة: لم نأمركم بعبادتنا، أو لم نعلم بها، وكذا ينكر من لم يعلم منهم، ويكذب من أمرهم بها

فيقول: لم نعلم بها و لم نأمركم، ويُنطق الله الجماد فتقول: لا علم لنا بها، كما قال الله ﷻ : ﴿فَأَلْقَوا اِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُم لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة النحل: ٨٦) والواو للآلهة المعبودين بتغليب العقلاء، وعلى أنّها الجماد فلتتريلها مترلة العقلاء على زعمهم، ويجوز أن تكون للكفرة العابدين كقوله تعالى: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ إذا فسَّرنا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بكفر المعبودين بعبادة العابدين لهم يكون المعنى: إنّ العابدين يكونون ضدًّا للمعبودين أعداء للمعبودين بعد أن أحبُّوا المعبودين حتَّى عبدوهم.

وإذا فسَّرناه بكفر العابدين يكون المعنى: إنّ الآلهة تكون ضدًّا للعزِّ الذي يرجى منها، وهو أن تكون هونا، كما روي عن ابن عبَّاس فهي تلعن العابدين وهي سبب للعنهم وآلة لعذابهم لأنّهم وقود النار وحصب جهنّم، لكن هذا في الأصنام خاصَّة، والمعنى: يظهر كونهم ضدًّا، ولا مانع من كون المعنى واحدا على التفسيرين بمعنى نفس التنافر ينفر المعبودون من العابدين والعابدون من المعبودين.

و«عَلَيْهِمْ» خبرٌ و«ضِدًّا» خبر ثان، أو حال من المستتر في «عَلَيْهِمْ» مؤكِّدة، يقال: الناس عليكم، وفي الحديث: «**اللهمَّ كن لنا ولا تكن علينا**» ومعناه العداوة والقصد بالسوء، أو الخبر «ضِدًّا» و«عَلَيْهِمْ» حال منه. وأُفرد «ضِدًّا» مع أنّ المراد أضداد لوحدة المعنى الذي يدور عليه، كما جاء في حديث النسائي عنه ﷺ : «**المسلمون يد على من سواهم**»[1]. وتفسير الضحَّاك ضدًّا بأعداء لا يوجب أن يكون جمعا لأنّه نقول إنّه تفسير بالمعنى، كما فسَّرنا «يَدًا» في الحديث بمعنى الجمع مع أنّه مفرد، واختير لفظ الإفراد للفاصلة وليوافق مقابله

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب الديات (١٣) باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم ٢٧٣٤، من حديث معقل بن يسار. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٦٦٥٣، من حديث عبد الله بن عمرو.

وهو «عِزًّا» إذ كان العزُّ ضدُّ الذلِّ المراد بالضدِّ.

(صرف) وعن الأخفش: الضدُّ للواحد والجمع كالعدوِّ، فيحمل في الآية على الجمع، وقد قيل: إنَّه مصدر في الأصل يحمل على الواحد وغيره.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ مكَّنَّاهم من إضلالهم وقرَّناهم بهم متسلِّطين ﴿تَؤُزُّهُمْ، أَزًّا﴾ تهزُّهم إلى المعاصي تهييجا لهم عليها شديدا بالوساويس، حال من «الشَّيَاطِين» ويجوز من الكافرين مقدَّرة، لأنَّ الأزَّ بعد الإرسال لا معه، أو مستأنفة جواب لقول ماذا تفعل بهم؟ بأنَّها تهزُّهم بأنواع الكفر: من الشرك وتقبيح الحقِّ وتحسين الباطل والعناد المفرط. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنَّك قد بلَّغت وإنَّ كفرهم لخذلاننا لهم بالشياطين، وتقرير له بالهمزة [الاستفهامية]، وتنبيه أو تعجيب مما ذكره قبل من قوله: ﴿وَيَقُولُ الانسَانُ﴾ إلى هنا، ومضمون هذه الآية وتذييل.

﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بطلب إهلاكهم والدعاء به، أو بانتظاره لتطهُر الأرض من خبائثهم كما يقتضيه عتوُّهم، وتأثير الأزِّ فيهم يقتضي العجل بهم، فنهاه الله عنه كقوله ﷻ : ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ (سورة طه: ١١٧) وعلَّل النهي بقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ لا يليق أن ننقص مما عددناه لهم، ولو يطول، وما بالعدد ينتهي، وكأنَّه انتهى، وهذا يدلُّ على التقليل من عرض.

قيل: وإذا قرأ ذلك ابن عبَّاس رضي الله عنه بكى وقال: «آخر العدد خروج نفسك، وآخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك»، وقرأها ابن السماك للمأمون فقال: «إذا كانت الأنفاس بالعدد، و لم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد؟!»، ولله درُّ من قال:

إنَّ الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بوّاب ولا حرس
وكيف يفرح بالدنيا ولذّتها فتى يُعدُّ عليه اللفظ والنفس

أو الآية من باب ذكر العدد تقليلا كقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (سورة البقرة: ١٨٤) و﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ (سورة يوسف: ٢٠) فيكون التقليل باللفظ لا من عرض، أو المعنى: إنّما نعدُّ لهم أعمالهم عدًّا للجزاء عليها.

﴿يَوْمَ﴾ اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم، أو متعلّق بـ«نَعُدُّ» باعتبار معنى المجازاة، أو بـ«سَيَكْفُرُونَ»، أو بـ«يَكُونُونَ»، أو بـ«يَمْلِكُونَ» بعدُ، أو يقدَّر: «يَوْمَ...» نفعل بالفريقين ما لا يحيط ببيانه كلام ﴿**نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا**﴾ نجمعهم إلى كرامة الرحمن، أو إلى ثواب الرحمن، أو إلى جنَّة الرحمن أو نحو ذلك، فذلك بتقدير مضاف أو كناية عن ذلك بلا تقدير.

ومقتضى الظاهر: «إلينا» ولكن ذكر ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أنّه يجمعهم من حيث كانوا إلى مَن شأنه الرحمة قبلُ وبعدُ ليرحمهم.

وكثر ذكر الرحمن في هذه السورة تعديدا للنعم الجسام ودعاء للشكر عليها، وزجرا عن الكفر بها تبشيرا بها. والوفد: جمع وافد كصَاحب وصَحب بفتح الصاد، وراكب ورَكب. وفي ذكره تبشير لأنَّ الوافد من يأتي الملك لجلب نفع، أو دفع ضرٍّ أو لهما، ومن شأنه أن يكون راكبا لا لزوما، فتفسَّر الآية بالركب لأنّها في مقام الإكرام.

وعن عليٍّ سألت رسول الله ﷺ عن الآية فقلت: هل الوفد إلاَّ الركب؟ فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنَّهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كلُّ خطوة**

منها مدُّ البصر ينتهون إلى باب الجنَّة»[1] رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن أبي الدنيا، وعن عليٍّ: «**على نوق رحالها من ذهب ونجائب سروجها يواقيت إن همُّوا بها سارت، وإن همُّوا بها طارت**» أي إن همُّوا بسيرها سارت وإن همُّوا بطيرانها طارت.

وكذلك فسَّر ابن عبَّاس الوفد بالركبان والنوق من الجنَّة كما رواه عبد الله ابن أحمد بن حنبل في ذلك الحديث لكن رواه موقوفا عن عليٍّ. وعن عمرو بن قيس: «يركبون على تماثيل تصوَّر من أعمالهم الصالحات في غاية الحسن». ويروى: «يركبون على ما أحبُّوا من إبل أو خيل أو سفن».

[قلت:] والحديث والآية في طائفة من المؤمنين لا يحاسبون، وإلاَّ فمن يكون من المؤمنين في المحشر والحساب من هذه الأمَّة فهم: السبعون ألفا، ومع كلِّ واحد سبعون ألفا لا يكتوون ولا يسرقون ولا يتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون، يدخلون الجنَّة بغير حساب وثلاث حثيات من حثيات الرب[2]، ولعلَّ هؤلاء الحثيات ما ورد من أنَّه زاده هكذا: فبسط باعه فحثا، والحامدون الله في السرَّاء والضرَّاء، والذينَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ...﴾ (سورة السجدة: ١٦)، و﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ...﴾ (سورة النور: ٣٧) ومن مات في طريق مَكَّة ذاهبا أو راجعا والمتعلِّم والمطيعة لزوجها، والبارُّ بوالديه، والرحيم الصبور.

أو المراد: ينتهون إلى الجنَّة بعد الموقف، وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة

١- أورده ابن كثير في تفسيره، ج٣، ص١٣٧.

٢- يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب ما جاء في الشفاعة، رقم ٢٤٣٧، عن أبي أمامة قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «وعدني ربِّي أن يدخل الجَنَّة من أُمَّتِي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كُلِّ ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثياته».

عن رسول الله ﷺ : «**يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا**» وفي الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، صنف ركبان، وصنف على وجوههم**» قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم، قال: «**الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم، أما إنَّهم يتقون بوجوههم كلَّ حدب وشوك**»[1]، ويحتمل أنَّ الآية في غير هؤلاء من المؤمنين، يحشرون على الدوابِّ إلى الموقف.

والوفادة تمثيل للإكرام لا تحقيق من كلِّ وجه، لأنَّ المتَّقين يذهبون إلى الرحمن يجزم أن لهم الخير وأنَّهم لا يفارقون المحلَّ، بخلاف وفد الدنيا فإنَّه يفارق المحلَّ.

وعكس ذلك في المجرمين فقال: ﴿**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾ عطاشا وأصله مصدر، وذلك مجاز لعلاقة اللزوم لأنَّه من يرد الماء يرده لعطش في الجملة، أو لا يطلق الورود في الماء إلاَّ للعطش. ويجوز أن يكون معنى ﴿وِرْدًا﴾ دوابّ ترد الماء، على التشبيه البليغ، وقوَّى التشبيه بحذف أداته وبذكر ما يناسبها، إذ قال: ﴿وَنَسُوقُ﴾، وذلك تحقير لهم، ولا سيما أنَّ المورود النار لا الماء، فانظر كم بين الآيتين؟ جعلنا الله من أهل الأولى [آمين]. وكلٌّ من الحشر والسوق بعد الحساب ووقوف المحشر.

١- رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن (١٨) باب: ومن سورة بني إسرائيل، رقم ٣١٤٢، من حديث أبي هريرة.

﴿**لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ**﴾ الواو للناس كلِّهم وكذا الجنِّ أو للمتَّقين، والمعنى: لا يملكون أن يشفعوا لأحد، أو الواو للمجرمين من أهل التوحيد والشرك، والمعنى: لا يملكون أن يشفع لهم أحد ﴿**إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا**﴾ استثناء متَّصل من الواو العائدة إلى العباد مطلقا. والعهد: ما وعد الله لهم من أن يشفعوا لغيرهم، ويقال: عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمر له به.

وعن ابن عبَّاس: العهد **لا إله إلاَّ الله متبعا بالأعمال الصالحات**، وروي: قرأ ابن مسعود الآية وقال: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم، ولا يقوم إلاَّ من قال في الدنيا: اللهمَّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنِّي أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا إنَّك إن تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشرِّ وتبعدني من الخير، وإنِّي لا أثق إلاَّ برحمتك فاجعل لِّي عندك عهدا تؤدِّيه إليَّ يوم القيامة إنَّك لا تخلف الميعاد» رواه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصحَّحه موقوفا.

وعن ابن مسعود أنَّه قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم: «**أيعجز أحدكم أن يتَّخذ كلَّ صباح ومساء عهدا عند الله؟**» قالوا: فكيف ذلك؟ قال: «**يقول كلَّ صباح وكلَّ مساء: اللهمَّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنِّي أعهد إليك بأنِّي أشهد أن لا إله إلاَّ أنت وحدك لا شريك لك، وأنَّ محمَّدًا عبدك ورسولك، وأنَّك إن تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشرِّ وتباعدني من الخير، وإنِّي لا أثق إلاَّ برحمتك، فاجعل لِّي عهدا توفِّينيه يوم القيامة إنَّك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع، ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كان لهم**

عهد عند الله فيدخلوا الجنَّة؟»[1] وأخرج ابن أبي شيبة والسّدِّي وابن جريج عن مقاتل: إنَّ العهد الصلاح، وقال الليث: حفظ كتاب الله.

أو العهد: الأمر والإذن، يقال: عهد الأمير إلى فلان بكذا وهذا نفس العهد وما قبله من الأوجه تشبيه به، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرجل من أمَّتي ليشفع في الفئام من الناس، فيدخلون الجنَّة بشفاعته وإنَّ الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنَّة بشفاعته**»[2] والفئام الجماعة، أي يدخلون على يده وهم من أهل الصلاح استحقُّوا التأخير لأمر مَّا فيعجَّل لهم على يده، أو يزاد لهم على يده درجات، أو تفخيم.

أو المراد بـ﴿مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ هو النبيء ﷺ ، والعهد: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (سورة الإسراء: ٧٩) والشفاعة هي العَامَّة بأن يأذن لهم بإذن الله في الشروع في الحساب، أو أن يأذن لهم في دخول الجنَّة بعد الفراغ منه، [قلت:] وهذا بعيد، وعليه فالاستثناء متَّصل إذا كان الواو للعباد أو للمتَّقين ومنقطع إذا كانت للمجرمين والمشركين، والأوجه السابقة أولى، والمعنى: لا يملكون إلاَّ شفاعة من اتَّخذ، والمراد بالعهد الإيمان، من إضافة المصدر إلى المفعول، أو لا يملك المتَّقون الشفاعة لأحد إلاَّ من اتَّخذ، وأجيز كون من فاعل «يَملكُ»، والواو علامة، وفيه أنَّ هذا خلاف الأصل وإنَّ هذه الواو تشير للجمع وهو تفصيل، وفي «مَنْ» عموم فيكون إجمال بعد تفصيل والمعروف عكسه.

١- أورده الألوسي في تفسيره، ج٦، ص١٣٨ وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصحَّحه من حديث ابن مسعود.

٢- أورده الألوسي في تفسيره، ج٦، ص١٣٨، ولم يخرِّجه من حديث أبي سعيد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

الردُّ على من نسب الولد إلى الله تعالى والتشنيع عليهم

﴿وَقَالُوا﴾ أي المشركون **﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾** قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: عيسى ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا.

أفرطت النصارى في حبِّ المسيح عليه السلام حتَّى اتَّخذوه إلها، وأفرطت اليهود في حبِّ عزير حتَّى اتَّخذوه إلها، وأفرطت الشيعة في حبِّ عليٍّ حتَّى أدَّعى له أوائلهم الأُلوهيَّة، وتالوهم النبوءة، ومَن بعدهم الإمامة قبل غيره وأنكروا غيره.

[قلت:] فهم الآن في الطواف يقولون: الحمد لله الذي جعل الإمام عليًّا، وإنَّما هو إمام تحقيقا لكنَّه بعد الإمام عثمان، وقبَّح الله عز وجل من يطوف بهم مع تلك الكلمة و**كلٌّ من الإفراط والتفريط تخليط.**

وروي عن الإمام عليٍّ موقوفا ومرفوعا: «أحبب حبيبك هونا مَّا عسى أن يكون بغيضك يوما مَّا، وأبغض بغيضك هونا مَّا عسى أن يكون حبيبك يوما مَّا» وأحسن الأمور -كما شهر- أوسطها، كما روي: إنَّ الصدِّيق فسح لعليٍّ إذ لم يجد له موضعا في مجلس النبيء صلى الله عليه وسلم وقال: «هنا أبا الحسن» فسرَّ النبيء صلى الله عليه وسلم بالفسح وبالتكنية، فقال: «**أهل الفضل أولى بالفضل، ولا يعرف أهل الفضل**

إلاَّ أهل الفضل» وعنه ﷺ : «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[1] وعن سفيان ابن عيينة: «من تهاون بالإخوان ذهبت مروءته، ومن تهاون بالسلطان ذهبت دنياه، ومن تهاون بالصالحين ذهبت آخرته».

ردَّ الواو إلى هؤلاء لظهور أمرهم وذكره هنا في القرآن، وقيل: الواو للمجرمين وقيل: للكافرين، وقيل: للظالمين، لتقدُّم ذكر هذه الأسماء، ولو أريد بهم هنا من ذكرت من اليهود والنصارى والعرب، وقيل: للعباد عموما المدلول عليهم بالفريقين، حكما على المجموع بحكم البعض، ذكر جناية هؤلاء عقب جناية من عبد غير الله لتناسبهما.

﴿**لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا اِدًّا**﴾ عجبا، وصف به مبالغة كأنَّه نفس العجب، وقيل: منكر، وقيل: شدَّة. وهذا التفات إلى الخطاب عن الغيبة تغليظا كما تتكلَّم في شأن إنسان ثمَّ تواجهه، وإن قدِّر: «قل لهم لقد...»الخ فلا التفات.

﴿**يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ**﴾ نعت ثان لشيء، أو نعت لـ«إِدًّا» أو مستانف. و﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: يتشقَّقن مطلقا، وقيل: التفطُّر الانشقاق طولا، والصحيح الأوَّل، والتفطُّر على ظاهره وكذا الانشقاق والخرُّ بأن يخلق الله لهنَّ التمييز فيكرهن الكفر، وهو قول ابن عبَّاس، قال: وكذا كلُّ شيء غير الثقلين، وقيل: ذلك **استعظام للكلمة وتهويل لأمرها**، وقيل: المعنى: كدت أفطر السماوات وأشقُّ الارض، وأخرُّ الجبال لتلك الكلمة، ويختصُّ بالتفطُّر الجسم الصلب، فلا يقال: ثوب مفطَّر بل مشقوق، والأرض دون السماء في الصلابة، فعبَّر لذلك به في السماء وبالانشقاق في الأرض.

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب (١٩) باب: إذا اتاكم كريم قوم فأكرموه، رقم ٣٧٧٩، من حديث ابن عمر.

وقال: ﴿وَتَنشَقُّ الأَرْضُ﴾ وعبَّر هنا في السماء بالتفعيل وفي الأرض بالانفعال لأنَّه أبلغ من الانفعال، ودالٌّ على الكثرة، والسماوات كثيرة لأنَّهنَّ سبع، وهذه الارض واحدة، أو كثَّر الشقَّ أيضا في كلِّ سماء بمزيد طوله، أو كثرة مواضعه منهنَّ، وأيضا لم تألف السماء المعصية فيتأثَّر فيها أثرا عظيما ما وقع من المعصية، ولو قليلا أكثر مما يؤثِّر ما كثر منها في الارض لأنَّها اعتادها من الإنس والجنِّ.

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ مفعول مطلق أي خرًّا، وهو من الهدِّ اللازم، أو مفعول من أجله على أنَّه من المتعدِّي كقوله: «قد هدَّ قدْمًا عرش بلقيس هدهد» على قول من لم يشترط فيه اتحاد الفاعل، وقد يتَّحد على اللزوم، أي تخرُّ لقبولها الانهدام.

(صرف) وزعم بعض أنَّ الهدَّ المتعدِّي ولو لم يكن من فعل الجبال لكن إذا هدَّها أحد يحصل لها الهدُّ فصحَّ أن يكون مفعولا له متَّحد الفاعل وهو ضعيف، لأنَّ حصول الهدِّ لها ليس فعلا لها، نعم مطاوعتها وانفعالها كفعل. ومعنى «تكاد»: تقرب تحقيقا بأن خلق فيهنَّ تمييزا ولكن أمسكهنَّ عن التفطُّر والانشقاق، كما روي: «إنَّهنَّ يستأذنَّ الله في إهلاك العاصي»، ومثل ما روي عن ابن عبَّاس: «إنَّهنَّ يكدن يزلن تعظيما لله»، وما روي عن ابن مسعود: «من أنَّ الجبل ينادي الجبل باسمه: يا فلان هل مرَّ بك اليوم من ذكر الله؟ فإن قال: نعم استبشر»، أو ذلك كناية عن غضب الله عن ذلك القائل لذلك.

﴿اَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ تعليل لقوله «يكاد» فينسحب التعليل على ما بعد بمرَّة ولو جعل تعليلا لـ«يَتَفَطَّرْنَ» أو لـ«تَخرُّ» لقدِّر لغيره فيكثر التقدير، وذلك أنَّ كلاًّ من «تَنشَقُّ» و«تَخِرُّ» و«يَتَفَطَّرْنَ» مستحقٌّ للتعليل، وتقديره: لأن دَعَوا، ولا يتكرَّر هذا التعليل مع التعليل بقوله: «مِنْهُ» لأنَّ هاء

«مِنْهُ» عائدة إلى القول، لأنَّ هذا التعليل متسلِّط على «يَكَادُ» وعلى تعليله بمن أي يتفطَّرن لقولهم لتضمُّنه دعوى الولد للرحمن ولا إشكال، أو مصدر ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ بدل من الهاء فلا تقدَّر اللام، وإن قدِّرت كانت هي ومدخولها بدلا من جملة قوله: «منه» واستبعد للفصل.

(نحو) وقيل: خبر لمحذوف أي الموجب لذلك دعواهم للرحمن ولدا، وفيه أنَّ إيجاب ذلك حاصل بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا ادًّا﴾. ومعنى ﴿دَعَوْا﴾: سمُّوا، وله مفعولان حذف الأوَّل أي سمُّوا عيسى وعزيرا والملائكة ولدا، فلعلَّ الحذف للعموم، أو نزِّل مترلة المتعدِّي لعدم تعلُّق العهد بالأوَّل، وإنَّما القصد الردُّ عليهم في إثبات الولادة لله سبحانه وتعالى، وقد يتعدَّى للثاني بالحرف، نحو: سمَّيت ابني بعبد الله، أو معناه: نسبوا، فله [مفعول] واحد، و«لِلرَّحْمَنِ» متعلِّق بـ«دَعَوْا» أو حال من «وَلَدًا».

(صرف) ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَنْ يَّتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الجملة حال من واو «دَعَوْا» أو من واو «قَالُوا». وسُمِعَ انبغَى وهو مطاوع «بغى» أي طلب، وهو لا يتصرَّف إذ لم يسمع إلاَّ ماضيه مع القلَّة وهو «انبغى». وضع «الرحمن» موضع الضمير لأنَّ المعنى: لا يليق لمن النعم كلُّها منه الولادة لاقتضائها الفناء والجزئيَّة والجنسيَّة والحلول والتحيُّز، و«أَنْ يَّتَّخِذَ» في تأويل مصدر فاعل.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ من الإنس والجنِّ والملائكة، ما واحد منهم ﴿إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ مملوكا إتيان انقياد لقضائه وقدره، وهذا أولى من أن يجعل إتيان حسٍّ بمعنى آتي المحشر منقادا، لا يدَّعي لنفسه ما ليس له كالأُلوهيَّة والبنوَّة لله سبحانه ﴿لَقَدَ اَحْصَاهُمْ﴾ أحاط بهم ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عدَّ أشخاصهم وأفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (سورة الرعد: ٨) .

﴿**وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ**﴾ أبلغ من يأتيه ﴿**يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾ لا يقصد اثنان المصاحبة في الذهاب إلى الموقف، ولا المعبودون بعبَّادهم، والعباد بمعبوديهم، ولا ناصر بمنتصر ومنتصر بناصر، كلٌّ واحد منقطع عن غير الله، ولا ينتفع عابد بمعبود.

وأفرد «آت» للفظ «كلّ»، ولو قيل: آتوه مراعاة لمعناه لجاز، وقد ورد في بعض كلام العرب، بل قد روعي المعنى في قوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُم﴾ ومنه قوله ﷺ : «**كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنَّة إلاَّ من أبى**»[1] كما في البخاري.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

محبَّة الله للمؤمنين وتيسير القرآن للذكر

﴿**انَّ الذينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا**﴾ حبًّا في القلوب دنيا وأخرى لإيمانهم وصالح أعمالهم، أمَّا في الدنيا فلقوله ﷺ : «**إذا أحبَّ الله عبدا** ـــ أي بلغ درجة الحبِّ ـــ **أمر الله جبريل أن ينادي في الملائكة: إنَّ الله أحبَّ فلانا فأحبُّوه فيحبُّونه، فيوضع له القبول في الأرض**» وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**إذا أحبَّ الله** سبحانه وتعالى **عبدا دعا جبريل** عليه السلام **فيقول له: إنَّ الله يحبُّ فلانا فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله يحبُّ فلانا فأحبُّوه فيحبُّه أهل السماء، ثمَّ يوضع له القبول في الأرض**»[2] وفي رواية لمسلم زيادة: «**وإذا أبغض الله عبدا**

١- رواه **البخاري** في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (٢) باب الاقتداء بسنن رسول الله... رقم ٦٨٥١، من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٧٠.

دعا جبريل عليه السلام **فيقول: إنِّي أبغضت فلانا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثمَّ ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يبغض فلانا فأبغضوه، ثمَّ يوضع له البغضاء في الأرض**»[1]، وذلك [الودُّ] تسلية لهم عن بغض المشركين لهم. والسين للاستقبال.

(سيرة) لَمَّا هاجر جعفر رضي الله عنه ومن معه إلى الحبشة أحبَّهم النجاشي ومن على طريقته، وآمنوا، ولَمَّا هاجر النبيء ﷺ منها إلى المدينة أحبَّهم الأنصار ومن آمن من أهل الكتاب، وظهر حبُّهم وزاد، وقد أحبَّهم الأنصار قبل الهجرة وشاع فيهم، ولَمَّا هاجر عبد الرحمن بن عوف توحَّش من فراق شيبة بن ربيعة وعقبة بن ربيعة وأمية بن خلف فعوَّضه الله حبَّ المؤمنين.

وانظر أبيات زيني بن إسحاق النصراني الرعيني:

«عديٌّ وتيم لا أحاول ذكرهم بسوء ولكنِّي محبٌّ لهاشـــم»...إلخ

وكنت مولعا بها، وذكرتها في ردِّ الشرود، ثمَّ رأيت بعض المتأخِّرين البغداديِّـــين يقول: أظنُّها موضوعة من الشعية، وليس كذلك بل صحيح لورود أمثال ذلك من النصارى، وأمَّا في الآخرة فحين يكونون في الجنَّة على سرر متقابلين، وحين تعرض قبل ذلك حسناتهم على رؤوس الأشهاد. وقد جاء: يا رحمن الدنيا والاخرة ورحيمهما.

آنس الله المؤمنين بأن يعوَّضوا حبًّا ونصرا دنيا وأخرى، ويُخْزِيَ الكافرين ويُبْغَضُون ويُذَلُّون.

﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بلِسَانِكَ**﴾ يسَّرنا القرآن بلغتك، أطلق اللسان على اللغة لأنَّ اللسان آلة النطق بها، والباء بمعنى على، أو للإلصاق لتضمُّن «يَسَّرْنَا» معنى

١- رواه **مسلم** في كتاب البر والصلة (٤٨) باب إذا أحبَّ الله عبدا حببه إِلَى عباده، رقم ٢٦٣٧، من حديث أبي هريرة.

أنزلنا. والفاء تعليل لمحذوف هكذا: بلِّغ القرآن لأنَّا يسَّرناه بلسانك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ السابق لهم التقوى المتَّصفين بها، فهو حقيقة، أو الذين يؤول أمرهم إليها فهو من مجاز الأوْل، أو استعمل اسم الفاعل للاستقبال ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ معاندين شديدي الخصام بالباطل لا يؤمنون به، وهم أهل مكَّة، والمفرد «ألدُّ» والأصل: شديد صفحة العنق يبعد صرفه عمَّا أراد، أو الأخذ في كلِّ لديد أي جانب بالخصام. وتفسير ابن عبَّاس بالظلمة، ومجاهد بالفجار، والحسن بالصمِّ، وأبي صالح بالعوج، تفسير بالمعنى واللازم لا بالمعنى اللغوي.

﴿وَكَمَ اهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ ووعيد لكفَّار مَكَّة، وحثٌّ على الإنذار والتخويف بالقرون المهلكين الكثيرين قبلهم لكفرهم ﴿هَلْ﴾ الاستفهام للنفي أي ما ﴿تُحِسُّ﴾ ببصرك أو يدك ﴿مِنْهُم﴾ حال من قوله «أحد» في قوله: ﴿مِّنَ اَحَدٍ﴾ مفعول به، و«مِن» صلة ﴿اَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ﴾ متعلِّق بـ«تَسْمَعُ» واللام بمعنى «مِن»، أو على ظاهرها متعلِّق بمحذوف حال من قوله: ﴿رِكْزًا﴾ صوتا خفيًّا.

(لغة) وأصل الركز: الخفاء بصوت أو غيره، كما يقال: ركَّزت الرمح أي أخفيت طرفه، وكما أنَّ الرِّكاز المال المدفون، وخصَّ بعضهم الرِّكْز بالصوت الخفيِّ بلا لسان ولا فم، والجمهور على الإطلاق، وخصَّ الصوت الخفيَّ لأنَّه الأصل والأكثر، ولأنَّه إذا لم يبق الأثر الخفيُّ فأولى أن لا يبقى غيره، أو لا تسمع من غيرهم عنهم ذكرا خفيًّا، فكيف جهيرا، فاللام بمعنى «عَن».

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

تفسير سورة طه وآياتها ١٣٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨)﴾

نزول القرآن تذكرة من خالق السماوات والأرض

﴿**طه**﴾ قيل: لا يقرأ أهل الجنَّة من القرآن إلاَّ طه ويس، رواه أبو أمامة مرفوعا، قال الدارمي وابن خزيمة في التوحيد والطبراني في الأوسط والبيهقي والشعبي وغيرهم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**خلق طه ويس** ـــ وحرَّفوه إلى «قرأ» بدل «خلق» ـــ **قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، وقالت الملائكة: طوبى لأمَّة ينزل عليها هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تتكلَّم بهذا**»[1].

ومعنى «طه»: يا رجل أو يا إنسان عند مجاهد والحسن والضحَّاك وعطاء وغيرهم، وذلك بالسريانيَّة، وقيل: بالقبطيَّة، ويقال: اتـــَّفَقَت معها لغة العرب، وحذف حرف النداء؛ أو يا محمَّد؛ أو هذه سورة تسمَّى طه؛ أو اسم لله بمعنى:

١-رواه **الدارمي** في كتاب فضائل القرآن (٢٠) باب في فضل سورة يس وطه، من حديث أبي هريرة، مع اختلاف في اللفظ. وأوَّل الحديث عنده: «إنَّ الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس...».

أقسم بنفسي؛ أو الطاء أمر من وطي بالياء بدلا من الهمزة، أمره بأن يطأ الأرض بقدميه، وكان يقوم في الصلاة على واحدة، و«هاء» ضمير الأرض.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ لتتعب بالشدَّة في مقابلة الكُفَّار والتأسُّفْ على كفرهم، ونهك البدن بالعبادة بقيام الليل، وكان يصلِّي حتَّى تورَّمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام: «أبق على نفسك إنَّ لنفسك عليك حقًّا». ومن التعب بالقلب قول الشاعر المتنبِّي:

وذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

لَمَّا رأوا ذلك التعب منه قال أبو جهل والنضر بن الحرث والمطعم: «في تركك ديننا شقاء». أو الشقاء: ضدُّ السعادة. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشَىٰ﴾ استثناء منقطع، أي لكن تذكيرا لمن شأنه أن يخشى الله، أو هو في الحال خاش، أو كتب له الله الخشية، وخُصَّ الخاشي مع أنَّ القرآن للكلِّ لأنَّه المنتفع به، وغيره كالعدم.

(نحو) ويجوز أن يكون مفعولا من أجله بمحذوف، أي أنزلناه تذكيرا، أو إبدالا على المعنى كما لم يتَّحد الأَوَّل مع العامل فاعلا جرَّ باللام، وَلَمَّا اتَّحَدَ الثاني نصب، أو نصب تعليلا لمجموع الأوَّل وعامله، نحو: أكرمته لكونه غريبا رجاء للثواب، أي قصدت غربته في الإكرام لرجاء الثواب. أي انتفى الإشقاء بإنزاله ليتمحَّض للتذكرة. ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه تعليل لـ«تَشْقَى» لأنَّ الشقاء للنفي والتذكرة مثبتة، واللام للتقوية، أو متعلِّقة بمحذوف نعت لـ«تَذْكِرَةً».

ولقارئ القرآن ثواب ما قرأه وقلبه حاضر بلا إشكال، وأمَّا ما لم يحضر معه قلبه فله ثوابه بلا إشكال، [قلت:] إن كان غيوبة قلبه عن عجز وضعف قلبه لا تهاونا، وعلى هذا يحمل حديث: «**إذا اختلفتم فقوموا فإنَّه لا أجر**

لكم»[1]، أي اختلفتم بألسنتكم مع قلوبكم وذلك قصد الثواب، فلا يبطله عدم حضور قلبه مع حرص على أن يحضر.

وذكر ابن أبي الصيف[2]: «إنَّه يكفى من العبادة قراءة القرآن وقول «حسبي الله لا إله إلاَّ هو...» سبعا في الصباح والمساء» لأنَّ العبادات غير هذين يشترط فيها حضور القلب.

وتلاوة القرآن قد جاء أنَّها أعظم القرب بفهم وبغير فهم، وقائل: «حسبي الله...» قد جاء أنَّ الله يكفيه ما يهمُّه صادقا كان به أو كاذبا، أي قاله مع تقصير، ورأى بعض العلماء النبيء ﷺ في النوم فسأله عن ثواب قارئ القرآن؟ فعدَّ له شيئا كثيرا في الدنيا والآخرة، وقال: بحضور قلب وبغير حضور قلب؟ قال: بفهم وبغير فهم، [قلت:] **والرؤيا لا تكون حجَّة.**

﴿**تَنزِيلاً**﴾ مفعول مطلق لـ«أَنزَلْنَا» المذكور، ولو اختلف وزن التفعيل والإفعال، والمعنى واحد هنا، أو لمحذوف، أي نزَّلنا تنزيلا، أو مفعول به لـ«يَخْشَى» ولو اختلفا بأنَّ أحدهما آخر آية والآخر أوَّل آية.

[قلت:] وليس المعنى يتمُّ به في كلِّ آية على حدة، وكم آية تمَّ المعنى بآية بعدها، ولا يضرُّنا أنَّ تعليق الخشية بمطلق التنزيل غير معهود، ولا يخفى حسن

١– رواه **البخاري** في كتاب فضائل القرآن (٣٧) باب: اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، رقم ٥٠٦٠ و٥٠٦١. **ومسلم** في كتاب العلم باب النهي عن اتِّبَاع متشابه القرآن، رقم ٢٦٦٧. **والدارمي** في كتاب فضائل القرآن (٧) باب: إذا اختلفتم بالقرآن فقوموا، رقم ٣٣٦٠ و٣٣٦١ من حديث جندب، وأوَّل الحديث عنده هو: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم...».

٢– محمَّد بن إسماعيل بن علي ابن أبي الصيف، فقيه شافعي يمني، له علم بالحديث أصله من زبيد، أقام بمكة وتوفي بها سنة ٦٠٩.

أن يقال: إلاّ تذكرة لمن يخشى المترّل من قادر قاهر، كما قال: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الاَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ فإنّ هذا متعلّق بـ«تترِيلاً»، ويجوز جعله نعتا لـ«تترِيلاً» المنكر للتعظيم، أي تترِيلا عظيما من عظيم قادر على السماوات والأرض، وهو على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الظاهر، ليصف نفسه بخلق الأشياء العظيمة، و لم يذكر ما فيهما لتبعيَّة ما فيهما لهما، كما قال: ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾، وقيل: المراد وما في جهة السفل والعلوِّ، فشمل ما فيهما والعرش والكرسيَّ.

و«الأرض» أرضون، وقدَّم الأرض لتقدُّمها في الخلق لقوله تعالى: ﴿قُلَ اَيِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الاَرْضَ﴾(سورة فصلت:٩) وقوله عزّ وجلّ: ﴿الذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الاَرْضِ﴾(سورة البقرة:٢٩) والأظهر لكون السماء أشرف أن تخلق أوَّلا، كما خلق روحه صلّى الله عليه وسلّم ونوره أوَّلا لشرفهما فنقول: «ثُمَّ» للترتيب الذكري فتتحصَّل على قوله تعالى: ﴿وَالاَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾(سورة النازعات:٣٠) لكن لا يبعد جعل بعد للترتيب الذكري، كما تقول: زوجتك وأنعمت عليك، وبعد ذلك ولدتك وربَّيتك، إلاّ أنّه أبعد من جعل «ثمّ» للترتيب الذكري.

أو يقال: ذكر تقديم السماء باعتبار تقديم مادَّها خلقا، وأخِّرت باعتبار تصويرها، وكذا الأرض بحسب المقامات، فيجمع بذلك بين الآيات، أو قدِّمت الأرض هنا **لأنَّ الأرض أظهر في الإنعام للخلق لظهور الرحمة فيها**، ولأنّا خلقنا منها، ولا سيما إذا جعلنا لفظ قوله «ها» من قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾(سورة طه:٥٥) ضمير الأرض، ويجوز أن يكون الأرض شاملا لسبع أرضين، ومع هذا ينتفع بالعليا منهنَّ وهي هذه. و«العُلاَ» نعت للسماوات وحدها، جمع العليا، وعظم المترّل بما ذكر وبما بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾.

(نحو) ﴿الرَّحْمَـٰنُ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أو يقدَّر هو الرحمن، أو بدل من المستتر في «خَلَقَ»، على وضع الظاهر موضع المضمر، كأنَّه قيل: تنزيلا ممن خلق الرحمنُ السماوات برفع الرحمن تنزيلا منزلة رابط الصلة، كقوله: «وأنت الذي في رحمة الله أطمع» أي في رحمته، **وما تقدَّم أولى.** و«استوى» خبر ثان لـ«الرَّحْمَنُ» إذا قدِّر: هو الرحمن، وعلى الإبدال يقدَّر: هو استوى.

والعرش في اللغة: سرير الملك، وفي الشرع [قيل:] سرير ذو قوائم تحمله الملائكة عليهم السلام فوق السماوات كالقبَّة، كما خلق الله الغار في الجبل، وليس الله حالاً فيه ولا فوقه.

(أصول الدين) **ومعنى استوائه على العرش أنَّه ملكه.** روي أنَّ الحسن يعظ الناس فوقف عليهم أعرابيٌّ فقال: يا أبا سعيد، أجلس ربُّنا على العرش؟ فغضب، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد لقد رأينا صدر هذه الأمَّة يغض أحدهم السؤال عن الله ﷻ ثمَّ يجيب فأجب إن كان عندك جواب» فعرف الحسن أنَّه أساء، فقال الأعرابي: إيَّاكَ أسأل يا يزيد رحمك الله، فقال: «يا لكع إنَّما يقوم من يملُّ القعود ويعقد من يملُّ القيام» قال: فمتَّكئ هو؟ قال: إنَّما يتَّكئ من يملُّ القعود والقيام، قال: أمتَّصل هو بعرشه؟ قال: سبحان الله تبًّا لكم إنَّما يتَّصل بالمخلوق من هو مخلوق، وأمَّا الربُّ سبحانه فلا مثل له، ولا يتَّصل بشيء ولا يمسُّه شيء، ولا يناله شيء، وهو أعزُّ وأمنع أن يتنزَّل بحالة الاتِّصال، قال: أمنفصل هو؟ قال: ويحك إنَّما ينفصل ما يحدُّ بحدود ولا حدَّ لله تعالى ولا غاية، قال: سبحان الله هو لا قائم ولا قاعد ولا متَّكئ ولا مضطجع ولا متَّصل ولا منفصل فكيف هو؟ قال: لا كيف له، ويحك أتدري ما الكيف؟ قال: لا قال: إنَّما الكيف في الغائب إذا استوصف فيوجد له في

الحاضر فيقول الواصف: هو كذا أو مثل كذا، وأمَّا الربُّ عَزَّ وَجَلَّ فلا مثل له فيما غاب، ولا فيما بقي، ولا يقال له كيف؟ ولا يطلب بالكيف، إنَّما يراد بالكيف الشِّبه والعدل والله تعالى **ليس كمثله شيء**.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد: جاء يهوديٌّ إلى النبيء ﷺ يشكو صحابيًّا لطم وجهه فقال ﷺ : لم لطمت وجهه؟ فقال: سمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر فغضبت وقلت: يا خبيث أصطفاه على محمَّد ؟! فلطمته غيرة، فقال ﷺ : «**لا تُخيَّروا بين الأنبياء فإنَّ الناس يصعقون وأكون أوَّل من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور**»[1] فذكر للعرش قوائم، وإنَّما نهى عن التخيير قبل أن يترل عليه أنَّه سيِّد ولد آدم، وأنَّه إمام الأنبياء ونبيئهم، ونحو ذلك في أحاديث.

[قلت:] وانظر أيّ تخيير في الحديث فكأنَّه فهم أنَّ اليهودي أثبت الرسالة لسيِّدنا محمَّد إلى غير اليهود، وفضَّل موسى عليه، والصحابيُّ أراد تخييره ﷺ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وهو على قدر سعة السماء السابعة فيكون ما رواه أبو ذرٍّ وغيره أنَّ الكرسيَّ فيه كحلقة في فلاة، والسماوات والأرض في الكرسيِّ كحلقة، باعتبار علوِّ قبَّته، وزعمت طائفة من المتكلِّمين أنَّ العرش محيط بالعالم كلِّه من كلِّ جهة وأنَّه الفلك الأطلس والفلك التاسع، ويردُّه ما صحَّ بالقرآن أنَّ الملائكة

١-رواه **البخاري** في كتاب الخصومات (١) باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة... رقم٢٤١٢. **ومسلم** في كتاب الفضائل (٤٢) باب من فضائل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، رقم ١٦٣، من حديث أبي سعيد.

تحمله، وما جاء عن جابر بن عبد الله أنَّ العرش اهتزَّ لموت سعد بن معاذ، والفلك التاسع عند هؤلاء متحرِّك دائما حركة متشابهة، وقد يجاب بأنـّه تحرَّك يوم مات حركة زائدة، وحمل حركته له على الاستبشار يحتاج إلى دليل، وأيُّ دليل على أنَّ الأفلاك تسعة وأنَّ التاسع أطلس.

[قلت:] وتفسير العرش بالملك ينافيه حمل الملائكة له، وحديث أخذ موسى بقائمة منه، وحديث اهتزاز العرش لموت سعد، وحديث: «**خلق الله الخلق، وكتب في كتاب: إنَّ رحمتي سبقت غضبي ووضعه فوق العرش**»[١]، وإنَّه خارج عن خطاب العرب في الظاهر، ولو كانت تعرف أيضا العرش بمعنى الملك، فنصير تارة إلى تفسيره بالسرير المذكور الشرعي، وتارة إلى تفسيره بالملك، وهذا خلاف الظاهر.

(أصول الدين) واستواء الله على هذا الجسم العظيم ملكه إيـّاه تعالى الله عن الحلول، ونحمل آيات القرآن على ظاهرها إلاَّ ما يوجب التشبيه فنؤوِّله. وروي عن عليٍّ بن أبي طالب: «الاستواء غير مجهول، والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، لأنَّه تعالى كان ولا مكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغيَّر عما كان»، وهو كلام حقٌّ إلاَّ قوله: «والسؤال عنه بدعة» فلعلَّه موضوع، وشهر قوله: «السؤال بدعة» عن الإمام مالك في الرؤية[٢].

[قلت:] وحسن جدًّا قول عليٍّ: «هو على ما كان قبل خلق المكان» وقد نفى به وبقوله: «التكييف غير معقول» إمكان الاستواء المعقول،

١- تقدَّم تخريج ما يشبهه لفظا في ج٤، ص٢٢٣.

٢- راجع القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ج٧، ص٢١٩-٢٢٠. وقد تقدَّم الحديث في الموضوع في ج٥، ص٧٥، تفسير آية رقم ٥٤ من سورة الأعراف.

ورجع إلى معنى الملك.

[قلت:] ومذهبنا ومذهب أبي الحسن الأشعري تأويل المتشابه، وكانت مالكية المغرب ينزّهون الله عن ظاهر المتشابه ويعرضون عن تأويله، إلى أن ظهر مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة، خرج إلى المشرق فأخذ التأويل عن علماء مذهب أبي الحسن الأشعري، ثمّ عاد إلى المغرب فنشر به تأويل المتشابه بما في كلام العرب من التفنُّن والمجاز، فسمِّي أتباعه موحِّدين تعريضا بأنّ مخالفيهم بعدم التأويل بالوقف إيمانهم كلا إيمان، وهلك من أبقاها على ظاهرها وزاد بلا كيف. وقدَّم «عَلَى الْعَرْشِ» على متعلّقه للفاصلة.

(نحو) ويبعد أن يكون فاعل «اسْتَوَى» هو «مَا» من قوله تعالى: ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾ فيتعلّق له بـ«اسْتَوَى»، ويكون على العرش خبرا لـ«الرَّحْمَن»، فيكون كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾(سورة البقرة:٢٩ وسورة فصلت:١١) أي استقام له ما في السماوات.

وكذا يبعد أنّ المعنى: استوى إليه ما في السماوات...الخ لا يكون شيء أقرب إليه من آخر، وإن أراد قائل ذلك الخروج عن التشبيه فقد كفاه التأويل بالاستيلاء، وإلاّ فما يقول في دعواه أنّ الرحمن على العرش؟ ولا بدَّ له من التأويل فيه، لأنّه لم يجعل الخبر «اسْتَوَى»، والصواب أنّ «لَهُ» خبر لـ«مَا»، وقُدِّم للحصر، أي له لا لغيره ــــ استقلالا ولا شركة ــــ ما فيهما ملكا وتصرُّفا وخلقا.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالسحاب والهواء والريح ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ التراب كلُّه ومنقطعه، وذلك ما تحت الأرض السابعة.

(قصص) وهو صخرة خضراء كما رواه ابن عبَّاس ومحمَّد بن كعب، وقال جابر بن عبد الله: سئل رسول ﷺ : ما تحت الثرى؟ فقال: الماء، فقيل: وما تحت الماء؟ قال: ظلمة قيل فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء قيل: فما تحت

الهواء؟ قال: الثرى قيل فما تحت الثرى قال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق؟[1]. وعن ابن عبَّاس: الأرضون على ظهر الثور والثور على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في سورة لقمان، وذكر بعض أنَّ الصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت الثرى إلاَّ الله تعالى.

وقيل: ﴿الثَّرَى﴾: التراب الندي دون أن يكون طينا، ويجوز أن يكون المراد مطلق التراب بمعنى ما ستره التراب فيكون قد ذكر ما على ظهر الأرض وما في باطنها، والمراد أنَّ **ما ذكر في الآية كلُّه ملك له تعالى**، ويجوز أن يكون المراد أنَّ له علم ذلك، والأوَّل هو المتبادر، فيكون العلم في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ**﴾ فهو محيط بذلك ملكا وعلما، والخطاب لسيِّدنا محمَّد ﷺ، أو اللفظ له والمراد هو وأمَّته، أو للإنسان، والمتبادر أنَّه ﷺ المراد لموافقته قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

﴿**فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ**﴾ ما لم ترفع به صوتك أو ما تكلَّمت به بتحريك لسانك دون أن تسمع أذنك، كما قال أبو هريرة: «إنَّه كلام ونطق» ﴿**وَأَخْفَى**﴾ اسم تفضيل منكَّر تعظيما، أي وشيئا أخفى من ذلك، وهو ما في قلبك دون تحريك لسانك، وزاد سعيد بن جبير على ذلك: ما سيكون في قلبك ولا تنطق به؛ وقيل: السرُّ ما أخفيته في نفسك والأخفى ما خطر ببالك ونسيته.

وعن ابن عبَّاس: ﴿السِّرَّ﴾: ما تسرُّ في نفسك ﴿وَأَخْفَى﴾: ما يحدث بعد فيها، وعنه: السرُّ: ما في نفسك والأخفى: ما ستفعله، وقيل: ﴿السِّرَّ﴾: ما أسرَّه

١- هذا من خيال القصاصين، ويبعد أن يكون من صاحب الوحي عليه السلام وكذا ما بعد مما نسب لابن عبَّاس.

إلى غيره ﴿وَأَخْفَى﴾: ما في نفسه، وقيل: السرُّ: ما يفعل في خفاء عن الناس والأخفى: الوسوسة، وذلك كلُّه في الطاعة والمعصية والمباح، وقيل: ذلك ترغيب في الطاعة وزجر عن المعصية ظاهرة أو باطنة.

وعن زيد بن أسلم: «أخفى» فعل ماض معطوف على «يَعْلَمُ» بمعنى أنَّه يعلم الخلق وما عند الخلق، وأخفى عن الخلق ما عنده، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(سورة طه: ١١٠) وهو معنى صحيح بعيد عن لفظ الآية.

والقول: مطلق الكلام، فدخل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ودعاؤه بالأولى وبالذات، لأنَّه صلى الله عليه وسلم يجهد الدعاء[1] وبتبليغ القرآن، حتَّى إنَّ بعضا خصَّ القول بذكره صلى الله عليه وسلم لله عَزَّوَجَلَّ ودعائه إيَّـاهُ، على أنَّ «الـ» للعهد، والله يعلم السرَّ وأخفى بالدعاء، **جهر الناطق أو أسرَّ ولا يتوقَّف علمه على الجهر**، فالجواب محذوف، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ تعليل.

والتقدير: وإن تجهر بالقول فاعلم أنَّ الله يعلم السرَّ وأخفى، فكيف لا يعلم الجهر؟ والثلاثة عنده سواء، أو إن تجهر فاعلم أنَّ الله غنيٌّ عن جهرك لأنَّه يعلم السرَّ وأخفى.

(فضل الجهر) وخصَّ الجهر بالذكر لأنَّه الأكثر في الناس، وللإرشاد إلى أنَّ الجهر بالذكر أفضل لأنَّ فيه تصوير النفس بالذكر والسماع من نفسه، كأنَّه يسمع من غيره أيضا، وتثبيته فيها، ومنعها عن الاشتغال بغيره، وقطع الوسوسة، وتنبيه الغافل، وإشهار التوحيد والشرع والتعليم، وذلك بالإخلاص وانتفاء المحذور.

وقد روي أنَّه صلى الله عليه وسلم إذا سلَّم من صلاته يقول بصوته الأعلى: «**لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير لا حول ولا**

١- في الطبعة العمانية: «يجهد بالدعاء». ولَعَلَّ الصواب: «يجهر بالدعاء».

قُوَّة إلاَّ بالله، ولا نعبد إلاَّ إيــَّاهُ، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلاَّ الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[1] وحُمل [جهره] على التعليم.

وإذا لم يكن مقام داع للجهر أو لم يقصد ذلك المقام فلا جهر، وهو قوله تعالى: ﴿واذْكُر رَّبــَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠٥) وجاء الحديث: «**إنَّ دعاء السرِّ يعدل سبعين من الجهر**» ويجهر حيث ورد الجهر كتكبير العيدين والتلبية، ويسرُّ حيث يسمع القرآن، لأنَّه لا يحسن أن يعلو صوت على القرآن، ولا أن يشغل عنه، وجاء أكثر من عشرين حديثا في جهره ﷺ بالذكر، مع أنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠٥) نقول معناه: ودون الجهر المفرط.

وقد قيل: الإخفاء في مَكَّة، وحين هاجر أمر بالجهر لدليل أنَّه يجهر، وقيل: السرُّ له ﷺ والجهر لغيره دفعا للوساويس عنهم. ﴿**اللهُ لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ مطابقة لِمَا ذكر من الملك وغيره، كخالق ورازق وعالم وقادر، و﴿لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ خبر لفظ الجلالة، والجملة بعده خبر ثان، أو مستأنفة، وأجيز أن يكون ﴿لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾ خبرا و﴿لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ معترض.

﴿وَهَلَ اَتِيكَ حَدِيثُ مُوسِىٰٓ ⑨ إِذْ رَءا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ اِمْكُثُوٓاْ إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ اَوَ اَجِدُ عَلَى اَلنَّارِ هُدًى ⑩ فَلَمَّآ أَتِيهَا نُودِيَ يَمُوسِىٰٓ ⑪ إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ اِلْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا اَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحِىٰٓ ⑬ إِنَّنِيَ أَنَا اَللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ اِلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ ⑭ إِنَّ اَلسَّاعَةَ

١- أوره الألوسي في تفسيره: ج٦، ص١٦٣ أثرا عن عبد الله بن الزبير يقول: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من صلاته يقول بصوته الأعلى: «لا إله إلاَّ الله...».

ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

قصة موسى عليه السلام

-١-

مناجاة موسى وابتداء الوحي إليه

﴿**وَهَلَ اَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ**﴾ تسلية لرسول الله ﷺ بما أوذي به موسى عليه السلام كغيره، أنّهم عراهم من أقوامهم ما عراك، وإعلان بأَنَّ شأن الأنبياء القيام بالتوحيد وأموره، وتحمُّل المشاق بعد ما سلاّه عن تكذيب قومه بقوله سبحانه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ﴾. والاستفهام للتقرير.

وأجاز بعض أن يكون للنفي أي ما أتاك حديث موسى قبل بل نخبرك به الآن، وقيل: هو بمعنى قد، وحديث بمعنى اسم مفعول أو المصدر، ولذلك علّق به قوله: ﴿**إِذْ رَءَا نَارًا**﴾ أي ما تحدِّث به إذ رأى نارا أو تحدَّثه إذ رأى نارا.

(نحو) ويجوز تعليقه به مع بقائه على معنى الكلام أو الخبر بلا تأويل، لأنَّ الظرف يكفي فيه رائحة الفعل، أو يعلّق بمحذوف أي «إذ رأى نارا كان كيت وكيت» أو كان كيت وكيت إذ رأى نارا، أو يُجعل مفعولا لمحذوف أي اذكر إذ رأى نارا.

(قصص) استأذن موسى عليه السلام شعيبا عليه السلام أن يخرج من مدين إلى مصر لزيارة أمه وأخيه وقد طالت المدَّة من حين قتل القبطي بمصر، ورجا خفاء أمره، فأذن له وكان غيورا فخرج بلا رفقة لِئَلاَّ تُرى زوجه، وقيل: برفقة يصحبهم ليلا ويفارقهم نهارا، وكانت على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث

البيت ومعه غنمه، وأخذ على غير طريق فيما قيل خوفا من ملوك مصر، ولمّا وافى طوى بالجانب الغربي من الطور ولد له ابن في ليلة مظلمة شاتية مثلجة ليلة الجمعة، وقد ضلّ عن الطريق وتفرّقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدح زنده ولم يور نارا فبينما هو كذلك إذ رأى نارا بيضاء على شجرة خضراء تتّقد من أسفلها إلى أعلاها، كلّما قرب منها بعدت وكلّما ذهب عنها قربت، وهي نور على صورة النار، وقيل: نار لا تحرق يدنو منها ليقبس في حطب بيده فتبعد، ويذهب فتقرب، وهي على يسار الطريق من جانب الطور.

﴿**فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ**﴾ هنا لا تتّبعوني في مسيري إلى هذه النار، خطاب لزوجه وخادمه، وما ولد له، ولو كان لا يعقل لأنّه توسط، أو خاطبهما دونه بلفظ الجمع أو لزوجه للتعبير بلفظ الأهل أو لتعظيمها كقول الشاعر لزوجه:

وإن شئت حرمت النســاء سواكم ....

﴿**إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَارًا**﴾ أبصرتها إبصارا لا شبهة فيه، أو أبصرت ما يؤنس به وهو النار، أو وجدت نارا ﴿**لَّعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنْهَا**﴾ أي من النار ومن للابتداء ﴿**بِقَبَسٍ**﴾ بشعلة مقتبسة على رأس جزلة من الحطب. والجارّان متعلّقان بـــ«آتيكم» وهو مضارع لا اسم فاعل لأنّه أنسب بالمضارع في قوله: ﴿**اَوَ اَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى**﴾ هاديا أو ذا هداية إلى الماء، ويجوز إبقاؤه على ظاهره من المصدرية بلا تأويل، كأنّه قال: أو أجد هداية إليه من هاد، والمقام لذلك.

لا كما قال مجاهد وقتادة المراد الهداية إلى أبواب الدين من حيث أنّ قلوب الأبرار مغمورة بالدين، لا يشتغلون عنها، ألا يريان إلى قوله: ﴿لَعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ اَوْ جَذْوَةٍ﴾(سورة القصص:٢٩) و«أو» لمنع الخلو لا لمنع الجمع إذ لا يكره أن يجد قبسا ودلالة على الماء جميعا بل يحبُّ ذلك. ولا مانع من أن تكون «أو» في الآية بمعنى الواو فيكون قد طلبهما جميعا، ولكن الأصل أن تكون بمعنى أو إلاّ لدليل.

والاستعلاء على مكان يقرب من النار كما قال سيبويه: الإلصاق بمكان يقرب من زيد في: مررت بزيد. وقد يعتبر في الاستعلاء أنَّ الطابخ مثلا أو المصطلي يعلو جسده على النار، ولا سيما إن كان لهما شغل بالانحناء فوقها، كالاصطلاء وإصلاح شواء، ولا مانع من جعل «على» بمعنى عند، أو مع، وما تقدَّم هو المشهور، ويجوز تعليقه بمحذوف حال من «هُدًى».

ومقتضى الظاهر: أو أجد عليها ولكن أظهر ليصرِّح بالعلَّة، فإنَّ النار لا تخلو من وجود نافع معها ولو واحدا، ولا سيما جماعة.

(رسم) والمقصور المنوَّن إن كان عن ياء كتب ياء وإن كان عن واو كتب ألفا، فقيل: ألفه لام الكلمة، ففي حال النصب يوقف بألف الأصل كالجرِّ والرفع، على أنَّه يحذف التنوين للوقف، فيرجع ألف الأصل، ومن قال يقلب ألفا كتبه ألفا، ومن يقف على المنصوب المنون بالإسكان كتبه ياء، إذا كان عن ياء.

﴿فَلَمَّآ أَتَاهَا﴾ أي النار، قيل: في شجرة عناب خضراء يانعة، أو سمرة أو عوسجة أو عليقة، تزداد النار شدَّة فتزداد الشجرة خضرة وحسنا.

(قصص) وروي أنَّه ينتظر سقوط شيء منها ليأخذه، فإذا قرب منها مالت إليه كأنَّها تريده، ويقال إذا قرب منها بعدت وإذا أدبر تبعته ثمَّ خمدت بمرَّة، وبقي متعجِّبا وهي نار لا تأكل ولا تشرب، وصنف يأكل ويشرب وهي نار الدنيا تأكل نحو الفتيل وتشرب نحو الزيت، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر، وصنف يأكل ولا يشرب وهي نار جهنَّم، وهؤلاء أربع. ونار موسى لها نور بلا إحراق.

وعن ابن عبَّاس: هي نور، سمِّي نارا لأنَّها قصد موسى وللشبه، وصنف له نور وإحراق وهي نار الدنيا، ونوع لا نور له ولا إحراق وهي نار الأشجار ما لم تخرج ونوع له إحراق بلا نور وهي نار جهنَّم.

﴿نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ ولا يضرُّ الفصل بوقوف موسى وتعجُّبه مدَّة، ومعالجته الأخذ منها، تقول: لَمَّا جاء زيد أطعمته ولو بقي بعد المجيء مقدار الطبخ أو المجيء بالطعام، ونائب فاعل ضمير النداء موسى، ودع عنك قول ضمير النداء أي نودي النداء، وقول إنَّ موسى نائب...الخ اللهمَّ إلاَّ أن يعتبر «نُودِيَ» بقيل أي قيل يا موسى.

﴿إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ﴾ مستأنف أو مجموع إلى قوله: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ أي قيل له ذلك، ويقال: لَمَّا نودي قال: من المتكلِّم؟ فإنِّي أسمع صوتك ولا أدري أين أنت، قال: أنا فوقك وأمامك وخلفك وأقرب إليك منك، فعلم أنَّ الكلام من الله تعالى، وكان يسمعه بأذنيه وبطنه ويديه ولسانه وعينيه وبدنه وداخله.

(أصول الدين) والمتكلِّم بذلك ملك يقول عن الله بأمره تعالى، كما يترل جبريل بألفاظ التوحيد وغيرها عن الله عز وجل، أو خلق الله الكلام في الشجرة، أو في الهواء، أو في بدن موسى، كما روي أنَّه سمعه بجميع جسده ومن جميع الجهات.

(أصول الدين) أخطأ من قال: إنَّه سمع ألفاظا تلفَّظها الله لأنَّ ذلك من صفات المخلوق المحدود الحال، ومن قال أيضا: إنَّه أسمعه الكلام النفسي الذي ليس بحروف ولا أصوات لأنَّ الحقَّ أنَّ الكلام النفسي غير ثابت، نؤمن بالله وبما أنزل وننكر التشبيه، ولو ثبت الكلام النفسي فكيف يسمع ما ليس بصوت؟ ولو قالوا إنَّ الله عز وجل ألقى في موسى معاني تلك الألفاظ بلا تلفُّظ من لافظ كسائر الإلهام لكفى خروجا عن وصف الله بما ليس له، ويكفي ما ذكرت من الأوجه في أنَّه سمِّي «كليما» إذ تلك الكَيفيَّة لم تقع لغيره[1].

١-انظر زيادة بحث في موضوع الكلام النفسي في كتاب الحق الدامغ للشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي سلطنة عمان.

﴿**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**﴾ لأنّهما من جلد حمار ميِّت غير مدبوغ، وهما طاهرتان بإزالة الودك، قال الترمذي عن رسول الله ﷺ : «**كان على موسى** عليه السلام **يوم كلَّمه ربُّه كساء وجبَّة وقلنسوة وسراويل من صوف، ونعلاه من جلد حمار**»[1]. وعن الحسن وغيره: «من جلد بقرة ذكِّيت». وللتواضع والأدب كما كان السلف يطوفون بلا خفٍّ، وأمره ﷺ بالصلاة في النعال لمخالفة اليهود، فإذا علموا بالمخالفة وشهرت فالصلاة بدونهما أفضل، ولتنال قدما موسى بركة تلك الأرض.

ويبعد ما قيل: إنَّ المراد بنعليه المال والولد وكلُّ ما سوى الله تعالى كناية عن إفراغ القلب. والفاء سَبَـبِـيَّـة فالأنسب الخلع للإعظام والأدب، تفريعا على قوله: ﴿إِنِّيَ أَنَاْ رَبُّكَ﴾ كما أنَّ قوله عز وجل : ﴿**إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ**﴾ تعليل للخلع، أي لأنَّك بالوادي المقدَّس، وهذا تعليل بشرف الوادي، وهذا كما تقول إنِّي أبوك فلا ترفع صوتك عليَّ إنِّي ربَّيتك، ولَمَّا أمر بخلعهما ألقاهما وراء الوادي.

(**نحو**) ﴿**طُوىً**﴾ عَلَم للوادي، ممنوع الصرف للعَلَميَّة والعدل كعمر، كما قيل: إنَّه واد عميق مستدير كأنَّه شيء مطوي، فهو من الطيِّ فهو عربي، كأنَّه طوى نفسه لالتوائه، وقيل: للعلميَّة والعجمة بدل من الوادي، أو بيان.

وقيل: رجل، بالعبرانية، منادى أي يا طوى أي يا رجل، وليس ألفه للتأنيث لأنَّ ألف التأنيث زائدة رابعة فصاعدا، وهذه لام الكلمة.

﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ**﴾ من ناس زمانك للرسالة ﴿**فَاسْتَمِعْ**﴾ هذا مسبَّب للاختيار ومترتِّب عليه، فإنَّ الاختيار من موجبات الاستماع ﴿**لِمَا يُوحَىٓ**﴾

١- رواه **الترمذي** في كتاب اللباس (١٠) باب ما جاء في لبس الصوف، رقم ١٧٣٤، من حديث ابن مسعود.

للذي يوحى، أو للوحي، متعلّق بــ«اسْتَمِعْ»، ويقدَّر ضمير لــ«اخْتَرْتُكَ» على التنازع، و لم يثبت لأنَّه فضلة.

(نحو) الأصل: أنا اخترتك له، أي لِمَا يوحى، ولو علّق به على التنازع لذكر ضميره لــ«اسْتَمِعْ» هكذا: فاستمع له لِمَا يوحى، فلما لم يذكر له علم أعماله، والتقدير للأوّل إلاّ أن يعلّق بالأوّل، ويقدَّر مثله للثاني من باب مجرَّد الحذف لدليل.

وإن قلت: كيف يجوز تعليقه بــ«اخْتَرْتُكَ» مع قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لآَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ﴾ فإنَّ تعليقه بــ«اخْتَرْتُكَ» يفهم أنَّ اختياره لكون الله لا إله إلاّ هو مع أنَّه لم يختره لهذا فقط، قلت: لا حصر للاختيار في ذلك بل تنصيص على الأهم، أو لم يسق «إِنَّنِي أَنَا اللهُ لآَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ» للدخول تحت «اخْتَرْتُكَ».

والأمر بالاستماع أمر بالتأهُّب. لَمَّا قيل له: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٓ﴾ وقف على حجر واستند إلى آخر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، وأصغى بشراشره، وأدب الاستماع سكون الجوارح وغضُّ البصر والإصغاء للسمع، وحضور العقل والعزم على الامتثال.

وبُنــي الوحي للمفعول للفاصلة، فلم يقل: «لِمَا يوحِي» بكسر الحاء.

ورتَّب على وَحْدَانيــَّة الله تعالى العبادة بالفاء في قوله: ﴿فَاعْــبُدْنِي﴾ تذلّل لي بكلِّ ما أمكن وقدرت عليه مما أمرت به، خصوصا وعموما، ولا يترجَّح أنَّ المراد هنا التوحيد بل العموم، ويدلُّ للعموم حذف المعمول.

ولمزية الصلاة على ما بعد التوحيد خصَّها بالذكر في قوله عز وجل : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ﴾ تخصيصا بعد تعميم العبادة لاشتمالها على ذكر المعبود وشغل القلب واللسان، وقد سمَّاها الله إيمانا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ

إِيمَانَكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) . واللام متعلّق بـ«أَقِم» أو بـ«اعْبُدْ» على التنازع وإعمال الثاني، أو من مجرد الحذف لدليل، أي: إيت بها مستقيمة لتذكرني فيها، بمعنى أنّها مشتملة على الأذكار، فإذا أقمتها فقد أتيت بهذه الأذكار، أو لِئَلاَّ تنساني، أو لتذكرني خاصَّة لا تشوبها برياء أو ذكر غيري، أو لتستغرق أوقاتك بالذكر.

ويجوز أن تكون الياء فاعلا في المعنى، أي لأن أذكرك بالثناء، أو لذكري إيـّاهَا وإيَّاك في الكتب، وما قبل هذا من الإضافة للفظ «الذي» يقال له في الاصطلاح مفعول به، وكذا إذا جعلنا اللام للتوقيت أي لأوقات ذكري، وهي أوقات الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُومِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾(سورة النساء:١٠٣) وذلك دليل على أن لا فرض بعد التوحيد كالصلاة.

ويجوز أن يكون لذكري صلاتي بعد نسيانها على حذف مضاف، فتكون اللام للتعليل أو للتوقيت، أي أقضها عند تذكُّرها، أو يعتبر أنَّ ذكر الصلاة سبب لذكر الله فأطلق المسبَّب على السبب، أو أوقع ضمير الله موقع ضمير الصلاة لشرفها.

أو المراد الذكر الحاصل منِّي فأضيف الذكر بمعنى التذكُّر لله ﷻ لأحد هذه الملابسات، وقد قال ﷺ : «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلِّها إذا استيقظ أو تذكَّر فذلك وقتها**»[1] ويدلُّ لهذا قراءة قتادة: «لِذكْرَى» بفتح الراء وبألف بعد، أي للتذكُّر بعد نوم أو نسيان، ويدلُّ له أيضا قوله ﷺ : «**إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلِّها إذا ذكرها، فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وأقم الصلاة لذكرَى﴾**»[2] بفتح الراء بعدها ألف.

١– أورده ابن عبد البر في كتاب الاستذكار: ج١، ص١١٥.

٢– رواه **مسلم** في كتاب الصلاة (٥٥) باب قضاء الصلاة الفائتة... رقم٦٨٤، من حديث أنس.

وعلَّل وجوب العبادة وإقامة الصلاة بقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ يوم القيامة ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ لا محالة حتَّى إنَّها كشيء متوجِّه إليك تراه مقبلا ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ لا أذكرها ولكن ذكرها قطعا للأعذار، والمقاربة مجاز، وعن ابن عبَّاس وجعفر الصادق: «أكادُ أخفيها من نفسي» كما هو في مصحف أُبي، وزاد في بعض القراءات: «فكيف أظهرها لكم» وكذلك في مصحف ابن مسعود بزيادة «فكيف يعلمها مخلوق» وفي لفظ ابن خالويه زيادة: «فكيف أظهركم عليها»؟.

(أصول الدين) وحقيقة ذلك محالة عن الله ﷻ لكن جاز ذلك مبالغة في الإخفاء، كما جاء في الحديث: «**من السبعة الذين يظلُّهم الله تحت ظلِّه: رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه**»[1]، وقول الشاعر:

أَيـــَّام تصحبني هند وأخبرها ما كدت أكتمه عَنـــِّي من الخَـــبر

أو «أُخْفِي»: أزيل الخفاء، ويدلُّ له قراءة فتح الهمزة فإنَّه لا يقال خفاه إلاَّ بمعنى أزال خفاءه، أو «أَكَادُ» بمعنى أريد، أي أريد إخفاء تفصيلها بـــبـــيان وقتها كقوله:

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

وقيل: «أَكَادُ» زائد، أي: آتية أخفي تفصيلها، وقيل: «أُخْفِيهَا»: أُظهرها، من الأضداد، كغبر بمعنى مضى، وغبر بمعنى بقي. واللام في قوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلِّق بـــ«آتية» أي آتية بإذني للجزاء، أو بـــ«أخفي» على معنى أزيل خفاءها والمعنى بما تسعاه أو بسعيها خيرا أو شرًّا، أو المراد الخير تنبيها

١- رواه **البخاري** في كتاب الأذان (٣٦) باب من جلس في المسجد، رقم ٦٦٠. ورواه **مسلم** في كتاب الزكاة (٣٠) باب فضل إخفاء الصدقة، رقم١٠٣١، من حديث أبي هريرة.

على أنَّ المراد بها في الذات إثابة المطيع، وأمَّا العقاب فعارض بسوء اختيار صاحبه، والعموم أولى.

﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ﴾ يا موسى، ويضعف أنَّه خطاب لرسول الله ﷺ على إرادة أمَّته، معترض في قصَّة موسى عليه السلام ﴿عَنْهَا﴾ أي عن تصديقها وهو التصديق بها، أو عن ذكرها ومراعاتها وهو أليق بشأن موسى عليه السلام، ولو جاز الأوَّل في شأنه بطريق التهييج.

(نحو) و«ها» في «عنها» وفي قوله عز وجل: ﴿مَن لاَّ يُومِنُ بِهَا﴾ للساعة، وهو أولى وقيل: للصلاة، وقيل: الأوَّل لها والثاني للساعة، وقيل: الأوَّل للعبادة والثاني للساعة، وقيل: للخصال المذكورة، وقيل: لقوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ﴾ **والصحيح الأوَّل.**

(بلاغة) وقدَّم ﴿عَنْهَا﴾ على ﴿مَن لاَّ يُومِنُ بِهَا﴾ لثقل قولك: «بها عنها»، ولقصد طريق الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، ولطول المؤخَّر فيخلُّ بالنظم لو قدِّم.

والنهي عن الصدِّ نهي للكافر نهي الغائب، والمراد نهي موسى نهي خطاب عن أن يؤثِّر فيه صدُّ الكافر، والصدُّ سبب، والنهي عن سبب الشيء آكد في النهي عن الشيء وقطع للسبب عن أصله، أو ذلك نهي عن اللين المطمع للكافر، لا تلن للكافر فيطمع في تكفيرك، كقولك لا أراك هنا أي لا تكن هنا فضلا عن أن أراك.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاٰيهُ﴾ ما يهواه من لذَّات الدنيا المهلكة له ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ تهلك كما هلك، وهو منصوب في جواب النهي ولا داعي ولا دليل إلى تقدير: فأنت تردى، والإغفال عن الساعة إغفال عمَّا ينجِّي عن الهلاك فيها، ويجوز أن يكون

معنى ﴿لاَ يُومِنَ بِهَا﴾ يعرض عن عبادة الله ويستغرق في الشهوات، ومعنى ﴿لاَ يَصُدَّنَّكَ﴾ لا تنظر إلى زهرته وتمتُّعه، فما أنت فيه هو الخير لا ما هو فيه من الإخلاد إلى الأرض، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾(سورة الحجر:٨٨) فتفرَّغ للعبادة.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَيٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

-٢-

معجزة العصا واليد البيضاء

﴿وَمَا تِلْكَ﴾ أنَّث الإشارة لأنَّها إلى العصا فهي معلومة، فالسؤال التقريري عن حالها لا عنها، وأشار بالبعد مع أنَّها في يمينه إعظاما لعلوِّ قدرها، أو لدهشه عنها حتَّى كأنَّها بعيدة عنه، ينبِّهه على أنَّها من نعم الإيمان وترك الصدِّ، وعلى أنَّها مشتملة على معجزات ومنافع، مع أنَّها ليست إلاَّ عصا نشاهدها ﴿**بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ في يمينك.

(نحو) [«بِيَمِينِكَ»] حال من «تِلْكَ»، أو صلة له على قول الكوفيين من جواز استعمال أسماء الإشارات مطلقا موصولات، وخصَّ البصريُّون «ذا» مع تقدُّم «ما» أو «مَنْ» الاستفهامية.

﴿**قَالَ هِيَ عَصَايَ**﴾ مقتضى الظاهر: هي عصا، ولكن أضافها لنفسه ليعقبها بالأفاعيل، كأنَّه قال: هي عصاي المعهودة في أفاعيل.

(قصص) [قيل:] واسمها نبعة، أخذها من عصي الأنبياء التي عند شعيب حين استأجره للرعي من آس الجنَّة، هبط بها آدم، أو من العوسج طولها عشرة أذرع على قدر قامة موسى بذراعه أو اثنتا عشرة بذراعه، **وهذا عجيب كيف يصحُّ** أن تكون بذلك العدد مع مساواتها لقامته؟ خلقت في الجنَّة من جنس شجر الدنيا حطبا كالشجرة التي أكل منها آدم.

وذكر هي على الأصل لرغبته في المناجاة، والعصا مؤنَّث بلا علامة، وأوَّل تحريف سمع بالعراق، كما قال الفرَّاء: هذه عصاتي، بالتاء.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ في الوقوف على الغنم وفي المشي، والجملة خبر ثان أو مستأنفة **﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾** أضرب بها الورق ليسقط فتأكله، أو أميل بها على غنمي في صلاحها من السَّوْق وإسقاط الورق، يقال: هشَّ إليه أي مال.

ذكر مصلحته أوَّلا وهو التوكُّؤ عليها ومصلحة غنمه ثانيا، على أنَّ الأصل في بدء الخير لنفس الإنسان، ولأنَّ توكُّؤه ترجع مصلحته عليها أيضا، أو لأنَّه كان قريب العهد بالتوكُّؤ.

(صرف) **﴿وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَىٰ﴾** حاجات، والمفرد مأربة مثلث الراء. ولم يقل: «أُخَر» بضمِّ الهمزة وفتح الخاء وإسقاط الألف بعد الراء للفاصلة، فإنَّ الجمع يجوز نعته، ومجيء الحال منه والإخبار عنه بمفرد مؤنَّث بتأويل الجماعة، غير جمع المذكَّر السالم.

قيل: ومن المآرب الأخرى أنَّ لها شعبتين ومحجنا تحتهما يجني به الغصن إن طال، ويكسره بالشعبتين، وأنَّه يضعها على عاتقه، ويعلِّق بها قوسه وكنانته ومخلاته وثوبه وزاده، ويستظلُّ بثوب يلقيه على شعبتيها تتسعان كما شاء، ويصل بها الماء في البئر الطويلة، وتصير شعبتاها دلوا وتقاتل السباع والهوام والعدو، وتماشيه وتحدِّثه وتكونان شمعتين في الليل، ويركِّزها وينبع الماء، وإذا

قلعها نضب، وإذا اشتهى ثمرة ركّزها فتورق فتثمرها وتحدِّثه وتؤنسه، وزاد موسى في الجواب على السؤال استطابة للكلام مع الله ﷻ كما قيل:

وأملي حديثا يستطاب فليتني أطلت ذنوبا كي يطـــول عتاب

ولذلك ذكر لفظ «هي»، والآية دليل على جواز الزيادة على ما بوِّب له بحسب ظاهر اللفظ من السؤال عن نفس العصا فقط تقريرا إذ زاد ياء المتكلّم وما بعدها، وأمَّا على أنّ المراد حال العصا فالجواب طبق السؤال بلا زيادة.

وقيل: لا زيادة بل ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ جواب سؤال الله ﷻ : ما تصنع بها ؟ وقيل: سأله عن العصا بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ فأجاب بـــ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، وعمَّا يملكه منها بقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ فأجاب بــ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾، وهذان القولان ولا سيما الثاني ليسا مما يتوكّؤ عليه إذ لا سؤال في ﴿بِيَمِينِكَ﴾.

(منافع العصا) ويستحبُّ لهذه الآية المشي بالعكّاز، وعن ميمون بن مهران عن ابن عبَّاس: «إمساك العصا سنَّة الأنبياء، وعلامة المؤمن» وعن الحسن البصري: «للعكاز ستٌّ خصال: سنَّة الأنبياء، وعلامة المؤمن، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء ـــــ يعني ما يضرُّه من كلب وحيَّة وغيرهما ــــــ وعون الضعفاء، ورغم المنافقين وزيادة في الطاعات». ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان ويخضع له المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلّى وقوّته إذا عيي، وفيها منافع كثيرة كما قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَى﴾ وقيل: فيها ألف من المنافع. وخبط الورق دون قطع الغصن للرعي استبقاء لمنافع الشجر.

وكأنّه قيل: فما قال الله تعالى؟ فقال:

﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ**﴾ لترى ما هو أعجب وأعظم، وأعاد النداء لزيادة التأنيس والتنبيه على شأن العصا ﴿**فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ**﴾ ثعبان، ذكر الحيات، كما قال: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْـــبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الأعراف: ١٠٧) أو كثعبان في عظم

الجسد، وكأنَّها جانٌّ ضدُّ الآدمي في سرعة الحركة، أو كأنَّها الحيَّة الصغيرة الصفراء الدقيقة في السرعة كما قال: ﴿**تَسْعَىٰ**﴾ نعت لـ«حيَّة» فهي في خفَّة الجانِّ وعظم الثعبان، أو كانت أوَّلا حيَّة صغيرة خفيفة ونمت في الحال وصارت ثعبانا عظيما.

ويروى أنَّه رآها أعظم ثعبان تبلع الصخرة كالناقة، وتقلع الشجرة العظيمة بنابها، وعيناها توقدان نارا، والشعبتان كفم البئر الواسعة، ولأنيابها وأضراسها صريف، ويروى بين لحييها أربعون ذراع، فولَّى مدبرا ولم يعقِّب حتَّى لم تدركه، فوقف حياء ونودي: ارجع حيث كنت وخذها، كما قال الله عزّ وجلّ :

﴿**قَالَ**﴾ الله ﴿**خُذْهَا**﴾ أي خذ الحيَّة أو العصا التي انقلبت حيَّة بيمينك، كما كانت في يمينك ﴿**وَلاَ تَخَفْ**﴾ منها ذلك الخوف الطبعي البشري، ولا مؤاخذة على الطبعي الضروري، ولا ينقص قدره.

وزعم بعض أنَّه خاف أن تكون مكرا له كما خرج أبوه آدم من الجنَّة بالحيَّة، إذ وسوس إبليس من فمها لآدم، وقيل: خاف الابتلاء من الله إذ لم يجر ذلك على يد مخلوق، وكما لم يخف إبراهيم من النار إذ كانت من عمل مخلوق، **والحقُّ ما ذكرت أوَّلا**.

﴿**سَنُعِيدُهَا**﴾ بعد أخذها ﴿**سِيرَتَهَا الأُولَىٰ**﴾ فأخذها بيمينه على هولها، فرجعت بإذن الله عصا كحالها قبل الانقلاب حيَّة.

(قصص) أدخل يده في شدقها وأخذها ولأنيابها وضروسها صريف، وذلك من شدَّة ثقته بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَخَفْ﴾ ويروى أنَّه لفَّ يده بكمِّه من قميصه ليأخذها فقال له ملك: أيُغني عنك هذا فيما تحاذر؟ قال: لا، ولكنِّي ضعيف خلقت من ضعيف، فأخرجها عن الكمِّ وأدخلها بين لحييها، فإذا يده

على موضع الذي يمسكها به قبل الانقلاب، وهو ما بين شعبتيها، وروي أنَّه لفَّ يده فأوحى الله تعالى إليه: أكشفها فكشفها فأخذ العصا بها.

ولا يصحُّ ما روي أنَّه نودي: «خذها» فلم يأخذها، ثمَّ نودي: «خذها ولا تخف» فلم يأخذها حتَّى نودي: «إِنَّكَ مِنَ الاَمِنِينَ»، وقيل: حتَّى قيل: «سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا»، فإن صحَّ فقد بلغ من ذهاب العقل لهولها بحيث يرفع عنه التكليف.

والسيرة: نوع من السير، كضِربة بكسر الضاد لنوع من الضرب، ثمَّ استعمل في مطلق الحال الذي عليه الشيء، ويبعد أن تفسَّر برجوعها حيَّة يهزم به فرعون وتبلع ما سحر به بعد أن ترجع في يده عصا، بشارة من الله تعالى له.

(نحو) وهو مفعول ثان لـ«نُعيدُ» مضمَّنا معنى نعطي، أو بدل اشتمال أو يقدَّر الجار أي سنعيد إليها، أو سنعيد لها، أو سنعيدها إلى سيرتها الأولى.

(أصول الدين) وفي الآية قلب الأعيان، والصحيح عندي جوازه في قدرة الله سبحانه كمسخ الإنسان حيوانا آخر أو جمادا، وفي السؤالات حكاية المنع، قلت: إنَّما نمنع قلب الحسنات والسيِّئات أجسادا لأنَّها أعراض، وكم من ثقل أو خفَّة للعَرَض حتَّى يكون جسد على قدره، وليس ذلك لعجزٍ تعالى الله عنه بل لاستحالته، وعبارة بعض قومنا في الآية انقلاب الشيء عن حقيقته كانقلاب النحاس ذهبا، وبه قال جمع ولا مانع في العقدة[1] من توجه الأمر التكويني إلى ذلك، وتخصيص الإرادة له؛ وقيل: لا يجوز لأنَّ قلب الحقائق محال والقدرة لا تتعلَّق به، والحقُّ الأوَّل، بمعنى أنَّه تعالى يخلق بدل النحاس مثلا ذهبا على ما هو رأي المحقِّقين، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصف الذي صار

١– كذا في النسخ ولعلَّ الصواب: ولا مانع في القدرة. تأمل.

به نحاسا، ويخلق فيه الوصف الذي يصير به ذهبا، على ما هو رأي بعض المتكلِّمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات، والمحال إنَّما هو انقلابه ذهبا مع كونه نحاسا لامتناع كون الشيء في الزمان الواحد نحاسا وذهبا، وانقلاب العصا كان بأحد الاعتبارين هذين، والله تعالى أعلم بأيِّهما كان، انتهى كلام ذلك البعض.

ولا يخفى أنَّ انقلاب العصا حيَّة إنَّما هو بالمعنى الثاني، لأنَّ في كون خلق البدل انقلابا خفاء ثمَّ رأيت ذلك البعض صرَّح بهذا.

﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ**﴾ ألصق يدك اليمنى من تحت الثوب من مخرج العنق كما قال: ﴿فِي جَيْبِكَ﴾(سورة النمل:١٢) ﴿**إِلَىٰ جَنَاحِكَ**﴾ جانبك تحت الإبط الأيسر، أو تحت عضده ﴿**تَخْرُجْ**﴾ مجزوم في جواب اضمم، لأنَّ من شأن الإدخالِ والإلصاقِ الإخراجُ بعدُ، أو حذف من كلٍّ واحد ما يناسبه على الاحتباك، أي اضمم يدك تنضمَّ وأخرجها تخرج ﴿**بَيْضَآءَ**﴾ لها شعاع كشعاع الشمس، يغشي البصر.

ولونه عليه السلام أدمة، قال ابن عبَّاس: ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر.

﴿**مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ**﴾ متعلِّق بـ«بَيْضَاءَ» أي ابيضَّت بلا سوء، أو متعلِّق بمحذوف تقديره: ابيضَّت، أو حال من المستتر فيه، ويضعف أنَّه نعت لبيضاء لأنَّ بيضاء وصف وحال، وأنَّه متعلِّق بـ«تَخْرُجْ» لأنَّه لا يتوهَّم السامع أنَّها تخرج بسوء حتَّى يراها بيضاء فيتوهَّم أنَّ بياضها سوء، أي عيب وهو برص، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

(نحو) ﴿**ءَايَةً**﴾ حال من ضمير «تَخْرُجْ» أو ضمير «بَيْضَاءَ» أو بدل من «بَيْضَاءَ»، أو قدِّر: خذ آية، أو دونك آية، كما أجاز سيبويه عمل اسم

الفعل محذوفا، ومنعه أبو حيَّان لأنَّه نائب عن غيره، ولا يعارض بحذف حرف النداء مع نيابته عن «أدعو» للفرق بأنَّ العمل باق لـ«أدعو»، بخلاف اسم الفعل فإنَّ العمل له، أو قدِّر: جعلناها آية، أو آتيناك آية **﴿اخْرَىٰ﴾** غير العصا **﴿لِنُرِيَكَ﴾** متعلِّق بـ«تَخْرُجْ» أو بـ«اضْمُمْ» أو بـما قدِّر من خذ، أو دونك، أو جعلناها، أو آتيناك، أو بـ«ألق»، أو فعلنا ما فعلنا، قيل: أو بـ«آية» لمعنى الدلالة **﴿مِنَ ـ ايَاتِنَا﴾** «مِنْ» للتبعيض أو للابتداء، متعلِّق بمحذوف مفعول ثان، أو متعلِّق بـ«نُرِي»، أو حال من قوله: **﴿الْكُبْرَىٰ﴾** إذا لم نجعل «الْكُبْرَىٰ» نعتا لـ«آيَاتِنَا» بل مفعولا لـ«نُرِيَكَ».

وعن الحسن كابن عبَّاس: إنَّ العصا أعظم وأكبر من اليد في الإعجاز، لأنَّ فيها تغيير اللون وفي العصا تغيير اللون وخلق الزيادة في الجسم، وخلق الحياة والقدرة، والأعضاء المختلفة كالشدقين والأسنان مع عودها عصا.

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

-٣-

الاستعانة بالله ليقوم بالرسالة

﴿اذْهَبِ الَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بما رأيت من الآيات واستعملهنَّ بحضرته، وادعه بهنَّ إلى التوحيد والعبادة لي، وحذِّره نقمتي التي يستحقُّها من طغى.

﴿إِنَّهُ، طَغَىٰ﴾ تعليل جملي لـ«اذْهَبْ» بمعنى: إنَّه جاوز الحدَّ في التكبُّر فادَّعى أنَّه إله، واشتدَّ الأمر على موسى لعظم سلطان فرعون، فأوحى الله إليه: «إنِّي ناصرك فلا تهبه، وقد ألبستك هيبة وأنت وحدك جند عظيم من جنودي، وإنَّه ضعيف آمن مكري وإنَّه لا ينطق ولا يطرف ولا يتنفَّس إلاَّ بأمري، ومعك عيني ويدي وسمعي، وذكِّره نعمتي عليه، في أربعمائة سنة أمطر عليه سمائي وأنبت له أرضي، ولم تصبه آفة ولم يسقم ولم يهرم، وأمهلته وإن تاب قبلته»[1]. فذهب عليه السلام في حينه إليه.

وهلك من قال: مكث موسى سبعة أيـام، ومن قال: أكثر حتَّى قال له ملك: أنفد ما أمرك به ربُّك، وإن صحَّ فمكثه بإذن الله، وقول الملك بإذن الله، بل استعدَّ من حينه مستعينا بالله عز وجل ، كما قال:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وكأنَّه قيل: فما قال موسى بعد الأمر بالذهاب إليه؟ فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ...﴾ طالبا من الله جل جلاله ما يتحمَّل به الشدائد في التبليغ من سعة الصدر بالنور الإلهي، وغير ذلك، فإنَّ شرح الصدر جعله بحيث لا يقلق، والمراد بالصدر القلب سمِّي باسم محلِّه. وذكرنا في فنِّ البيان أنَّ في ذكر «لي» مع صحَّة الاستغناء عنها زيادة ربط، وتأكيدا بالتلويح إجمالا، حتَّى إنَّه لو لم يذكر صدري وأمري لكفى، ولو اقتصر عليها بدون «لي» لم يفده الكلام تلك الفائدة. والمراد بـ«أَمْرِي»: ما يجري فيه من التبليغ وشأنه.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ رتَّة خلقها الله في لسانه بلا واسط.

١-لا يخفى عليك ما في هذا الكلام من مبالغات القصاصين وفرعون ما هو إلاَّ بشر كسائر البشر.

(قصص) وقيل: بجعله جمرة في لسانه إذ أخذ خصلة من لحية فرعون لما فيها من الجواهر، أو لطمه أو ضربه بقضيب على رأسه، أو أخذ خصلة منها وضربه، فتطيَّر فدعا بقتله فقالت آسية: إنَّه صبيٌّ لا يفرِّق بين الجمر والياقوت، وكانت تحبُّه فأحضرا فأخذ الجمرة ووضعها على لسانه، بعد أن مدَّ يده إلى الياقوت فردَّها جبريل إلى الجمرة، ولا تأثير لشيء إلاَّ بالله فخلق الله تأثيرها في لسانه دون يده، وفي ذلك حكمة أنَّها آلة لإهلاك فرعون، ولعلَّها بُـيِّضَت خصوصا لهذا أيضا، وقيل: احترقت يده أيضا وعالجها فرعون ولم تبرأ لئلاَّ يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة، ولَمَّا دعاه قال: إلى من تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها، ومع إحراقها على هذا لم يلقها في الأرض بل في لسانه بإرادة الله، أو قضى الله أن لا يحسَّ يده بالإحراق البتَّة، أو حتَّى تحرق لسانه، وقيل: حدثت العقدة بعد المناجاة لهول المناجاة وفيه بُعْدٌ.

(بلاغة) وشبَّه إزالة الرتَّة من لسانه بحلِّ عقدة عقدت في خيط أو نحوه، واشتقَّ منه «احْلُلْ» على طريق التبعيَّة التمثيليَّة، لأنَّ ذلك مركَّب من الحلِّ بمعنى الإزالة، ومن العقدة بمعنى الرتَّة، تجوُّزا فيها.

ثمَّ المراد إمَّا طلب حلِّ العقدة كلِّها ــــ ونكَّرها لعظمها تضرُّعا إلى الله عزَّ وجلَّ ــــ وإمَّا طلب حلِّ بعضها، وهو قول الجبَّائي، أي عقدة من عقد لساني، وهي التي تمنع الإفهام ولو بقي أصلها، ولذلك لم يقل واحلل عقدة لساني ولا ينافيه: ﴿قَدُ اوتيتَ سَؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ فإنَّه يجوز كون سؤله إزالة بعضها، ألا ترى قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾(سورة القصص:٣٤)؟ وقول فرعون: ﴿وَلاَ يَكَادُ يُـبِـينُ﴾(سورة الزخرف:٥٢).

[وقيل:] إنَّه كان في لسان الحسن بن علي حبسة فقال ﷺ : «**ورثها من عمِّه موسى** عليه السلام» واحتمال أنَّ هذا والآيتين قبل الدعاء بزوالها كلِّها يحتاج إلى دليل.

﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ لزوال اللكنة، لأنَّ بقاءها يمنع من أن يسمَّى فصيحا، وقد سمِّي به إذ قال: ﴿أَفْصَحُ مِنِّي﴾(سورة القصص:٣٤) وهو فصيح إلاَّ أنَّ أخاه أفصح منه، ويحتمل أن يكون معنى ﴿يُـبِـينُ﴾: يأتي بحجَّة، وعلى كلِّ حال نقول: ثقل اللسان لا ينقص قدر الإنسان:

لسان فصيح معرب في كـلامه فيا ليته في موقف الحشر يسلم
وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى وما ضرَّ ذا التقوى لسان معجَّم

وعلى أنَّه طلب إزالة بعض فقط لم ير في إزالة الكلِّ كثير فضل، واختار بقاء بعض ما قضى الله من الرتَّة رِضًى به فهو باق على الرضى بالقضاء، ولولا الداعي إلى زوال البعض لم يسأله، مع أنَّ الفصاحة المذكورة في المعاني لا تحلُّ بها اللكنة.

وفسَّر بعضهم اللسان بالقوة النطقية القائمة بالجارحة، وليس كذلك، بل آلة النطق، وفسَّر بعضهم الفقه مطلقا بالتوصُّل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخصُّ من العلم، وليس كذلك بل المراد الفهم مطلقا.

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنَ اهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ الوزير حامل الوِزْر ـــ بكسر الواو وإسكان الزاي ـــ أي الثقل، والمراد المعين في تحمُّل مشاق التبليغ إلى فرعون، وسمِّي من قام بأمر الملك وزيرا لأنَّه يحمل معه ما يشقُّ من الأمور برأيه وغيره، أو الوزير الملجأ يلتجأ إلى رأيه ومنافعه، كجبل يتحصَّن به من الوَزَر ـــ بفتح الواو والزاي ـــ. ويضعف أنَّه من الأزر بمعنى القُوَّة قلبت همزته واوا، «فعيل» بمعنى «مفاعل» كجليس بمعنى مجالس، لأنَّ الأصل عدم القلب، وأيضا يغني عن هذا قوله عز وجل : ﴿اشْدُدْ...﴾ بعدُ.

﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ دعا الله أن يكون له هارون معينا، أو كحصن، ولا شكَّ أنَّه يزداد به قُوَّة كما دعا أن يشدَّ به أزره.

(نحو) و«لي» مفعول ثان و«وزيرا» أوَّل منعوت بقوله: ﴿مِنَ اهْلِي﴾. و«هَارُونَ» بدل من «وَزِيرًا» أو بيان له على جواز تخالف عطف البيان والمعطوف عليه تعريفا وتنكيرا.

واعترضت البدلية بأنَّ المقصود بالذات البدل، وهنا المقصود بالذات الوزارة، وأجيب بأنَّ قصد البدل بالذات بل يجوز غير ذلك، وبأنَّه تقوَّى بالأخوَّة؛ أو «هَارُونَ» أوَّل و«وَزِيرًا» ثان. و«لي» متعلِّق بـــ«اجْعَلْ» أو حال من «وَزِيرًا». و«أَخِي» بدل من «هَارُونَ» أو بيان له أو لـــ«وَزِيرًا».

(بلاغة) ولا يضرُّ تعدُّد البيان ولا كونه أشهر من المعطوف عليه، كما شهر، بل يجوز ولو دونه مراعاة لحصول التمييز بِأَيِّ شيء كان، كما قاله السعد ومحشُّوه، فلا نحتاج إلى التوسُّل بكون المضاف إلى الضمير أظهر من العلم، إذ لا نسلِّمه، ولا إلى ما قيل إنَّ «أَخِي» هنا أظهر من «هَارُونَ»، وإذا قلنا في كلام مخلوق لله بعطف البيان فالمراد أنَّه جاء على طريقة عطف البيان، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يخفى عنه شيء فيبيِّن له.

(نحو) ويبعد أن يكون «أَخِي» مبتدأ خبره ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾، أو منصوب بمحذوف على الاشتغال، لأنَّ الأصل أن لا يكون الخبر طلبا، والأصل عدم الحذف، بل ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ مستأنف، ومرَّ أنَّ الأزر القُوَّة، وقيَّدها بعض بالشديدة، وقال الخليل وأبو عبيدة: الظهر.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ هو الإرشاد والدعوة إلى الحقِّ، ولا يريد بالأمر الإشراك في الرسالة مع أنَّه من الجائز، لأنَّ الرسالة ولو لم تكن في يد موسى لكن الدعاء بها ليس حراما، وكلامه دعاء لا إنفاذ، والممنوع أن يكونا نبيئا واحدا يوحى إليهما معا وَحْيَ واحد مجتمعين عليه. وكان أطول من موسى،

وأكثر لحما، وأعظم ألواحا، وأكبر سنًّا بثلاث سنين، وتوفي قبله بها، وقيل: أكبر بأربع وهو أبيض وموسى آدم، وأحلم من موسى.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ عن صفات النقص **﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾** بصفات الجلال، وذلك تعليل لطلب الوزير وشدِّ الأزر، والإشراك في الأمر، على معنى: طلبت ذلك كي...الخ، أو على التنازع في المصدر.

وكلٌّ من التسبيح والذكر يكثّر الآخر بانضمامه إليه، يقوى كلٌّ مع الآخر ما لا يقوى وحده، وذلك حال تحمُّل الوحي، وحال الدعاء إليه، والمراد: تسبيحا كثيرا وذكرا كثيرا وزمانا كثيرا، والأَوْلى المصدريَّة، لأنَّه لم يعهد زمان كثير بل طويل. وتقديم التسبيح على الذكر من تقديم التخلية على التحلية، وقيل: لأنَّ التسبيح تنزيه عمَّا لا يليق، وهو بالقلب والذكر باللسان والقلب مقدَّم، وفيه أنَّ التسبيح لا يختصُّ بالقلب والذكر لا يختصُّ باللسان، ويبعد أن يفسَّر التسبيح بالصلاة والذكر بالحمد على الوحي وسائر النعم.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالما بما يصلحنا ويفيدنا في التبليغ، وإنَّ هارون رِدْءٌ كريم. وقدَّم «بنا» للفاصلة، والجملة تعليل للطلبات الثلاث، وتعليلها بالتسبيح والذكر.

قال رسول الله ﷺ: «**أشرق تبير، أشرق تبير، اللهمَّ إنِّي أسألك مما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري، وأن تيسِّر لي أمري، وتحلَّ عقدة من لساني يُفقهْ قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي عليا أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبِّحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنَّك كنت بنا بصيرا**»[1].

١-أورده السيوطي في الدر: ج٤، ص٣٢٤، وقال: أخرجه ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس.

وهو حديث روته أسماء بنت عميس فيما ذكره ابن مردويه، والخطيب وابن عساكر، وأظنُّه موضوعا وضعته الشيعة ليستدلُّوا به على أنَّ عليًّا أولى بالإمامة من الصدِّيق وعمر وعثمان، ويضمُّوه إلى ما يروون من قوله ﷺ له: «**أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى**». والمراد بحلِّ عقدته عليه السلام دوام فصاحته وإلاَّ فلا رتَّة له إلاَّ إن أراد رتَّة ولده الحسن كما مرَّ.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾

-٤-

تذكير موسى بنعم الله عليه قبل النبوءة

﴿**قَالَ قَدُ اوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ أَجَبْتُ دعوتك، و«السُّؤل» بمعنى المسؤول كالأُكل بضمِّ الهمزة بمعنى المأكول، فحلَّ عقدة لسانه على ما مرَّ كلِّها أو بعضها، وشدَّ عضده بأخيه هارون، وأرسل هارون كما أرسله، ولو لم يدع موسى له بالرسالة، وقد مرَّ أنَّه لا مانع من أن يدعو له بها، وروي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أنَّه نُــبِّئ هارون حين قال هذا كما نُــبِّئ موسى عليه السلام . وفي ندائه ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ تشريف بالخطاب بعد تشريف.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً اخْرَىٰٓ﴾ غير هذه المرَّة قبل أن تدعوني، وكيف لا أجيبك في هذه المرَّة وقد دعوتني؟ وذكر المرَّة الأخرى في قوله : ﴿إِذَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ...﴾الخ وأصل المرَّة المرور الواحد، ثمَّ أطلق على كلٍّ فعلة واحدة، ثمَّ شاع في كلِّ فرد مما له أفراد، واستعمل في الزمان والمراد هنا الزمان الممتدُّ قدر ما يقع فيه خارجا ما ذكر الله عز وجل من الإيحاء إلى أمِّ موسى...الخ، و«أخرى» مؤنَّث آخَر بفتح الخاء بمعنى مغاير، و«إِذْ» متعلِّق بـــ«مَنَنَّا» بلا واسطة إبدال من مرَّة أو بواسطة.

والإيحاء إلى أمِّ موسى إلهام عند الجمهور، كقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّـــكَ إِلَى النَّحْلِ﴾(سورة النحل:٦٨) ولا يردُّه قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ (سورة القصص:٧) إذ لا نسلِّم أنَّ الإخبار بالردِّ وبجعله من المرسلين مختصٌّ بالوحي، لجواز أن يكون إلهاما مع مشاهدتها منه ما يدلُّ على الردِّ والجعل، كما سمَّى عبد المطَّلب ابن ابنه محَمَّدًا ﷺ وقال: رجوت له أن يحمد في السماء والأرض لما رأيت فيه من تعاطي خصال الشرف.

ويمكن أن يكون بعث الله إليها ملكا كما أرسله إلى مريم عليها السلام لا على طريق الوحي بالشرع إلى الأنبياء بلا إشكال، لأنَّ الوحي تارة وحي شرع إلى الأنبياء، وتارة غيره.

وقيل: الوحي في الآية الإراءة في النوم، وقيل: وحي على لسان نبيء في زمانها وهو شعيب، ولو كان في مدين لا في الشام كقوله تعالى: ﴿وَإِذَ اوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّـــينَ﴾(سورة المائدة:١١١) فإنَّه وحي إلى عيسى عليه السلام ، واسمها يوحانذ، أو محيانة بنت يصهر بن لاوي، أو بارخا أو بازخت، المراد بما يوحى القذف في اليمِّ.

أو ما ينبغي أن يوحى ولا يهمل، كما يقال: هذا مما يكتب، أو أوحينا ما لا يعلم إلاَّ بالوحي، والأوَّل أولى لكن لو كان كذلك لقال ما أوحينا، كما قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾(سورة النجم:١٠) وكما قال: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(سورة طه:٨٧) وعلى هذا يكون المعنى الثاني أولى ولو كان الأوَّل أنسب بالمعاني السابقة المرادة بالإيحاء.

أخبر بالوحي إليها إجمالا فتتهيَّأ نفسه إلى الاستعداد لفهمه، ثمَّ فَصَّلَهُ تَفْصِيلاً يجد النفس متهيِّئة فيقرُّ فيها.

وفسَّر الوحي بقوله: ﴿**أَنِ اقْذِفِيهِ**﴾ ضعيه بلين ﴿**فِي التَّابُوتِ**﴾ مفرَّشا. فرشته بقطن محلوج أو نطع، وكان من خشب أو برد، صنعه مؤمن آل فرعون، وجصصته وقيرته.

﴿**فَاقْذِفِيهِ**﴾ أي ضعي التابوت وفيه موسى بلين ﴿**فِي الْيَمِّ**﴾ البحر، ولا داعي إلى جعل هذا القذف الثاني قذفا بعنف، ويجوز أن يكون القذفان بعنف على معنى العجلة فيهما، واليمُّ: البحر مطلقا، وقيل: العذب، وقيل: النيل خَاصَّةً، وهو مردود. ولا يجمع لفظ اليمِّ.

﴿**فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ**﴾ جانب البحر، أو ما يقابل الوسط وهو ما يلي الجانب من البحر، حيث يجري الماء إلى نهر فرعون، وعلى كلٍّ هو بمعنى الذي يسحله الماء أي يقشِّره.

(صرف) فهو «فاعل» بمعنى «مفعول»، أو للنسب أي ذي سحل لكن هذا السحل واقع عليه لا صادر منه، فهو راجع إلى معنى «مفعول»، ويجوز أن يكون بمعنى «فاعل» على معنى يفرِّق الماء، أو على معنى ينهق تشبيها لصوت الماء عليه بسحيل الحمار أي نهيقه. واختير صيغة الأمر مع أنَّ المراد

الإخبار للمبالغة، كقوله ﷺ : «**قوموا فلأصلِّ بكم**»[1].

وقد اعتبر معنى الأمر حتَّى جزم في جوابه وهو قوله ﷻ : ﴿**يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ،**﴾ أو لَمَّا قضى الله ﷻ أن يلقيه في اليمِّ كان قضاؤه كأمر للبحر، جعل البحر كالمميِّز المتمثِل للأمر تشبيها مضمرًا مرموزا إليه باللازم، وهو الأمر، فإنَّ غير المميِّز لا يؤمر، فإثبات الأمر تخييل.

وهاءات ﴿اقْذفيه﴾ إلى قوله: ﴿وَعَدُوٌّ لَهُ،﴾ لموسى ولو صلح ما قبل ﴿عَدُوٌّ لَّهُ﴾ للتابوت لأنَّ المقصود بالذات موسى، وعليه الكلام، وفي ذلك عدم تفكيك الضمائر، وهو أولى.

وقيل: عائدات للتابوت إلاَّ هاء ﴿عَدُوٌّ لَّهُ،﴾، وقال بعض: إنَّ هاء ﴿يَاخُذْهُ﴾ لموسى أيضا، وفيه أنَّه لا فرق بينها وبين سائر الهاءات سوى قرنه بعداوة كالذي قبله، ولا يتعيَّن عود الضمير للأقرب إذا ترجَّح عوده لغيره لحكمة، ككون المراد بالذات موسى.

(بلاغة) وأعاد العدوَّ للمبالغة بذكر عداوتين إذ لم يقل: «عدو لي وله»، ولو قاله لصحَّ، وليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز فضلا عن أن يخرج على عموم المجاز، لأنَّ فرعون عدوٌّ لله حين الأخذ وعدوٌّ لموسى أيضا، إذ كان يبغض الأولاد لَمَّا علم أنَّ ملكه يزول على يد ولد، فلا حاجة إلى ما قيل: إنَّه عدوٌّ لله في الحين ولموسى فيما بعدُ.

١- رواه **البخاري** في كتاب الأذان (١٦١) باب وضوء الصبيان، ومتى يجب عليهم الغسل... رقم٨٦٠، مع زيادة في آخره. ورواه **مسلم** في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٤٨) باب جواز الجماعة في النافلة، رقم٦٦٠. ورواه **النسائي** في كتاب الإمامة، باب إذا كانوا رجلين وامرأتين، رقم ٨٠١. من حديث أنس.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ نعت «مَحَبَّةً» أو متعلّق بـ«أَلْقَيْتُ»، ولا يمنعه عمل عامل في ضميرين لواحد لأنّ أحدهما بجارّ، والمراد: محبَّة عظيمة، ما بالك بشيء هو من الله بإخباره أنَّه من الله ﷻ، كلٌّ من رآه أحبَّه ولا يصبر عنه لجمال عينيه ومسحة جمال عليه في جميع أعضائه.

وقيل: ذلك الحبُّ حبُّ الله إيَّاهُ ألقاه في القلوب إنعاما عليه لا على طريق الثواب، لأنَّه وليد لا عمل له [وجاء في الحديث]: «**إذا أحبَّ الله عبدا ألقى حبَّه في القلوب**»[1] ولعلَّه لِمَا سيعمل.

(قصص) رأى التابوت هو وزوجه من موضع مشرف على النيل على رأس بركة في بستان في الساحل فأمر به ففتح فإذا صبيٌّ أصبح الناس وجها، وقيل: إنَّ التابوت جاء إلى المشرعة التي تستقي منها جواري فرعون، فحطن به يحسبنه مالا، وطلبت زوجه منه أن يتَّخذه ولدا وقد أخذ جماله بمجامع قلبها وقلبه، وقالت: إنَّه قرَّة عين لي ولك، فقال لها: لك ولا حاجة لي فيه، وقد أخذ حبُّه بقلبه إذ رآه إلاَّ أنَّه كتم ذلك، قال ﷺ: «**لو قال مثلها لهداه الله به كما هداها به**» كما روي عن ابن عبَّاس. [قيل:] وفي حضرته حين رآه أربعمائة غلام وجارية وقال: من أخذه فهو حرٌّ فأخذه واحد وأعتق الكلّ.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ﴾ عطف على المحذوف المتعلّق بـ«أَلْقَيْتُ» أي وألقيت عليك المحبَّة لتكون محبوبا عند كلّ من رآك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ﴾، أو ليتعطَّف عليك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ﴾، أو متعلّق بالمحذوف المعطوف على «أَلْقَيْتُ» أي وفعلت ذلك الإلقاء لتصنع.

١- تـقـدَّمَ تخريجه في ج٢، ص٢٩٤.

ومعنى «تُصْنَع» تكرم أو تُفعل بك الصنيعة، وهي الإحسان، وهو أن يربَّى بالحنوِّ والشفقة والإرضاع الحسن، و﴿عَلَىٰ عَيْنِيَ﴾ حال من ضمير «تُصْنَعَ»، ومعناه بمرأى منِّي، وذلك على الاستعارة التمثيليَّة للحفظ والصون، فإنَّ المصون يراعى ويراقب، كما يراقب الشيء بالعين ويحضر عنده إذا اعتني به، وهذا إكرام وتخصيص وليس المراد مطلق كونه بالله، فضلا عن أن يُرَدَّ أنَّ كلَّ أحد كذلك، بل لو أريد هذا لقيل إنَّه خصَّت هذه العبارة بموسى، ولو كان معناها لغيره أيضا تشريفا كما خصَّ الكعبة ببيت الله، وكلٌّ بيت لله تعالى.

﴿**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ**﴾ في الطريق لطلبك وتحقيق أمرك، وتقول لمن أنت في يده: ﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ﴾ **و**اسمها مريم أو كلثوم، متعلّق بـ«تُصْنَعَ»، و[«إذ» ظرف زمان] وهو وقت واسع ممتدٌّ قدر ما وقع فيه ما ذكر في الآية، مفصول بأزمنة، أو متعلّق بـ«أَلْقَيْتُ» أو بدل من «إِذَ اَوْحَيْنَا» وذلك وقت واسع منه وقت وقع فيه كذا ووقت وقع فيه كذا، فيصحُّ الإبدال ولا ضيق في الوقت. والمضارع لحكاية الحال الماضية من موسى كأنَّها حضرت حين يخاطب موسى عليه السلام بذلك، وكذا في قوله: ﴿**فَتَقُولُ**﴾ لفرعون أو آسية.

﴿**هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَّكْفُلُهُ**﴾ يضمُّه إلى نفسه ويربِّيه فقالوا: دلِّينا عليه، ﴿**فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ**﴾ فجاءت بأمِّك فقالت: هذه تكفله، فرجعناك إليها **ولا تربية أحسن من تربية الأمِّ.**

﴿**كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا**﴾ بسلامتك من البحر، ومن فرعون وبلقائك ﴿**وَلاَ تَحْزَنَ**﴾ بالفراق، والمراد لا يدوم عليها الحزن إذ حزنت حين ألقته في البحر فما زال الحزن حتَّى رجع إليها، وقيل: المعنى لا يحدث عليها الحزن، أو لا تحزن يا موسى بفقد إشفاقها، وفيه أنَّ حزن الوليد مثله غير ظاهر إلاَّ على معنى أنَّه ألفها في مدَّة قصيرة فلا يطمئنُّ إلى غيرها بل يبكي، وما تقدَّم أولى، وما في

سورة القصص أنسب به، والقرآن يفسِّر بعضه بعضا.

(قصص) ولم يقبل من امرأة ثديا بعد أن عرضوه على النساء ودلَّتهم على أمِّه، وقالوا لها: ما يدريك أنَّها تنصحه؟ وهل لها قرابة به؟ وشكُّوا وقالت: إنَّها تحبُّ القرب من الملك، فجاءت إلى بيت امرأة فرعون آسية، فطلبت أن تمكث عندها، فقالت: لا أضيِّع داري وأولادي، فإن لم ترضوا بأخذه إلى بيتي تركته، وقد رأت أنَّه لم يقبل إلاَّ ثديها فرضوا أن تذهب به، ولَمَّا ترعرع قالت امرأة فرعون: أريني ابني، فوعدتها يوما تزورها به، فجعلت على كلِّ خازن من خزان مالها ومن تحت يدها أن يستقبلوه بالهدايا من حين يخرج من بيت مرضعته وهي أمُّه، إلى أن يدخل عليها، وقالت: إنِّي باعثة من يحصي عليكم هداياكم، وفعلوا فمضت به إلى فرعون ليهدي له فجذب لحيته.

﴿وَقَتَلْتَ﴾ بالوكز وأنت صاحب اثنتي عشرة سنة، أو رجل ﴿نَفْسًا﴾ قبطـيًّا، اسمه قانون الذي استغاثه عليه الإسرائيلي موسى بن ظفر السامري فأصابك به غمٌّ ﴿فَنَجَّـيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَـتَـنَّاكَ﴾ ابتليناك ﴿فُـتُونًا﴾ ابتلاء.

(صرف) وهو مصدر كالشكور بضمِّ الكاف مفرد، أو جمع فَـتْن بفتح الفاء وإسكان التاء كالظنون جمع ظن، أو جمع فتنة على إلغاء التاء كإلغائها في بدرة إذ جمع على بدور، وهي عشرة آلاف درهم، وفي حَجزة إذ جمعوه على حُجُوز وهي تكَّة السراويل.

أو ﴿فَـتَـنَّاكَ﴾: خلَّصناك من الغشِّ كما يقال: فتنت الذهب بالنار إذا خلَّصته من الغشِّ، والمراد بالفتن تكراره على أنَّ الفتون جمع كما هو ظاهر، وأمَّا على أنَّه مفرد فالتكرار يعلم من السياق، والمعنى خلَّصناك أو ابتليناك مرَّة بعد أخرى، ووجه عدِّ الابتلاء في المنن أنَّه نجَّاه، وقيل: إنَّه يثاب، والثواب نعمة،

وهو ضعيف في مقام التفسير.

وعن ابن عبَّاس ﵄ وغيره: الفتون هجرة الوطن، وكونه لا يقبل إلاّ ثدي أمِّه، ومفارقة الإلاف، والمشي راجلا، وفقد الزاد، وقتله القبطي، والإلقاء في اليم والتقاطه، وامتناعه من الرضاع، وأخذه لحية فرعون، وغضب فرعون وإرادة قتله، وأخذه الجمرة وترك الجوهرة، والهرب إلى مدين، وكونه أجيرا لشعيب، ورجوعه إلى مصر، وإخطاؤه الطريق في الليلة المظلمة والبرد، وتفرُّق الغنم.

ومرَّ أنَّه أركب زوجه على أتان حين رجع إلى مصر بأن كان قد يركب معها، أو ينفرد، والجواب أنَّ المشي بلا ركوب حين هرب، ولا يحسن عدُّ كونه أجيرا وإخطاء الطريق والبرد والظلمة وتفرُّق الغنم ونحو ذلك، لأنَّ المراد ما وقع قبل وصول مدين بدليل الفاء في قوله:

﴿**فَلَبِثْتَ سِنِينَ**﴾ عشرا، وقيل: ثمانيا وعشرين، عشرا في الرعي لشعيب صداقا لبنته، والباقي مع زوجه وولده، وقد خرج من مصر وله من العمر اثنتا عشرة سنة فذلك أربعون، نُـبِّئ على رأسها ﴿**فِي أَهْلِ مَدْيَـنَ**﴾ بلدة شعيب، على ثماني مراحل من مصر، هرب إليها من فرعون، إذ قتل القبطي، وعمره يومئذ اثنا عشر، ولبث فيها ثمانية وعشرين عاما عشرة في رعي الغنم مهر زوجته، وثمانية عشر أقام فيها مع شعيب.

﴿**ثُمَّ جِئْتَ**﴾ إلى المكان الذي ناديتك فيه، ولا دلالة لـ«ثمَّ» على مشاق الطريق من ضلال الطريق وتفرُّق الغنم وغير ذلك، كما زعم بعض ﴿**عَلَى قَدَرٍ**﴾ تقدير من الله وقضائه أو على الوقت المقدَّر لاستنبائك، قيل: أو على مقدار من الزمان يكون فيه الاستنباء غالبا وهو رأس أربعين، وفيه أنَّ هذا يقال فيه «قدْر» بإسكان الدال، أو على موعد وعدتكه، وعليه مجاهد، فإن أراد أنَّه

وعد بلا إخبار فلا إشكال وقد مرَّ معناه، وإن أراد بإخبار ولعلَّ الإخبار على لسان نبيء فهو غير متبادر ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ تشريف له بنداء، وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرَّة الأخرى.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ تذكير لقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرساله إلى فرعون، بمعنى جعلتك محلَّ صنيعتي أي إحساني لأرسلك إلى عدوِّي، يقال: زيد صنيع فلان بمعنى أنَّه يخصُّه بالنعم، ومعنى ﴿لِنَفْسِي﴾: لي وحدي على المبالغة بالاصطفاء، ولذلك لم يقل: واصطنعناك، كما قال: ﴿وَفَتَنَّاكَ﴾ و﴿نَجَّيْنَاكَ﴾ و﴿رَجَعْنَاكَ﴾، ويرجع في الحقيقة إلى معنى رسالتي، وقيل: لمحبَّتي عبَّر عنها بالنفس لأنَّها أخصُّ شيء بها، وقيل: لإقامة حجَّتي حتَّى كأنَّك أنا لو خاطبتهم، تعالى عن الشبه.

أو ذلك استعارة تمثيلية في التقريب المعنوي بالتنبئة والإرسال، وجلائل النعم كمن هو من خواصِّ الملك، بحيث يفيض عليه من كلٍّ ما يليق من الخير.

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

–٥–

التوجيهات لموسى وهارون في دعوة فرعون

﴿اذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون على مقتضى اصطناعي لك ﴿بِئَايَاتِي﴾

أي اليد والعصا وحلّ العقدة، أو اليد والعصا، أو الآيات التسع، أو العصا ونزع اليد بيضاء لأنّه لَمَّا قال: ﴿فَات بِئَايَة﴾(سورة الشعراء:١٥٤) ألقى العصا ونزع اليد، ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾(سورة القصص:٣٢) وإطلاق الجمع على اثنين جائز مع اشتمالهما على آيات، كسرعة الحيَّة وعظمها، وبلعها الصخرة، ورجوعها عصا وشدَّة شعاع اليد ورجوعها كما كانت، وأكثر التسع لم يتحقّق عند الآية بل كمُلَ بعدُ فالأولى أن لا تفسَّر بها الآية.

﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِيَ﴾ وَنَى يَنِي كوعدَ يَعِدُ بمعنى فتر، واختار ابن مالك أنّه من باب «مازال» و«ما فتئ» و«ما برح» و«ما انفكّ» وفي الصحاح: فلان لا يَني يفعل كذا أي لا يزال، وهو من معنى الفتور، ومعنى ﴿فِي ذِكْرِي﴾: ذكره بالصفات والأفعال الجميلة، وكلٌّ صفاته وأفعاله جميلة.

أي دُومَا على الذكر في جميع أحوالكما وعند التبليغ والدعاء إلى العبادة، أو الذكرُ: نفس التبليغ، وهو أجلُّ العبادات، وهارون غائب عن موسى لا يسمع الخطاب، لكن غلّب الحاضر في مقام الكلام على الغائب عنه، وكذا في قوله عَزَّ وَجَلَّ :

﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ، طَغَىٰ فَقُولاَ لَهُ، قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وقيل: لا تغليب بل حضرا معا بأن أوحي إلى هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ بمصر أن يتلقّى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أو ألهم تلقّيه أو سمع بإقباله فتلقّاه في الطور، أو دونه مما يلي مصر، أو تلقّاه على مرحلة، أو اجتمعا بمصر.

وكرّر الأمر بالذهاب تأكيدا، وزاد في الثاني أنّ الذهاب إلى فرعون للبيان، أو الأوّل ذهاب إلى من يؤمر وينهى عموما والثاني إلى فرعون، أو الأوّل لم يبلغ هارون ولَمَّا اجتمعا أبلغه بخطاب مجدَّد، وفيه أنّه بقي قوله: ﴿وَلاَ تَنِيَا﴾ فمن قبل أو بعد فأشكل الأمر.

ويبعد ما قيل: إنّ الأوَّل على الانفراد في الذهاب، والثاني على الاجتماع نصًّا أو احتمالا، وفيه أنّ الأوَّل ظاهر في الانفراد والثاني لا نصَّ فيه على الاجتماع، والاحتمال في مثل هذا غير توجيه، فقد يكون ذلك كلُّه قبل الاجتماع وقد يكون بعده، إلاّ الأوَّل فقبله لا بعده.

والقول اللين شأن الدعاء إلى الحقِّ ليذعن إليه، ولا سيما الطغاة والقول اللين [مِثْل قوله:] ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ و﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾(سورة النازعات:١٨) و﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾(سورة النازعات:١٩) وهذا في صورة العرض، يقولان ذلك بلا انتهار ولا مواجهة بسوء، وهذا هو الصحيح.

وعن عليٍّ وابن عبَّاس وسفيان الثوري القول اللين: التكنية قبل الدعاء أو في خلاله، وبقول الثلاثة هؤلاء يستدلُّ على جواز تكنية المشرك ويناسبه لفظ أبي لهب في قول. أو القول اللين: إن آمنت بقيت شابًّا ملكا لذيذ المطعم والمشرب والمنكح إلى الموت، أو إنّ لك ربًّا ومعادا إلى جنَّة إن آمنت.

وكاد يؤمن وأعجبه ذلك، وانتظر هامان وكان غائبا ولا يقطع أمرا دونه، فقال له: كنت أظنُّ أنّ لك عقلا ورأيا أنت ربٌّ تريد أن تكون مربوبا ! وأنت تُعبد تريد أن تكون تَعبد! فقال: صواب ما قلت فغلبه على عقله، وقيل: لم يعيِّن ما يقولان.

ويبعد أنّ القول اللين: لا إله إلاّ الله، ووجه لينه خفّته على اللسان. والتذكُّر: التأمُّل الموصل إلى الإذعان للحقِّ. والخشية: أن يخشى أن يكون الأمر كما تقولان فيتبعكما، لئَلاّ يهلك أو يبطش به. و«أو» لمنع الخلو، ولعلّ للترجية لا للترجِّي.

أمرهما الله أن يباشرا الأمر برجاء وطمع أن لا يخيب سعيهما، والترجية بلعلّ إنشاء فلا تكون مع ما بعدها حالا كما توهم، وقيل: للاستفهام وهو إنشاء فلا يكون جملته حالا، وقيل: للتعليل بمنزلة التذكُّر أو الخشية، فلا حالية.

(لغة) قيل: كلُّ «لَعَلّ» في القرآن للتعليل إلاّ ﴿لَعَلَّكُمْ

تَخْلُدُونَ﴾(سورة الشعراء:١٢٩) فللتشبيه، والتعليل هنا أولى من التشبيه، والاستفهام بعيد لأنَّ الآية ليست لمقام هل يتذكَّر أو يخشى؟ ولا لأن يقولا له: هل تتذكَّر أو تخشى؟.

وقال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ مع علمه أنَّه لا يتذكَّر ولا يخشى لأنَّ الترجِّي لموسى وهارون أي اذهبا على رجائكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله، ولإلزام الحجَّة وقطع المعذرة.

وقيل: لعلَّه يتذكَّر متذكِّر أو يخشى خاش، بردِّ الضمير إلى اسم الفاعل من الفعل، وقد تذكَّر كثير من الناس وخشوا، وقيل: لعلَّ من الله واجب، وقد تذكَّر وخشي حين الغرق حين لا يقبل عنه، وقيل: خشي وتذَّكر وأراد الإيمان فمنعه هامان، وكان لا يقطع أمرا دونه وقد مرَّ.

وقرئت الآية عند يحيى بن معاذ[1] فبكى وقال: «إلهي هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله، فكيف بمن يقول أنت الله؟ وهذا رفقك بمن يقول «أنا ربُّكم الأعلى»، فكيف بمن يقول «سبحان ربِّي الأعلى»؟» وكان الفضل بن عيسى الرقاشي[2] إذا تلاها قال: يا من يتحبَّب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاَّه ويناديه؟

قال بعض تلاميذ الخليل: ينبغي للرجل أن يكون قوله للناس ليِّنا، ووجهه مستبشرا منبسطا مع البارِّ والفاجر والسنِّي والمبتدع، من غير مداهنة ومن غير أن يتكلَّم معه بكلام يظنُّ أنَّه يرضى سيرته، لأنَّ الله تعالى قال لموسى وهارون عليهما

١– يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي. أبو زكرياء، واعظ، زاهد لم يكن له نظير في وقته من أهل الرأي، أقام ببلخ ومات في نيسابور سنة ٢٥٨ هـ /٨٧٢م. الزركلي: الأعلام، ج٨، ص١٧٢.

٢– الفضل بن عيسى الرقاشي بن أبان أبو عيسى، واعظ من أهل البصرة كان من أخطب الناس، متكلِّما قاصًّا مجيدا، وهو رئيس طائفة من المعتزلة تنسب إليه، كان قدريًّا ضعيف الحديث، سجَّاعا في قصصه، توفي حوالي سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص١٥١.

السلام: ﴿فَقُولاَ لَهُ، قَوْلاً لَّـيِّـنًا لَّعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وأنت لست بأفضل من موسى وهارون عليهما السلام، والفاجر ليس بأخبث من فرعون وقد أمرهما الله تعالى بلين القول مع فرعون، لأنّ في إلاَنَة القول كسرا لشوكة السوء وجلبا.

وكأنّه قيل: فماذا قالا؟ فقال: ﴿قَالاَ﴾ موسى وهارون على أنّهما اجتمعا في الطور، أو قال هارون في مصر أو في طريق التلقّي فجمع الله قولهما كما جمع خطاب كلّ رسول في أزمنتهم، في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿كُلُواْ مِنَ الطَّـيِّـبَاتِ﴾(سورة المؤمنون:٥١) ﴿رَبَّـنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَّفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ يتقدَّم فرعون ويعجل قبل دعوتنا، والفارط من يتقدَّم ليهيِّءَ الماء، وفرس فارط: يسبق الخيل، والميِّت الطفل فرط لأبويه كما في الحديث، فخوفهما للقطع عن التبليغ لا لعقابهما، وإن كان للعقاب فلعلّه قبل أن يوحي إليه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ...﴾(سورة القصص:٢٥).

وتقديم الحكاية لا تفيد الترتيب لأنّها بالواو، وأيضا لعلّ: ﴿لاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾(سورة القصص:٣٥) بمعنى لا حجَّة لهم عليكما، أو أرادا بالخوف طلب زيادة دليل حسِّيٍّ على أنّهما غالبان له، كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾(سورة البقرة:٢٦٠).

ولا ينافي خوفهما ما تقدَّم من شرح الصدر، وإيتاء السؤل، لأنّ الخوف بالطبع وشرح الصدر وإيتاء السؤل في شأن حفظ ما يوحى والعزم على التبليغ، وأيضا يخاف الإنسان من شيء ويصبر عليه إذا وقع وإيتاءه التيسير المطلوب لا يمنع الخوف من قطع التبليغ، لأنّ طلب التيسير إنَّما هو باعتبار أن لا يقصِّر، لا بمعنى لا مانع من قطع عدوه له، أو خاف هارون قبل أن يبلغه ما أنزل الله من التقوية فغلب على موسى، ونسب إليه الخوف معه حكما على المجموع.

﴿أَوَ اَنْ يَّطْغَىٰ﴾ يزداد طغيانا بالجرأة على حقّك وكرَّر «أن» ليستحضر

بها معنى نخاف المسلَّط على ﴿أَنْ يَّفْرُطَ﴾ استحضارا قَويـــًّا. وكأنَّه قيل: فما قال لهما عند قولهما: ﴿رَبـــَّنَآ إِنَّـــنَا...﴾؟ فأجاب مسلِّيا لهما بقوله:

﴿**قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ...**﴾الخ لا تخافا من فرطه وطغيانه لأنَّني معكما بالحفظ والنصر، أعلم ما يجري بينكما من قول وفعل، وسمعه ورؤيته تعالى عبارة عن علمه وهو غير الحفظ والنصر، لأنَّهما فعله، ولفظ السمع أنسب بالقول والرؤية أنسب بالفعل، وذلك مقابلة لقوله: ﴿أَنْ يَّفْرُطَ﴾ أي بأن لا يسمع منـــّا وقوله: ﴿أَنْ يَّطْغَىٰ﴾ بفعل كقتل، فقال الله ﷻ : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أفعل ما يليق لكما أو أسخِّره لكما فيستمع حتَّى يتمَّ كلامكما، وأمنعه أن يفعل ما تكرهان، ولا تعلُّق للفعلين بمفعول بل المعنى من شأني السمع والرؤية. وقدَّر بعض: أسمع كلامكما له فأسخِّره للاستماع، وأرى فعله إن شرع في فعل أو أراد الشروع فأمنعه.

﴿**فَاتِيَاهُ**﴾ ادخلا عليه، عطف على ﴿لاَ تَخَافَآ﴾ ﴿**فَقُولآَ**﴾ له ﴿**إِنَّا رَسُولاَ رَبـــِّكَ**﴾ أرسلنا الذي هو ربُّك وأنت عبده، ولست بربٍّ، بل هو الربُّ فاعرف كيف تجيبنا.

وليس هذا تغليظا إذ لا يجوز النقص من ذلك لأنَّهما أرسلا إليه بقول ذلك، وبقوله: ﴿**فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ...**﴾الخ فلا يجوز النقص، والإلانة التي أمرا بها هي أنَّهما لم ينهراه ولم يقولا له يا خبيث ونحو ذلك.

والأوجه المتقدِّمة في الإلانة على تقدير صحَّتها قد يقولانها بعد هذا أو قبله، لأنَّ الفاء في «فَقُولاَ» ولو كانت للترتيب لَكنَّ الترتيب في كلِّ شيء بحسبه، تقول: تزوَّج فلان فولد له إذا لم يكن بينهما إلاَّ مدَّة الحمل، أو هي لمطلق الجمع هنا، ألا ترى أنَّه لا بدَّ أن يأمراه أوَّلا بالتوحيد: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَّكَّىٰ

وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾(سورة النازعات: ١٨-١٩) لأنّا نقول ما في هذه السورة هو الإرسال الأوَّل.

أو أمراه به بعد هذا الكلام للتدريج، فإنّ طلب إطلاق بني إسرائيل أيسر عليه من تبديل الاعتقاد، مع أنّ في قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ أمرا بتبديله، وأيضا تخليص المؤمنين من الكفرة أهمُّ من دعوهم إلى الإيمان، على أنّ بني إسرائيل مؤمنون بموسى في الباطن أو بغيره من الأنبياء قبل، لكن لا دليل على شيء من ذلك، فقد يؤمر بطلب إرسالهم ولو مشركين للرحم، وأنّهم أولاد الأنبياء، ولعلم الله أنّهم يؤمنون بعدُ وأنّهم جنده، ومعنى إرسالهم إطلاقهم عن الاستعباد والأسر، فإن شاءوا ذهبوا مع موسى وهارون إلى الشام، وإن شاءوا قعدوا في مصر، فالإطلاق مفروض والمعية غير مفروضة، وكأنّه قيل: أطلقهم في حضرتنا وذلك هو المقصود بالذات، ألا ترى إلى قوله:

﴿وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ فإنّه ينبئ أنّ المراد ترك ما فيه إهانتهم، كانوا عبيدا للقبط يستعملوهم في نحو الحفر والبناء ونقل الأحجار من المشاق، ويستخدمون نساءهم ويقتلون أبناءهم على ما دون عام.

وأقول: الأظهر أنّه طلب إرسالهم جميعا إلى الشام، وفرَّع طلب الإرسال على ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ بالفاء السَّبَبِيَّة للتاكيد **﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾** تقرير لدعوى الرسالة وتعليل لوجوب الإرسال، لأنّه من الله. وقالا: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا منه لتأكيد التقرير والتعليل ونفي الرُّبُوبِيَّة عنه، وأكَّد بـ«قد»، وأفرد الآية ولو تعدَّدت آياته لأنّ المراد بها الأولى التي بدأه بها، أو لَمَّا ترادفت آياته كلُّها على معنى واحد وهو التوحيد عدَّت واحدة، كأنّه قيل: قد جئناك بما يثبت دعوانا، وقيل: اليد، وقيل: العصا، فإن أريد لأنّ إحداهما أوَّل فهو ما ذكرت،

ولعلّ تخصيصهما لذكرهما في هذه السورة، واعتبار تقدُّم واحدة، أو اعتبار تأخُّر أخرى وقربها إلى هذه الآية المتلوَّة.

﴿**وَالسَّلَامُ**﴾ السلامة من عذاب الدنيا والآخرة ﴿**عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰٓ**﴾ بتصديق آيات الله أي لمن اتَّبَعَ الهدى، كما عكس في قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾(سورة غافر:٥٢) باللام بدل على، ولا بدَّ من حكمة في ذلك كالغمرة للسلام والاستحقاق للعنة، وفي ذكر «على» هنا مشاكلة لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا قَدُ اوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ**﴾ دنيا وأخرى ﴿**عَلَىٰ مَن كَذَّبَ**﴾ بآيات الله ﴿**وَتَوَلَّىٰ**﴾ أعرض عن قبولها.

وقد يقال: السلام سلام الملائكة خزنة الجنَّة على المهتدين، وقد يقال: هذا السلام سلام موادعة وذهاب، مع أنَّه أيضا ترغيب وترهيب على العموم، ولو قال: السلام عليك لخصَّه.

والمشرك لا يقصد بالسلام بل يقال عند خطابه: «السلام على من اتَّبَعَ الهدى» كما كتب رسول الله ﷺ : «من محمَّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتَّبَعَ الهدى» ولا يشكل على الموادعة قوله بعدها: ﴿إِنَّا قَدُ اوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ لقلَّته مع المناسبة للمقام، وذلك كلُّه مما أمرا أن يقولاه إذ قال: ﴿فَقُولاَ﴾ وقيل: تمَّ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

(أصول الدين) ولا حصر في الآية للعذاب في المشركين، إذ لم يقل لا عذاب إلاَّ على المشركين أو نحو هذا، فلا دليل في الآية للمرجئة القائلين إنَّ الموحِّد الفاسق لا يدخل النار.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝٥٤ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾

–٦–

الحوار بين فرعون وموسى حول الربوبيّة

(قصص) ﴿قَالَ﴾ بعد لبث موسى وهارون ببابه حينا وحين ذهابهما إليه، [قيل:] مرًّا بأسود في غيضة له فعوت كالثعالب خضوعا وفرعون يراه من عال فقرع الباب بعصاه وعليه جبَّة صوف وسراويل، فقال له البواب: هل تعرف باب من تقرع؟ هو باب سيِّدك، قال: أنت وأنا وفرعون عبيد لربِّي، فأنا ناصره فأخبر كلُّ حاجب حاجبا وكانوا سبعين كلٌّ تحت يده جند عظيم، ولَمَّا أمره بالتوحيد وتمَّ الكلام قال: خذوه، فألقى العصا فصارت ثعبانا فهرب، ودخل البيت، وقال: اجعل بيننا أجلا، فقال: لم يأمرني ربِّي بذلك، فإن لم تؤمن دخلت عليك البيت، فأوحى الله إليه أن يقبل أجل فرعون، فطلب فرعون أربعين يوما وتخلَّى في ذلك اليوم أربعين مرَّة لإسهال بطنه، وقد كان يتخلَّى مرَّة في أربعين يوما، وكيف يكون هذا؟ فقيل: إنَّه كان يأكل الموز وفضلته قليلة، قلنا: لا لذَّة له في الدنيا إن اقتصر عليه، ومن يعدُّ عليه الأربعين ويخبر بها؟ ولعلَّه عدَّت عليه آسية وقد شاورها فقالت: لا ينبغي لعاقل أن يترك ما أمرك به، وشاور هامان فقال: بــينا أنت ربٌّ صرت مربوبا، فأخذ بكلامه، فاستمرَّ على كفره.

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ لم يذكر هارون لأنَّه تبع لموسى، والفاء في جواب شرط تقديره: إذا كنتما رسولين فمن ربُّكما؟ فإنَّ الرسول لا يكون إلاَّ

عن ربٍّ له ﴿قَالَ رَبُّنَا﴾ أي هو ربُّنا، و«نا» لهما وقيل: للعالمين، كما قال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة الشعراء:١٦) تحقيقا للحقِّ وردًّا على اللعين القائل: أنا ربُّ العالمين، مع أنَّ ملكه في القبط فقط لم يبلغ الشام أو غيرها، كما قال شعيب في مدين: ﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(سورة القصص:٢٥) ﴿الذي﴾ نعت، أو «ربُّ» مبتدأ و«الذي» خبر. ومعنى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ،﴾ أي إيجاده الذي وعد به إجمالا لذات كلِّ شيء، وتفصيلا لأجزائها كعينين وعين واحدة، وصحَّة ومرض، ولون وطول وعرض، وغير ذلك ومن ذلك الذكورة والأنوثة.

وأولى من هذا أنَّ الخلق بمعنى المخلوق، أي أعطى كلَّ شيء ما وعد له من تلك الصفات، والأحسن في حكمة الله هو ما قضى لكلِّ أحد، كعور الأعور ومرض المريض، وكمال الأعضاء وصحَّتها، ونحو ذلك، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ المراد الأنواع تحرُّزا عن نحو العور والمرض، مع أنَّه ليس في الآية هذه ذكر الأحسنية حتَّى يحتاج إلى تأويل ما لا حسن فيه كالعور.

وإن أراد القائل بالأنواع أنَّ الأفراد لم توجد بكلِّها بل منها ما يأتي بخلاف الأنواع فإنَّها تمَّت بحسب الظاهر، قلنا: المعنى أثبت لكلِّ شيء ما سبق به القضاء ودلَّه على صلاحه.

وقيل: يسَّر لكلِّ شيء عضو مصالحه، الرِّجْل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، وقيل: جعل زوجة البعير الناقة، والفرس الرمكة، والحمار الأتان. و«كلَّ» مفعول أوَّل و«خَلْقَ» مفعول ثان، والهاء لـ«شَيْءٍ»، ويجوز أن يكون «خَلْق» مفعولا أوَّلا بمعنى الشيء المخلوق والهاء لله، و«كلَّ» مفعولا ثانيا، أي أعطى مخلوقاته كلَّ شيء يحتاجون إليه.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ دلَّ بإعطاء كلِّ شيء خلقه على وجوده وجوده بالنعم

التي لا تحصى، وقيل: ألهم الذكر كيف يأتي الأنثى. و«ثُمَّ» لتراخي الرتبة إن لم يكن هنا تراخ في الزمان، ويجوز تفسير الهدى بالإرشاد إلى المصالح والإلهام إليها.

وكلُّ عاقل يعلم أنَّه لم يوجد نفسه ولا جسما من الأجسام، ومن هنا سؤال عَمَّا يعين، وما في موضع آخر سؤال عن الماهية، وقد مرَّ أنَّ فرعون عارف بالله تعالى إذ سجد له وسأله جريان النيل فهو من باب ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾(سورة النمل:١٤) فيبقى قوله عزَّ وجلّ : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَؤُلَآءِ اِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ بَصَآئِرَ﴾(سورة الإسراء:١٠٢) عَلَى ظاهره.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾ إن كنت رسولا فأخبرني ما حال القرون الماضية من الحوادث المفصَّلات؟ صرف موسى عَمَّا يدعوه إليه ليتركه، أو يضعف فيه، أو يجد زلَّة في كلامه أو يختبره لعلَّه من القُصَّاص الدارسين لأخبار الأوائل. وأصل البال: الفكر، ويطلق على القلب وعلى الحال التي يُعتنى به كما هنا، و لم يجيء مثنًّى ولا مجموعا وشذَّ قولهم: «بالات» والذي عندي أنَّ ما لم يجئ مثنًّى ولا مجموعا جاز جمعه وتثنيته على القياس.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ إنَّما علَّمني ربِّي التوحيد والدعاء إليه وإلى عبادته، ولا علم له بأحوال الماضين، لأنَّ ذلك قبل نزول التوراة فإنَّما نزلت بعد هلاك فرعون، وإن كان موسى قد علم منها شيئا كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الاَحْزَابِ...﴾(سورة غافر:٣٠) فمراد موسى لا علم لي بها كلِّها أو بأكثرها أو كثير منها، أو لا علم لي بتفصيلها، أو ما علمه مؤمن آل فرعون لم يعلمه من موسى.

وقيل: ﴿فَمَا بَالُ...﴾ متعلّق بقوله: ﴿وَالسَّلاَمُ...﴾ أي فهل عذّبت

القرون الأولى المكذِّبة؟ وقيل: السؤال عن البعث و«ها» في «عِلْمُهَا» للقيامة وهو قول لا يلتفت إليه، وقيل: متعلِّق بقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ فإنَّه يتضمَّن أنَّه تعالى عالم بأحوال الخلق، استبعد أن يكون الله عالما بأحوال الخلق كلِّهم مع كثرة القرون الأولى وانتشارهم.

ولعلَّه خصَّ القرون الأولى من بين الكائنات لعلمه ببعض أخبارهم، وقيل: متعلِّق بقوله: ﴿هَدَىٰ﴾، أي ما بال القرون الأولى لم يهتدوا لهذا الهدى وكفروا ؟ وجواب موسى بأنَّ العلم عند الله عَزَّوَجَلَّ يأتي على كلِّ سؤال.

﴿فِي كِتَابٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، أو الدفتر كناية عن أنَّه محفوظ، كما يحفظ الشيء المعتنى به لئلاَّ ينسى، ويلوح إليه بقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ لا يخطأ وقيل: لا يضلُّ عمَّا أراد ﴿وَلَا يَنسَى﴾ فيجازيكم على أعمالكم كلِّها.

والمكتوب حروف لا علمه تعالى، لكن الحروف تتضمَّن كلاما والكلام يتضمَّن أنَّه عالم عَزَّوَجَلَّ ، والجملتان دفع لأن يحتاج الله إلى كتابة أو عجز وإنَّما كتب لحكمة تعليم الملائكة ومقابلة الفاعل بما فعل.

والضلال: الخطأ بإثبات ما لا يكون أو نفي ما يكون، وإذا فسِّر الكناية بالكتابة المذكورة فالجملتان تذييل لتأكيد الجملة السابقة، وهما على العموم لا يخطأ في شيء مَّا ولا ينسى شيئا مَّا.

فدخل فيهما أحوال القرون الماضية والبعث ووقته، والمطيع والعاصي وجزاؤهما في الدنيا والآخرة، وما كسبا، وسعادة السعيد وشقاوة الشقي، فيقدَّر معمولاهما عامَّين، وللعموم حذف، أو لا يقدَّر لهما بل المراد قطع الضلال والنسيان هكذا البتَّة من أصلهما.

(**التأكيد على كتابة العلم**) وكتابة العلم وما يحتاج إليه أمر مجمع عليه بعد الصدر الأوَّل، قال أبو هريرة: ما من أحد من أصحاب النبيء ﷺ أكثر

حديثا منِّي إلاَّ عبد الله بن عمر فإنَّه كان يكتب ولا أكتب، قال عبد الله بن عمر: يا رسول الله، إنـــّا نسمع منك الحديث أفنكتبه عنك؟ قال : «**نعم**» قلت : في الرضى والسخط؟ قال: «**نعم، فإنِّي لا أقول فيهما إلاَّ حقًّا**»[١] قال معاوية بن قرة[٢]: من لم يكتب علما لم يعد علمه علما أي لخوف النسيان والشكِّ، وقد قال تعالى عن موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبـــِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبـــِّي وَلاَ يَنسَى﴾ فسنَّ الله تعالى لنا الكتابة.

قال الحسن بن علي: لا يعجز أحدكم أن يكون له كتاب من هذا العلم، فلو لم يكتب لذهب وإذا كتب رجع إليه إذا نسي أوشكَّ، وعاب أبو يوسف محَمَّدًا في كتبه العلم فقال: خفت ذهاب العلم، ولا تلد النساء مثل أبي يوسف[٣].

وأجمعت الأمَّة على كتابته، ففي رواية عنه ﷺ : «**ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون شينا فهو عند الله شين**»[٤] وقال ﷺ : «**لا تجتمع أمَّتي على ضلالة**»[٥] وعن نافع عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ :

١- رواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٦٩٨١، من حديث ابن عمرو.

٢- معاوية بن قرَّة بن إياس، أبو إياس المزني البصري، محدِّث ثقة حدَّث عن ابن عبَّاس وابن عمر وأبي هريرة وأبي أيــُّوب الأنصاري...، وحدَّث عنه ابنه القاضي إياس وقتادة وشعبة، وثَّقه ابن معين وأبو حاتم والنسائي. توفي سنة ١١٣هـــ. الذهبي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٨١.

٣- يشير إلى صاحبي أبي حنيفة وهما أبو يوسف ومحمَّد بن الحسن الشيباني.

٤- رواه **ابن ماجه** في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم، رقم ٣٩٥٠. ورواه **أحمد** في مسنده، رقم ٣٦٠٠. **والحاكم** في كتاب معرفة الصحابة، ج٣، رقم٤٤٦٥(٦٣). من حديث عبد الله بن عمر.

٥- رواه **الترمذي** في كتاب الفتن (٧) باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم٢١٦٧. من حديث =

«اكتبوا هذا العلم من كلِّ غنيٍّ وفقير، ومن كلِّ صغير وكبير، ومن ترك العلم من صغير لصغره أو من فقير لفقره فليتبوَّأ مقعده من النار»[1] وإنَّما نهى ﷺ عن الكتابة عن اليهود والنصارى.

واستأذن أبو سعيد الخدري رسول الله ﷺ في كتابة العلم فلم يأذن له، وهذا قبل أن يفتح باب الكتابة كما فتحه لابن عمر، ونهى ابن عبَّاس الناس عن الكتابة خوفا من الإفساد وعدم الضبط، فهو قد أجازه لمن يضبط كما كان هو يكتب.

وأمَّا محو ابن مسعود ما كتبوا عنه فلخوف أن يكون قد أخطأ في شيء، أو لرؤيته فسادا في عبارتهم أو خطهم، أو خوف أن يتَّكلوا على الكتب.

(فقه) وأمَّا الإفتاء فلا يمنعه عاقل ولو وجد من هو أعلم من المفتي إذا كان عالما بما يفتي، ويجوز للمجتهد أن يفتي بما لغيره، فيقول هذا قول فلان أو هو في كتاب كذا، أو في الأثر، ولو لم يتأمَّل فيه إذا لم يظهر له فساده، وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾(سورة النحل:٤٣) إيجاب على أهل الذكر أن يفتوا.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ خبر ثان أو حال من المستتر في «عند». وهنا تمَّ كلام موسى، واستأنف الله ﷻ قوله: **﴿الذِي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ مِهَادًا...﴾** الخ أي أنا الذي جعل...الخ، وهو تقرير لكلام موسى، وكان الكلام بطريق الغيبة لأنَّ «الذي» ظاهر والظاهر من قبيل الغيبة، فيكون «أَخْرَجْنَا» على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم. وعلى أنَّه من كلام موسى إلى ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ يكون نعتا لربِّ، أو خبرا لمحذوف أي هو الذي، وما أكثر ما يقولون: منصوب أو مرفوع على المدح أو الذمِّ، بلا دليل على الحذف، [قلت:]

=

عبد الله بن عمر.

١– لم نقف على تخريجه.

فلا تقلّدهم وإلاّ كنت قلادة كقلادة الصبي.

والمُخرِج به أزواجا من نبات هو الله تعالى. أو من كلام موسى إلى ﴿شَتَّى﴾، والمخرج الله، ولكن أسند إلى موسى الإخراج كما يسند خواصُّ الملك إلى أنفسهم ما للمَلك، أو أسنده إلى نفسه وغيره على معنى أخرجنا بالحرث، أو قال موسى: «فأخرج» بلفظ الإفراد والغيبة، ولَمَّا ذكره الله ردَّه لنفسه لأنَّه المراد فكان بالجمع والتكلُّم وليس هذا أولى من الوجهين قبل كما قيل.

و«مِهَادًا» مصدر ثمَّ جعل اسما لما يمهد للصبي وهو على التشبيه، أي كالمهاد، أو باق على المصدريَّة أي ذات مهد كالبسط، أو مبالغة كأنَّها نفس البسط، أو جمع مهد ككعب وكعاب بمعنى أنَّ كلّ موضع منها كمهد.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ معنى ﴿سَلَكَ﴾: أثبت، أو حصَّل بشدِّ الصاد، والسبل: الطرق بين الجبال والأودية، من موضع إلى موضع لمنافعكم، ويجوز أن يكون اللام بمعنى باء التعدية كأنَّه قيل: أسلككم سبلا. ذكر «لَكُمْ» قبلُ للدلالة على أنَّ المقصود بالذات الإنسان، وهنا للدلالة على أنَّ الانتفاع لهم.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ﴾ من جهتها لا منها لأنَّه من السحاب والسحاب خلقه الله في الجو ﴿مَآءً﴾ مطرا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

(أصول الدين) زعمت الأَشعَرِيَّة في جميع الأسباب أنَّ المعنى: وقع كذا عند كذا، أي وقع الإخراج منَّـا عند الماء، وأحرق بالنار أَوْقَعَ الإحراق عندها، وبالغوا حتَّى قالوا: إنَّ من قال إنَّ في شيء من الأسباب قُوَّة تأثير أودعها الله تعالى فيه فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان، ووجهه أنَّه قال: إنَّ القُوَّة المودوعة مستغنية عن الله سبحانه، ولا بدَّ أنَّه كفر، وأمَّا أن يقال: أودع الله في السبب تأثيرا لكن لا يؤثِّر إلاَّ بإذن الله تعالى والله

مؤثِّر به فلا بأس، وبه قالت الماتريدية[١] والأوائل، فشيء يخلقه الله بلا واسطة وبعض بها وذلك هو المتبادر.

والأَشْعَرِيَّة تقول: إذًا لا بدَّ من تقدير أنَّه يؤثِّر بالله ﷻ، فقل: المؤثِّر هو الله بلا خلق توسُّط، فما التوسُّط إلاَّ بمعنى العندية، وعلى كلِّ حال إذا لم يرد أن يؤثِّر لم يؤثِّر بأن لا يخلق فيه تأثيرا كما لم تحرق النار إبراهيم و لم تحرق يد موسى على ما مرَّ.

وقال: ﴿أَخْرَجْنَا﴾ لا أخرجْتُ ولا أُخرِجُ تفخيما لشأن الإخراج، وله نظائر في ترك الغيبة والإفراد إلى التكلُّم والجمع، في مقام النبات والماء [لأنَّ ذلك معجزة عظيمة انفرد الله بها] كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا اَلْوَانُهَا﴾ (سورة فاطر: ٢٧) وقوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (سورة النمل:٦٠) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٦٦).

والأزواج: الأصناف سمِّيت لازدواج بعض ببعض أي اقترانها، و﴿مِن نَّبَاتٍ﴾ نعت «أَزْوَاجًا» و«شَتَّى» نعت ثان، أي متفرقة لونا وطعما ورائحة وشكلا، وبعض للناس وبعض لبهائم وبعض لبهائم أخرى، والمفرد شتيت كمريض ومرضى، وألفه للتأنيث.

١-المارتدية فرقة كلامية تنسب إلى أبي منصور محمَّد بن محمَّد الماتريدي السمرقندي (ت: ٣٣٣هـ) قامت على استخدام البراهين والدلائل العَقلِيَّة والكلاميَّة في محاججة خصومها من المعتزلة والجهميَّة وغيرهم. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. إشراف: د.مانع بن حماد الجهني، ج١، ص٩٩.

﴿كُلُواْ وَارْعَوَاْ اَنْعَامَكُمُ،﴾ مفعول لقول مستأنف أي قلنا، أو مفعول لحال من الضمير في «أَخْرَجْنَا»، أي قائلين: كلوا، أو معمول لنعت «أَزْوَاجًا» أي مقولا فيها: كُلُوا. ورعى يتعدَّى كما في الآية ويلزم كما تقول رعت الدَّابـــَّةُ.

(فقه) ولا شيء من النبات يحرم إلا جوزة الطيب وجوزة الشرك وجوزة هند، فقيل: تحرم لأنَّها تسكر وإلاَّ الأفيون والشيكران والخشخاش كذلك، وإلاَّ النبات الذي يشرب دخانه فإنَّه سواء ما يسكر بمجرَّده، أو يغيِّر العقل وما يفعل ذلك باعتياده إذا انقطع، وأمَّا الثوم والبصل والكراث فحلال لآل النبيء ﷺ على كراهة خوف مضرَّة الناس [برائحته]، وحرام عليهﷺ لأنَّه يلقى جبريل، ولم يكرههنَّ بعض إلاَّ أنَّه يجب علينا أن نحذر مضرَّة الناس. ولا نطعم الدَّابــَّة نجسا أو مسكرا وعنه ﷺ : «**البطاطيخ أربعة حلو ينبت اللحم، وطيِّب ينبت الشحم، وحامض يقتل الدود، ومرٌّ يقطع الباسور**».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءلاَيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ أشار إلى أقوال موسى وأفعاله وشؤونه، بإشارة البعد لعلوِّ مرتبته في الكمال، ولتتريل عدم ذكر المشار إليه باسمه مترلة البعد الحسِّي، والمعنى: آيات كثيرة عظام ولذلك نكِّر، ولوضوح دلالتها على عظم أفعال الله وصفاته، و«النهى» جمع نهية بضمِّ النون وهي العقل، سمِّي لأنَّه ينهى عن الباطل، كما سمِّي حجرا لأنَّه يحجر عنه أي يمنع، وعقلا لأنَّه يكفُّ عنه، قيل: وقد يجيء مفردا، قيل: ويجوز أن يكون مصدرا.

﴿مِنْهَا﴾ من الأرض لا من غيرها ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أبيكم منها، أو خلقناكم من النطفة المتولِّدة من الأغذية المتولِّدة من الأرض، وقيل: من التراب الذي يدفن فيه كلُّ أحد يؤخذ منه فيذر على نطفته فهو مخلوق من التراب.

وقيل: النطفة جزء من التراب الذي أخذ من موضع دفنه، وجزء من نطفة أبيه وجزء من نطفة أمِّه، وقيل: تراب نبيئنا محمَّد ﷺ من الكعبة ونقل في الطوفان إلى محلِّ قبره الشريف.

﴿**وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء غالبا، إذ من الناس من تأكله السباع ومن يلقى في البحر، وأجساد الأنبياء ومن يلتحق بهم لا تفترق. واختار «في» على «إلى» للدلالة على طول المكث في الأرض، ﴿**وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً**﴾ مرَّة ﴿**اخْرَى**﴾ بردِّ أرواحكم وما فني من أجسادكم بنفسه، المعنى: إنَّ لكم مرَّتين من فعلين، مرَّة إدخال ومرَّة إخراج، أو اعتبر أنَّ خلقهم من الأرض إخراج منها فهو إخراج أوَّل، والثاني بعثهم.

[قلت:] وما أصعب تقلُّب الأزمان بالإنسان:

سقى الله أيَّاما لنا ولياليا مضت فجرت من ذكرهنَّ دموع
فيا، هل لها يوما من الدهر أوبة؟ وهل لي إلى أرض الحبيب رجوع؟

﴿ وَلَقَدَ اَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنَ اَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سِوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ اُ۬لزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ اَ۬لنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ ﴾

-٧-

اتهام موسى بالسحر ومباراته

﴿**وَلَقَدَ اَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا**﴾ صيَّرناه رائيهنَّ ببصره، أو صيَّرناه عارفهنَّ بقلبه، اليد والعصا أطلق الجمع على الاثنين وهو جائز مجاز مشهور، وقيل: حقيقة، بل إنَّهما تضمَّنتا آيات، كما سمِّي مقام إبراهيم آيات.

(قصص) عصاه رجعت ثعبانا أشعر فارغا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع فكّه الأسفل على سور القصر والآخر في الهواء، أو الأسفل في الأرض والآخر على السور فتوجَّه نحو فرعون فهرب، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة عشر ألفا فأنشده فرعون بالذي أرسلك أن تأخذه فأخذه [كذا قيل]، وروي أنَّها انقلبت حية وارتفعت إلى جهة السماء نحو ميل، فانحطّت نحو فرعون، قائلة: يا موسى مرني بما شئت، وأنشده فرعون بما ذكر، ونزع يده بيضاء يغلب شعاعها شعاع الشمس فاجتمعوا ينظرون إليها.

﴿كُلَّهَا﴾ أي آياتنا المعهودة التي ذكرناها كلّها لا كلَّ آية. وعدَّ بعضٌ منها حلَّ العقدة [عن لسانه]، وليس المراد الآيات التسع لأنَّها لم تجتمع كلُّها على عهد فرعون، بل جلُّها بعد هلاكه، وقيل: المراد **أنواع الآيات كلّها** وهنَّ إيجاد معدوم وإعدام موجود، وتغيير مع بقاء، وقيل: آيات الأنبياء حكاها له موسى.

[قلـــت:] وإذا صرنا إلى هذا لم يبعد أن يحكى له ما يكون له عليه السلام بعد من فرق البحر ونتق الجبل وغير ذلك، أو قد رأى صدقه فهو كأنَّه يراهنَّ، ولعلَّ المراد أريناه ما أريناه من الآيات، كلُّ آية فيما رآه الكفاية وزوال الشبهة بالكلِّية.

﴿فَكَذَّبَ﴾ هنَّ أو كذَّب بموسى دون تردُّد أو تأخير ﴿وَأَبَىٰ﴾ امتنع من قبولهنَّ، أو من الحقِّ، أو من الإيمان والطاعة جحودا بلسانه عارفا في قلبه أنَّهنَّ حقٌّ ﴿قَالَ﴾ منكرا مستقبحا لحال موسى عليه السلام ﴿أَجِئْتَـــنَا﴾ أتيتنا من حيث كنت أو توجَّهت إلينا بالكلام، فالمجيء مجيء الأقدام، أو الإقبال بالقلب والخطاب ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنَ اَرْضِنَا﴾ مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ لا قدرة لك، على إخراجنا فإنَّه محال، وذلك استفهام إنكار بناه على كذب ليغري قومه على بغضه ومعاداته، لعزَّة أخذ أموالهم وخروجهم من أرضهم عندهم، وهو لم يجئ لإخراجهم منها ولأخذ أموالهم، والمال شقيق الروح والإخراج أخ القتل كما قرنهما الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَلَوَ اَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمِ...﴾(سورة النساء:٦٦) بل [جاء]

ليأمرهم بالتوحيد وليخلي عن بني إسرائيل.

﴿فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ أي فوالله لنأتينَّك، أقسم بالله لأنَّه عارف بوجوده لكن لم يذكره ولا يذكره لأنَّه يدَّعي الرُّبُوبِيَّة لنفسه، وقيل: كان دهريًّا نافيا للصانع، وقيل: عابدا للنجوم، وقيل: للأصنام فيحلف بنفسه أو النجم أو الصنم.

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ زمان وعد لقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُّحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ فإنَّه كما يقال: لا تخلف الوعد يقال: لا تخلف زمان الوعد أو مكانه، أي لا تتعدَّ ذلك المكان أو ذلك الزمان، ذكر يوم الزينة والضحى، وذكر مكانا سوى، فاحتمل المكان، نعم يجوز كونه بمعنى الوعد ولا يتعيَّن كما زعم بعض، وقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ...﴾ مشتمل على الوعد وزمانه.

(بلاغة) ﴿لاَّ نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلاَ أَنتَ﴾ نعت لـ«مَوْعِدًا» فوَّض تعيين الموعد إلى موسى عليه السلام إظهارا لقوَّته، وتهييء الآلات وأسباب المعارضة، وأنَّ طول الموعد وقصره سواء عنده، وكذلك أظهر قوته بتقديم «نحن» على «أنت» وإعادة «لا» وأظهر القُوَّة أيضا بقوله: ﴿مَكَانًا سوًى﴾ موضعا منصفا بيننا، سواء قربه منَّا ومنك أو محلَّ نصف أي عدل، أو مكانا مستويا ليس فيه ساتر من جبل وأكمة أو شجر أو غير ذلك، حتَّى يظهر سحرك وسحري لكلِّ من يريد، أو مكانا يستوي فيه الرئيس والمرءوس، فلا يضمر فيه حقٌّ.

وذلك وثوق منه بالغلبة إذ لو عجز لذكر ما يأبى عنه موسى، أو يجد فيه شبهة، و«سوًى» نعت «مَكَانًا»، ومكانا مفعول لمحذوف أي: عِدْ مكانا سوى، أو بدل من «موعدا» على أنَّه اسم مكان، ولا يتعلَّق بـ«مَوْعِدًا» ولو جعلناه مصدرا لأنَّه لم يوقعا الوعد في المكان السَّوي، لأنَّهما في غيره حين طلب الوعد،

بل لَمَّا يوقعاه، ويجوز كونه مفعولا أوَّلا و«مَوْعِدًا» ثانيا، وقوله: ﴿مَكَانًا سوًى﴾ مما يرجِّج كون «مَوْعِدًا» اسم مكان بل يعيِّنه، ولو أجابه موسى بالزمان لأنَّ ذاكر الموعد هو فرعون، فيحمل لفظه على ما ذكره هو من المكان السوي.

﴿قَالَ﴾ موسى، وأبعد من قال: الضمير لفرعون وأغرب، وهو خلاف الظاهر ولا دليل له ولا التفات إليه، ولو كان له لقال: «فتولَّى فجمع كيده» ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يوم عيد لهم في كلِّ عام، يتزيَّنون فيه ويزيِّنون أسواقهم، وقيل: أوَّل سنتهم.

وقيل: يوم عاشوراء كما قيل عنه ﷺ: «**من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة، ومن تصدَّق فيه بصدقة أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة**»[1] ويوجه ذلك بأنَّه يوم عيد صادف يوم عشوراء، وكان يوم سبت كما قال أبو حيان واختاره، وقيل: يوم كسر الخليج[2].

وإذا فسَّرنا ﴿مَوْعِدًا﴾ في قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ بالمصدر فإنَّما لم يذكره موسى اكتفاء بذكر الزمان بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ فإنَّ فيه ذكر الوعد، أو يقدَّر: موعدكم وعد يوم الزينة على أنَّ الموعد هنا مصدر، وفي ذكر موسى يوم الزينة إظهار وثوقه بالغلبة، لأنَّه يوم مشهود، وفيه إثبات المكان السوي لأنَّ المعتاد في الأعياد الخروج إلى بسيط من الأرض.

﴿وَأَنْ يُّحْشَرَ﴾ يجمع ﴿النَّاسُ ضُحًى﴾ عطف على الزينة، وأجاز بعضهم عطفه على «يَوْمُ». و«ضُحًى» ظرف لـ«يُحْشَرَ»، أو بدل من «يَوْمُ» بدل بعض، أي ضحى منه.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٣٣٢. وقال: أخرجه ابن عبد المنذر عن عبد الله بن عمرو

٢- كذا في النسخ ولعلّه يعني يوم فيضان النيل.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾

-٨-

جمع فرعون السحرة وتحذير موسى إياهم

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ ذهب عن مجلسه، ويضعف تفسيره بأنَّه تولَّى الأمر بنفسه لأنَّه على حاله المعهودة، وتقليده السحرة، وتفسيره بالتولِّي عن الحقِّ لأنَّ تولِّيه عنه قد سبق مشبعا، وليس هذا محلَّ ذكره، إذ لا يشكُّ أحد أنَّه بعد طلبه الموعد أنَّه لم يتولَّ عن الحقِّ.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ،﴾ أي لم يبق شيئا من نفس الكيد، لم يتدبَّره بواسطة سحرته، أو يقدَّر: فجمع ذوي كيده **﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾** ما عهد من المكان البارز في الزمان المعهود، مع ما جمع، وفي «ثُمَّ» إشارة إلى بطئه للمبالغة في الجمع.

وكأنَّه قيل: فما شأن موسى في ذلك؟ فقال: **﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾** بعد مجيئه بطريق النصح **﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾** بأن تدَّعوا أنَّ ما تأتون به من السحر حقٌّ، وأنَّ آياتي التي مضت والتي إنِّي الآن بصددها كذب كما زعم. ولا يتمُّ لعاقل ينظر بعقله أن يطلب هذا الاجتماع بعد ما رأوا من شأن العصا، **لكن الرغبة في الرفعة والدفع عن النفس، يري الحقَّ باطلا، وينسي النظر في العواقب.**

﴿فَيَسْحَتَكُم﴾ يستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيم لا يعلم قدره إلاّ الله ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ على الله كائنا من كان، فيدخل فرعون أوّلا، أو قد خاب فرعون المفتري فلا تكونوا مثله.

﴿فَتَنَازَعُواْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ هو ما أراده منهم موسى بأن يغلبهم تشاوروا في ذلك الأمر، كأنّه يترع كلٌّ واحد عن الآخر ما يقول في شأنه من الرأي، ويريد رأيه، أو يترع كلٌّ واحد من الآخر الكلام فيه قبل تمامه، أو يعجِّل بعد تمامه ويتكلّم هو ما يريد، وإذا تمّ كلامك فتكلم غيرك، وقد احتمل أن تزيد فقد نازعك.

﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَىٰ﴾ زادوا في الكلام الذي لم يجهر به خفاء، وذكر ما تناجوا به في قوله: ﴿قَالُواْ﴾ أي السحرة المعلومون من المقام، أو لفرعون وقومه مطلقا ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ فالإسرار عن موسى لمروءهم، أو تناجوا حين سمعوا كلامه بأنّه ليس كلام ساحر، أو بأن قالوا: إن غلبنا اتّبعناه، أو قالوا: إن كان ساحرا غلبناه، وإن كان أمر من السماء فله أمره.

وهذا أمر لموسى ونسبه الله ﷻ إليهم لأنّهم ذكروه فيما بينهم، فالإسرار عن فرعون لِئَلاَّ يعاقبهم، فاختلفوا فيما بينهم، قال بعض: إنّ ذلك حقٌّ من الله، وقال بعض: هو سحر، ثمّ اتّفقوا أنّهما ساحران، ويجوز أن يكون واو «قَالُوا» لفرعون وملئه، خاطبوا به السحرة لا تخافوهما أيّها السحرة، ولا تختلفوا فما هما إلاّ ساحران، وأنتم أعلم بالسحر، وفيه بعد لأنّ واو «تَنَازَعُوا» وما بعده ليست لفرعون وملئه، وإن جعلت لهم لم يكن فيه بعد.

وهذان بالألف مع أنّه اسم إنّ واللام للتأكيد في خبرها وذلك على لغة كنانة وبني الحرث وخثعم وزبيد، وأهل تلك الناحية، وبني العنبر وبني الهيجم ومراد وعذرة يلزمون المثنّى الألف كقوله:

واهًا لريـــا ثـــمَّ واهًا واهًـــا يا ليت عيناها لنا وفاهـــا
وموضع الخلخال من رجـــلاها بثمن نرضي بـــه أباهـــا
هي المـــنا لو أنـــنَا نلـــــناها[1]

وقوله:

وأطرق إطراق الشجاع ولو رأى مساغا لناباه الشجاع لصمَّما

وقالوا: ضربته بين أذناه، ومن يشتري الخفان.

(نحو) أو جاء بالألف للتـنبـيه على الأصل من أنّ هذين في الجرِّ والنصب ليست ياؤه إعرابا بل هو مبني، وألفه بقيت لم تقلب ياء وهي ألف المفرد وهي مناسبة لألف «سَاحِرَان». وذكر البخاري ومسلم عن عائشة وعروة بن الزبير أنّ هذا و﴿الْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ (سورة النساء: ١٦٢) و﴿الصَّابُونَ﴾ (سورة المائدة: ٦٩) لحن من الكتّاب وخطأ، ومعناه أنّه عدول عن القراءة المشهورة في اللغة، وفي الأخذ عنه ﷺ ، [قلت:] ولا يصحُّ عن عثمان ما قيل عنه: إنّ ذلك لحن ستقيمه العرب.

ولم يتقدَّم ما تجعل له «إنّ» جوابا بمعنى نعم، فيكون «هذان» مبتدأ، واللام زائدة في خبر «هذان»، أو داخلة على مبتدأ، أي لهما ساحران لعدم صحَّة إنّ بمعنى نعم، أو ندوره كقول ابن الزبير: «إن وراكبها»، والأصل عدم الحذف والزيادة.

﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُّخْرِجَاكُم مِّنَ اَرْضِكُم﴾ من مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ نسبوا ما لموسى إليه وإلى هارون لأنّهم رأوه يجري معه ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ الباء للتعدية كالهمزة، أي يُذهبان طريقَتكم بضمِّ الياء، والطريقة المذهب،

١ – الرجز للمفضل الضبي، وقيل: لرؤبة وعزاه الجوهري لأبي النجم. شواهد المغني.

و«الْمُثْلَى»: العظمى العليا، وهي ما عليه فرعون وقومه من شرك، وما استحسنوه من القبائح، وليس المراد السحر لأنَّهم لم يتَّخذوا السحر دينا، أو يقدَّر مضاف هكذا: أهل طريقتكم المثلى، وهم بنو إسرائيل، لقوله: ﴿أَنَ ارْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وبنو إسرائيل أرباب طريقة عظيمة في صنعة الأشياء، وذلك من كلام فرعون وقومه قالوه إغراء على عداوة موسى، فلا يعتبر إمكانه أو عدمه، فلا يقال: كيف يقولون وإخراج بني إسرائيل لا يتمكَّن لموسى مع بقاء فرعون على قوته؟ أو الطريقة: أصحاب المناصب والتصرُّف من قوم فرعون، أو من بني إسرائيل، فإنَّهم أشرف نسبا وأكثر نشبا، وفيه أنَّ فرعون وقومه لا يسمُّونهم باسم المناصب والتصرُّف، ولو كانوا في قلوبهم كذلك، بل استعبدوهم ويقتلون أولادهم، وقد يجاب بأنَّهم نطقوا بذلك شذوذا فالإضافة لأنَّهم في أيديهم.

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ إذا كان الأمر كذلك من إرادتهما الاستعلاء عليكم بدينهما، والذهاب بطريقتكم فلا تتركوا شيئا مما تكيدونهما به، والأكثر في أجمع أن يكون في المعاني وقد يستعمل في الأجسام، وجمع في الأجسام وقد يستعمل في المعاني.

﴿ثُمَّ ايتُواْ صَفًّا﴾ صيروا صفا من باب صار، كما يقال: ما جاءت حاجتك أي كيف صارت، والمراد صفٌّ واحد من السحرة.

(قصص) وهم سبعون رجلا ساحرا، اثنان من القبط والباقون من بني إسرائيل، وقيل: اثنان وسبعون، مع كلِّ واحد حبل وعصا، قيل: قهر بني إسرائيل على تعلُّم السحر. أو أريد كلُّهم فهم صفوف فيكون المعنى: مصطفِّين، وقيل: السحرة تسع مائة ثلاثمائة من الفرس، ثلاثمائة من القبط، وثلاثمائة من الإسكندرية، وقيل: اثني عشر ألفا، وقيل: خمسة عشر ألفا، وقيل: ثلاثة وثلاثون ألفا.

وإذا جعلنا الإتيان على ظاهره كان «صفًّا» حالا مقدَّرة، ويجوز أن يكون صفًّا اسم موضع من ذلك المكان السوي، أو هو ذلك المكان كلُّه فيكون مفعولا به، والمكان واسع خاطبهم موسى في موضع منه، وتنازعوا في موضع منه، ثمَّ أمروا أن يأتوا وسطه، ويجوز إبقاء الإتيان على ظاهره وأن يكون «صفًّا» حالا مقدَّرة بمعنى ذوي صفٍّ، بمعنى اصطفاف فيحتمل صفوفا أو مصطفّين كذلك.

﴿وَقَدَ اَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ من بالغ واجتهد في أسباب العلوِّ باستعمال كلِّ ما قدر عليه من المكائد، فيحصل له العلوُّ بالغلبة وما وعد له فرعون من الأجر والتقريب، أو أريد قوم فرعون جميعا كقولهم: ﴿بعزَّة فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾(سورة الشعراء:٤٤) أو ذلك من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ومن استعلى هو موسى وهارون، وهذا لا يتمُّ إلاَّ بتقدير القول أي: قال الله: وقد أفلح اليوم من استعلى، على أنَّ «الـ» في «الْيَوْم» للعهد الحضوري، أو بجعل «اليوم» يوم الزينة و«الـ» للعهد الذكري، ذكر الله لنا عَزَّ وَجَلَّ أنَّ الاستعلاء في ذلك اليوم لموسى وهارون، وعلى الأوجه كلِّها يجوز كون «اسْتَعْلَى» بمعنى علا، أو بمعنى علا علوًّا عظيما وهو أولى.

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَلْقِيٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلَ اَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفِ اِنَّكَ أَنتَ اَلَاعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ اُلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ اَلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنَ اذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ اُلذِے عَلَّمَكُمُ اُلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ اِلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ

عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

–٩–

المبارزة بين موسى والسحرة وإعلان إيمانهم بالله تعالى

﴿قَالُواْ﴾ كأنَّه قيل فماذا كان بعد ذلك؟ فأجاب بقوله: ﴿قَالُواْ﴾ وقس على هذا كل ما يقبله من القرآن فلا أحتاج إلى التكرار لك ﴿**يَا مُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ**﴾ خبر لمحذوف، أي الواجب، أو الأمر، أو اللائق إمَّا إلقاؤك أوَّلا، أو مفعول لمحذوف، أي: اختر إمَّا أن تلقي أوَّلا. وإنَّما قدرت «أوَّلا» لأنَّه في مقابله بعد، والأنسب للمعنى أن يكون مبتدأ أي إلقاؤك إمَّا أوَّل كما قال: ﴿**وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَلْقَىٰ**﴾ من الفريقين أحدهما موسى وهارون والآخر نحن، خيَّروه ثقة بنجاح عملهم وغلبتهم لهما، أو مراعاة للأدب.

والمراد بالإلقاء العمل في السحر مطلقا إذ لا يدرون أنَّ عمل موسى إلقاء ولا غيره ولو شاهدوا إلقاء عصاه وانهزام فرعون والقوم بها، على أنَّهم ظنُّوا أنَّه يجدِّد عملا آخر غير مهلك، كما أنَّ عملهم كذلك. ولا مفعول للإلقاء على أنَّ المعنى تستعمل الإلقاء، وإمَّا أن نكون أوَّل من استعمله، أو يقدَّر: تلقي ما تلقي وإمَّا أن نكون أوَّل من ألقى ما ألقى. و«ألقى» ماض بمعنى المضارع، استعمله

للفاصلة، أو اعتبروا وقوع الإلقاء ومضيّه بعد حتَّى إذا أخبر عنه مخبر قال لهم: أوَّل من ألقى.

﴿قَالَ بَلَ اَلْقُواْ﴾ أنتم أوَّلا ما تلقون، لأنِّي لا أعبأ بعملكم وأنا الغالب بإذن الله ﷻ، وأيضا ساعفهم فيما ظنَّ فيهم أنَّهم يحبُّون البدء ولو غيَّروا ذلك في عبارتهم، وأيضا قابل أدبهم بأدب، وأمره لهم بالإلقاء ليس إعانة على معصية السحر، ولا إباحة له، بل طاعة لله ﷻ لأنَّه ﷻ رضي أن يقول لهم ذلك ليفعلوا فيظهر عجزهم[1].

فلا حاجة إلى ما قيل من أنَّه قال: «ألقوا» تهديدا كما يقال للعاصي: افعل ما شئت، ولا إلى ما قيل: المراد ألقوا إن كنتم محقِّين، إذ لا يخفى عنه أنَّهم غير محقِّين، ولا إلقاء يكون منهم حقًّا مع أنَّه معارضة للتوحيد.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ من سِحْرِهِمُ، أَنـَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أي: فألقوا فإذا حبالهم...الخ كقوله ﷻ: ﴿فَانفَلَقَ﴾(سورة الشعراء:٦٣) أي فضرب فانفلق، أشعر هذا أن ملقاهم حبال وعصيٌّ، ولم يذكر ذلك في السورة إلاَّ هنا.

(قصص) قيل: كانوا سبعين ألفا، كلٌّ واحد معه عصا وحبل، أقبلوا على موسى إقبالة واحدة صفًّا، والصفُّ أشدُّ إرهابا من غيره، كما أمروا أن يكونوا صفًّا، وفي نفسي من إكثار العدد في القصص بعض إنكار[2].

ذكر الإخباريُّون أنَّهم جعلوا في العصيِّ والحبال زئبقا فاهتزَّت لحرارة

١- في الطبعة العمانية إضافة، هَذَا نصُّها: «وقد روي أنـَّهُم لَمَّا قالوا: «إمَّا أن تلقي...» إلخ قال الملائكة، أو ملك، أو جبريل: ألقوا يا أولياء الله. فلا حاجة...».

٢- الأمر كذلك، بل كلُّ إنكار، واضرب بأخبار هؤلاء عرض الحائط فكيف يقبل العقل وجود سبعين ألف ساحر ثمَّ حشرهم في مكان واحد مع إمكانيات أولئك الأقدمين.

الشمس واضطربت كأنَّها تمشي، ومن غرائب أهل القصص [قالوا:] إنَّهم حفروا تحت الأرض وجعلوا النار تحتها، فلم لا تحرق الحبال؟! وإن قويت النار فلم لا تحرق العصي الضعاف؟! وإن كانت الحبال والعصيُّ قليلا أمكن ذلك بإعماق النار بحيث توجد حرارتها في الزئبق ولا تحرق، وكيف ذلك وقد قيل: أخذت ميلا في ميل إن صحَّ ؟!.

و«من» للابتداء أو للتعليل و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ نائب الفاعل، وقوله: ﴿يُخَيَّلُ...﴾ خبر «حبالُ» و«عصيُّ»، والرابط في ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

﴿فَأَوْجَسَ﴾ أخفى ﴿فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ نوعا من الخوف عظيما أو حقيرا، على طبيعة البشر عند رؤية الأمر المهول. وياؤه عن واو كما رأيت، قلبت ياء لَمَّا كسر ما قبلها للدلالة على الهيئة. وقيل: إن كان خوفه للهول فالتنكير للتحقير، وإن كان من ترقب عدم اتباع الناس له لما رأوا من هول سحرهم فللتعظيم، ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَجَآءُواْ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الأعراف: ١١٦).

وأظهر موسى وأخَّره للفاصلة، وما قيل: من أنَّه سمع لَمَّا قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ...﴾ «ألقوا يا أولياء الله لأنَّ أولياء الله غالبون» [قلت:] ولا يصحُّ هذا مع ما علمه من الله من أنَّه على الحقِّ وأنَّهم على الباطل، اللهمَّ باعتبار الطبع البشري ـــ ولو كان لا يصحُّ ـــ فإنَّ موسى موقن أنَّهم على الباطل ما داموا كذلك ولا يدري أهم أولياء عند الله.

﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ﴾ لا تستمر على الخوف الذي أوجست فتشجَّع وتقوَّ ﴿اِنَّكَ أَنتَ الاَعْلَىٰ﴾ تعليل جملي مؤكَّد بالجملة الاسميـــَّة، و«إن» و«أنت» والحصر بتعريف الطرفين وخروجهم عن العلوِّ لأنَّ الأعلى خارج عن التفضيل، فالمعنى: أنت العلي دونهم، وهم في السفل وهذا أولى من إبقائه على التفضيل اعتبارا لظاهر علوِّ سحرهم بأن يكون المعنى: لهم علوٌّ ظاهر للناظرين وأنت أعلى

منهم.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي العصا كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ (سورة النمل: ١٠) وعبَّر هنا بـ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ تهويلا لأمرها كقوله ﷻ: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ إذ كان لها أفعال ليست لسائر العصيِّ، والحاصل نفس العصا، واللفظ يختلف مراعاة لمعان موجودة فيها. وقد أوحى إلى موسى بلغته لا بِالعَرَبِيَّة، فلا يقال: عبَّر باليمين تلويحا لليمن والبركة. ويناسب التهويل جعل «ما» نكرة موصوفة، ويناسب التذكير بأفعالها المعتادة من قبل جعلها اسما موصولا.

﴿تَلْقَّفْ﴾ تأخذ أخذ حذق بفمها. وأنَّث ضمير «ما» لأنَّها العصا ﴿مَا﴾ أي الذي ﴿صَنَعُواْ﴾ من الحبال والعصيِّ وتبتلعه، ولفظ «مَا صَنَعُوا» تحقير، وزعم بعض أنَّه لو كان خوفه الموجس خوفا من عدم إيمان الناس بالعصا لتغلُّب سحرهم على قلوبهم، لقال: وألق ما في يمينك يظهر بطلان أمرهم وحقِّية أمرك، وفيه أنَّ هذا موجود مع الزيادة في ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُواْ﴾ بلا تلويح إلى تعليل.

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ صنعهم، أو الذي صنعوه، وهما أولى من أن يقال شيئا صنعوه ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ ترجيح للمصدريَّة في ما هو الوجه الأوَّل، لأنَّ الكيد مصدر فإبقاؤه على أصله أولى من إطلاقه على الحبال والعصيِّ الذي في الثاني والثالث، والمراد: كيد ككيد ساحر، من جملة السحرة مطلقا، وهو سحر حقير في نفسه باطل بالعصا، ووصفه بالعظم في آية أخرى إنَّما هو بحسب ظاهره.

﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ جنس الساحر ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ حيث كان وأين أقبل، بل يفتضح ويخيب. وعن جندب بن عبد الله البجلي عن رسول الله ﷺ:

«**إذا أخذتم الساحر فاقتلوه**»[1]، ثمَّ قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: لا يُؤمن حيث وجد.

والسحر: علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية، يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفيَّة، والسحر منه حقيقيٌّ وغير حقيقيٍّ، ويقال له: الأخذ بالعيون، وسحرة فرعون أتوا بمجموع الأمرين، ومرَّ أنَّهم لطَّخوا الحبال والعصي بالزئبق وذلك من باب السِّيماء، وهي علم يقتدر به على إراءة الصور الذهنية، لكن يشترط أن يكون لها مَادَّة في الخارج بواسطة أسماء وغيرها.

وحاصل علم السماء إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحسِّ ويطلق على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحسِّ وتكون صورا في جوهر الهواء، وهي سريعة الزوال بسبب سرعة تغيُّر جوهره، ولفظ «سيماء» معرب «شيم به»، ومعناه: اسم الله تعالى، وما ذكر من سرعة الزوال غالب لا كلِّيٌّ.

﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا**﴾ كأنَّهم طرحوا من شدَّة السرعة على وجوههم تائبين مؤمنين بالله وموسى وهارون، ولم يرفعوا رؤوسهم من السجود حتَّى رأوا منازلهم في الجنَّة، ورأوا الثواب والعقاب والنار.

[قلت:] وليس هذا إلجاء إلى الإيمان لأنَّهم آمنوا باختيارهم وسجدوا قبل أن يروا ذلك، مع أنَّا لا نسلِّم أنَّ إراءة ذلك [إن صحَّت] إلجاء. قال بعض العلماء: وقبل السجود قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا...﴾ فمنازلهم لهذا القول، وإن قالوا بعد إراءة المنازل فقولهم شكر كما يستغفر النبيء ﷺ مع علمه بالغفران له، أو قالوه لعلمهم بأنَّ شرط المنازل البقاء على الخضوع لله، وعدم الخروج عن شرعه، قال رئيسهم: كُنَّا نغلب الناس والآلات تبقى لنا فأين هي

1- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٣٣٣. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي. مع زيادة: «ولا يأمن حيث وجد» في آخره.

الآن؟ وعصا موسى لم يزد فيها شيء فما هذا إلاَّ من الإله الذي يدعونا إليه موسى.

﴿قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أخَّر موسى مع أنَّه أشرف من هارون ـــ والرسالة والدعوة والمعجزة له أوَّلا وبالذات ـــ للفاصلة، وقدِّم في غير هذه الآية لذلك الشرف والفاصلة، أو هذا نصُّ كلامهم لكن بالعجميَّة، وفيه تقديم هارون لسنِّه، وسها من قال إنَّ موسى أسنُّ منه ولأنَّ فرعون ربَّى موسى فيقولون إنَّه ربُّه فلو قدَّموا موسى لتوهَّم فرعون أنَّه المراد بالربِّ، وإنَّ هارون ملحق به، وذكره في الآية الأخرى على غير نصِّهم، أو بعض قال: ربِّ موسى وهارون وبعض قال: ربِّ هارون وموسى ونسب القولين لهم جميعا حكما على المجموع.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أأذعنتم لموسى باتِّباعه؟ أو صدَّقتم به أي برسالته، أو اللام للتعليل أي آمنتم بالله لأجل موسى فحذف «بالله»، أو الهاء لربِّ موسى وهارون، وفيه تفكيك الضمائر لأنَّ الضمير في «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم» لموسى، لا للربِّ، وما تقدَّم أولى، لأنَّ الإيمان يكون بالباء مع الله وباللام مع غيره، كقوله عز وجل: ﴿يُومِنُ بِاللهِ وَيُومِنُ لِلْمُومِنِينَ﴾ (سورة التوبة: ٦١) ، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰ﴾ (سورة يونس: ٨٣) ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ﴾ (سورة البقرة: ٥٥) ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُومِنٍ لَّنَا﴾ (سورة يوسف: ١٧) ﴿فَئَامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٦).

﴿قَبْلَ أَنَ اذَنَ لَكُمْ﴾ أي من غير إذني، لأنَّه لم يقل لهم من قبل: لا تؤمنوا حتَّى آذن لكم، ولا عرفوا ولا اعتقدوا أنَّه يأذن لهم في الإيمان كائنا ما كان فذلك كقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (سورة الكهف: ١٠٩) مع أنَّه لا نفاد لها البتَّة، ولا مانع أن يكون لَمَّا رأى معجزة موسى الغالبة لسحرهم فقال: لو تربَّصتم بالإيمان حتَّى آذن لكم فيه، وذكر بعض أنَّ الأمر يدلُّ على إرادة الآمر الفعل المأمور به وليس في الإذن ذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في السحر ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فأنتم وهو على غير هدى، والهدى ما أنا عليه، وقد ضللتم عنه وَاتَّــفَقتم أنتم وموسى في ذلك عليَّ فليس إيمانكم لحجَّة قامت عليكم، أو خذلكم في التعليم و لم ينصح لكم فغلبكم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ شدَّد مبالغة ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ الجانب المخالف، أو الجهة المخالفة.

(نحو) وهو مصدر، كأنَّه قيل: من جانب ذي خلاف للآخر، أو من جهة ذات مخالفة للأخرى، أو مصدر بمعنى الوصف. و«من» للابتداء. وإن أبقيناه على المصدريَّة بلا تقدير مضاف ولا تأويل للوصف فــ«من» بمعنى «عن» أو «على»، ولا إشكال كما زعم بعض، وهي متعلِّقة بــ«أُقَطِّعَنَّ» ولا حاجة إلى تقدير: تقطيعا مبتدأ من جانب مخالف أو من جهة مخالفة، أو لأقطِّعنَّها متخالفات. وذلك قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو الرجل اليمنى واليد اليسرى.

وفي بيان هذه الهيئة لهم ﷺ إخبار بأنَّ القطع لا بدَّ منه و لم يقطع وفاقا إبقاء عليهم للرحمة أو لألفة سبقت لهم معه، أو لأنَّه دون القطع من خلاف في الفظاعة.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ شدَّد مبالغة ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها من ظاهرها بلا حفر فيها.

(بلاغة) شبَّه إعلاءهم فيها مدَّة طويلة بجعلهم في داخلها لجامع التمكن استعارة أصلية واستعارة في «من جانب» المشبه به لمعنى على من جانب المشبه تبعية. وقيل: حفر لهم في الجذوع، أو أراد الحفر فلا استعارة، وهو بعيد بل لا ندري أوقع الصلب؟ ولعلَّه أخبرهم فرعون به و لم يفعل، والظاهر أنَّه فعل فقيل هو أوَّل صالب وشهر، واستظهر بعض البقاء على الأصل وهو عدم الفعل.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ أنا أو موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم، و لم يعرف من موسى تعذيبا ولا شدَّة ولا طولا لكن استهزأ به ونسب إليه أنَّه يعذِّب بشدَّة

وطول، أو اتّهمهم أنّهم خافوا من أن يعذّبهم بعصاه التي بلعت سحرهم. أو «أيـّـنا» أنا وربُّ موسى الذي وعدكم موسى أنّه يعذّبكم إن لم تؤمنوا به، وقد قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

أو ﴿أَبْقَىٰ﴾ بمعنى أعظم عطاء، والبقاء بمعنى العطاء، وكان يعطي لمن يرضاه كقول نمروذ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٨) وذلك بعيد لأنّ البقاء بمعنى العطاء غير مشهور، وإذا ثبت فنادر، ولأنّه لا وجه لذكره العطاء لهم بعد قنوطهم من فرعون وإقناطه لهم، وقد يقال الشاهد في ﴿أَشَدُّ عَذَابًا﴾ فيكون ذكر لهم العطاء السابق والعذاب الحاضر، ولا يستبعد عنه قبيحة مّا من القبائح، ألا تراه لم يؤمن وتمادى حتّى طلب الموعد؟ بعد ما رأى من العصا وقد قصدت بلع قبته معه فاستغاث بموسى، فهو يفحش ويبرق ويرعد ولو رأى إقبال ما أُوعد.

﴿قَالُوا لَن نُّوثِرَكَ﴾ نختارك باتباعك **﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾** على يد موسى من الله عَزَّوَجَلَّ **﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾** المعجزات، وكما جاءهم البَـيِّـنات على يد موسى وبعث إليهم بُعث إلى غيرهم، وذكروا أنفسهم لأنّ المقام لذكرهم أنفسهم وذكر ما شاهدوا، وأيضا لعلّهم لا يدرون أنّه بعث إلى غيرهم أيضا. وفي «جَاءَ» ضمير «ما» الواقعة على «البيّنات»، وأجيز عوده على موسى، ويقدّر الرابط، أي على ما جاءنا به، والمشهور أنّه لا يحذف الرابط المجرور إلا إن جرَّ الموصول بمثل جارّه، وعلّق بمثل متعلّقه.

﴿وَالذِي فَطَرَنَا﴾ خلقنا وهو الله، والعطف على «ما» ويجوز أن يكون قسما أغنى عن جوابه معنى قوله: ﴿لَن نُّوثِرَكَ﴾ لا لفظه، لأنّ القسم لا يجاب بلن، وأمّا قول أبي طالب والله لن يصلوا إليك البيت[1] فنادر جدًّا.

١- ونصه: والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتّى أوسدَّ في التراب دفيـــنا
إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد العَرَبـــيَّة، ج٨، ص٨١.

﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب لقول فرعون: ﴿لأُقَطِّعَنَّ...﴾ احكم بما شئت أو افعل ما شئت كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَات﴾ (سورة فصِّلت: ١٢) أي فعلهنَّ، وأمرُهم إيَّاه بالقضاء تسليم لأمر الله، بمعنى أنَّه لا طاقة لنا على دفعك، وإقناط عن الكفر، ولو أحرقتنا أو أقرضتنا بالمقاريض أو نحو ذلك مما هو أعظم من القطع من خلاف، ولا يبعد عن قُوَّة قلوبهم بالله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون تهديدا له بما في الآخرة، والرابط محذوف أي ما أنت قاضيه بالإضافة، أو ما أنت إيـَّـاهُ قاض، وليست مَصدَرِيَّة لضعف وصلها بالجملة الاسميـَّـة.

﴿انَّمَا تَقْضِي﴾ تفعل أو تحكم ما تريد ﴿هَذه الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ﴾ نصب محلّ «هَذه» على الظرفيَّة، و«ما» كافَّة حاضرة، مع أنَّ مالك إلاَّ ما تفعل أو تحكم في هذا الزمان الفاني القصير الذي لا نرغب في عذابه ولا نرهب من عذابه، ولنا في الآخرة الدائمة رغبة نرجو إتمامها من خالقنا.

ويجوز كون «ما» مَصدَرِيَّة، والمصدر اسم «إنَّ» و«هَذه» ظرف خبر، أي إنَّ قضاءك ثابت في هذه الحياة الدنيا، ويجوز أن لا يقدَّر لـــ«تَقْضِي» مفعولا تنزيلا له منزلة اللازم.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبـِّـنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الشرك وما دونه من المعاصي، لا يؤاخذنا بها في الآخرة ﴿وَمَآ أَكْرَهْــتَـــنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ عطف على «خَطَايَانَا» عطف خاصٍّ على عامٍّ، لقرب عهد هذا الخاصِّ، ومشاهدته، وشدَّة نفرهم، ولتضمُّنه الإشراك أيضا.

والمعنى: وليغفر لنا السحر الذي فعلناه بإكراهك، ولا يجوز أن نطاوعك في إيقاعه ولو تقتلنا، وليس إكراهك عذرا لنا إلى ربِّنا.

(قصص) [ويقال:] كان فرعون أكرههم على تعلُّم السحر وعلى استعماله، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس: «إنَّ فرعون أخذ من بني إسرائيل

أربعين غلاما وأمر أن يتعلّموا السحر، وقال: علّموهم تعليما لا يغلبهم معه أحد من الناس، وهم القائلون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا...﴾. وروي أنّه كان يجبر أولاد الناس على تعلُّمه مطلقا، وأكره السحرة على معارضة موسى عليه السلام، فقالوا: أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ليس ساحرا إنّ الساحر إذا نام بطل سحره، فأكرههم على معارضته.

وإنّما قالوا مع ذلك: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾(سورة الشعراء:٣٣) قبل ذلك، أو قالوه تجلُّدا كما أنّ قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا﴾(سورة الشعراء: ٤١) قبل ذلك، أو قالوه لغلبة طمع النفس، والغلبة بالحجَّة وقد غلبهم بها موسى وهارون فلا ينافي ذلك صلبهم.

ويقال: أمرهم بتعلُّم السحر حفظا عن ذهابه ثمّ قهرهم على عمله مع موسى، ومع ذلك قالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا﴾. وزعم أبو عبيد[1] والحنفـيَّة أنّ مجرَّد أمر السلطان أو نهيه إكراه ولو لم يتوعَّد على ذلك ولا سيما إن كان جبَّارا طاغيا. **﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾** ثوابا وعفوا **﴿وَأَبْقَىٰ﴾** أدوم عقابا، أو الله خير وصفا وفعلا وأبقى ثوابا وعقابا.

﴿إِنَّهُ...﴾الخ تقرير لقولهم ﴿اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وردٌّ على فرعون بأنّ الذي يشتدُّ عذابه وثوابه مع دوام هو الله عزّ وجلّ، وأكّد بضمير الشأن **﴿مَنْ يَّاتِ﴾** بالموت أو بالبعث **﴿رَبَّهُ، مُجْرِمًا﴾** بالشرك أو غيره من الكبائر **﴿فَإِنَّ لَهُ، جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا﴾** فيستريح **﴿وَلاَ يَحْيَىٰ﴾** فيها حياة نافعة **﴿وَمَنْ يَّاتِهِ﴾** بذلك **﴿مُومِنًا﴾** بها وبما قال رسله **﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾**

١- هو أبو عبيد القاسم بن سلام كان أبوه روميا عبدا لرجل من هراة، أمّا هو فقد كان إماما في اللغة والفقه والحديث من تصانيفه: كتاب الأموال، والغريب المصنف، والناسخ والمنسوخ، والأمثال. ولد سنة ١٥٧ وتوفي سنة ٢٢٤. الموسوعة الفقهيـة، ج١، ص٣٣٧.

الأعمال الصالحات و لم يصرَّ على معصية، ومن أصرَّ دخل في «مُجْرِمًا». الجملة حال ثانية.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الجمع مراعاة لمعنى «من» والإفراد في التسعة قبله للفظ «من». وإشارة البعد لعلوِّ الدرجة ﴿لَهُمُ﴾ لإيمانهم وعملهم ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ المنازل في الجنَّة مع مراتب الشرف، ولا يفسَّر بمراتب الشرف لأنَّ جنَّات عدن ليست معنىً بل ذاتًا ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل أو بيان ولو نكرة، والعدن: الإقامة، وإن كان علما لموضع فجنَّات عدن معرفة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ حال من «جَنَّاتُ عَدْنٍ» إن كان معرفة، ونعت أو حال إن كان نكرة. «خَالِدِينَ فِيهَا» حال من هاء «لهم» مقدَّرة.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من ثبوت الجـنَـــات المذكورة ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهَّر من الشرك والمعاصي.

(أصول الدين) ومن وحَّد الله ومات مصرًّا على معصية فهو مجرم وغير متزكٍّ، ومعنى قول ابن عبَّاس: ﴿تَزَكَّى﴾ قال: لا إله إلاَّ الله أنَّه تَبِعَ ما يقتضيه التوحيد من الأعمال والتروك، كما يدلُّ سائر أحاديثه الدَّالـــَّة على عقاب الموحِّد الفاسق، وإلاَّ دخل الجنَّة وكان متزكِّيا ولو آمن بالله دون نبيئه، لأنَّه لم يتلفظ ابن عبَّاس في هذا الحديث بنـــبيء وإن قيل: لا إله إلاَّ الله عَلَمٌ على ذكر النبيء والإيمان به قلنا: «لا إله إلاَّ الله» علم أيضا على ذلك والأعمال والتروك.

وفي الآية إطلاق مؤمن على مطلق الموحِّد مثل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ﴾ (سورة النساء: ٩٢) وكما يستعمل في الكلام كثيرا مع أنَّ حقيقته في الموفِّي، فيكون ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ قَيْدًا وإن حملناه على هذه الحقيقة فـــ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ حال مؤكِّد، وقيل قوله: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَّاتِ...﴾ إلى: ﴿...تَزَكَّىٰ﴾ كلام من الله عَزَّ وَجَلَّ ، والأولى أنَّه من كلام السحرة.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

-١٠-

إغراق فرعون وجنوده في البحر، ونعم الله على بني إسرائيل

﴿وَلَقَدَ اَوْحَيْنَآ﴾ في مصر ﴿إِلَى مُوسَىٓ﴾ بعد نحو عشرين سنة في معالجة موسى لفرعون، كلَّما أتاه بآية وعده أن يرسل له بني إسرائيل فينكث، ولَمَّا كملت الآيات أوحى الله إليه بالإسراء بهم ﴿أَن اسْرِ﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لا مَصدَرِيَّة مع باء مقدَّرة، لأنَّ «اسْرِ» أمر ولا خارج للأمر يؤخذ منه المصدر، وكذا سائر الإنشاءات ﴿بِعِبَادِي﴾ بني إسرائيل.

(بلاغة) وعبَّر عنهم بالعبودة مضافة له رحمة لهم، وردًّا على فرعون إذ استعبدهم وهم عبيد لله لا له، وتقبيحا لصنيعه إذ أهانهم وهم عبيد لله، ولم يراقبه فيهم ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ بعصاك، والبحر اسم لأرضه لا لمائه، أي أوضح أو اجعل أو اتَّخذ لهم طريقا فيها بضرب البحر.

(بلاغة) واستعمال الضرب بمعنى الإيضاح مجاز لغويٌّ، أو الجعل أو الاتخاذ، وعلى أنَّه الماء فذلك مجاز عقليٌّ، فإنَّه يقع في الفضلة كما في العمدة، والأصل: اضرب لهم البحر يصير طريقا و«فِي الْبَحْرِ» نعت «طَرِيقًا»، أو متعلّق بـــ«اضْرِبْ».

﴿يَبَسًا﴾ نعت «طَرِيقًا»، وهو مصدر وصف به مبالغة كأنّه نفس اليبوسة، أو يقدَّر مضاف، أي ذا يبس، أو يؤوَّل بالوصف، أي يابسا، كما قرأ به أبو حيوة. [قيل:] ويبوسته خلقة من الله، ويقال: أرسل عليه ريح الصبا فجفّفته. ولَمَّا كان مصدرا صلح للكثير، وهو اثنا عشر طريقا لكلّ سبط طريق لا كما قيل: طريق واحد، بل تبع لفظ «طَرِيقًا» المستعمل في الكثير، أو لَمَّا كان المعنى الواحد وهو السلوك سُمِّيَ طريقا واحدا، وذكر بعض أنّ اليبس ما ابتلّ ثمّ يبس.

﴿لاَّ تَخَافُ...﴾الخ مستأنف على طريق تعديد النعم، أو حال من ضمير «اضْرِبْ» قيل أو نعت ثان لـــ«طَرِيقًا» أو حال، أي لا تخاف فيه ﴿دَرَكًا﴾ اسم مصدر أي إدراكا، لا تخاف أن يدركك وقومَك فرعونُ وقومُه، وزعم بعض أنّ الدرك: ما يلزم الإنسان من تباعة ﴿وَلاَ تَخْشَىٰ﴾ أن يغرقكم البحر من خلفكم أو قدّامكم، أو جوانبكم أو من فوقكم، لأنّ أرضه ولو قابلت السماء ولا ماء حائل بينهما لكن قد يخشى الإنسان أن يميع إليه الماء العالي كالجبال من جوانب، والخشية أعظم من الخوف. وأخَّرها للفاصلة، واختيرت لأنّ درك فرعون قد يقابل بالقتال وبالسبق بالفرار، وترجى النجاة بخلاف ماء البحر.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ تبعهم ﴿فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ مع جنوده، متعلّق بـــ«أَتْبَعَ» أو حال من «فِرْعَوْنُ»، أو الباء للتعدية، أي صيَّر جنوده تابعين، وساقهم حاثًّا لهم، طالبا للحوق، ومقدِّمته قيل: سبعمائة ألف فارس، وقيل: ألف ألف وخمسمائة ألف، وخلّفوا النساء والصبيان والعاجزين في مصر، وبنو إسرائيل مع موسى ستمائة ألف وثلاثة آلاف، وقيل: ستمائة ألف وسبعون ألفا، وما فيهم ابن ستّينَ ولا ابن عشرين ، وهم ذكور وإناث **والله**

أعلم بصحَّة تلك الكثرة في الفريقين.

(قصص) وقد عهد إليهم يوسف أن يخرجوا به ميِّتا فدلَّتهم على قبره عجوز، فقال لها موسى: احتكمي، فقالت له: أكون زوجك في الجَنـــَّة فأنعم وحملوه، خرج بهم موسى يريد القلزم وقد استعاروا من قوم فرعون الحليَّ والدوابَّ لعيد يخرجون إليه غدا أو بعد غد.

(قصص) والإيحاء بالضرب قبل إتباع فرعون بجنوده فيما قيل واختير، وقيل: بعده وهو الصحيح، لَمَّا تراءى الجمعان استغاث موسى الله، فأوحى إليه بالضرب، فضرب فانفلق البحر اثني عشر فرقا مقوسة راجعة إلى الأرض التي دخلوا من جهتها، فيرجعون إلى مصر، أو إلى الشام، وقال فرعون: انفلق البحر من هيبتي، ونادى ثلاثة وثلاثون ملكا بأمر الله فرعونَ وقومَه: ادخلوا، فدخلوا فدخل على فرس ذكر، وجبريل على فرس أنثى قدامه ليتبعه، وقد سبقهم بنو إسرائيل بالدخول، ولَمَّا خرج آخر بني إسرائيل ودخل آخر فرعون أغرقهم البحر و لم ينج منهم أحد، و لم يغرق من بني إسرائيل أحد.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ﴾ البحر، فاليمُّ اسم البحر ولو مالحا لا كما زعم بعض أنَّه العذب، وأنَّ الغرق في النيل ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ ما لا يعلم غاية هوله إلاَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وهذا أولى من أن يقال المعنى: غشيهم ما سمعت قصَّته، والهاء لفرعون وجنوده، وقيل: لجنوده فقط، لأنَّه أنجى الله فرعون ببدنه و لم يغرق ومات بلا غرق، وليس كذلك بل أغرق ومات بالغرق، وشكَّ بنو إسرائيل في هلاكه فأظهره الله ميِّتا.

وقيل: الهاء الأولى لفرعون وجنوده، والثانية لموسى وقومه، وعليه فالتقدير: فنجا موسى وقومه وغرق فرعون وقومه، وعليه: إنَّما جعل الثانية لموسى وقومه لأنَّهم تقدَّموا فقال: غشي فرعون وقومه ما غشي قبلهم موسى وقومه، وعليه

فالهول شأن دخول البحر، والصحيح ما مرَّ.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ في دينهم ودنياهم، أغرقوا فأدخلوا نارا **﴿وَمَا هَدَىٰ﴾** ما أرشدهم إلى دين ولا دنيا، وذلك ردٌّ لقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(سورة غافر:٢٩) واستهزاء به فهو تلميح، أو صور شأن فرعون بشأن مدَّعي العلم والإرشاد فتهكَّم عليه بأنَّ علمه هذا لم ينفع قومه به، أو المعنى: ما هداهم قطُّ مطلقا في شأن القصَّة وغيرها.

وزاد ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ لأنَّ من لا يهدي غيره قد لا يضلُّه، ويبعد أنَّ ﴿هَدَى﴾ بمعنى اهتدى، أي أضلَّهم وما اهتدى في نفسه، ويبعد أن يفسَّر الإضلال والهدى بالدينين لأنَّ الآية نصَّت أيضا على الهلاك الدنيوي، أو إنَّ الإضلال في البحر، والهدى التنجية إلى البرِّ.

(أصول الدين) وزعم القاضي [عبد الجبَّار][1] أنَّه لو خلق الله الكفر لم يذمَّ عليه فرعون، إذ قال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾. قلنا: خلق الله الكفر ونهى عنه، كما خلق الخنزير ونهى عن أكله، وليس إضلال الله الضَّالين إجبارا على الضلال، وإنَّما كلَّفهم على اختيارهم للكفر، وهذا الاختيار أيضا مخلوق له ولا إجبار.

﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ خطاب لهم بعد مضيِّ مدَّة من إغراق فرعون، وأسبغ عليهم فيها نعمه الدِّينيَّة وَالدُّنيويَّة، والجملة محكيَّة بقول محذوف

١- القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبَّار الهمذاني الأسد أبادي أبو الحسن، قاضي القضاة، أصوليٌّ، كان شيخ المعتزلة في عصره، ولي القضاء بالري، ومات بها سنة٤٥١ هـ. ترك تآليف معتبرة منها كتاب تتريه القرآن عن المطاعن، وكتاب متشابه القرآن. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٧٣.

مستأنف، أي قلنا: يا بني إسرائيل، أو بقول محذوف معطوف على «أَوْحَيْنَا» أي وقلنا: يا بني إسرائيل، ولا يجوز أن يكون خطابا للذين في زمان رسول الله ﷺ، وامتنانا عليهم بما منَّ على آبائهم وعليهم أيضا تبعا لأنَّه يمنع من ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ إلاَّ إن قيل: بانتهاء خطابهم في قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

﴿قَدَ اَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومه إذ استعبدوهم ذكورا وإناثا وذبحوا أبناءهم ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الاَيْمَنَ﴾ واعدنا نبيئكم الجانب الأيمن من الطور، أو لَمَّا كانت مواعدة نبيئهم منفعة لهم وراجعة إليهم جعلت مواعدة لهم. و«جَانِبَ» مفعول به، جعل موعودا به توسُّعا، أو يقدَّر: إتيانَ جانب الطور الأيمن، ولا يصحُّ نصبه على الظرفيَّة والتعلُّق بـ«وَاعَدْنَا» لأنَّ المواعدة لم تقع فيه بل إليه، بل واعدناكم إتيان جانب الطور بأن يأتيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للمناجاة وإنزال التوراة.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ الترجبين طعاما حلوا مثل الثلج صاعا لكلِّ واحد ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ طيرا مخصوصة تجيء بها ريح الجنوب فيأخذ كلٌّ أحد ما يحبُّ، ينزلان عليهم في التيه من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

﴿كُلُواْ﴾ قائلين: كلوا، وقيل: مستأنف ﴿مِن طَيِّبَاتِ﴾ حلو وحلال ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قدَّم الإنجاء من العدوِّ لأنَّه من دفع المضارِّ وهو أهم من جلب المنافع، والتخلِّي قبل التحلِّي، وعنى بالنعمة الدِّينيَّة لأنَّها من المنافع، كالأنف في الوجه ما وجه بلا أنف! وأخَّر النعمة الدنيويَّة لأنَّها دونها، ـــ نجانا الله من كيد الأعداء وجعله في نحورهم، ولا جعل لعدوِّنا سبيلا إلينا ـــ آمين.

﴿وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ في ما رزقناكم بالإسراف والبطر، [قلت: ومن الطغيان] الاستعانة به على معاصي الله ومنع الحقوق الواجبة، ومنعه عن مستحقِّه، وإعطائه من ليس له أهلا، والفخر به وسرقة وغصب ونحو ذلك من أنواع كفر

النعمة، وذلك في سائر أحوالهم لا في خصوص المنِّ والسلوى، وقيل: الكلام فيهما، والمعنى: لا تدَّخروا ﴿فَيَحِلَّ﴾ ينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أو يلزمكم من حلِّ الدَّيْن إذا وجب أداؤه لحضور أجله.

﴿وَمَن يَّحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ أظهر في مقام الإضمار تغليظا بذكر الغضب باسمه مضافا لاسمه تعالى، ولأنَّ الثاني أعمُّ، والمراد بالغضب العقاب فهو فعل له عَزَّوَجَلَّ هنا لا وصف، وإن جعلناه وصفا قدِّر مضاف أي مقتضى غضبي وهو العقاب ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هلك، فإنَّ الهلاك مسبِّب ولازم للسقوط من عال، أو هوى وقع في الهاوية، ويقال: في جهنَّم قصر يرمى الكافر من أعلاه فيهوي أربعين خريفا.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ كثير المغفرة وعظيمها، لجواز استعمال لفظ المبالغة في الكمِّ والكيف معا لمن تاب من الشرك والمعاصي، ومنها الطغيان في الرزق ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وصفاته وأنبيائه، وكتبه وسائر ما يجب الإيمان به فورا أو عند الأخذ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ عمل عملا واجبا هو أداء الفرائض كلِّها، ودخل فيه ترك المعاصي لأنَّ تركها عمل وكسب إذ جبد نفسه عنها ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ استقام إلى الممات على ذلك.

(أصول الدين) [قلت:] ومن الاهتداء أن يتوب كلَّما عصى ولو عصى بشرك وتاب مرَّة بعد أخرى حتَّى ختم بخير، و«ثمَّ» لبعد ما بين الانتهاء عن آخره أو لعلوِّ مرتبة الانتهاء، وقيل: اهتدى عمل بالسُّنَّة، وعن ابن عبَّاس: علم أنَّ لعمله ثوابا، وقيل: طهَّر قلبه من نحو العجب والحسد والكبر.

ولا مغفرة للمصرِّ كما دلَّت عليه الآيات والأحاديث، وفي لفظ الآية تقديم التوبة عن الشرك والمعاصي، وتعقيب التوحيد والطاعة، وهكذا يفعل والإيمان تارة يطلق على التوحيد كما هنا وتارة على العمل الصالح.

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾

-١١-

تكليم الله موسى في الميقات وفتنة السامري

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ قلنا لموسى عند الإتيان للمناجاة في جانب الطور الأيمن، أيُّ شيء عجَّل بك عن قومك الذين جئت بهم؟ وهم النقباء السبعون، والاستفهام إنكار للياقة العجلة، ويجوز أن تكون ما تعجيبيَّة بمعنى: إنَّ عجلتك مما يتعجَّب بها الناظر فيها، وعلى كلِّ حال كانت عجلته عن القوم الذين أمر بصحبتهم مما لا يحسن، لأنَّ فيها إهمالهم وعدم الاعتداد بهم، مع أنَّه لم يقصد ذلك وهو من أهل العزم، حتَّى إنَّ مفارقته أدَّت إلى تصوير العجل وعبادته، ودعاه إلى تلك العجلة الزيادة في الرغبة كما قال اعتذارا:

﴿قَالَ هُمُ، أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ لم يبعدوا عنِّي وما تقدَّمت عليهم إلاَّ بقليل، وظننت أنَّ مثل ذلك لا تنكره عليَّ، ولا يعدُّونه إهانة مع أنِّي أريد استدامة رضاك، أو حصول زيادة خير، والله ﷻ نبَّهه بهذا على أنَّ اللائق بك أن تكون في وسطهم، أو متأخِّرا عنهم لتكون رقيبا عليهم.

[قلت:] وكذا كلُّ رئيس قوم ولا سيما في السفر ولو أنَّ مأموما أسرع ليدرك فضل الركعة الأولى مع الإمام لكان خطأ لنقص خشوعه بالسرعة، وكذا مع الإمام المتقدِّم على القوم، بل موسى في قصَّته هذه أيضا ملوم لأنَّه أسرع إلى المناجاة مع الله كإسراع المأموم إلى الإمام للصلاة.

(نحو) و«هُم» مبتدأ و«أُولاَءِ» خبره و«عَلَى أَثَرِي» خبر ثان أو حال، أو «أُولاَءِ» بدل و«عَلَى أَثَرِي» خبر، والكوفيُّون يجيزن في أسماء الإشارة كلِّها أن تكون موصولة فـ«أُولاَءِ» خبر و«عَلَى أَثَرِي» صلة لـ«أُولاَءِ»، أي هم الذين على أثري، والله عالم بذلك كلِّه، إلاَّ أنَّه عليه السلام اعتذر بقربهم على أثره وقيل: ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: على ديني.

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل : ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ الفاء سَبَبِيَّة، أي أنت فعلت ذلك وفتنَّا بسبب فعلك قومَك، أو أوقعناهم في فتنة، وهي ميلهم إلى الشهوات ووقوع الاختلاف، أو اختبرناهم بفعل السامري، وليست للتعقيب فإنَّ بين الفتن وذلك عشرين يوما، وقيل: ستَّة وثلاثين، فالماضي لتحقُّق الوقوع أو للقرب، أو لعزم السامريِّ عقب ذهاب موسى وشروعه في الأسباب، أو للترتيب الذكري ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ بعد تقدُّمك عليهم مفارقا لهم.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ إلى عبادة غير الله عز وجل إذ دعاهم إلى عبادة العجل، قيل: غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة فقال لهم: قد تمَّت الأربعون ــ عدَّ الليالي أيـّامًا ــ ولم نر موسى، وليس إخلافه عنكم إلاَّ لما معكم من حليِّ القبط وهو حرام عليكم فجمعوه فجعله عجلا.

فالمراد بالقوم من خلفهم مع هارون، وهم ــ قيل ــ ستُّمائة ألف نجا من عبادة العجل منهم اثنا عشر ألفا. فالمراد بـ«قَوْمَكَ» هنا غير المراد بهم في قوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ ولذا لم يقل: فإنـّا قد فتناهم من بعدك، وقيل:

المراد واحد على الأصل في تكرير المعرفة أنّها عين الأولى، ولا يبعد أنّ المتخلّفين قريبا من الطور إلاّ أنّ النقباء أقرب منهم إليه، بل ذلك متبادر، ولا شكّ أنّ النقباء لم يعبدوا العجل.

وجعل المعرفة عين الأولى وجه آخر هو أنّ المراد بالقوم في الموضعين الجنس، إلاّ أنّه أريد بالأوّل النقباء، وبالثاني المتخلّفون، ومثل ذلك في القرآن وارد.

(قصص) والسامريُّ: من عظماء بني إسرائيل منسوب إلى قبيلة عظيمة تسمَّى سامرة بالشام إلى الآن، إذا أراد أحدهم المصافحة لوى الثوب على يده لئلاَّ تصيبه الحمَّى، يسمَّون السامريِّين، قيل: هو ابن عمِّ موسى، وقيل: ابن خالته، وقيل: علج من كرمان نقل إلى مصر، وقيل: كان من أهل بَاجَرْمَا قرية بمصر أو بالموصل، وقيل: من القبط جارا لموسى يُظهر له الإيمان، وقيل: من عبَّاد البقر أظهر الإيمان لبني إسرائيل، واسمه على المشهور موسى بن ظفر، وقيل: مُنجًّى أدخلته أمه في غار مخافة الذبح وأطبقت عليه، فكان جبريل يغدوه بلبن في إصبع وعسل في أخرى وسمن في أخرى، قال بعض:

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيَّرت قلوب مربِّيه وخاب المؤمل
فموسى الذي ربَّاه جبريل كافر وموسى الذي ربَّاه فرعون مرسل

﴿**فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ**﴾ وصلهم وقابلهم بعد تمام الأربعين، ذي القعدة وعشر من ذي الحجَّة، وبعد أخذ التوراة لا عقب الإخبار بـ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ الفاء للسببيَّة أو للترتيب الذكري، أو العرفي، وهو أنّه في كلِّ شيء بحسبه كما قال ابن هشام، مثل: تزوَّج فولد له، وشايعت الحجَّاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين، ولا يتوهَّم أنّ الولادة متَّصلة بالتزوُّج ولا الرجوع متَّصل بالدعاء.

﴿غَضْبَانَ﴾ الغضب في البشر: ثوران دم القلب لإرادة الانتقام، قال رسول الله ﷺ : «**اتَّقوا الغضب فإنَّه جمرة توقد في قلب ابن آدم، ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه**»[1] ﴿أَسِفًا﴾ حازنا أو نادما على ما فرط منه من مفارقتهم، حتَّى وقعت فيهم عبادة العجل، أو متلهِّفا على ما فاته متحيِّرا في أمر قومه يخشى أن لا يمكنه تداركه، وفي هذا زيادة من خارج عن لفظ «أسف».

﴿قَالَ﴾ لهم بعد هذا الرجوع المفسَّر بالوصول، وإن فسَّرنا الرجوع بالذهاب إليهم فالمراد قال بعد رجوعه ووصوله: ﴿**يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا**﴾ أنكر انتفاء الوعد بحيث لا سبيل لهم إلى نفيه، وعدهم إنزال التوراة هدى ونورا، أو الوصول إلى جانب الطور الأيمن، والفتح في الأرض والمغفرة للتائب ونحو ذلك، أو الجنَّة كما قال الحسن، أو أن يسمعوا كلام الله أو كلَّ ذلك، والأنسب المتبادر الأوَّل. و«وَعْدًا» بمعنى موعود مفعول به، أو باق على معنى المصدريَّة مفعول مطلق، ويقدَّر المفعول على هذا، أي: وعدكم وعدا حسنا أن ينزِّل عليكم التوراة.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ الفاء عاطفة على ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ لأنَّه بمعنى قد وعدكم، والهمزة مما بعد الفاء لتمام صدارتها، والأولى دخولها على محذوف عطف عليه بالفاء، مثل أوَعدكم؟ ـ بفتح الواو ـ أو أعهد لكم فطال عليكم زمان الإنجاز؟ أو زمان المفارقة للإتيان بالموعود. وأطلق العهد على الزمان، أو يقدَّر مضاف، أي زمان المعهود، أي زمان ما عهد لكم، ويقدَّر بعد لفظ العهد: فنسيتم، أو يقدَّر: فظننتم بطلان العهد، و«الــ» للعهد الذي في أذهانهم.

١- رواه **أحمد** في مسند باقي المكثرين من الصحابة، رقم ١٠٥٩، من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «ألا إنَّ الغضب..» في حديث طويل، أوَّله قوله: «خطبنا رسول الله خطبة بعد العصر... ».

﴿أَمَ اَرَدتُّمُ، أَنْ يَّحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ نعت لـ«غَضَبٌ»، أو متعلّق بـ«يَحِلَّ» ويجوز أن تكون «أَمْ» بمعنى بل، وتنكير «غَضَبٌ» للتعظيم، لا يشكُّ شاكٌّ أنّهم لا يحبُّون الغضب، فمعنى الإرادة فعل ما يكون مقتضيا للغضب ومسبِّبا له وملزوما له.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وعدكم إيَّاي بالثبات على الإسلام، إلى أن أرجع من الميقات، قيل: أو باللحاق إلى الطور، وهو مصدر مضاف للمفعول، ويبعد أن يكون مضافا للفاعل، على أنَّ معنى ﴿أَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وجدتم الخلف في وعدي لكم بعد الأربعين، كقولك: أحمدت زيدا بمعنى وجدت فيه الحمد، أو تركتم وعدي لكم، وفعلتم ما لا تستحقُّون الإتيان بالموعود به كمن وعد بخير على فعل حسن فلم يفعله، وهذان الوجهان لا يناسبان ما قبل ولا ما بعد.

﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ باختيارنا الذي ملكناه، بل بوسوسة السامري، وقرأ عمر: «بِمَلَكِنَا» بفتح الميم واللام.

(لغة) قال أبو حيَّان: [بِملكِنا] سُلطاننا، واستظهر هو أنَّ المُلك بضم الميم وفتحها وكسرها وإسكان اللام فيهنَّ بمعنى. وقال أبو عليٍّ: معنى المضموم أنَّه لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك بسلطانه، وهو قراءة حمزة والكسائي والحسن والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وقعنب، والمفتوح مصدر مَلَكَ، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأن مَلَكْنا الصواب ووفِّقنا له، وكثر استعمال المكسور فيما تملك اليد وتحوزه، لكن يستعمل في الأمور التي يبرمها الإنسان، والمعنى عليه كالمفتوح، والمصدر في هذين مضاف إلى الفاعل، ويقدَّر المفعول أي بملكنا الصواب.

وبيَّنوا منشأ خطئهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ القبط، والأوزار: الأحمال، وهي ما استعاروه منهم لزينة العيد، أو العرس، أو ما ألقاه البحر على الساحل، وهو بعيد لكن الله قادر على إلقائه، وسمِّيت أوزارا لأنَّها

تلبس فخرا وخيلاء وترفُّعا على الفقراء، أو لأنَّها سبب عبادة العجل، إذ صوِّر به، أو لأنَّه في حكم الغنيمة فتجمع فيترل عليها نار أو شبهها فتفنيه، وهذا من إضلال السامري، ويبحث في ذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ (سورة الشعراء: ٥٩) وأمَّا قوله تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾(سورة الأعراف:١٤٨) فلا نصَّ فيه على أنَّها حلَّت لهم، لجواز أن تضاف إليهم لأنَّها في أيديهم، وقد أمرهم موسى باستعارة الحليِّ والدوابِّ من القبط، وَلَعَلَّ موسى أبقى الحليَّ في أيديهم لينظر ما يؤمر به فيه فصيغ به عجل، أو حلَّ لهم تملُّكه لأنَّه لا يوجد مالكه، ولا وارثه، وإن وجد في النساء والضعفاء والصبيان، ففي ردِّه بعدٌ إذ يبعد الوصول إليهم، كلٌّ واحد بماله وأنَّ ذلك ليس بحكم الغنيمة.

﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ طرحناها في النار لتذوب وتصاغ عجلا، وذلك في حفرة على قالب عجل، وقيل: ألقيناها عن أنفسنا وأولادنا، وهو ضعيف، ﴿فَكَذَلِكَ﴾ أي مثل إلقائنا في النار ما معنا من ذلك ﴿أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ما معه من ذلك فيها، وفي داخلها قالب عجل يريهم أنَّه ليس يَخُصُّ نفسه عنهم، وزاد ما معه من أثر الرسول، قيل: أو أرادوا ألقى التربة من أثر الرسول ولذلك غيَّروا الأسلوب و لم يقولوا: فقذفناها وقذف السامريُّ ما معه منها، وأمَّا تغيير الأسلوب بأن قالوا: «ألقى» و لم يقولوا: فقذف من حيث إنَّ القذف يناسب الجرم المجتمع لا التراب، فقد قيل به إلاَّ أنَّه ضعيف أيضا.

(قصص) ويقال: قال لهم: تأخَّر موسى للحليِّ الحرام الذي معكم فاحفروا في الأرض حفرة واسجروها نارا وألقوه فيه، ففعلوا وقد ألقى فيها قالب عجل، ويقال: ألقى هارون أيضا وما يدري ما أراد السامريُّ، وروي أنَّه وجده هارون يعمل فقال: ما تعمل؟ فقال: أعمل ما ينفع ولا يضرُّ، فادع الله أن يتمَّه فدعا هارون و لم يدر ما هو، وروي أنَّ هارون قال: اجمعوا هذا

الحليَّ حتَّى يجيء موسى فجمع وأذيب فألقى السامريُّ عليه القبضة وقال: كن عجلا بإذن الله.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ السامريُّ ﴿لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ العجل: ولد البقرة، أخرج لهم حيوانا حقيقا على صورة العجل، بأن خلقه الله وأحياه حقيقة من تلك الأوزار التي قذفوها، وقيل: هو هنا صورته بلا روح، والخوار: صوت البقرة والمراد حقيقته على الأوَّل، وصوت ريح يخرج منه على الثاني، ومعنى «جَسَد»: لحم ودم على الأوَّل، أو أحمر كالجسد بلا روح على الثاني.

(قصص) وعن ابن عبَّاس: تحرَّج بنو إسرائيل عَمَّا في أيديهم من حليِّ القبط، فجمعوه لتأكله النار من السماء كما تأكل ما غنموا غير الحيوان، فَلَمَّا جمعوه لذلك أوقد السامريُّ نارا فصاغه عجلا بأن ألقى القبضة، وقال: كوني عجلا، فكان الريح يدخل من دبره ويخرج من فيه بصوت.

(نقد بعض هذه الأخبار) وهنا حديث تفوح منه رائحة اليهود، ورائحة المُجبرة كذبوه على النبيء ﷺ لولا أنِّي رأيته في بعض التفاسير فخفت أن يكفر الناس بسببه لم أذكره، ذكره ابن مردويه وغيره بسنده إلى كعب بن مالك، وراشد بن سعد، عن النبيء ﷺ : «**وعد الله موسى المناجاة فبينما يناجيه سمع صوتا خلفه، قال: ماهو؟ قال الله ﷻ : أضلَّ السامري قومك، قال: فبم أضلَّهم وقد نجَّيتهم وأنعمت عليهم؟ قال: صاغ لهم عجلا فعبدوه، قال: فمن نفخ فيه الروح؟ قال: أنا رأيت في قلوبهم حبَّ ذلك فيسَّرته لهم، قال: فوعزَّتك ما أضلَّهم غيرك؟ فقال: صدقت يا حكم الحكماء، ويا رأس الأنبياء لا ينبغي لحكيم أن يكون مثلك**»[1].

١- اورده الألوسي في تفسيره: ج٤، ص٣٣٤ وقال: أخرجه ابن مردويه عن وهب بن مالك.

(نقد الحديث و الشك فيه) كيف يقول: رأس الأنبياء ورأسهم سيِّدنا محمَّد ﷺ ؟! وكيف يقول: رأيته في قلوبهم فيسَّرته لهم؟! وكيف يقول: أنت أضللتهم مجيبا به كجواب من يقول أجبرتهم على الضلال؟! وتحقيقا إنَّ الله خلق الضلال لكن النطق به في هذا المقام صورة شنيعة، وكيف يقرُّه الله عليها ؟! ويزيد له مدحا عليها.

وقدَّم لهم مع أنَّ المفعول فيه بواسطة الحرف وأخَّر «عِجْلاً» مع أنَّه مفعول بلا واسطة على طريق الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه من طول لو قدِّم لم يتناسب نظم القرآن، وهكذا قل في غير الآية.

﴿فَقَالُواْ﴾ أي السامريُّ ومن ضلَّ معه، وقيل: قوم موسى حكمًا على المجموع، وهو خلاف الظاهر، وقيل: السامريُّ وجمع تعظيما لجرمه، وهو بعيد. ﴿هَذَآ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي نسي موسى أنَّه ربُّه فذهب إلى جانب الطور يطلبه فيه، وذلك من عطف الفعليـــَّة على الاسميـــَّة، بمعنى أنَّه تقرَّرت أُلوهيَّة هذا لموسى، فنسي، وقيل: نسي السامري بمعنى ترك النفاق بإضمار الشرك فأظهره، وعلى هذا ليس «نَسِيَ» من المقول بل عطف على «قَالُوا» لا على مدخوله، وقيل: تمَّ كلامهم عند قولهم «فَقَذَفْنَاهَا» وما بعده من كلام الله، وذكر فيه صنيع السامريِّ وهو ضعيف، كما قيل: **المعنى ترك السامريُّ ما كان عليه من الإيمان، وما قيل: من أنَّه ترك الاستدلال على وحدة الله عز وجل .**

﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنْ﴾ أنَّه ﴿لاَ يَرْجِعُ﴾ العجل ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ كلاما إذا عبدوه، أو تكلَّموا له، والمعنى: كيف يقولون إنَّه إله مع حدوثه وعجزه؟ وإذا كان إلها فمن إله من مضى؟ وهل له صفة الأُلوهيَّة؟ ألا يتفكَّرون فيعلمون أنَّه لا يرجع إليهم قولا ؟ ﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾ مطلقا، أو ضرًّا على عدم عبادتهم، ولا نفعا عليها.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ۝٩٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾

–١٢–

معاتبة موسى لهارون، وإحراق العجل الذي اتخذوه إلها

﴿**وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ من قَبْلُ**﴾ قبل رجوع موسى من الطور إليهم، أو من قبل قول السامري: ﴿هَذَآ إِلَهُكُمْ وإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ سارع إلى تحذيرهم قبل أن يفتنهم السامريُّ، لأنّه تفرس فيهم الفتنة، والعطف على ما قبلُ، عطف قصَّة على أخرى، أو على ﴿أن لاَّ يَرْجِعَ﴾ فتتسلط عليه الرؤية، أي أفلا يرون عدم الرجع والضرِّ والنفع، وقول هارون وعظا لهم، ولا تصحُّ أن تكون حالا لكونها إنشائيَّة.

(**بلاغة**) ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِـنـتُم بِهِ**﴾ محطُّ الحصر قوله: ﴿بِهِ﴾ أي ما فُـتـنـتم إلاَّ به، تدَّعون أنّه هدى لكم وما هو إلاَّ ضلال، بشبْه قصر القلب كأنّهم قالوا: ما هدينا إلاَّ به، فأجيبوا ما فـتـنـتم إلاَّ به، لا كما زعم بعض

أنَّ الحصر متوجّه إلى«فُتنتُم به»، بمعنى ما وقع إلاَّ فتنكم به، وهو غلط لأنَّ الحصر بـــ«إِنَّمَا» يتوجَّه إلى آخر الكلام، وإن لم يكن له آخر متحيِّز كان متوجِّها إلى الجملة، كما إذا ختمت بالضمير المتَّصل غير المفصول بحرف جرٍّ، نحو: إنَّما قمتم أو إنــــَّمَا أكرمتكم، ولو كان مفصولا بحرف أو منفصلا كان الحصر عليه كالآية، وكقولك: «إنَّما أعطيتك إِيـــَّاهُ»، أي ما أعطيتك إلاَّ إيـــَّاهُ.

﴿وَإِنَّ رَبــَّكُمُ الرَّحْمَـــٰـنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُواْ أَمْرِي﴾ حصر الربوبـــيَّة لله حصر قلب بتعريف الطريفين، وكان بذكر الربوبيَّة والرحمة استجلابا لهم إلى التوبة، وتلويحا بأن تقبل. والفاء لعطف فعليـــَّة إنشائيَّة على اسميــــَّة إخباريَّة، أو في جواب «إذا» أي إذا كان ذلك فاتَّبعوني على الثبات في توحيد الله ﷿ وطاعته، وأطيعوا أمري فيهما.

وقيل: اتَّبعوني إلى الطور وأطيعوني في ترك العجل، ويبحث فيه بأنَّ هارون لم يؤمر بالذهاب إلى الطور وإلاَّ لم يتخلف، ولا هم وعدوا بالذهاب إليه فيذهب بهم إليه.

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ لن نزال مقيمين على العجل أي على عبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فإذا رجع رأينا ما يقول، فإن قال: اتركوه تركناه، وقيل: التصق حبُّه في أذهانهم حتَّى إنَّه أمكنهم أن يخالفوا موسى إذا رجع ونهاهم وخالفوه، وحتَّى توهَّموا أنَّ موسى يوافقهم عليه حاشاه، وهم بلَّه قساة القلب وهم أشدُّ جهلا من البقر إذ عبدوه، وروي أنَّهم لَمَّا قالوا ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفا لم يعبدوه.

وكأنَّه قال قائل: ما قال موسى إذ رجع؟ فقال: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيــْتَهُمْ ضَلُّواْ﴾ علمتهم ضلُّوا، أو رأيتهم ببصرك يفعلون ما هو ضلال

﴿أَلاَّ تَــتَّبِعَنِي﴾ معمول «مَنَعَ» بلا تقدير جارٍّ، أي ما منعك اتِّبَاعي، أو به [أي بالجار] أي من اتِّباعي. و«لا» صلة، ويجوز أن تكون نافية بمعنى: ما حملك على عدم اتِّباعي، والمنع من الشيء مستلزم للحمل على مقابله. و«إذ» متعلِّق بــ«مَنَعَ» لا بــ«تَــتَّبِعَ» لأنَّ معمول الصلة لا يتقدَّم على الموصول، ولو كان ظرفا لأنَّه يعمل بالتوسُّع في الظرف إذا لم يوجد مندوحة عنه.

والمراد بالاتِّباع أنَّ تسير بسيري في الغضب لله وتقاتلهم على كفرهم، أو أن تلحقني إلى الطور بمن معك ممن لم يكفر، كما روي عن ابن عبَّاس، وكان هارون أحبَّ إليهم من موسى رئيسا فيهم، فلو خرج عنهم بعدما نهاهم ولم ينتهوا لانتهوا لشدَّة مفارقته لهم عليهم، ولا يخافون من رجوع موسى إليهم بذهابه إلى موسى وإخباره له، لأنَّهم قالوا: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

﴿أَفَعَصَيْتَ﴾ أخالفتني فعيصت ﴿أَمْرِي﴾ لك بسياستهم على أمر دينهم ودنياهم، إذ قلت لك: ﴿اخْــلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَــتَّــبِعْ سَبِــيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٢) أو «أَمْرِي»: أمور الديانة، وعصيانها: مضادتها.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ قلبت ياء المتكلِّم ألفا بعد فتح ما قبلها وحذفت الألف تخفيفا، وهو شقيقه على الصحيح، ولكن ذكر الأمَّ فقط استعطافا، والقول بعد أخذ موسى بشعر رأسه بيمينه، وبلحيته بشماله غضبا عليه، إذ خطر على قلبه أنَّه قصَّر وكان شديد الغضب.

﴿لاَ تَاخُذْ بِلِحْــيَتِي﴾ شعر الوجه والذقن وهو المشهور المتعاهد في هذا اللفظ، لا موضعه من الوجه والذقن كما قيل، لأنَّ الأخذ بالشعر أنسب ولو كان اللِّحى اسما للموضع ﴿وَلاَ بِرَأْسِيَ﴾ شعر رأسي لأنَّه أنسب بالأخذ من نفس الرأس ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لم أعص أمرك ولكن خشيت بقتالهم، أو اللحوق بك إلى الطور بمن معي ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ بقتالك إِيَّاهُم، أو اللحوق

وَرُبـــَّمَا جرَّ اللحوق وحده إلى القتال الموجب للافتراق المستمر، وهم كإنسان واحد إذ كانوا لأب واحد: «إسرائيل»، حتَّى إنَّهم سمُّوا «بني إسرائيل» بدل التسمية بالقوم ﴿**وَلَمْ تَرْقُبْ**﴾ لم تراع ﴿**قَوْلِي**﴾ وصيَّتي لك فيهم، إذ استخلفتك فيهم وقلت: ﴿اخْـــلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ...﴾. والعطف على «فَرَّقْتَ».

وحاصل اعتذار هارون أنَّه رأى البقاء فيهم مع النهي ومداراتهم والمحافظة على اجتماعهم إلى أن يأتي موسى فيرى رأيه أصلح، ولا سيما أنَّهم استضعفوه وكادوا يقتلونه، ويجوز أن يراد بالقول في ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ قول هارون فيكون الخطاب في «تَرْقُبْ» لموسى أي لم ترقب يا موسى ما أقول لو قاتلتهم، أو لحقت بك من أنَّ ذلك صلاح، أي أن تقول غير مراقب قولي: فرقت بينهم، وفي ذلك دليل على جواز الاجتهاد.

﴿**قَالَ**﴾ بعد الفراغ من عتاب هارون وبدأ به لأنَّه أعظم شأنا في الدين، ولقرابته وكونه ركنا في مدافعة السامريِّ وقومه.

﴿**فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ**﴾ ما شأنك أو ما سببك أو ما مطلوبك؟ وهو لفظ يستعمل في الأمر العظيم الذي من شأنه التخاطب ومراجعة الكلام.

﴿**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ**﴾ علمت ما لم يعلموا به.

(لغة) يقال: بَصُر بالشيء إذا علمه وتفطَّن له، وأبصر الشيء إذا نظر بعينيه، وقيل: بصره وأبصر به بمعنى واحد، ويقال: البصر للجارحة الناظرة وللقوَّة التي فيها، ويقال للقوَّة التي في القلب المدركة: بصيرة وبصر، ويقال: من الأوَّل: أبصرت، ومن الثاني: أبصرته وبصرت به، وقلَّما يقال في الحاسَّة: بصرت إذا لم تجمع معها رؤية القلب.

والأنسب بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ تفسير «بصر» بـــ«رأي» وهذا الإبصار في البحر حين السلوك، وقيل: في مقامهم بعد الخروج منه

وذهاب موسى إلى الطور.

(قصص) فعن ابن عبَّاس رضي الله عنه: رأى جبريل يوم فلق البحر على فرس، وهو على صورته التي كان يغدوه عليها حين ألقته أمُّه في الغار فعرفه، كما يعرف الوليد أمَّه، ولو كان صغيرا فأخذ قبضة من أثر حافر فرسه، فألقي في قلبه أنَّه لا يلقى على شيء إلاَّ كان حَيـًّا كما رآه يغذوه من أصابعه بلبن وسمن وعسل. وعن عليٍّ: رآه على فرس حين جاء ليذهب بموسى إلى الطور و لم يره غيره، فقبض من أثر حافر فرسه قبضة، أي لما رأى منه من العجب حين يغدوه، وقيل: لأنَّه رأى كلَّ موضع وقع عليه يدا الفرس أو رجلاه ينبت، فقبض قبضة منه وذلك قوله تعالى:

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنَ اَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي من أثر فرس الرسول، كما قرأ به عبد الله بن مسعود، وأثره: التراب الذي تحت حافره، ولا حاجة إلى تكلُّف أنَّ أثره أثر للرسول بلا تقدير مضاف، ذكره بالرسالة لأنَّه لم يعرفه إلاَّ بالرسالة من الله بالمشي في البحر لشأن موسى، وبإطعامه من أصابعه في الغار، ولو عرفه باسم جبريل لذكر لفظ جبريل، أو ذكره باسم الرسول للإشعار بوقوفه على ما لم يقفوا عليه من الأسرار الإلهيـَّة، وللتنبيه على أنَّ الأخذ وقت الإرسال.

والقبضة «مفعول» لأنَّه بمعنى المقبوض، وأصله مصدر، والمراد: تراب قدر ما تقبضه اليد، وهذا أولى من أن يبقى على المصدريَّة مفعولا مطلقا، ويقدَّر المفعول، أي ترابا ثابتا من أثر الرسول، وعلى الأوَّل يتعلَّق «مِنْ» بـ«قَبَضْتُ» والقبض بالضاد المعجمة: الأخذ بجميع الكفِّ، وبالصاد المهملة الأخذ بأطراف الأصابع ﴿فَنَبَذْتُـهَا﴾ في الحليِّ المذاب، أو في جوف صورة العجل، فكانت حيوانا.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ زيَّنت لي نفسي الأمَّارة بالسوء واتَّبعتها لا

بإلهام من الله، ولا حجَّة عَقليَّة ولا نَقليَّة.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام تنحَّ عنِّي! ﴿فَاذْهَبْ﴾ عن الناس كلِّهم أو عن بني إسرائيل إذ كنت مغويًّا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاة﴾ لأنَّ لك في الحياة. و«فِي» متعلِّق بـ«لَكَ» لنيابته عن ثابت أو بثابت هذا، أو بثابت حالا من الكاف، وأخطأ من يعلِّقه بـ«تَقُولُ» متمسِّكا بالتوسُّع في الظروف لأنَّه إنَّما يصار إلى التوسُّع حيث لا مندوحة.

﴿أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾ المصدر اسم إنَّ. و لم يذكر المقول له للعموم، يقول بأقصى صوته لكلِّ أَحد عند خوف المسِّ: لا مساس لك عندي أو بيننا !. وهو مصدر «ماسَّ» بفتح السين مشدَّدة فعل ماض للمفاعلة بـين الاثنين.

لا يمسُّه أحد أو يمسُّ أحدا إلاَّ حمَّ من حينه حمًّى شديدة، ولا يتكلَّم الناس له ولا يتبايعون معه، ولا يؤاكلونه ولا يشاربونه، ولا يعاملونه معاملة مَّا ولا يلاقي، **وذلك عقاب له قاس وكان كالوحش**، وذلك في الماسِّ الأجنبي.

وأنكر الجبَّائي الحمَّى وقال: إنَّه لَمَّا هوجر هام في البريَّة كالوحش كأنَّه يقول لا مساس، والصحيح الأوَّل.

وعوقب بذلك لأنَّه صوَّر العجل وعبده ليجتمع له الناس فعوقب بالضدِّ، وهو تفرُّقهم عنه. أو لَمَّا تسبَّب لحياة الجماد لمعصية عوقب بالحمَّى التي هي من أسباب موت الحيِّ، أو لَمَّا نبذ في النار القبضة للمعصية نبذ عن الناس وذلك بدعاء موسى عليه السلام .

(فقه) ومن ذلك في شرعنا إبعاد الناشزة والآبق والطاعن في الدين ونحوهم، والجاني في غير الحرم الداخل فيه امتناعا لا يطعمون ولا يسقون ولا ينفعون حتَّى يترعوا عن ذلك. وقصَّة الذين خلِّفوا حتَّى تاب الله عنهم (سورة التوبة: ١١٨) . يروى أنَّ موسى أراد قتله فمنعه الله عزَّ وجلَّ لسخائه.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ مع ذلك ﴿مَوْعِدًا﴾ وعدا أو زمانه أو مكانه وعده لجهنَّم لوقتها ﴿لَّن تُخْلَفَهُ،﴾ لا يتركه الله لك ﴿وَانظُرِ الَى اِلَهِكَ﴾ معبودك ﴿الذي ظَلْتَ﴾ ظللت، كما قرأ الأعمش وأُبي، حذفت اللام الأولى تخفيفا، وقيل: الثانية لتطرُّفها، ولحصول التكرار بها.

(صرف) ذكر أبو حيَّان عن سيبويه أنَّ الحذف شاذٌّ قياسا وهو مختصٌّ بما إذا سكِّن آخر الفعل، وقال ابن مالك وابن هشام: إنَّه يقاس في كلِّ مضاعف العين واللام في لغة سليم، وقيل: مقيس في المضاعف إذا كسرت عينه أو ضمَّت.

﴿عَلَيْهِ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿عَاكِفًا﴾ مقيما، خصَّه من بين عابديه لأنَّه رأسهم في الضلال.

﴿لَنُحَرِّ قَــنَّهُ،﴾ بالنار حرقا شديدا كما قال ابن عبَّاس، وكما يدلُّ له قراءة إسكان الحاء فإنَّ الإحراق شائع بالنار فهو لحم ودم، كما في مصحف أُبي وابن مسعود: «لنذبِّحنَّه ثمَّ لنحرِّقنَّه».

ويجوز أن يكون التشديد مبالغة في حَرَقْت الحديد بالتخفيف أَحْرُقه بضمِّ الراء إذا برده بالمبرد، وهذا ظاهر في أنَّه غير لحم ودم، بل هو جماد، ولا مانع من أنَّه بقي ذهبا خلق الله فيه الحياة، ويبعد ما قيل: إنَّ التحريق بالمبرد كان للعظام، ويقال: يمكن أنَّه حرقه بالنار ثمَّ بالمبرد وأجيز العكس، وبحث بأنَّ النار تذيبه وتجمعه ولا تحرقه وتجعله رمادا اللهمَّ إلاَّ بالحيل الصنعية.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَــنَّهُ،﴾ لنذرينَّه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر، وعن عليٍّ: في النهر ﴿نَسْفًا﴾ مصدر مؤكّد، بحيث لا يبقى منه شيء يرى أو يؤخذ، وشرب بعضهم من ذلك الماء حبًّا للعجل فظهرت صفرة الذهب على شفاههم. وخصَّ البحر أو العين لأنَّ الماء أشدُّ استهلاكا، ولأنَّه بأثر من تراب البحر، وفي ذلك

زيادة عقوبة للسامري وإظهار لغباوة المفتونين به. والتحريق والنسف له طاعة لله عَزَّوَجَلَّ ، فنقول: قد وفّى بها عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿**إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ**﴾ لكم ولا لغيركم ﴿**إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ هنا تمّ كلام موسى مخاطبا به لهم كلّهم: السامريّ ومن تبعه، ويمكن أن يكون خصّهم دونه زجرا لهم عن اتّباعه، كأنّه قال: احذروه ولا تتّبعوه. و«عِلْمًا» تمييز محوّل عن الفاعل، بمعنى وسع علمه كلّ شيء من أحوال العجل، وغباوة عابديه وغير ذلك.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

العبرة من القصص القرآني ، وجزاء المعرض عن القرآن

وخاطب الله عَزَّوَجَلَّ سيّدنا محمّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ**﴾ توفيرا لعلمه وتكثيرا لمعجزاته وتسلية له وتذكرة للمستبصرين من أمّته نقصُّ عليك يا محمّد غير هذه القصّة قصًّا ثابتا كقصِّ هذا، أو الكاف اسم، أي قصًّا مثل هذا القصِّ، وإنّما قدّرت لفظ «غير» لئلاّ يلزم تشبيه الشيء بنفسه. و«من» للابتداء كالتي بعدُ، فإنّ الوقائع مجموعة عند الله عَزَّوَجَلَّ ، فهو يأخذ إلينا منها، أو «من» التبعيضية اسم مضاف مفعول به، أو يقدّر [قولنا:] شيئا ثابتا بعض ما قد سبق في الأمم قبلك.

﴿وَقَدَ ـــ اتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا﴾ قدِّم على طريق الاهتمام، وأخِّر قوله: ﴿ذِكْرًا﴾ للتشويق وهو للقرآن، والتنكير للتعظيم لاشتماله على القصص والشريعة وكونه حقيقا أن يتذكّر فيه.

(نحو) و«مِن» متعلّق بـــ«آتَيْنَا»، ويجوز تعليقها بمحذوف حال من «ذِكْرًا» قدِّم للحصر، أي ذكرا من عندنا لا من غيرنا، ردًّا على المنكرين، وهو بهذا الاعتبار وجه حسن كالأوَّل أو أفضل، ولو كان الأصل عدم التقديم ولا يلائمه قوله: ﴿مَّنَ اَعْرَضَ عَنْهُ﴾.

﴿مَّنَ اَعْرَضَ عَنْهُ...﴾الخ والهاء للذكر والجملة نعت «ذِكْرًا» لأنَّ الأهمَّ للناس أن لا يعرضوا عن القرآن ولو كان ذكره بالشرف في الناس أمرا مأمورا به لكن دون ذلك، ولا يقدم للمنكر بل يقدم له التوحيد والشريعة، ويبعد جدًّا جعل الهاء لله ﷻ على طريق الالتفات ﴿فَإِنَّهُ، يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي عقابا، شبَّهه بالحمل الثقيل المسمَّى وزرا على طريق الاستعارة والقرينة: «يوم القيامة»، أو أطلق عليه لفظ سببه أو ملزومه وهو الوزر الموضوع للإثم، لأنَّ الإثم سببه أو ملزومه على المجاز الإرسالي، وقوله: ﴿وَسَآءَ...﴾ ترشيح للاستعارة و[المجاز] الإرسالي، ويؤيِّد الأوَّل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٣) والوزر: الإثم على تقدير: جزاء الإثم، أو عقاب الإثم، وما تقدَّم أولى.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ في الوزر بمعنى العقاب، وهو حال مقدَّرة من ضمير «يَحْمِلُ» أي ناوين الخلود، لأنَّ الخلود ليس نفس وقوعهم في العقاب بل دوامهم فيه، والجمع باعتبار معنى «من»، ويجوز أن يكون نعتا لـــ«وِزْرًا».

(نحو) فعندي لا يلزم إبراز الضمير من الحال أو النعت أو الخبر إذا جرى ذلك على غير ما هو له إن ظهر المعنى، ولو جعل نعتا وبرز لقيل خالدا هم فيه، وهم فاعل خالدا.

﴿**وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً**﴾ فاعل «سَاءَ» ضمير عائد إلى مبهم مفسَّر بالتمييز، على قاعدة باب نِعْم وبئس، والمخصوص محذوف بعدَ «حِمْلاً»، أي وزرهم، ويجوز تفسيره بـــ«قَـــبُحَ»، وهو أيضا من باب نعم وبئس، لأنَّ بابه غير مختصٍّ باللفظين، بل مطَّرد في الثلاثي بشروطه فلا تَهم. ولام «لَهُمْ» للبيان.

وأعاد ذكر يوم القيامة لزيادة التقرير والتهويل، وأجاز بعض أن يكون «سَاءَ» بمعنى «أَحْزَنْ»[1] والهاء مفعول به، واللام صلة مثل ما شهر في ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (سورة النمل: ٧٢) و«حِمْلاً» حال، أي محمولا، ويجوز أن يقدَّر: ساءهم، و«لَهُمْ» حال من «وِزْرًا» مع الفصل، والوجهان ضعيفان.

﴿**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**﴾ بدل من «يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أو بيان، أو مفعول به لمحذوف، أي اذكر، قيل: أو ظرف لـــ«يَتَخَافَتُونَ» وهو ضعيف للبعد، مع التقديم ولزوم تقديم ما بعد العاطف عليه، إذا جعل «يَتَخَافَتُونَ» حالا من «الْمُجْرِمِينَ»، والعاطف واو قوله: «وَنَحْشُرُ» أو متعلِّق بمحذوف حذف لضيق الكلام عن الحصر، أي يكون كذا وكذا يوم ينفخ في الصور.

والمراد: نفخة البعث. و«الصُّور»: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، لا نفخة الفزع ولا نفخة الموت لقوله ﷻ : ﴿**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذ**﴾ أي يوم إذ نفخ، وأعاد ذكر اليوم مع أنَّ الحشر لا يكون إلاَّ بعد النفخ لزيادة التقرير والتهويل.

وأجيز أن يكون الصور جمع صُوْرة بإسكان الواو، أو اسم جمع على الخلاف فيما واحده بالتاء، ويدلُّ له قراءة في الصُوَر ـــ بضمِّ الصاد وفتح الواو ـــ كغُرْفة وغُرَف.

١- في الطبعة العمانية: «حزن».

﴿زُرْقًا﴾ جمع أزرق، والمراد: زرقة البدن لا خصوص العين، ولا يزرقُّ إلاَّ للشدِّ وزوال الرطوبة، وعن ابن عبَّاس: زرق العيون، والزرقة تطلق على الإنسان ولو كانت في عينه فقط كما يقال: أعمى، وأكحل، وأحول، ولو كان ذلك في عين فقط، وذلك مجاز مشهور، أو حقيقة عرفيَّة.

وجعلوا زرقا لقبح الزرقة، والعرب تبغضها وأشدُّ عداوة للعرب الروم ولذلك قالت العرب في وصف العدوِّ: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين، قال شاعر:

وما كنت أخشى أن تكون وفاتــه بكفي سبنتي أزرق العين مطرق[1]

وقال:

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر ألا كلُّ ضَـــبِّيٍّ من اللؤم أزرق[2]

ويوم القيامة حالات، وفيه أنواع، ففيه قوم عمي وقوم زرق، وتارة يكون الواحد أزرق وتارة أعمى، وبذلك يجمع بين قوله تعالى: ﴿زُرْقًا﴾ وقوله: ﴿عُمْـــيًا﴾، أو يفسَّر ﴿زُرْقًا﴾ بعميا، لأنَّ العين إذا ذهب نورها زرق ناظرها، أو يحشرون عطاشا، والعطش الشديد يغيِّر العين إلى الزرقة قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (سورة مريم: ٨٦) .

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُم﴾ يخفون أصواتهم لهول المطلع، والجملة حال ثانية ﴿إِن لَّبِثْـــتُم﴾ في قبوركم، أو في الدنيا أو فيهما، أو ما غبتم عن هذا الوقت ﴿إِلاَّ عَشْرًا﴾ أي عشر ليال، والمراد بالليالي الأَيـــَّام بلياليها، وهذا أولى من أن يقال:

١-البيت للشماخ في ديوانه، ص٤٤٩. المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبـــيَّة، ج٥، ص٢٢٢.

٢-البيت من الشواهد ولم تنسبه المراجع لقائله. المعجم المفصَّل في شوهد اللغة العَرَبِـــيَّة، ج٥، ص١٤٨

حذف تاء عدد المذكّر على القلّة، أو على لغة للفاصلة. حكى الكسائي: «صمنا من الشهر خمسا»، وفي الحديث: «**ثمّ أتبعه بستٍّ من شوال**»[1].

ويدلّ لإرادة الأيـّـام قوله: ﴿ان لّبثـتُم، إلاّ يَومًا﴾ استقصروا مدّة اللبث في القبور ندما على قولهم: إنّكم لا تبعثون، وقيل: أرادوا اللبث في الدنيا استقصارا بالنظر إلى أبد الآخرة، وتأسّفا عن إضاعة أيـّـام الدنيا في الشهوات والمعاصي، ولا يبحث بأنّهم في شغل عن ذلك لأنّهم لم يذكروا أيـّـام الدنيا شوقا إليها من حيث إنّها أورثتهم الهلاك الحاضر، الذي لو لم يضيّعوها لنجوا منها، وأيـّـام اللذّة قصيرة وأيـّـام الشدّة طويلة.

وعن ابن عبّاس: عنوا أربعين عاما يرفع عنهم العذاب فيها بين نفخة الموت ونفخة البعث. والجملة محكيّة بـ«يَتَخَافَتُونَ» لأنّ معناه: يقولون في سرٍّ، وإن قدّرنا القول أي يتخافتون قائلين: ﴿إن لّبثـتُم، إلاّ عَشْرًا﴾ احتمل أنّهم يقولون غير هذا أيضا في تخافت.

﴿**نّحْنُ أَعْلَمُ**﴾ منهم ﴿**بِمَا يَقُولُونَ**﴾ في شأن التقليل كلّما قلّلوا كنّا أشدّ تقليلا في مدّة اللبث، وتتريل الكثير مترلة القليل ﴿**إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً**﴾ أعدلهم عقلا ورأيا ﴿**ان لّبثـتُمْ، إلاّ يَوْمًا**﴾ ولم يقل أحد منهم أقلّ من يوم كساعة، ولعلّ الله عَجَلَّ مثّل لهم بها أيضا في التقليل.

وقد قال بعض: أريد باليوم الزمان القليل فهو صادق بالساعة فالتنكير للتحقير والتقليل، وليس كما قيل إنّ مقابلته للعشر تستبعده، ونسب هذا

١- رواه أبو داود بهذا اللفظ في كتاب الصوم، باب في صوم ستّة أيـّـام من شوال، رقم ٢٠٧٨. ورواه مسلم في كتاب الصوم، باب: استحباب صوم ستّة أيـّـام من شوال إتباعا لرمضان، رقم ١٩٨٤، بلفظ: «ثم أتبعه ستـّـا من شوال». عن أبي أيـّـوب الأنصاري.

لأمثلهم لكونه أعظم في الندم، وأدلّ على شدَّة الهول، وقائله أعلم بفظاعة الأمر وشدَّة العذاب.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

أحوال الأرض والجبال والناس يوم القيامة

﴿**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ**﴾ عطف قصَّة على أخرى، والسائلون منكروا البعث من قريش على الاستهزاء، يقولون: كيف يفعل ربُّك بالجبال إن كان البعث؟ كما رواه ابن جريج أنَّهم سألوا: كيف يفعل بها الله؟ فنزلت الآية، يحتجُّون لعدم البعث بأنَّ الجبال تبقى وَلاَ بُدَّ في زعمهم ولو صحَّ البعث لأثَّر فيها بالتغيير.

وفيه ردٌّ على من قال: لم يقع سؤال، وإنَّ المعنى من شأنهم أن يسألوك فإذا سألوك ﴿فَقُلْ يَنسفُهَا﴾، وهو حمل على غير الظاهر بلا دليل، بل سألوا متوهِّمين أيضا أنَّ الجبال مانعة من جمع الناس، فضلا عن أن يتخافتوا، وفيه أنَّ التخافت يتصوَّر ولو بين اثنين.

وقيل: جماعة من ثقيف [تخافتوا] على الإنكار كذلك، وقيل: قوم من المؤمنين طلبا للعلم ﴿**فَقُلْ يَنسِفُهَا**﴾ يفرِّقها ﴿**رَبِّي**﴾ بالريح ﴿**نَسْفًا**﴾ شديدا

بعد أن يجعلها كالرمل، والفاء الموضوعة للتعقيب دليل على الأمر بالسرعة في جواب قريش وثقيف تحقيقا للحقِّ، وإزالة لشبهتهم، أو حفظا للمؤمنين عَمَّا يفسد اعتقادهم.

وجواب السؤال في الأصول تارة بالفاء كالآية وتارة بدونها كقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاَهِلَّة...﴾ (سورة البقرة: ١٨٩) و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ (سورة الإسراء: ٨٥) و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعة...﴾ (سورة الأعراف: ١٨٧) ، وفي الفروع بدونها كقوله ﷻ : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ...﴾ (سورة البقرة: ٢١٦) و﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفقُونَ...﴾ (سورة البقرة: ٢١٥) و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاَنفَال...﴾ (سورة الأنفال: ١) و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ...﴾ (سورة البقرة: ٢٢٠) و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٢) ومنكروا البعث من قريش ومن غيرهم ينكرون فناء الأرض والسماوات أيضا.

﴿**فَيَذَرُهَا**﴾ يصيِّر الجبال باعتبار أجزائها السُّفل المساوية في الانبساط للأرض بعد نسف ما خرج منها عن الأرض، أو يقدَّر مضاف أي نصيِّر أسفلها بعد نسفها، أو للضمير المدلول عليها بذكر الجبال وبقوله: ﴿**قَاعًا**﴾ مفعول ثان بلا تشبيه ﴿**صَفْصَفًا**﴾.

(**لغة**) القاع السهل أو المستوي من الأرض لا نبات ولا جبل ولا بناء، المنكشفُ أو المستوي كذلك صلبا، والصفصف: الأرض المستوية الملساء، أو هما بمعنى واحد وهو المستوي بلا ساتر فيه. و«صَفْصَفًا» حال أو بدل ، أو يكون مفعولا ثانيا، و«قَاعًا» حال من ضمير النصب قبله.

﴿**لاَّ تَرَىٰ فِيهَا**﴾ في الأرض أو في أسافل الجبال بعد نسفها. والرؤية بصرية، والخطاب لكلِّ من يصلح له على طريق البدليَّة، أو له ﷺ ويلحق به غيره ﴿**عِوَجًا**﴾ عدم استقامة حسـيَّة ويطلق على عدم المَعنوِيَّة، وكذا المفتوح

العين، وقيل: المكسور ما لا يدرك بالعين، والمفتوح ما يدرك بها، وعليه فما في الآية يدرك بالهندسة، وقيل: في المفتوح أنَّه مصدر، وصحَّت الواو بعد فتح لصحَّتها في ما أخذ منه وهو «أعوج» بوزن أكرم فعلا ماضيا.

﴿**وَلَآ أَمْتًا**﴾ ارتفاع بعض عن بعض، وعن ابن عبَّاس ﴿عِوَجًا﴾: ميلا، و﴿أَمْتًا﴾: أثرا مثل الشراك، وعنه: ﴿عِوَجًا﴾: واديا، و﴿أَمْتًا﴾: رابية، وعن قتادة: ﴿عِوَجًا﴾: صدع، ﴿أَمْتًا﴾: أكمة، وقيل: ﴿أَمْتًا﴾: شقًّا في الأرض، وقيل: الأمت أن يغلظ مكان ويدقَّ مكان، والكلُّ يرجع إلى الأوَّل. وجملة ﴿لَّا تَرَى...﴾ مفعول ثان أو حال أو نعت.

﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ نسفت، والماضي بمعنى المضارع لتحقُّق الوقوع، أو إذا للاستقبال هنا، وهكذا حيث يصلح، أي يوم إذ تنسف، وذلك من إضافة العامِّ وهو «يوم» أي وقت إلى الخاصِّ وهو «إذ» بمعنى وقت مقيَّد.

و«يَوْمَئِذٍ» متعلِّق بقوله: ﴿**يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ**﴾ أو بدل من «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» مع كثرة الفصلِ وتعطُّل «يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ» عَمَّا قبله، وعدمُ التعطُّل وعدم كثرة الفصل أولى، وكذلك لا يصار إلى الاستئناف مع إمكان عدمه بلا تكلُّف ولا ضعف، كما أنِّي لم أذكر الاستئناف في قوله عز وجل: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ وقد ذكروه، والواو عائد إلى الناس مطلقا.

والداعي: إسرافيل في الصور على صخرة بيت المقدس قائلا: «أيَّتها العظام البالية والجلود المتمزِّقة واللحوم المتفرِّقة هلمُّوا إلى العرض على الرحمن» ويقبلون إلى جهة الصوت من كلِّ موضع في ظلمة تطوى السماوات وتتناثر النجوم ويذهب القمر والشمس.

﴿**لَا عِوَجَ لَهُۥ**﴾ لا ميل لأحد عن ذلك الداعي، واللام بمعنى عن أو على، أصله كما يقال: لا عصيان له ولا ظلم، أي لا يُعصى ولا يُظلم بالبناء للمفعول،

بمعنى لا يوجد له من لا يتبع صوته، أو الهاء للدعاء، أي لا يميل دعاؤه عن أحد فيبقى بلا مجيء أو بلا سماع، أو للداعي على معنى لا عوج له، وقيل: المعنى لا شكَّ في وقوع ذلك الدعاء.

﴿وَخَشَعَتِ الاَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ خفيت لمهابته وقت الهول، شبَّه خفاء الصوت بالذلِّ المسمَّى خشوعا لجامع انتفاء الترفُّع فسمَّاه باسمه، واشتقَّ منه خشعت على التبعيَّة وذلك مجاز لغويٌّ، وهذا أولى، ويجوز المجاز الحذفيُّ بأن يقدَّر: خشعت أصحاب الأصوات. ومع شدَّة الهول ذكر اسمه الرحمن للإيناس.

﴿فَلاَ تَسْمَعُ﴾ الخطاب مثله في قوله تعالى: ﴿لاَ تَرَى﴾ ﴿إِلاَّ هَمْسًا﴾ صوتا خفيًّا، أو كلاما خفيًّا كقراءة أُبي: فلا ينطقون إلاَّ همسا، وعن ابن عباس رضي الله عنه: تحريك الشفة بلا نطق، ولا يصحُّ عنه إذ لا صوت فيه يسمع، إلاَّ إن ضمِّن معنى «تَسْمَعُ» معنى تشاهد، وعنه: [الهمس:] خفقُ الأقدامِ في المشي إلى المحشر وهم سكوت، كقوله:

«وهنَّ يمشين بنا هميسا»[1]

ويقال للأسد «هموس» لخفاء وطئه الأرض.

﴿يَوْمَئِذ﴾ يوم إذ وقع أو يقع ما ذكر على ما مرَّ، يتعلَّق بـ«خَشَعَت» أو بـ«تَسْمَعُ» أو بدل من «يَوْمَ الْقِيَامَة»، أو من «يَوْمَئِذ» أو بقوله: ﴿لاَّ تنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ على أنَّه لا صدر لـ«لاَ» إذا لم تعمل عمل إنَّ، أو كانت في جواب القسم، والمعنى: لا تنفع الشفاعة أحدا.

﴿إِلاَّ مَنَ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ﴾ أذن له أن يشفع له شافع، واللام للنفع،

١- أورده صاحب اللسان ولم ينسبه، وقال: تَمَثَّلَ به ابن عبَّاس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مَادَّة «همس».

وأجيز أن تكون للتعليل ﴿وَرَضِيَ لَهُ،﴾ هذه اللام مثل الأولى، متعلّق بـ«رَضِيَ» أو بمحذوف حال لقوله: ﴿قَوْلاً﴾ من شافع، يقول مثلا: اللهمَّ ارحم هذا، أو منه نفسه ــ أعني المشفوع له ــ يقول في الدنيا: لا إله إلاَّ الله ويتبعه بالوفاء.

وقد يشفع شافع بلا إذن من الله فلا تنفع، أو يشفع فتقبل، ومن الأوَّل قوله ﷺ في المجرور إلى النار: «**هذا يا ربِّ من أمَّتي** ــ أو من أصحابي ــ» فيقال له: لا تدري ما أحدث فيقول: «**سحقا**»[1]. ويجوز أن يكون من أذن له هو الشافع على حذف مضاف أي لا تنفع الشفاعة أحدا إلاَّ شفاعة من أذن له الرحمان أن يشفع، ورضي له أي لهذا الشافع قولا، هو أن يقول: «يا رَبِّ ارحم هذا» فيكون معنى الإذن إصدار الشفاعة منه ولو لم يقل له اشفع مطلقا.

﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ ما استقبلهم، كأنَّه يرونه متوجِّها ﴿**وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ ما قبلهم كأنَّه أمر مستدبر، أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما مرَّ كأنَّه بين أيديهم لحصوله، و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما يعقبهم كأنَّه خلفهم لعدم حضوره ووقوعه. أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الآخرة و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: الدنيا، أو بالعكس، أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يدركونه و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما لا يدركونه. والهاءان للناس لا بقيد الحشر، وقيل: بقيده.

﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ**﴾ بالله ﷻ، لا يحسُّونه بجوارحهم ولا بقلوبهم بل يعلم وجوده بمصنوعاته متنزّها عن شبه الخلق ﴿**عِلْمًا**﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل

١-الحديث رواه الربيع في مسنده (٦) باب في الأمَّة، رقم ٤٣، من حديث أبي هريرة. ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيئنا ﷺ وصفاته، رقم٢٢٩٥، ونصُّه: قال ﷺ: «إنِّي فرطكم على الحوض فإيَّاي لا يأتينَّ أحَدكم فيذبُّ عَنِّي كما يذبُّ البعير الضالُّ فأقول فيم؟ فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا».

﴿وَعَنَت﴾ ذلّت كذلِّ العاني أي الأسير ﴿الْوُجُوهُ﴾ الناس، عبَّر عنهم بأشرف الأعضاء الظاهرة وهو وجوه الرءوس، خصَّت لذلك الشرف ولسرعة ظهور الذلِّ إليها إذا كان. و«الـ» للعهد أو عوض عن الضمير أي وجوههم، وقيل: وجوه المجرمين كقوله تعالى: ﴿سيئتْ وُجُوهُ الذينَ كَفَرُواْ﴾ (سورة الملك: ٢٧) أو الوجوه بمعنى الأشراف منهم، وذلُّهم أولى بالذكر.

(أصول الدين) ﴿لِلْحَيِّ﴾ الذي لا يتَّصف بالموت ولا بحياة الخلق ﴿الْقَيُّوم﴾ بالخلق إيجادا وإعداما وأحوالهم ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر وفاته الخير ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ شركا أو ما دونه من الكبائر، وحمله البقاء معه حتَّى مات.

﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ عملا ثابتا من الأعمال الصالحات، أو يعمل بعض الصالحات على أنَّ «مِن» التبعيضيَّة اسم مضاف، ولا دليل له، وذلك العمل أداء الفرائض وترك المعاصي، وذلك غير التوحيد والشرك، وذكرهما بقوله: ﴿وَهُوَ مُومِنٌ﴾ موحِّد لم يخلط شركا ولا يتصوَّر ثواب الآخرة على عمل مع الإشراك.

﴿فَلاَ يَخَافُ﴾ أي فهو لا يخاف ولولا هذا التقدير لقيل: لا يخف بالجزم وإسقاط الفاء، لأنَّ «لا» النافية تصلح لأن تلي «مَن» الشرطيَّة ﴿ظُلْمًا﴾ بعذاب ﴿وَلاَ هَضْمًا﴾ إذلالا بإبطال حسناته، أو ﴿ظُلْمًا﴾: منع ثواب، و﴿هَضْمًا﴾: منع بعضه، أو ﴿ظُلْمًا﴾: بزيادة في سيِّئاته و﴿هَضْمًا﴾: بنقص من حسناته، أو لا يخاف أن يعامل معاملة الظالم لغيره، الهاضم له لأنَّه لم يظلم غيره ولم يهضمه.

أمَّا على حذف مضاف، أي جزاء ظلم ولا هضم، أو سمِّي الجزاء باسم سببه، فإنَّ الظلم والهضم للغير سبب للجزاء الذي هو العقاب، والآية مقابلة لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

عربيَّة القرآن وتصريف القول فيه، وعدم العجلة بقراءته قبل تمام الوحي

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ عطف على قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ﴾ وهنا ما هنالك، والمعنى: أنزلنا القرآن على طريقة إنزال هذه الآية، والهاء للقرآن لحضوره في الأذهان مع معونة لفظ الإنزال ولدلالة ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وكان عربيًّا لتفهمه العرب عن نبيئهم فيعلموا ببلاغته القصوى التي عجزوا عنها أنَّه من ربِّ العالمين.

﴿وَصَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا **﴿فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾** وعيدا من جملة الوعيد على الشرك والمعاصي **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** الشرك والمعاصي خوف عقاب كالعبد المطيع لسيِّده خوف الضرب **﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾** أي القرآن أسند الإحداث إليه لأنَّه سبب **﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾** تفكُّرًا فيه مؤدِّيا إلى الإيمان به، أو ذكرا نفس الاتعاظ، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(سورة طه:٤٤) وفسَّر بعض التقوى بترك المعاصي والذكر بفعل الطاعات، ولا يتمُّ إلاَّ بجعل «أو» بمعنى الواو إذ لا يجزي أحدهما عن الآخر.

ويجوز أن تكون للتنويع على معنى إكثار الرغبة في ترك المعاصي مع الحظِّ المجزي من الطاعات، أو إكثار الرغبة في الطاعات مع الحظِّ المجزي من ترك المعاصي، وتركها تخلية بالخاء المعجمة وفعل الطاعات تحلية بالمهملة، ويجوز أنَّها بمعنى الواو، والذكر: الشرف فإنَّ القرآن شرف للعرب مع التقوى الشاملة لأداء الطاعات، و«لعلَّ» للتعليل أو للترجية لا للترجِّي.

﴿فَتَعَالَى اللهُ﴾ تعاظم عن أن يشرك به أو يعصى أو أن يكون ما أنزل غير متسبِّب للاتقاء والذكر، وإنَّما خالفوا عنادا ﴿الْمَلِكُ﴾ للوعد والوعيد والأمر والنهي في مصالح الدنيا والدين ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت القائم بنفسه صفة ثانية أو صفة للملك، أي الحقُّ في مالكيـّته، وهو خلاف الباطل، فما في القرآن لا يحوم حوله باطل.

﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ من قَبْلِ أَنْ يُـقْضَى إِلَيْكَ وَحْـيُهُ،﴾ عطف إنشاء على إخبار هو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فيه منَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أو على إنشاء هو قوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ لأنَّه تعجيب، كأنَّه قيل: نبَّهتك على عظمة جلالي ولاق بك أن لا تقصِّر فيها بالعجلة بكلامي.

(سبب النزول) وكان ﷺ يتبع جبريل حرفا حرفا أو كلمة كلمة خوف أن يفوته، فنزل: ﴿لاَ تُحَرِّكْ به لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ به إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ...﴾ الآية (سورة القيامة: ١٧) نهيا له عن أن يفوته بالتلفُّظ سماع ما بعدَ ما تلفَّظ به.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ ذلك نهي عن تبليغ المجمل قبل نزول بيانه، وما قيل من أنَّه نهي عن كتابته قبل أن يفسَّر له ما لم يفهمه، لأنَّ العجلة بتبليغ المجمل والكتابة قبل التفسير طاعة مأمور بها فاعل هو بها، وأيضا كيف يكتبه كاتب قبل التبليغ؟.

وقيل: نهي عن الحكم فيما من شأنه أن ينزل فيه قرآن فيؤخَّر لعلَّه ينزل فيه شيء، كما روي أنَّه لطم رجل زوجه فحكم لها بالقصاص فنزل إبطالا لحكمه قوله عز وجل : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ...﴾ (سورة النساء:٣٤) أو نزل قوله عز وجل : ﴿وَلاَ تَعْجَلْ﴾ فترك حكمه باللطم.

وقيل: ضرب له أهل مَكَّة وأسقف نجران من النصارى أجلا ثلاثة أيـــام ومضت، وفشا أنَّه عجز فطلب نزول القرآن في ذلك فترل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ﴾ أي يوفّى إليك وحيه.

﴿**وَقُل رَّبِّ**﴾ يا ربِّ ﴿**زِدْنِي عِلْمًا**﴾ في الدين وكلِّ ما أحتاج إليه، أو في القرآن فإنَّ تحت كلِّ حرف أو كلمة أسرارا، فكان ﷺ يقول: «**اللهمَّ انفعني بما علَّمتني وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علما والحمد لله على كلِّ حال**»[1]. وكان يقول: «**اللهمَّ زدني إيمانا وفقها ويقينا وعلما**».

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا

١- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (١٢٩) باب العفو والعافية، رقم ٣٥٩٩. ورواه **ابن ماجه** في كتاب المقدِّمَة (٢٣) باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم ٢٥١. من حديث أبي هريرة.

فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قصَّة آدم في الجنَّة وإخراجه منها

﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ**﴾ قبل هذا الزمان أو قبل وجود هؤلاء المخالفين، وقبل نزول القرآن، أو قبل الأكل من الشجرة، والأوَّل أولى ويليه الثالث ثمَّ الثاني.

والكلام متعلّق بقوله ﷻ : ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ بمعنى أنَّ النسيان قد سبقك في أبيك وأنت منه مع أنَّه كان في الجنَّة، وعهدنا عليه، وإنَّما العصمة منِّي، أو بمعنى: لا تعجل فقد عجَّل أبوك بالأكل من الشجرة فوقع فيما علمت، أو متعلّق بقوله: ﴿صَرَّفْنَا﴾ ولو تخالفا إخبارا وإنشاء، فإنَّ القَسَم إنشاء لكن محطّ الكلام جوابه، وهو خبر مثل «صَرَّفْنَا»، بمعنى إنَّ هؤلاء المخالفين تركوا الوعيد كما تركه أبوهم آدم كذا قيل.

[قلت:] ويبحث بأنَّ فيه تشبيه آدم بالكفَّار وتشبيههم به مع أنَّهم عمدوا و لم يتعمَّد بل نسي، أو تأوَّل، ولو أجيب بأنَّ محطّ الكلام مجرَّد التسلية عمَّا وقع من المخالفة وأنَّ القصور شأن الإنسان ولو سعيدا.

أو متعلّق بـــ«نَقُصُّ» تمثيل له وفيه بعد لكن فيه إنجاز الموعود، وهو إخراج آدم، كما أنَّ المقصوص عنهم منجز لهم الوعيد، وفيه إنجاز القصِّ، أو متعلّق بمحذوف مستأنف بمعنى: إنـــَّا نمهل ونعفو، إلاَّ من عاند وأصرَّ.

﴿**فَنَسِيَ**﴾ ترك العهد والوعد وهو الخروج من الجنَّة، أو ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ بتأويل، أو لم يحافظ عليه حتَّى زال عن حافظته، والعطف على «عَهِدْنَا» فالترتيب عرفي، أو على محذوف أي: لم يهتم فنسي.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ، عَزْمًا﴾ عمدا للمعصية بل تأوَّل أو زال عن حفظه، والنفس تميل إلى ما لا ينبغي، والتفاضل في أصحابها بجبدها عنه.

(سيرة) وقد اهتمَّ عليُّ بن أبي طالب [كرَّم الله وجهه] بعد موت رسول الله ﷺ بتزوُّج بنت أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها، فتذكَّر عداوة أبي جهل لرسول الله ﷺ وآله، فتركها مع إسلامها لذلك، ولئلاَّ تغتاظ فاطمة رضي الله عنها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ اسْجُدُوا ءَلاَدَمَ﴾ شروع في بيان المعهود لآدم، أي واذكر يا محمَّد إذ قلنا...الخ عطف قصَّة على أخرى، أو على محذوف أي: اذكر هذا واذكر إذ قلنا...الخ.

﴿فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أكَّد هذا الاستـــثـــناء بقوله: ﴿أَبَــىٰ﴾ أي امتنع من السجود له، أو أبى السجود له كما يحتملهما قوله: ﴿أَبَىٰٓ أَنْ يَّكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الحجر: ٣١) أو الإباء أشدُّ الامتناع، أو لا يقدَّر له معمول تتريلا له مترلة اللازم كذا قيل، وفيه أنَّ هذا التتريل إنَّما يحسن إذا احتمل العامل متعلقات، وأمَّا إذا كان له واحد متعيِّن كالسجود هنا فلا.

﴿فَقُلْنَا﴾ نصحا لآدم ﴿يَآ ءَادَمُ إِنَّ هَذَا﴾ أي الذي لم يسجد لك ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أعاد اللام للدلالة على أنَّ عداوته لحوَّاء بالأصالة لا بالتبع له، ولولا ذلك لقيل لك وزوجَك بالنصب على المعيَّة أو بالجرِّ عطفا بلا إعادة للجارِّ، كقوله تعالى: ﴿تَسَّآءَلُونَ بِهِ وَالاَرْحَامَ﴾ (سورة النساء: ١) بجرِّ «الأرحام» في قراءة.

(نحو) وعلى أنَّه لا بدَّ من إعادة الجارِّ فعلَّة إعادته أيضا ما ذكر من الدلالة على الأصالة المذكورة، لأنَّه يمكن أن يقال: احذره أنت

وزوجك فإنَّه عدوٌّ لكما، أو عدوٌّ لك وزوجك بالنصب، ونحو ذلك مما لا يحتاج إلى إعادة اللام.

(بلاغة) كما نقول التنكير للمبالغة في ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْـــبًا﴾(سورة مريم:٤) مع أنَّ التمييز أبدا نكرة لأنَّه يمكن أن يقال: اشتعل شيب الرأس أو شيب الرأس اشتعل، أو اشتعل الرأس شيبه، أو بشيب، ونحو ذلك مما لا تمييز فيه.

وتلك العداوة حسد وهو أوَّل من حسد، وقيل: عاداه لأنَّه شيخ جاهل وآدم شاب عالم، والجاهلون لأهل العلم أعداء، أو لتنافي النار والطين، ولا يقال: إبليس أعلم لقدمه وكثرة تجاربه لأنَّ ذلك ليس على رسوخ منه، وآدم راسخ ولو قلَّ علمه بالأشياء، ألا ترى استغفاره عقب الذنب؟ وما ذلك إلاَّ لرسوخ معرفته بالله ولو قيل له: يكون إبليس مكانك في الجنَّة لم يمتنع ولم ينقض استغفاره، وروى أبو أمامة الباهلي والحسن: إن عقل آدم كعقل جميع أولاده.

﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ لا يؤثِّر فيكما كيده أو لا تتأثَّرا بكيده ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ تلحقك متاعب الدنيا من مرض وحزن وحرارة وبرد وجوع وعراء وظمأ ونحو ذلك، ومشاقِّ تحصيل المعاش.

(بلاغة) وأفرده بالذكر لأنَّه الأصل ولاستلزام شقائه شقاؤها لا للفاصلة إذ لو قال فتشقيا لتمَّت، إلاَّ أن يقال: إتمام الفاصلة بآخر الفعل أولى وأنسب من إتمامها بضمير، كما تمَّت في «أَبى» و«تَضْحَى» و«يَبْلَى» و«غَوَى» ومراعاة هذا وجه حسن، وكذا في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ وَإِنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ﴾ لا تكون منكشفا للشمس إذ لا يصل من في الجنَّة إلى جوع أو عطش أو عراء أو بروز للشمس، ولا شمس فيها بل يتنعمون بتلك النعم على حسب خطور ذلك ببالهم، بدون حضور أضداده.

(بلاغة) وجمع الجوع مع العراء لا مع الظمأ، والظمأ مع الضحو لأنَّ الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر، والظمأ حرارة الباطن والضحو حرارة الظاهر، والحاصل أنَّه لا يصيبك ضرر باطن ولا ظاهر، ولو جمع انتفاء الجوع وانتفاء الظمأ لتوهَّم أنَّهما نعمة واحدة أو قرب التوهُّم، وكذا انتفاء الضحو والعري.

كما قطع أمرؤ القيس ركوب الجواد عن قوله لخيله كرِّي كرَّة، وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس في قوله:

كأنِّي لم أركب جـــوادا للــذَّة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبل الزِّقَ الرويَّ ولم أقل لخيلي كرِّي كرَّة بعد إجفـــال

وقد يقال: جمع الأوَّلَــيْن للّذَّة والأخيرين للشجاعة. والآية تفصيل لمضمون بعض قوله تعالى: ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا...﴾ وبقي كثير لكفاية التمثيل بقليل، فإنَّ في الجنَّة أيضا نكاحا وغيره مما يلذ.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ عُدِّي بـــ«إلى» لأنَّ المراد: أنهى إليه الوسوسة وهي الخطرة الرديَّة، وأصله: صوت الحليِّ الخفيِّ، من مضاعف الحكاية للصوت كولولة الثكلى ووعوعة الذِّئب، ووقوقة الدجاجة وقطقطة القطا.

﴿قَالَ يَآ ءَادَمُ هَلَ اَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ بدل من «وَسْوَسَ»، أو جواب سؤال ماذا قال في وسوسته؟. ناداه باسمه وألان له بالاستفهام ليكون مقبلا عليه، وأمكن للاستماع موهما له أنه ينصحه كما نصحه الله بالنداء.

وشجرة الخلد: شجرة لا يموت من أكل منها، أو يكون ملكا وقد زعم زاعم أنَّ الملائكة تأكل منها وهو خطأ، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ عنه: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَا

مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(سورة الأعراف:٢٠) وهو كلام مناقض، فإنّ الشجرة المشار إليها هي التي أكل آدم وحواء منها فخرجا و لم يخلدا.

ومعنى ﴿لاَ يَبْلَىٰ﴾ لا يكون باليا رثًّا، أو لا يفنى، وذلك من لوازم الخلود، ذُكر تأكيدا أو زيادة للترغيب كذا قيل، وفيه أنّ الخلد لا يوجب عدم الرثّة إلاّ أن يفسَّر بالفناء.

﴿فَأَكَلاَ﴾ آدم وزوجته ﴿مِنْهَا﴾ من الشجرة التي سمَّاها اللعين شجرة الخلد مع أنَّها شجرة الخروج والفناء والتعب.

قال سعيد بن جبير: لَمَّا خرج آدم استقبله ثور أبلق فقيل له: اعمل عليه، فكان يعمل ويمسح العرق عن جبينه، ويقول: هذا ما وعدني ربِّي ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ ثمّ نادى يا حواء يا حواء أنت عملت بي هذا؟. فعمَّال الثور يقولون: «حوحو» مكرَّرا اختصارا من قول آدم: يا حواء يا حواء في بلادنا المضابية هذه عند حرث الأرض والدوس مع البغال والحمير وغيرها، دخل عليهم ذلك من قبل آدم.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ ظهرت لكلّ واحد سوءتان من الآخر، ولكلّ واحد قبل نفسه، وهما القبل والدبر كانا مستورين بنور فترع، أو بظفر فترع، وبقيت بقية منه في أصابعهما وبنانهما ليتذكرا بها شؤم الذنب، وذلك عقوبة للذنب ولا يخلو عن مصالح أخرى، ولَمَّا ضرب ذلك الثور قال: لم؟ قال: لعصيانك لي فقال: هل ضربك الله إذ عصيته؟.

﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ يرقّعان ويخيطان.

(نحو) وفيه عمل عامل واحد في ضميرين لمسمًّى واحد، وهو عندي جائز مقيس مطّرد في كلّ عامل، إذا كان أحدهما بجارٍّ لكثرة ذلك

في القرآن، فألف «يَخْصِفَانِ» وهاء «عَلَيْهِمَا» لآدم وحواء معا في الموضعين والعامل «يخصف».

﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يلصقان ورقة بأخرى، والمتبادر أنَّ شجر الجنَّة بأوراق كأوراق شجر الدنيا، وفي الآثار أنَّها من ذهب وفضَّة، ولعلَّ المراد بورق الجنَّة هنا ورق تلك الشجرة التي أكلا منها، وأنَّ أوراقها كأوراق شجر الدنيا ولا مانع من أن يرقعا عليهما أوراق الذهب والفضَّة، وفي أثر أنَّه تفتَّت الورق عنهما إذ يبس.

﴿وَعَصَىٰٓ﴾ لا يقال: آدم عاص لأنَّ اسم الفاعل أقوى من الفعل ﴿ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بالأكل من الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ ضلَّ عن الرشاد باغتراره بقول العدوِّ، أو عن الخلود الذي طلب بالأكل، أو عن المطلوب منه، وهو ترك الأكل من الشجرة.

والذي أقول به: إنَّ ما نسب الله عز وجل إلى بعض الأنبياء من المعاصي ليست من جنس معاصينا لا عمدا ولا خطأ قبل النبوءة ولا بعدها، بل دونها عدَّها الله عليهم معاصي لعظم مقامهم، كمكروه وجائز ومرجوح ونسيان، وتأويل كما ذكر في آدم كما شاع «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين».

وقال إبراهيم: يا ربِّ أدخلت آدم الجنَّة بلا عمل وأحسنت إليه كلَّ إحسان وعصى مرَّة فملئت الأفواه بمعصيته ! فقال: أما علمت أنَّ مخالفة الحبيب للحبيب أمر عظيم، وذكر بعض أنَّ ذلك ليزجر أولاده.

في البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**احتجَّ آدم وموسى، قال موسى: يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنَّة ! فقال له آدم: أنت يا موسى اصطفاك الله تعالى بكلامه وخطَّ لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدَّره الله تعالى عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين عاما؟ فحجَّ آدم موسى**» وفي رواية مسلم: «**قال آدم بكم وجدت الله تعالى كتب التوراة قبل أن أخلق**

قال: بأربعين سنة، قال: فهل وجدت فيها «وعصى آدم ربَّه فغوى» قال: نعم، قال: فهل تلومني على أن عملت عملا كتب الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟» قال ﷺ : «**فحجَّ آدم موسى**»[1].

(أصول الدين) وقال ابن العربي والقرطبي: إنَّه لا يجوز استئناف ذكرِ نبيءٍ بمعصية نَسَبَها اللهُ إليه، بل إذا قرئت الآية أو الحديثُ فيها، كما في المتشابه من القرآن والحديث في شأن الله كاليد والأصبع والنزول. وأجازت الأزارقة على الأنبياء الإشراك وما دونه، وأجاز الباقلاَّني صدور الكبيرة مطلقا قبل النبوءة وإرسال من أسلم من شرك، ووافقه كثير من الأَشعَرِيَّة ومن المعتزلة.

ومنعت المعتزلة صدور الكبيرة قبل البعثة، وفي المواقف جوَّز الأكثرون صدور الكبيرة غير الشرك وغير الكذب في المعجزة سهوا أو خطأ، ونسب بعض جواز الصغيرة غير الخسيسة عمدا بعد البعث، ونسب للجمهور، ويقال: تجوز سهوا إجماعا. واشترط المحقِّقون أن ينبَّهوا فينتبهوا، وأجيزت الصغائر قبل البعثة، وذلك من آدم قبلها.

(أصول الدين) قالت الشيعة: الأنبياء معصومون عن الصغائر من وقت الولادة، وأكثر المعتزلة من وقت البلوغ، وأكثر الشَّافعيَّة من وقت النبوءة، وعليه أبو الهذيل وأبو عليٍّ من المعتزلة، وذلك أنَّه لا أَقبح ممن رفعت درجته وعصى رافعَها، ولو عصى كان كآحاد الأمَّة وزال الوثوق به وصار آمرا بما لا يفعل ناهيا عَمَّا يفعل، وأجاز أكثر المعتزلة الصغائر عنهم عمدا.

١-رواه **البخاري** في كتاب تفسير (٢٣٠) باب قوله: {فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} رقم٤٤٦١. ورواه **مسلم** في كتاب القدر (٢) باب احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٢.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ اختاره من جملة العاصين بأن وفّقه للتوبة، وفي ذكره مع لفظ الربوبيَّة والإضافة إليه مزيد تشريف، وأصل الاجتباء: جمع الشيء للنفس مع اختياره ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة، إذ قال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٣) وفي ذكرهما بهذا الاستغفار ذكر لهما بالتوبة وقبولها، والهدى المذكور في قوله: ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى كَيفيَّة التوبة بتلك الكلمات أو إلى الثبات على التوبة، وما يرضي الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، ولكن لم يذكرها للفاصلة، ولأنّ المرأة تبع للرجل كما لا تذكر في أكثر القرآن، وللإعراض عن زيادة النعي عليه بذكرها.

﴿قَالَ﴾ كأنّه قيل: هل بقيا في الجنَّة إذ تابا فيها؟ فقال: ﴿قَالَ اهْبِطَا﴾ انزلا يا آدم وحوَّاء ﴿مِنْهَا﴾ من الجنَّة إلى الدنيا ﴿جَمِيعًا﴾ لا يبقى واحد منكما ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال مقدَّرة، والجمع باعتبار ما يتولَّد منهما، والتعادي في الحقيقة بين أولادهما، وذلك عكس خطاب اليهود بما فعل آباؤهم. والخطاب في «اهْبِطَا» لآدم وإبليس وأمَّا حواء فتبع لزوجها، والخطاب في «اهْبِطُوا» لآدم وإبليس وذرِّيَّتهما وهو المتبادر من قوله: ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ كأنَّه قيل: كذلك تكون العداوة بين أولاده وأولادك، وهذا أنسب بأن تفسَّر العداوة بالتعادي بين أولاد آدم، لكن لا مانع من أن يراد ذلك، أو بين أولاد كلٍّ فيما بينهما، وأولاده وأولاد الآخر إخبارا بأنّ الدنيا دار التواء دينا ودنيا، لا كالجنَّة التي كنت فيها.

(قصص) وقيل: الكاف لآدم وإبليس والحية إذ دخل إبليس في فمها مستخفيا عن الملائكة للوسوسة، وهو بعيد إذ لا خطاب للحيَّة بإتيان الهدى إليها وأتباعه والإعراض عنه المذكورين بعدُ، والحمل على المجموع خلاف

الأصل، ولم يجر للحيَّة ذكر، وعلى كلِّ حال دخل إبليس الجنَّة بعدما خرج منها فصحَّ أن يقال له: اهبط منها.

﴿فَإِمَّا﴾ «إِنْ» الشرطيَّة و«مَا» المزيدة للتأكيد ﴿يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ بوحي أُرسله إليكم أو كتاب، وذلك يعمُّ، بخلاف ما لو قلنا: هدًى بنبيء، إذ لا يبعث إلى آدم نبيء بل هو نبيء، وإنَّما يصحُّ ذلك لو خصَّ الخطاب بالذرِّيَّة.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ مقتضى الظاهر: فمن اتَّبعه، وأظهر وأضاف إلى الله تشريفا وتأكيدا لإيجاب الاتِّباع ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ عن الدين أو عن الصواب أو الرشاد، لأنَّ معه الهدى منَّا، وهو الدين والصواب والرشاد ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة، ولا يصحُّ أن يفسَّر الهدى بالقرآن خاصَّة.

وأمَّا قول ابن عبَّاس رضي الله عنه قارئا الآية: «أجار الله تابع القرآن من أن يضلَّ في الدنيا أو يشقى في الآخرة» وقوله ﷺ : «**من اتَّبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب في الآخرة**»[1] فلأنَّ القرآن من جملة الهدى لا لكونه المراد بالهدى، ألا ترى أنَّ الخطاب للمكلَّفين مطلقا لا لهذه الأمَّة خاصَّة.

وأمَّا قوله: ﴿وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي لم يتبعه فالذكر فيه عامٌّ أيضا لا يخصُّ القرآن، فإنَّه كما يطلق على القرآن قد أطلق فيه على غيره وعلى العموم، وكذا لا تختصُّ الآيات في قوله: ﴿أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا﴾ بآيات القرآن بل على العموم، وعلى الدلائل، كما أنَّه فسَّر بعضهم ﴿ذِكْرِي﴾ بـ«هُدَايَ» لأنَّه سبب ذكره وعبادته عزَّ وجلَّ .

وقيل: لا يضلُّ طريق الجنَّة في الآخرة، وهو في مقابلة ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ

١- أورده الألوسي في تفسيره: ج٦، ص٢٧٦. وقال: أخرجه جماعة من حديث ابن عبَّاس.

الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ ولا يتعب في معيشة الدنيا، وهو مقابل قوله ﷻ : ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ وعليه فقدَّم حال الآخرة لأنَّها محطُّ رغبة المهتدين، وما مرَّ أولى، لأنَّه تفسير النبيء ﷺ وابن عبَّاس رضي الله عنهما كما مرَّ، وأجيزا في الآخرة وأجيزا في الدنيا [أيضا] لأنَّ الشقاء بما فيها من الانحراف.

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً﴾ حياة **﴿ضَنكًا﴾** شديدة الضيق، وأصله مصدر، ولذلك يوصف به المفرد المذكَّر وغيره.

والكافر في الدنيا في شدَّة الضيق ولو كثر ماله لضيق قلبه بالحرص والشحِّ وطلب الزيادة وخوف النقص وسلب القناعة حتَّى لا يشبع، وإن كان له قناعة بكثير أو قليل فقلبه متقطِّع بالشهوات، ومعيشة الكافر أيضا مطلق ضنك، أي سبب للشدَّة يوم القيامة كما يعذَّب بماله أيضا إذ لم يخرج حقوقه.

وعن ابن مسعود وأبي سعيد: المعنى عذاب الكافر في قبره، وعن أبي هريرة عنه ﷺ : «**المؤمن في قبره في روضة خضراء يرحب له سبعين ذراعا في ضوء كضوء القمر ليلة البدر، هل تدرون فيم نزلت ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**عذاب الكافر في قبره، يسلَّط عليه تسع وتسعون حيَّة لكلِّ واحدة سبعة رؤوس تلسعه، وتنفخ إلى يوم ينفخ في الصور**»[1] وما قبل قيام الساعة وبعد الموت من الدنيا في قول، وقيل: المعيشة الضنك بعد البعث: الشوك والزقُّوم والغسلين.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ تارة وأزرق أخرى [آية ١٠٢ من السورة]،

١-أورده الألوسي في تفسيره: ج٦، ص٢٧٧. وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت، والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبَّان وابن مردويه من حديث أبي هريرة.

أو أزرق زرقة مسبَّبة عن موت ضوء العين، أو فساد الجسد، أو بعض أزرق وبعض أعمى كما مرَّ، وقال الله ﷻ : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (سورة الإسراء: ٩٧) وقد قال الله ﷻ : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ (سورة الكهف: ٥٣) ويقرأون كتبهم ويرون أهوال القيامة وذلك بالبصر، وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ (سورة مريم: ٣٨)، ويتكلَّمون فيما بينهم، ولمالك خازن النار ولغيره، ويجابون ويسمعون الجواب فكلٌّ منهم يتكلَّم ويخرس، ويبصر ويعمى، ويسمع ويصمُّ، وذلك في مواطن.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا و لم أستوجب أن أبعث أعمى، نسيَ أعماله السوء الموجبة لبعثه أعمى، أو ظنَّ أنَّه لا يعاقب عليها، والآية على الغالب من الإبصار، وبقي من كان في الدنيا أعمى وهو مجرم فإنَّ الله ﷻ يجعل له البصر ليرى جهنَّم وأهوال الساعة وليقرأ كتابه ثمَّ يعمى أيضا.

وقيل: أعمى عن الحجَّة التي كنت أحتجُّ بها في الدنيا وأسمِّيها بصيرة، وقيل: المعنى **لم حشرتني متحيِّرا لا أدري ما أصنع من الحيل في دفع العذاب، وقد كنت في الدنيا محتالا في مصالحي!.**

﴿قَالَ﴾ الله **﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾** الإشارة إلى الحشر له أعمى، أي قد فعلت مثل ذلك الحشر وهو أنَّك تركت آياتنا فنسيتها.

[قلت:] وكنت في سنِّ الشباب أتأوَّل مثل هذا التشبيه خروجا عن تشبيه الشيء بنفسه، بأنَّ نفس وقوع الشيء مثلا غير وصفه، فإنَّ ارتسامه في نفس السامع لا بدَّ أنَّه غيره، فنقول هنا: مثل ذلك الإتيان البديع أَتَــتكَ آياتــنَا، ويجوز الحكم بإقحام الكاف، أي أتتك آياتنا ذلك الإتيان، وقس على ذلك مثله في القرآن، وإذا وجدت مشبَّها به فاعمل عليه بلا إشكال ولا حاجة إلى التأويل.

والنسيان: الترك، شبَّه الترك بالنسيان في شدَّة الإعراض، فإنَّ الناسي أشدُّ إعراضا عن الشيء ممن لم ينس، والمشبَّه والمشبَّه به موجودان في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك عن الخير إلى الشرِّ، كما تركت آياتنا، فأنت باق على العمى لا تبصر إلاَّ لتشاهد أمرا فظيعا أشدَّ من العمى. وعن عكرمة: لا يرى شيئا إلاَّ النار، أي بعد دخولها.

(فقه) [قلت:] ونسيان القرآن غير كبيرة، وهو زواله عن الحافظة وإنَّما الكبيرة ترك العمل به، ويحمل ما ورد في عقاب ناسيه على تارك العمل به، أو على من تهاون به تهاونا حتَّى نسيه، فهناك كبيرتان: كبيرة التهاون وكبيرة نسيانه.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء بالإعماء ﴿نَجْزِي﴾ بالنار وغيرها ﴿مَنَ اَسْرَفَ وَلَمْ يُومِنۢ بِئَايَاتِ رَبِّهِ﴾ بالانهماك في الشهوات وهم هؤلاء المحشورون عُميا، أعاد ذكرهم بالاسم الظاهر ليصفهم بالإسراف، وذلك تشبيه للعذاب العامِّ بالخاصِّ، على أنَّه شمل الإعماء المتجدِّد بعد إعماء الحشر وغيره من العذاب، أو شبَّه العذاب بالإعماء بالعذاب بالنار تشبيها للخاصِّ بالخاصِّ.

﴿وَلَعَذَابُ الاَخِرَةِ﴾ على الإطلاق أو عذاب النار في الآخرة ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ من العذاب الذي أصابهم في الدنيا أو سمعوا به لغيرهم، أو منه ومن عذاب القبر، أو منهما ومن العذاب بالعمى.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ اَلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي اِلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ اِلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنَ

ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

الأمر بالصلاة والصبر على أذى المشركين والاعتبار بالأمم السابقة

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أغفلوا فلم يهد لهم، وفاعل «يَهْدِ» ضمير الله، كما يدلُّ له قراءة: «نَهْدِ» بالنون، والهاء للمشركين على عهد رسول الله ﷺ، والهمزة للإنكار والتوبيخ.

(نحو) وعدِّيَ «يَهْدِ» باللام لتضمُّن معنى التبيين، والمفعول محذوف، أي: أفلم يبيِّن لهم العبر، أو نزِّل كاللازم، أي: أفلم يحضر لهم الهداية، وقيل: فاعل «يَهْدِ» ضميره ﷺ، وقيل: ضمير الإهلاك المدلول عليه بقوله عز وجل:

﴿كَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أصحاب الحجر وثمود وقوم لوط، هذه الجملة بيان للهداية على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم، وللمفعول المحذوف وهو العبر، وأجيز أن تكون مفعولا لـ«يَهْدِ»، أي أفلم يبيِّن الله لهم مضمون هذا الكلام، وأن تكون مفعولا لـ«يَهْدِ» معلَّقا عنها بـ«كَمْ» الخبريَّة كما يعلَّق بالاستفهاميَّة، لأنَّ لكلٍّ الصدرَ. و«كَمْ» مفعول به لـ«أَهْلَكْنَا»، و«مِنَ الْقُرُونِ» نعتها.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِم﴾ يمشي القرون في مساكن أنفسهم مطمئنِّين، الجملة حال من «الْقُرُونِ»، أو تمشي كُفَّار قريش المذكورون في مساكن القرون

المهلكين. والجملة حال من هاء «لَهُمْ»، فإنَّهم إذا سافروا إلى الشام شاهدوا أرض الحجر وثمود وقوم لوط.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى﴾ تقرير للهداية التي لم يهتدوا بها، وتعليل للإنكار والتوبيخ، أي لا ينبغي عدم اهتدائهم ولا يليق لأنَّ في ذلك الإهلاك[1]، وإشارة البعد لعلوِّ شأن هذا الإهلاك. و«آيات»: دلالات كثيرة، أو آيات تولَّدت من ذلك الإهلاك مع أنَّه آية واحدة، كقولك: رأيت من زيد أسدا وبحرا، وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١) إذا فسَّرنا ﴿إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ بإنسان يقتدى به.

و«النُّهَى» جمع نهية أي عقل، لأنَّ العقول ناهية عَمَّا يفعل هؤلاء المشركون على عهده ﷺ من أنواع الكفر والمعاصي.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ﴾ عِدَة [من الوعد] ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بأن لا يهلك أمَّتك باستئصال كقوم نوح وعاد وثمود إكراما لك، كما يَدُلُّ له لفظ الرُّبُوبِيَّة مضافا لضميره، ولأنَّ من نسلهم من يؤمن ولَمَّا شاء الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَكَانَ﴾ الإهلاك لهم ﴿لِزَامًا﴾ لاصقا بهم فُجأة، ولا يتأخَّر كخصم مُلحٍّ، كما فعلنا بمن قبلهم، وأصله مصدر «لازم يلازم»، أو اسم آلة كالحزام والركاب، وصف به للمبالغة، ويبعد كونه جمع «لازم» كقائم وقيام لإفراد ضمير كان، فيحتاج إلى تأويل: إنَّ إهلاك كلِّ واحد كان لازما، وجملة إهلاكاتهم لوازم.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على «كَلِمَةٌ» أو ضميرها في «سَبَقَتْ» أُخِّر

١- في نسخة ب: «قوله «لأنَّ في ذلك الإهلاك» لعلَّ في العبارة سقطا، إذ لم يذكر اسم أنَّ فكان عليه أن يقول: لأنَّ في ذلك الإهلاك اعتبارا لأصحاب العقول أو نحو ذلك».

مسارعة إلى مضمون جواب «لَوْلاَ»، وللفاصلة.

والأجل المسمَّى: آجال أعمارهم، وقيل: الأجل المسمى لعذابهم يوم القيامة، أجَّلنا لهم عذاب يوم القيامة وحده لا عذاب استئصال معه، وقيل: الأجل المسمَّى أجل عذاب يوم بدر، وعدهم إيَّاهُ و لم يعدهم عذاب الاستئصال.

وأجيز عطفه على ضمير «كَانَ»، أي لكان الأخذ العاجل، والأجل المسمَّى لازمين لهم كدأب عاد وثمود. وسلاَّه الله عَزَّ وَجَلَّ من ضيق قلبه بكفر قومه وأذاهم بقوله:

﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾ من كلمات الكفر، فإنَّهم معذَّبون عليه لا محالة، وليسوا مهملين بل مُمْهلون، وهذا صبر لا ينسخ فهو مستمرٌّ بعد الأمر بالقتال وقبله.

﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ صلِّ مُلتبسا بحمد ربِّك، يزدك كمالا وتوفيقا ﴿**قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**﴾ صلاة الفجر ﴿**وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**﴾ صلاة العصر.

قال فضالة بن وهب الليثي[1]: قال لي رسول الله ﷺ : «**حافظ على العصرين**» قلت: وما العصران؟ قال: «**صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها**»[2] وقيل: ﴿قَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: الظهر والعصر لأنَّهما قبل الغروب وبعد الزوال. وجمعها مطابقة لقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ ولا يخفى أنَّ المتبادر قبل

١- فضالة بن وهب الليثي: صحابي، هو والد عبد الله الليثي، وليس فضالة بن وهب الزهراني التابعي، وقد روى له أبو داود حديث المحافظة على العصرين في سننه. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣، ص٢٠٢، رقم ٧٠٠٢.

٢- رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات، رقم ٤٢٨، من حديث فضالة الوهبي.

الغروب: العصر لأنَّه يليه.

﴿وَمِنَ ـــ انَآءِ الَيْلِ﴾ من ساعات الليل جمع إِنْيٌ أو إِنْوٌ، بكسر الهمزة وإسكان النون فيهما، أو إِنـــًا بكسر الهمزة وفتح النون بعدها ألف عن ياء أو عن واو، وهو متعلّق بقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ على أنَّ الفاء مقحمة للدلالة على لزوم ما بعدها لما قبلها، أو بمحذوف عَطَف عليه بالفاء «سَبِّحْ»، أي قم وقتا من آناء الليل، أو قم بعض آناء الليل فسبِّح، وزعم بعض عن النحاة أنَّ الفاء لا تمنع ما بعدها عن العمل فيما قبلها، ولو لم تكن زائدة. والمراد: صلاة المغرب والعشاء.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ بالنصب عطفا على محلِّ «مِنَ ـــ انَآءِ الَّيْلِ» أو على «مِنْ» التبعضيَّة، أو على «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ»، أو على «قَبْلَ غُرُوبِهَا». والمراد: ذكر الله في جميع النهار بصفات الجمال والتتريه عن النقائص، أو بقول «سبحان الله والحمد لله»، روي: «إنَّه من سبَّح عند غروب الشمس سبعين تسبيحة غربت بذنوبه».

(فقه) وعبَّر بطرفيه ـــ لا صلاة النفل كما قيل ـــ لأنَّه لا صلاة بعد صلاة الفجر حتَّى تطلع الشمس طلوعا كاملا، ولا بعد صلاة العصر، ولأنَّ ذلك نفل، والأصل في الأمر الوجوب والمقام له، وَتَقَدَّمَ قول بدخول صلاة الظهر في قوله: ﴿قَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وأجيز إرادة صلاة الظهر بـــ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ لأنَّها بعد الطرف الأوَّل وهو النصف الأوَّل من النهار وأوَّل الطرف الآخر وهو النصف الثاني، وذلك ولو كانا طرفين للنصفين هما طرفان للنهار، لأنَّ النصفين له، والظهر ولو كان لا يقام آخر النصف الأَوَّل لكن يقام أوَّل النصف بعده، فتلك صلاة حصلت بعد وجود الطرف الأوَّل، وحصول الثاني، وقيل: هذا تكرير لصلاة الصبح والعصر.

و«النهار»: ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس ولا يَضُرُّنا أنَّ الطرف الأوَّل محدود متميِّز والثاني ليس على حِدته، إلاَّ أنَّ الأصل عدم التكرير. و«أطراف»: مراد به اثنان، أو هو باعتبار تعدُّد النهار، والأوَّل أولى، وأجيز أن يكون الطرف بمعنى الطائفة من الشيء.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلِّق بــ«سَبِّحْ» أي سبح في هذه الأوقات راجيا أن تنال ما ترضى به نفسك من الثواب، أو بالأمر بالصلاة والصبر أي لعلَّك ترضى بحصول الظفر وانتشار دين الإسلام.

(سبب النزول) قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهوديٍّ فقال لي: قل إنَّ رسول الله ﷺ يقول بعني كذا وكذا من الدقيق، أو اسلفني إلى هلال رجب، فأتيته فقلت له ذلك، فقال: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلاَّ برَهْنٍ، فأتيت رسول الله فأخبرته فقال: «**والله لو باعني أو أسلفني لقضيته، وإنِّي لأمين في السماء وأمين الأرض، اذهب إليه بدرعي**» فنزل قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾** أي زينتها، والخطاب لرسول الله ﷺ بأن يدوم على ما هو عليه من عدم مدِّ النظر إلى زينة الدنيا، متضمِّن وعظ أمَّته بأن يكتسبوا عدم مدِّ النظر.

وكان ﷺ أبعد الناس عن الدنيا وكان يقول: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلاَّ ما أريد به وجه الله**»[1].

قال زيد بن أرقم: كُنــَّا عند أبي بكر فدعا بشرابه فأتي بماء وعسل، فلمَّا

١– رواه **الترمذي** في كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا، رقم ١٢٢٢. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم ٤١٨٧، من حديث أبي هريرة بلفظ: « الدنيا ملعونة... إلاَّ ذكر الله وما والاه أو عالما أو متعلما».

أدناه من فيه بكى فبكينا لبكائه فسكتنا و لم يسكت، ثمّ مسح عينيه، فقلنا: ما هاجك يا خليفة رسول الله ﷺ ؟ فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه و لم أر معه شيئا ولا أحدا، فقلت: يا رسول الله أراك تدفع عن نفسك شيئا ولا أرى معك شيئا ؟ قال: «**هذه الدنيا تمثّلت لي، فقلت: إليك عَنِّي فتــنحَّت، فقالت: أما إنَّك إن تفلتَّ عَنــِّي فلن يُفلِتَ عَنــِّي مَن بعدك**» فخفت أن تلحقني، ثمّ وضع الإناء من يده و لم يشرب.

قال معاوية: أمَّا أبو بكر فلم يرد الدنيا و لم ترده، وأمَّا عمر فأرادته و لم يردها، وأمَّا عثمان فنال منها ونالت منه، وأمَّا عليٌّ فكان يرجو منها أحيانا ويتركها أحيانا، وأمَّا نحن فتمرَّغنا فيها ظهرا لبطن ولا ندري إلى ماذا يصير الأمر!.

ويحتمل في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ أنَّه يصدر منه المدُّ ابتغاء لها للمؤمنين لينتفعوا بها، ويتوصَّلوا إلى إعانة الدين والقيام لا لنفسه، ويردُّه أنَّه لا يحبُّ لهم ما يكون واسطة للسوء كالفخر بل يحبُّ لهم الكفاف.

أو الخطاب لمن يصلح له من أمَّته لا له. والذي متِّعوا به أصناف الكفرة هو زخارف الدنيا، كالأولاد والبنين والأموال والمنازل، والملابس والمطاعم والأزواج. وفي المدِّ تلويح بأنَّ النهي عن الإطالة أو الإعجاب والميل، ولذلك لم يقل: لا تنظرن، لأنَّ النظر بدون ذلك معفوٌّ عنه.

وكان بعض العلماء يغضُّ بصره عن النظر إلى أبنائهم وملابسهم لأنَّه يغريهم ويغري غيرهم عليها، ولأنَّ النظر إليها محصِّل لغرضهم إذ اتَّخذوها للفخر.

(فقه) ولقد شدَّد المتَّقون في وجوب غضِّ البصر عن أبنية الظلمة وملابس الفسقة، لأنَّهم اتَّخذوا ذلك لعيون الناظرين، فلا تعينوهم على مرادهم من النظر، وانظروا إلى ما يلوح على ذلك من ذلِّ العقاب. وكان عروة بن الزبــير إذا رأى ذلك قرأ: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ...﴾الآية ونادى أهله للصلاة وقرأ:

﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بالصَّلَوٰةِ﴾. وكان ﷺ إذا رأى احتياجا في أهله أمرهم بالصلاة وصلّى وقرأ: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ وكذا [يفعل] مالك بن دينار وبكر بن عبد الله المزني.

و«زَهْرَةَ» مفعول ثان لـ«مَتَّعْنَا» على تضمين معنى «أعطينا»، أو يقدَّر: أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا، أو يقدَّر: احذر زهرة الحياة، أو أَذُمُّ زهرة، فإنّ الرغبة فيها تحرم نور التوفيق.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اللام متعلّق بـ«مَتَّعْنَا» والمعنى: لنعاملهم معاملة المختبر، أو لنعذّبهم بسببه في الآخرة، عبَّر عن العذاب بسببه وذلك تقبيح لها في قلوب المؤمنين.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي ادَّخره لك في الآخرة، أو ما رزقك في الدنيا من النبوءة والهدى، أو ما ادَّخر لك من فتح البلاد والغنائم، ويضعف أنَّه القناعة إذ لا دليل له في الآية، ولو كان في نفسه صحيحا، بل يضعف بقوله: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿خَيْرٌ﴾ مما متِّعوا به في ذاته، ولا عاقبة سوء عليه بخلاف ما متِّعوا به ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنّ خير الآخرة لا يزول، وأثر النبوءة والهدى وفتح البلاد مستمرٌّ إلى قرب قيام الساعة، وتستمرُّ ثمرة ذلك في الآخرة أيضا، بخلاف ما متِّعوا به فيزول بموت أو غيره.

﴿وَامُرَ اَهْلَكَ﴾ أزواجك وبناتك، أو هؤلاء ومؤمني بني هاشم والمطّلب، أو مؤمني أمّته ﴿بِالصَّلَوٰةِ﴾ الصلوات الخمس. روت الإمامية من الروافض حديثا وضعوه، وهم أكذب الناس إذا رووا حديثا في شأن عليٍّ بن أبي طالب: «كان ﷺ من حين نزلت الآية يشمي كلَّ وقت صلاة الفجر إلى بيت عليٍّ وزوجه فاطمة إلى ثمانية أشهر ويقول: الصلاة رحمكم الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ

اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣) ». وروى أبو داود بإسناد حسن مرفوعا: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»[١]. ﴿**وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ مع أهلك، كما دلَّ عليه المقام. والاصطبار: علاج في الصبر شديد، والمراد: المداومة، عبَّر عنها بلازم معناها، لأنَّ المداومة لا بدَّ فيها من شدَّة صبر.

﴿**لاَ نَسْئَلُكَ**﴾ وأهلك ﴿**رِزْقًا**﴾ لا نكلِّفكم الاشتغال بكسب الرزق، **وليست المداومة على الصلاة تضرُّ بأمر المعاش** بل هي سبب لتيسيره ﴿**نَّحْنُ نَرْزُقُكَ**﴾ ذكر «نَحْنُ» للاختصاص والتقوية.

وقيل: الخطابان بالكافين خاصٌّ به ﷺ ، لأنَّ الله عز وجل أمر الناس بالكسب، وليس كذلك فإنَّ المراد بالصلاة الخمس ولا يعذر عنهنَّ بالاشتغال بالكسب، بل يجوز التفسير بالفرض حتما والنفل ندبا، بحسب ما تيسَّر، استعمالا للأمر في الوجوب والندب، أو في الإيقاع بقطع اعتبار الوجوب والندب.

(سيرة) والصلاة سبب لإدرار الرزق وكشف الهمِّ، قال عبد الله بن سلام: كان النبيء ﷺ إذا نزلت بأهله شدَّة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وتلا ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾. وروي أنَّه ﷺ إذا حزبه أمر أسرع إلى الصلاة، وقال ثابت: كان النبيء ﷺ إذا نزلت بأهله خصاصة نادى أهله صلُّوا صلُّوا، قال ثابت: كانت الأنبياء عليهم السلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، وقال أسلم: كان عمر بن الخطاب يصلِّي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلِّي حتَّى

١-رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم٤٩٥. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٦٦٥٠. من حديث عبد الله بن عمرو.

إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، ويقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو الآية: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ...﴾.

﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ الغاية المحمودة الجنَّة وغيرها، وقيل: الجنَّة لأهل التقوى، كما قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٢٨)، أو العاقبة ثابتة للتقوى **وملاك الأمر التقوى.**

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَاتِينَا بِءَايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَاتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي اِ۬لصُّحُفِ اِ۬لْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوَ اَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنَ اَصْحَٰبُ اُ۬لصِّرَٰطِ اِ۬لسَّوِيِّ وَمَنِ اِهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

إعنات المشركين للرسول، وتهديدهم بما ينتظرهم

﴿**وَقَالُواْ**﴾ أي مشركو قريش ﴿**لَوْلَا**﴾ هلاَّ، وهو تحضيض اعتبارا لما في قلوبهم أنَّهم على الحقِّ، وأنَّه على الباطل حتَّى بالغوا بألسنتهم في الحثِّ على الإتيان إيقانا أنَّه لا يأتي، أو عَرْضٌ، وعلى كلٍّ جعلوا ما شاهدوا من الآيات غير معجز فطلبوا معجزة وقالوا: ﴿**لَوْلَا يَاتِينَا بِئَايَةٍ مِن رَّبِّــهِ**﴾ فإنَّهم رأوا أنَّ ما يأتي به سحر منه يحتجُّ به، فطلبوا أن يأتي بشيء من ربِّه حجَّة له، وردَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم بقوله: ﴿**أَوَلَمْ تَاتِهِم**﴾ في القرآن ﴿**بَيِّــنَةُ**﴾ دلائل، وأفرد لأنَّ المقصد واحد ﴿**مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ**﴾ الكتب الأولى: التوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك، ولا تفسَّر البيِّنة بقرآننا هذا إذ لا وجه لقولك: قرآن ما في الصحف الأولى، والمراد قرآننا هذا، بخلاف قولك: أتاهم في القرآن ما في تلك الكتب، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ المراد تهديدهم بالتخويف بأن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

والهمزة للإنكار داخلة على محذوف، أي أو لم يأتهم سائر الآيات، و لم يأتهم خاصَّة ما في الصحف الأولى؟ لو أنصفوا لكفاهم أنَّه لا يعرف الكتابة ولا يجالس أهل الكتاب وأهل الأخبار، ومع ذلك أخبرهم بأخبار الأمم والغيوب، وجاءهم بكتاب عجز عنه بلغاؤهم.

﴿**وَلَوَ انَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ**﴾ ولو ثبت إهلاكناهم بعذاب مستأصل من قبل البيِّنة، وذكرها باعتبار أنَّها برهان، أو قيل: الإتيان المفهوم من قوله: ﴿أَوَلَمْ تاتِهِم﴾ أو من قبل الرسول أو الإرسال ﴿**لَقَالُواْ**﴾ يوم القيامة ﴿**رَبَّنَا**﴾ يا ربَّنا ﴿**لَوْلآَ**﴾ طلب برغبة ﴿**أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**﴾ في الدنيا مع آيات ﴿**فَـنَـتَّبِعَ ءَايَاتِكَ**﴾ التي جاءنا بها ﴿**مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ**﴾ بعذاب الاستـئصال في الدنيا ﴿**وَنَخْزَىٰ**﴾ بدخول النار اليوم، ومعناهما واحد.

وقيل: الذلُّ الهوان والخزي الافتضاح، وقيل: كلٌّ من الذلِّ والخزي بعذاب الآخرة، وهو متبادر، لأنَّه لا يبقون بعد مجيء الاستـئصال في الدنيا وقتا يتبيَّن فيه ذلُّهم بل يَفْجَأُهم، إلاَّ أنَّه من الجائز بقاء وقت فما أهلكهم الله إلاَّ على حجَّة كما قال: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا...﴾ (سورة الملك: ٩) .

وليس في الآية جواز الإهلاك بلا نبيء ولا كتاب وإنَّما قال الله ﷻ : لو فعلنا ذلك، وهو لم يفعله.

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد لقومك الكفرة ﴿**كُلٌّ**﴾ منـّا ومنكم ﴿**مُّتَرَبِّـصٌ**﴾ منتظر لما يؤول إليه الأمر. وأفرد الخبر للفظ «كُلٌّ» ﴿**فَتَرَبَّـصُواْ**﴾ عطف إنشائيَّة فعليـّة على اسميـّة خبريَّة.

﴿**فَسَتَعْلَمُونَ**﴾ بعد مدَّة، والسين على أصلها، والبعد متفاوت، وقيل: السين للوعيد والمراد القرب، ولا دليل على هذا، ﴿**مَن**﴾ استفهاميَّة ﴿**اَصْحَابُ**

الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم، نحن أم أنتم؟. «مَنْ» مبتدأ و«أَصْحَابُ» خبر، أو بالعكس، والجملة في محلٍّ نصب سدَّت مسدَّ مفعولي «تعلم». **﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾** «مَنْ» استفهاميَّة مبتدأ وخبره جملة «اهْتَدَى» وجملة «مَنِ اهْتَدَى» معطوفة على الأولى مثلها سدَّت مسدَّ مفعولين.

وإن جعلنا «تَعْلَمُ» بمعنى تعرف فالجملة في الموضعين سدَّت مسدَّ مفعول به واحد، وجاز جعل «مَن» الثانية موصولة معطوفة على الأولى على أنَّها موصولة أيضا، حذف صدر صلتها للطول، أي: من هم أصحاب الصراط السويِّ، أي الذين هم أصحاب الصراط السويِّ والفريق الذي اهتدى.

اللهم اجعلنا منه، أنت الرحمن الرحيم.

تفسير سورة الأنبياء وآياتها ١١٢

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ① مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ③ قُل رَّبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ④ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ⑤ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ⑥﴾

غفلة الناس عن الحساب وشاهد ذلك

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قَرُبَ قُرْبًا شديدًا لزيادة الهمزة والتاء، أو مرادف للمجرَّد كرقب وارتقب، ولا يقال: ما القرب؟ ومن حين نزولها إلى الآن أكثر من ألف عام وثلاثمائة وأحد وعشرين لأنَّه تعالى عظيم الشأن فالقرب عنده بعيد عندنا جدًّا، فالألف من السنين عنده يوم، فقد مضى يوم واحد وزيادة، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (سورة المعارج: ٦)، أو المراد بالاقتراب تحقيق الوقوع، وإذا جاز التعبير بالماضي عن الآتي فكيف لا يعبَّر عنه بالقرب؟ وكلُّ آت قريب، والبعيد ما وقع ومضى كما قيل:

فلا زال ما تهـــواه أقرب من غد ولا زال ما تخشـــاه أبعد من أمـــس

أو القرب باعتبار ما مضى من الدنيا، ولا حاجة إلى تقدير مضاف هكذا: «اقترب للناس زمان حسابهم»، فإنَّ ما قرب زمان وقوعه قد قرب، وما قرب وقوعه قرب زمانه.

وهنا ذكر ما يقع، وفي ﴿اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ (سورة القمر: ١) ذكر الزمان وذكر اقتراب الحساب، ولم يذكر العذاب لأنَّ الحساب يوجبه، وهو لدلالته على المناقشة دالٌّ على العذاب الشديد، وذلك ممَّا لا يخلو قلوبهم عن الاضطراب به ولو بالغوا في العناد.

كما روي أنَّه لَمَّا نزلت: ﴿اقْـتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ (سورة القمر: ١) قالوا: أمسكوا عن بعض ما تعملون حتَّى ننظر ما يكون، فمضت مدَّة، فقالوا: ما رأينا ما تعدنا، فنزل: ﴿اَقْـتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ فأشفقوا ومضت مدَّة، وقالوا: ما نرى شيئا.

واللام بمعنى إلى أو للاستحقاق أولى من كونها بمعنى «مِن». وقدَّم «للناس» وأخَّر «حسابهم» على طريق الاهتمام بالمقدَّم والتهويل به والتشويق إلى ذكر المؤخَّر، ولم يقل: اقترب الناس للحساب، لأنَّ الأصل ــ وهو الجاري في القرآن ــ أن يسند الاقتراب إلى الآتي لا إلى الموجود.

و«الناس»: المكلَّفون عموما، أو المشركون، أو مشركو مكَّة ليذكرهم بأوصاف الشرك بعدُ، أو للعموم اعتبارا بالأكثر، وللأكثر حكم الكلِّ عرفا وشرعا، وذلك كلٌّ لا كلِّيــَّة، أو المشركون والعصاة فيصرف إلى كلٍّ فريق ما يليق به، وهو خلاف الظاهر.

(سيرة) ويروى أنَّ خاتم النبيء ﷺ ثلاثة أسطر: «محمد» سطر أوَّل، و«رسول» سطر فوقه، و«الله» سطر ثالث أعلى، وخاتم الصدِّيق: «نعم القادر الله»، وخاتم الفاروق: «كفى بالموت واعظا يا عمر»، خاتم عثمان: «لتصبرنَّ أو لتندمنَّ»، وخاتم علي: «الملك لله»، وخاتم عمر بن عبد العزيز: «أعز غزوة تجادل عنك يوم القيامة».

﴿**وَهُم فِي غَفْلَةٍ**﴾ عظيمة بشدَّة بُعدها عن التنبيه، أو بعمومها في أمور الدين، من التوحيد والرسالة والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك من الأصول

والفروع. والجملة حال من «الناس»، ولا شعور للغافل عن المغفول عنه بخلاف الإعراض، ولذا ذكره بقوله: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ خبر ثان، أعرضوا عن التفكير في عاقبة حالهم ومآل أمرهم، وذلك تابع لغفلتهم، أو أعرضوا عن الآيات والنذر بعد النزول، أو أعرضوا: أتوا بأمر عريض أي واسع في غفلتهم وأفرطوا فيه كقوله:

عطـــاء فتى تمكَّن في المعـــالي وأعرض في المعالي واستطالا[1]

أي تمكَّن في عرض المعالي وطولها، ولا يقال: أعرضوا عن تحسين الحقِّ وتقبيح الباطل **لأنَّ التحسين والتقبيح العقليين لا يثبتان**، ولو قالت بهما المعتزلة، إلاَّ أن يقال: المعنى أعرضوا عن أن يقلدوا حسن ما حسَّنه الله وقبح ما قبَّحه.

قال حذيفة بن أسيد: اطلع النبيء ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «**لا تقوم الساعة حتَّى تكون عشر آيات قبلها: طلوع الشمس من مغربها، والدجَّال، والدخان، ودابَّة الأرض، وياجوج وماجوج، وخروج عيسى، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا**»[2].

(ما قيل عن الدجال) وعن عمر إذا ذكر الدجَّال عند النبيء ﷺ قال: «**إن الله لا يخفى عليكم، إنَّ الله ليس بأعور، وإنَّ المسيح الدجَّال أعور العين اليمنى، وهي طافئة كالعنبة**». وعن أنس عن النبيء ﷺ : «**ما بعث الله**

١– البيت لذي الرمة كما في اللسان لابن منظور، وضبطه هكذا:

فعال فتى بَنَى وَبَنَى أبوه فأعرض في المكارم واستطالاً

ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص١٣٧.

٢– رواه **ابن ماجه** في كتاب الفتن (٢٨) باب الآيات، رقم ٤١٢٧. ورواه **أحمد** في مسند المدنيين، رقم ١٥٧١١. من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري.

من نبيء إلاَّ أنذر قومه بالأعور الكذَّاب، إنَّه أعور وإنَّ ربَّكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر». وعن حذيفة عن النبيء ﷺ : «**إنَّ مع الدجال ماء ونارا ماؤه نار وناره ماء**».

وعن فاطمة بنت قيس: إنَّ النبيء ﷺ أخَّر ليلة صلاة العشاء، ثمَّ خرج فقال: «إنَّما حبسني حديث كان يحدِّثني به تميم الداري[1]، إنَّ ابن عمٍّ له ركب البحر فوقع في جزيرة من جزائر البحر، فإذا هو بقصر عال فيه رجل يجرُّ شعره مسلسل بالأغلال، فقال: من أنت؟ فقال: أنا الدجَّال، أما خرج الرسول الأمي بعد؟ قال: بلى، قال: هل أطاعه قومه؟ قال: نعم، قال: ذلك شرٌّ لي خير لهم»، فقيل: إنَّ الدجَّال محبوس ويخرج آخر الزمان، وقيل: سيولد آخر الزمان ويخرج ويدعو الناس إلى عبادة نفسه، فيتبعه من اليهود ما لا يحصى، ويطوف بالبلدان ويفتن كثيرا من الناس، ثمَّ يترل عيسى بن مريم عليه السلام فيقتله في باب لُدّ من بيت المقدس، ويظهر الإسلام في جميع الأرض.

﴿**مَا يَاتِيهِم مِّن ذِكرٍ**﴾ اسم مصدر أي تذكير ببعض القرآن، أو طائفة منه يكمل بها التذكر، حتَّى إنَّها نفس التذكُّر، و«من» صلة في الفاعل والتي في قوله: ﴿**مِن رَّبـِّهِم**﴾ للابتداء المجازي لتترُّه الله عن الجهات والحلول، متعلِّقة بـ«يَاتِي» أو بمحذوف حال من «ذِكْرٍ» أو بقوله: ﴿**مُّحْدَثٍ**﴾ فقدِّم للحصر.

وفي ذلك دلالة على كمال شرف القرآن وقبح مُنكره إذ كان ممن هو ربٌّ

١- تميم بن أوس الداري: صحابيٌّ كان نصرانيًّا قدم المدينة هو وأخوه نعيم فأسلما سنة ٩ هـ. وكان راهب فلسطين وعابدها، وهو أوَّل من أسرج السراج في المسجد، له قصة مع عمر بن الخطاب فيها كرامة واضحة. توفي بالشام وقبره ببيت جبرين من بلاد فلسطين. ابن حجر: الإصابة، ج١، ص١٨٦.

لهم. أو الذكر المحدث: السنَّة أو كلُّ ذلك ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ﴾ حال من الهاء مقدَّرة، أو من «ذِكْرٍ»، ويبعد أنَّه نعت لمحذوف بدل، أي: إلاَّ ذكر استمعوه ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من واو «اسْتَمَعُوهُ» ﴿لاَهِيَةً﴾ عنه، حال سببيَّة من إحدى الواوين، وقوله: ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ فاعل «لاَهِيَةً»، وأسند اللهي إلى القلوب لأنَّها محلُّ رسوخ الشرِّ ومنبعه، يقال: لَهِيَ عن الشيء بكسر الهاء يَلْهَى بفتحها سلا عنه، وترك ذكره ولو بلا نسيان.

واستماع الآيات لا ينافي الغفلة المذكورة بقوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ وقوله: ﴿لاَهِيَةً﴾ لأنَّها تعقب الاستماع، أو نزَّل شعورهم منزلة العدم، أو ﴿لاَهِيَةً﴾ بمعنى تاركة، ولم أقل «لاَهِيَةً» من اللهو بالواو لأنَّ قبله «يَلْعَبُونَ»، والتأسيس أولى، نعم يجوز على معنى: يلعبون بجوارحهم وألسنتهم مع رسوخ موجب اللهو في قلوبهم.

(أصول الدين) ومعنى الإحداث أنَّه يحدث نزوله شيئا فشيئا وعظا وتذكيرا، وليس المراد بالحدوث الذي تضمنه الإحداث نفي القدم، لأنَّ المقام ليس لذكر حدوثه ونفي قدمه للمشركين، وهو حادث لا قديم، والله الذي لا إله إلاَّ هو، إلاَّ أنَّ الآية لم تنزل لذلك.

ولا يصحُّ لعاقل أن يقول بقدمه لأنَّه مركب حالٌّ في ألسنتنا، والقديم لا يحلُّ في الحادث، ولا يصحُّ لمنصف أن يقول: ألفاظ القرآن ترجمة للقرآن الذي هو الكلام النفسي، لأنَّه مناقض لنصوص القرآن والأحاديث أنَّ هذه الألفاظ هي القرآن، ولا يصحُّ لمن صحَّ إيمانه أن يثبت الكلام النفسي لأنَّ فيه اعتقاد أنَّ الله ظرف، وأنَّه متحيِّز، وحال وتعدُّد القدماء، حاشاه عن ذلك.

بل نصف الله بالعلم وننفي عنه كلَّ شبه بالمخلوق، ويضعف ما قيل من أنَّ الذكر الرسول، ومن أنَّه يدلُّ له قوله ﷻ : ﴿هَلْ هَذَا﴾ لأنَّ قوله: ﴿إِلاَّ

اسْتَمَعُوهُ﴾ ينافيه إلاّ بتأويل: إلاّ استمعوا قوله، أو إلاّ استمعوا له.

ويقال: رُبَّ غافل عن الحساب لاستغراقه في دنياه وإعراضه عن مولاه، وربَّ غافل عن الحساب لاستهلاكه في مولاه وإعراضه عن دنياه، فهو يفيق برؤية المولى، والأوَّل إنَّما يفيق في عسكر الموتى، ومعنى **رؤية المولى إحضار عظمته.**

﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى﴾ اسم مصدر وهو التناجي أي الإسرار بينهم، أو اسم للكلمة المسرورة، وعلى كلِّ حال المعنى: زادوا للإسرار إسرارا، وبالغوا فيه بكلِّ ما أمكن، حتَّى إنَّهم لا يتناجون بحضرة من يراهم، أو ﴿أَسَرُّوا﴾ بمعنى أظهروا أي أظهروا ما كانوا يخفونه كقول الفرزدق:

فلمَّا رأى الحجاج أظـــــهر سيفه أسرَّ الحروري الذي كان أضمــــرا

والأصل خلاف هذا، ويحتمل البيت معنى نطق بما في قلبه سرًّا.

(نحو) **﴿الذينَ ظَلَمُواْ﴾** بدل أو بيان من واو «أَسَرُّوا» المحذوفة للساكن، أو فاعل «أَسَرُّوا» وواو أسرَّ حرف علامة للجمع على لغة «**يتعاقبون فيكم ملائكة**»[1] وهي لغة شهيرة لا شاذَّة، أو مبتدأ خبره ﴿أَسَرُّواْ النَّجْوَى﴾ كقولك: قام أبوه زيد، «زيد» مبتدأ «قام أبوه» خبر، أويقدَّر: هم الذين، أو يقول الذين، أو أعني الذين، أو أذمُّ الذين. ويبعد إبداله من «الناس»، أو جعله نعتا له. وأظهر «الذينَ» ليذمَّهم بصلته.

﴿هَلْ هَذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مفعول

١- إشارة إلى الحديث الذي رواه **البخاري** في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٣٠، من حديث أبي هريرة، وهو قوله ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثُمَّ يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون وأتيناهم وهم يصلُّون».

لقول مقدَّر في جواب سؤال: ماذا قالوا في إسرارهم النجوى؟ أو مفعول لـ«أَسَرُّوا» لأنّ فيه معنى القول، أو [مفعول] لـ«النَّجْوَى» بمعنى التناجي على إعمال المصدر المقرون بـ«الـ» واسمه عمل الفعل، أو يقدَّر: فقالوا: هل هذا...الخ بعطف القول المقدَّر على «أَسَرُّوا» أو يقدَّر: قالوا بلا عاطف على أنّه بدل من «أسرُّوا»، أو ذلك بدل من «النَّجْوَى» بلا تقدير قول، والمعنى: أسرُّوا هذه الجمل.

والفاء في ﴿أَفَتَاتُونَ السِّحْرَ﴾ عاطفة على محذوف أي أتضلُّونَ عن دينكم فتأتون؟ أو أتتركون دينكم فتأتون؟.

(نحو) [قلت:] والمحافظة عندي على عدم تقديم ما بعد العاطف وهو الهمزة بتقدير الجملة أولى، فلا تقل كابن هشام، ألا ترى أنّ الحذف كثير لا تعدُّ كثرته ولا تقصر على السماع إلاّ عند قيام المانع.

والاستفهام هنا للإنكار، و«أَنتُمْ تُبْصِرُونَ» حال من واو «تَاتُونَ» مقرّرة للإنكار أي كيف تذعنون له مع أنّه بشر؟ والبشر لا يكون نبيئا [على رأيهم] بل الملك يكونه.

ويبعد ما قيل: إنّهم أسرُّوا ليقولوا له ﷺ: «إن كنت نبيئا فأخبرنا بما أسررنا» لأنّه لا دليل له ولا يناسب المبالغة بـ«أَسَرُّوا» ولا بـ﴿أَفَتَاتُونَ السِّحْرَ﴾ ولو ناسب قوله تعالى: ﴿**قُل رَّبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَآءِ وَالاَرْضِ**﴾ إلاّ أنّه لم يقل: قل ربِّي يعلم السرَّ في السماء والأرض، لأنّ القول أعمُّ من السرِّ لشموله الجهر.

ففي ذكر «القول» تعميم للسرِّ والجهر، وإيذان بأنّهما عنده سواء، وأنّه يعلم الأخفى أيضا كما ذكر عنهم الإخفاء في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ كأنّه قال: قل يا محمَّد ربِّي يعلم هذا الضرب من السرِّ، وما هو أخفى. و«فِي السَّمَآءِ» حال من «الْقَوْل» أو متعلّق به، أي يعلم ما قيل في السماء والأرض،

والقول بمعنى المقول، والمراد في السماء والأرض وغيرهما، وخصَّهما بالذكر للظهور، أو المراد بالسماء والأرض جهة العلوِّ والسفل مطلقا، وشمل السماوات والأرضين.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ العليم بالأصوات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بغيرها أيضا، ودخل في ذلك أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فهو يجازيهم عليها، ولا يترك منها شيئا لخفائه إذ لا يخفى عنه شيء.

﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾ إضراب من الله انتقالي من ذكر قولهم الباطل ﴿هَلْ هَذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُم...﴾ إلى ذكر قول آخر باطل هو قولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾، أي ما تتلو علينا تخاليط مرائي يراها الإنسان في نومه.

﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ إضراب منهم عن قولهم ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾ إلى قولهم إنَّ القرآن من عنده البتَّة، مقتطع منه لا اتِّصال له بشيء مَّا من الله ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي محمَّد ﴿شَاعِرٌ﴾ إضراب منهم عن قولهم: إنَّه افتراه إلى قولهم: إنَّ القرآن شعر وشاعره محمَّد، يخيِّل به للناس ما لا حقيقة له، وهو أخصُّ من الافتراء.

والإضرابان انتقاليان أو إبطاليان، أو الثاني انتقالي والثالث إبطالي، أو بالعكس، ويجوز أن يكونا من الله عز وجل على تقدير القول، أي بل قالوا افتراه بل قالوا هو شاعر.

وقولهم سحر دون قولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾ في الفساد، وقولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾ دون قولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾، وقولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ دون قولهم: هو شاعر، وذلك كما جاء: «**إنَّ من البيان لسحرا**»[1] وتخاليط الكلام لا تنضبط.

١- رواه الربيع في مسنده (٥) باب في طلب العلم لغير الله عز وجل ، رقم ٣٧. من حديث ابن عمر.

والقرآن بلاغته لا طاقة له ﷺ بها ولا لهم، مع شدَّة أمانته عندهم، وإنَّه لا افتراء له في شيء يدَّعونه عليه، فضلا عن أن ينسبوه إلى افتراء القرآن.

[قلت:] ولا حكمة في الشعر إلاَّ نادرا، وحكم القرآن لا تحصى، فقوله ﷺ : «**إنَّ من الشعر لحكمة**»[1] إخبار بالنادر بل قال الراغب[2]: الشاعر في القرآن بمعنى الكاذب، وقد وصفهم الله عزَّ وجلَّ بأنَّهم يهيمون في كلِّ واد وأنَّه يتبعهم الغاوون، فهم في غيٍّ وإغواء وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون، فهم كاذبون واستثنى الله من اتبع هذا القرآن[3].

﴿**فَلْيَاتِنَا**﴾ إن لم يكن كما قلنا بل صدق فليأتنا ﴿**بِئَايَةٍ**﴾ ليست من جنس ما يأتي به ﴿**كَمَآ أُرْسِلَ الاَوَّلُونَ**﴾ صالح وموسى وعيسى، كالناقة والعصا وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وغير ذلك مما لا يحتمل السحر، وشبه الأحلام في الضعف والشعر ويدوم ويشاهد، وهذا شأن المحجوج المبطل المتردِّد بين باطل وأبطل.

(**بلاغة**) وقد نفوا أن يكون البشر نبيئا ومع هذا قالوا: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ الاَوَّلُونَ﴾ وكأنَّهم أرادوا: كما أرسل الأوَّلون في زعمك، أو قالوه اضطرابا، و لم يقولوا: كما أتى الأوَّلون ليزيدوا بذكر الإرسال من الله عزَّ وجلَّ ، و لم يقولوا:

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب (٤١) باب الشعر، رقم ٣٨٢٣. ورواه **البخاري** في كتاب الأدب (٩٠) باب ما يجوز في الشعر، رقم ٦١٤٥. ورواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، رقم ٥٠١٠. من حديث أُبي بن كعب.

٢- الراغب الأصفهاني هو الحسين بن محمد بن المفضل أديب من العلماء الحكماء سكن بغداد، له مؤلَّفات كثيرة منها محاضرات الأدباء، المفردات في غريب القرآن، حل متشابهات القرآن. توفي سنة ٥٠٢ هـ. الزركلي الأعلام ج٢ ص٢٥٥.

٣- الشعراء آيات: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧.

فليُرسل إلينا بالبناء للمفعول تلويحا بأنَّه قال من عنده لا برسالة كالأوَّلين، كما قالوا: «افْــتَرَاهُ».

(نحو) و«مَا» مصدريَّة، أي إتياتا ثابتا كإرسال الأوَّلين، أو اسم أي بآية مثل آيات أرسل بها الأوَّلون أو مثل الآيات التي أرسل بها الأوَّلون، وحذف الرابط المجرور بدون أن يجرَّ الموصول بمثله، ويتعلَّق الموصول بمثل ما تعلَّق به لظهور المعنى واشتراط ذلك ليس متَّفقا عليه كما ذكره الصبان بقول[1]، والمنعوت كالموصول، بل المتعلِّق متَّحد هنا لأنَّ الإتيان والإرسال بمعنًى مأصدقا، وعلى الاشتراط تجعل «ما» حرف مصدر أولى من أن يقال حذف الجار ونصب مدخوله فحذف كما يحذف الرابط المنصوب.

﴿مَآ ءامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَآ﴾ ما آمن أهل قرية قبلهم مقترحة آية أهلكناها بالاستئصال، بل أهلكنا به من اقترحوها ولم يؤمنوا، فلا تقترحوها، وإن اقترحتموها لم أجبكم إليها لأنَّه سبقت كلمتي أن لا أعذِّب أمَّة محمَّد به، وأن سيخرج من أصلابهم من يؤمن بي، أو عادتي الإهلاك به للمقترح إن لم يؤمن، وأنتم اقترحتم انشقاق القمر فانشقَّ ولم استأصلكم لذلك، وتفضُّلا عليكم، ونجَّيتكم بعدما بحثتم بالظلف عن الحتف.

و«أَهْلَكْنَاهَا» نعت «قَرْيَة»، و«مِن» صلة في الفاعل، على حذف مضاف كما رأيت، وإن قلنا: المراد بالقَرية أهلها وضعا لغويًّا أو تسمية للحالِّ باسم المحلِّ فلا حذف، لكن يعارضه «أَهْلَكْنَاهَا» إذ لم يقل: أهلكناهم، فيحتاج إلى ردِّ الضمير إلى القرية لا على معناها، بل على معنى الأهل بطريق الاستخدام، وهو

١- محمَّد بن علي الصبان: عالم بِالعَرَبِــيَّةِ والأدب، مصري مولده ووفاته بالقاهرة، من مؤلَّفاته: حاشية على شرح الأشموني على الألفية وغيرها، توفي سنة ١٢٠٦هـ. الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٢٩٧.

خلاف الأصل مع ما فيه هنا من الاضطراب، وما تقدَّم أولى، ويليه أنَّ إهلاك القرية كناية عن إهلاك أهلها.

﴿أَفَهُمْ يُومِنُونَ﴾ أهم شاكرون نعمة النجاة من الاستـئصال فهم يؤمنون؟ أو أمن قبلهم لم يؤمنوا فهم يؤمنون؟ لو أعطوا ما اقترحوا لم يؤمنوا، كما لم يؤمن قبلهم من اقترحوا، أو الهمزة مما بعد الفاء، فيكون العطف على ﴿مَآ ءَامَنَتْ﴾. والاستفهام على كلِّ حال إنكار.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠ ﴾

بشريَّة الرسل وإنجاز الوعد لهم

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحَىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ردٌّ على قولهم: لا يكون النبيء بشرا، فهو متعلِّق بقوله: ﴿هَلْ هَذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُم﴾ وأخِّر عن جواب قولهم: «فَلْيَاتِنَا» مسارعة إلى ردِّ قولهم هذا الذي قالوه، تعجيزا له ﷺ ، ولأنَّ الكلام على الإرسال يستدعي بسطا متَّصلا يناسب بعضه بعضا. والمضارع للحال الماضية، كأنَّها استحضرت لتشاهد. والجملة نعت «رِجَالاً» جيء به مدحا لهم بأنَّ الإرسال نعمة لرجال خصُّوا بها وفضيلة لا للملائكة.

﴿فَسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب: التوراة والزبور والإنجيل لتزول شُبهتكم، فتوقنوا أنَّ الأنبياء والرسل بشر لا ملائكة، وإخبار الجمِّ الغفير يفيد العلم في مثل هذا، ولا سيما أنَّهم أعداء محمَّد ﷺ ، وأصدقاؤكم في عداوته، فلا يبقى لكم إلاَّ تصديقهم في أنَّ الأنبياء والرسل بشر، وليس المراد بأهل الذكر

أهل القرآن فإنَّ كُفَّار قريش أعداء للمؤمنين بالقرآن لا يسألونهم وهم قد أنكروا عليهم.

﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ شاع في مثل ذلك أن يقال: الجواب محذوف دلَّ عليه ما تقدَّم، وليس كذلك فإنَّه لا حذف، بل لا جواب فيه فإنَّه استغنى عليه بما تقدَّم، وإنَّه يقال محذوف لو أريد: فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون أهل الذكر، وليس تقديره بمراد فليس محذوفا، وإذا قلت: يقوم زيد إن قمت، لم ترد يقوم زيد إن قمت يقوم زيد أو يقم زيد، فكيف تقدِّر ما لا تريده ولا تعنيه ؟.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَاكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كالملائكة، بل جعلناهم جسدا يأكلون الطعام ويشربون الماء وغيره، والمراد بالطعام ما يشمل لبن الرضاع. أي وما صيَّرناهم ابتداء كذلك، مثل قولنا: سبحان من صغَّر البعوض وكبَّر الفيل، بمعنى خلقه صغيرا ولم يكن كبيرا ثمَّ صغِّر، وخلق الفيل كبيرا فإنَّه في حين ولد كبير ولو يزداد كبرا، أو معناه: ما خلقناهم، فـ«جَسَدًا» حال، والجملة نعت «جَسَدًا» وهو قيد.

(لغة) والجسد جسم العقلاء الإنس والملائكة والجنِّ، والجسم أعمُّ منه، وقال الخليل: الجسد للإنسان، لا يقال لغيره من خلائق الأرض ونحوه، ويقال: الجسد له لون والجسم ما لا لون له يبين كالهواء والماء، هل لهما لون لا يبين أو لا لون لهما، والهواء جسم شفاف لا يحجب ما وراءه، قال الفخر له لون، قلت: لا لون له، وقيل: الجسد جسم ذو تركيب وهو ـ قيل ـ أعمُّ من الحيوان، وقيل: يخصُّ به، وقيل: هو في الأصل مصدر جَسُدَ الدم يجسُدُ أي التصق، وأطلق على الجسم المركب لأنَّه ذو أجزاء يلتصق بعضها ببعض. ومن خصَّه بالعاقل أراد ذلك في أصل الوضع وخرج إلى العموم في

الاستعمال، وأخبر به عن الجمع لإرادة الجنس، أو لأنّه في الأصل مصدر أو لأنّ المراد جعلنا كلّ واحد أو ذوي جسد.

﴿وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ﴾ أبدا كما تخلد الملائكة ولا تموت أبدا على زعم المشركين، إلاّ أنّ الفلاسفة يقولون: الملائكة عقول مجرّدة. وتضمّنت الآية الردّ على قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ﴾(سورة الفرقان:٧).

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ وفّيناهم الوعد على تعدّي «صدق» لاثنين، أو في الوعد، عطف على المعنى الذي يقال فيه لغير الله عطف توهُّم، كأنّه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا ثمّ صدقناهم الوعد بإهلاك الأعداء الذي تضمّنه الوحي، أو عطف على «يُوحَى» بمعنى أوحينا فصلٍ بالردّ عليهم، أو على «أَرْسَلْنَا»، و«ثُمَّ» على هذا لتراخي الذّكر، والآية تضمّنت جوابا وتهديدا على مخالفته.

﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي المؤمنين لقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ و«الـ» للاستغراق ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمُ، أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (سورة غافر: ٤٣) ، أو ﴿مَن نَّشَآءُ﴾: المؤمنون وكفارٌ يُخرج الله المؤمنين منهم أو من ذرِّيّتهم، و«الـ» للجنس، ولذا لم يقل: أنجيناهم ومن آمن، أو أنجيناهم ومن معهم. و«نَشَاءُ» للحال الماضية المستحضرة.

﴿لَقَدَ انزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش أو جميع العرب ﴿كِتَابًا﴾ عظيما يخبر بصدق محمد ﷺ ، وأنّه من جملة الرسل، ولو كذّبتموه وأعرضتم عَمَّا يقول.

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ نعت «كِتَابًا» أي فيه شرفكم إذ كان بلغتكم على لسان نبيء منكم، أو فيه مكارم الأخلاق، والأفعال المتمِّمة لشرفكم إن عملتموها، أو تذكيركم بما تحتاجون إليه من الدنيا والدين، أو تذكيركم بالوعظ، ويناسبهما قوله سبحانه: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي أتتركون إهمال أنفسكم عن التفكُّر فيما فيه

من المصالح والزواجر؟ ويبعد التفسير بفيه ذكر قبائحكم ومعاملتكم النبيء ﷺ والأنبياء قبله، ومن هو على الحقّ بالتكذيب.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

الإنذار بعذاب الاستئصال والتذكير بعجائب الخلق

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا من قَرْيَــة كَانَت ظَالِمَةً﴾ هذا بعض تفصيل لإجمال قوله عَزَّلَجَلَّ: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وبيان لكيفيَّة الإهلاك، وإخبار بكثرة المهلكين، فإنَّ «كَمْ» هذه للتكثير مفعول به لــ«قَصَمْنَا» بمعنى كسرنا بتفريق الأجزاء لشدَّة الغضب، ونعت القرية بموجب ذلك وهو الظلم بالكفر بالآيات مثلكم، فهلاَّ حذرتم أن يترل بكم ما نزل بهم؟ والمراد: كان أهلها أو هي أهلها مجازا أو وضعا أو كناية.

ولا يصحُّ التفسير بقرية في اليمن، بعث إليهم رجل يسمَّى ميشا أو شعيبا، وليس شعيب موسى، فضربه عبد بعصا فقتلهم كلَّهم «بخت نصر»، أو بعدما

هزموا قومه مرَّتين فخرج بنفسه في الثالثة؛ ولا بقريتين: «حضور» و«قلابة» أهلكهما «بخت نصر» لأنَّ «كَمْ» للتكثير. ويضعف أن يجاب بأنَّ التكثير للقصم لا للقرية، أي كم قصمنا من ساكني قرية أو قريتين، كما تقول: كم أخذت من دراهم زيد، على تعليق «مِن» بالفعل لأنَّه خلاف الظاهر، بل «مِن» زائدة في التمييز، وأن يجاب بأنَّ المراد: قرية أو قريتان تخويف بها أو بهما لا اختصاصا، وأنَّ «كَمْ» للتقليل لفظا تخويفا بالوقوع في شأن هذا القليل، وإذا صحَّت الرواية في ذلك عن ابن عبَّاس مثلا فلعلَّ المراد التمثيل للآية بالقرية والقريتين.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاكها فاعتبر ما مرَّ هنا في شأن القرية، وفي قوله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا﴾ ﴿قَوْمًا ــ اخَرِينَ﴾ سكنوا القرية أو قريبا منها.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي أهل القرية المقصومة لا القوم الآخرون، إذ ليس ذنب هؤلاء لهم، أي: ولَمَّا أدركوا بحواسِّهم ﴿بَأْسَنَآ﴾ عذابنا الشديد، رأوا بأعينهم ما يُرى أو بآذانهم ما يُسمع؛ أو البأس استعارة بالكناية، والإحساس تخييل، أو الإحساس مجاز عن مطلق الإدراك ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة ﴿هُم مِّنْهَا﴾ أي من القرية، وهي للابتداء، ويضعف ردُّ الضمير إلى البأس مؤنَّثا لمعنى البأساء أو النقمة، فتكون للتعليل لأنَّ ذلك خلاف الظاهر، ولاحتياجه إلى التأويل، وهي متعلِّقة بقوله: ﴿يَرْكُضُونَ﴾ داوبَّهم، أي يسوقونها بالضرب إسراعا وتنجية لها ولأنفسهم عليها، أو يسرعون فإنَّه يستعمل أيضا لازما، يقال: فرس راكض، أي جار بسرعة، أو يهربون كمن يركض الدَّابـــَّة.

﴿لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْــتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ كنت في زمان صغر السنِّ أفسِّره بحال مَن شأنه أن يقال له ذلك لتمكُّنهم في

نعمهم وأحوالهم مطمئِّنين، ولاقائل تحقيقا، ويحتمل أن يقول لهم ذلك استهزاء بهم مَلاَئكَـتُهم، أو الملائكة الجاؤون بالعذاب، أو المؤمنون، أو الوافدون إليهم للسؤال، أو «بخت نصر»، أو بعض قومه على أنَّ الإهلاك بهم على ما مرَّ.

ويقال: هم عرب «حضور» وهي قرية باليمن قتلوا نبيئا مبعوثا إليهم فأخذهم سيوف «بخت نصر»، وملك ينادي من جهة السماء يا لثارات الأنبياء، وسمعوا وفرُّوا حين لا ينفعهم. و﴿أُتْرِفْـتُمْ﴾: نعمتم فيه من النعم، و«في» للظرفيَّة؛ أو صيَّرتم بطرين كافرين للنعم، و«في» للسببـيَّة.

والمراد بالسؤال السؤال في المهمَّات والنوازل كحالهم من قبل، أو عَمَّا جرى عليهم في أموالهم ومنازلهم التي يفتخرون بها، فيخبرون السائل عن معاينة، أو سؤال عبـيدهم وأولادهم وخدمهم عَمَّا يفعلون أو يتركون، أو الطلب من الفقراء أو غيرهم منهم عطاء وكانوا أسخياء رئاء أو بخلاء فقيل لهم ذلك، تهكُّما بالشح إلى تهكُّم بـ﴿لاَ تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْـتُمْ فِيهِ﴾.

أو المعنى: ارجعوا إلى مساكنكم في النار تهكُّما والرجوع بمعنى مطلق الذهاب، والسؤال عن العذاب لتكذيبهم لأنَّه ملزوم للعذاب وسبب.

﴿قَالُواْ﴾ إذ لم ينفعهم الهرب ﴿يَاوَيْلَنَآ﴾ هلاكنا، نادوه تفجُّعا لا قصدا لإقباله، أو أرادوا: اذهب عَنـَّا يا هلاكنا، أو «يَا» تنبُّه وتيقظ لا نداء، و«وَيْلَنَا»: مفعول مطلق، أي هلكنا هلاكا، فحذف «هلك» وأضيف «هلاك» إلى «نَا» وهو «ويل».

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالمِينَ﴾ لأنفسنا بالتكذيب، وذلك ندم حين لا ينفع، أو لَمَّا أخذهم سيوف «بخت نصر» ونادى مناد من السماء: يا لثارات الأنبياء، قالوا ذلك.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ الكلمة التي هي ﴿يَاوَيْلَنَآ إِنَّا كُـنَّا ظَالِمِينَ﴾ «تلْكَ» اسم «زَالَ»، و﴿دَعْوَاٰيهُمْ﴾ خبره ولا دليل على غير ذلك، لأنَّه الأصل، وأي

داع إلى العكس بدعوى تأخير ما قدَّم وهو خلاف الأصل، وأيُّ داع إلى دعوى الإجمال بل يقال ذلك إلْبَاسٌ.

(نحو) والإلباس ممنوع، وسواء في ذلك الفاعل والمفعول والمبتدأ وخبره والمفعول الأوَّل والثاني، والثاني والثالث فيما يتعدَّى لثلاث، واسم كان وخبرها إذا لم يظهر الإعراب أو يظهر ولا يعرف في الخطِّ، ولم تسمع من اللسان، نحو: «ضربت هند دعد» غير مصروفين، إذ لو صرفا لكان المنصوب بالألف في الخطِّ.

والدعوى: الدعوة، لأنَّ الموَلْول يقول: يا ويل يا ويل!، كأنَّه يدعو الويل ليقبل، على ما مرَّ آنفا.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ نباتا محصودا أي مثله، أو استعارة للفظ حصيد لمن تقطَّعوا وماتوا، أو شبَّههم بالنبات اليابس على طريق الاستعارة بالكناية ورمز إليه بلازمه وهو الحصد ﴿خَامِدِينَ﴾ حال من الهاء استعارة من سكون النار بعد خمودها، بأن صارت رمادا، لسكونهم بالإهلاك واشتقَّ منه «خَامِدِينَ» على التبعيَّة.

(صرف) ولا يجعل «فعيل» مصدرا إذا صحَّ أن يكون بمعنى «مفعول» بلا ضعف، ولا يجعل بمعنى الجمع من أنَّه «فعيل» بمعنى «مفعول» لأنَّ ذلك في معنى «فاعل»، كقوله: ﴿وَالْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (سورة التحريم: ٤) في أحد الأوجه، وهو الوارد دون استعمال «فعيل» بمعنى «مفعول» جمعا، فإنَّه لم يرد، ولو استويا في الموازنة للمصدر كصهيل ودبيب. أو «خَامِدِينَ» مفعول ثان بعد مفعول ثان، كما تقول: خبر بعد خبر.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالاَرْضَ﴾ العجيبتين ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف الخلق وبدائعهم ﴿لاَعِبِينَ﴾ خارجين عن الحكمة، أو لاعبين لعب الملوك بأملاكهم، بل داعين بهما إلى الاستدلال على وجودنا، وكمال قدرتنا، وحقِّية

ما جاءت به الرسل، وعقاب من كذّب وإثابة من امتثل، ومنكر الرسل جاعل لخلق السماء والأرض لعبا وعبثا.

﴿لَوَ اَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ من لَّدُنَّآ﴾ أي لاتَّخذنا لهوا إلهيًّا، وهو حكمة، اتخذتموها لهوا ونسبتموه إلينا، أو اتخذتموها لهوا من جهتكم، وهي على كلِّ حال عين الحكمة لا مسيس لها باللعب لو اعتبرنا وقوعه لنفته الحكمة.

(أصول الدين) ولا يقال: لو أردناه لامتنع، لأنَّ إرادة الله لا تتخلَّف إلاَّ إن أريد بإرادته اعتباره، والله لا يريد اللعب لأنَّ الحكمة صارفة عنه، ولا يقال: إنـَّا قادرون على اللعب لو أردناه، لأنَّ الله لا يوصف بالقدرة على ما لا يجوز في صفته، لأنَّ القدرة عليه وصف له بإمكانه في حقِّه، وإمكانه مستحيل في حقِّه، ولا فرق في أصل الكفرين القول بالوقوع والقول بإمكان الوقوع، ولا تقل أيضا: عاجز عنه لتتريهه عن العجز.

﴿إن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي ما كُنـَّا فاعلين، لأنه تكون «إنْ» نافية ولو لم تكن بعدها «إلاَّ» ولا لام الفرق، ولو قلَّ ذلك، وهذا تقرير وتذييل للامتناع بـ«لو»، أي ما فعلنا اتِّخاذه لأنَّه راجع للحكمة مثل خلق السماوات، أو ما كُنـَّا فاعلين اللهو الذي يقتضيه حالكم.

وإن جعلت شرطيَّة لزم الشكُّ منـَّا في أنَّه فعل الحكمة، وهي واقعة قطعا فما الشكُّ؟ الجواب: إنَّ ذلك تقرير لما قبله هكذا: يكون اللهو نفس الحكمة إن كان وقد كان، ومنه خلق السماء والأرض.

أو المعنى: لو أردنا أن نتَّخذ لكم لهوا تلهون به لجعلناه أمرا عجيبا غير السماء والأرض، وقرَّر ذلك بالشرط الآخر وهو ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وقيل: لاتَّخذناه عندنا من المجرَّدات عن الأجسام.

ومذهبنا ومذهب أكثر الأَشعَرِيَّة نفي المجرَّدات. أو ولو أردنا اللهو لاتَّخذناه من لدنَّا لا كما تشاهدون، لأنَّه عيب يستر، فهذا نفي لاتِّخاذه.

أو اللهو: الولد بلغة حضرموت، أو الزوج بلغة اليمن، أو يقدَّر مضاف، أي أهل لهو، وهو ما يرتاح إليه من زوج أو ولد، و﴿مِن لَّدُنَّا﴾ مما نشاء، أو من الحور، وما تقدَّم أولى، لأنَّ المحلَّ ليس لذكر الزوج أو الولد بل محلُّه حيث قال: ﴿لَوَ اَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَّتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (سورة الزمر: ٤) وقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ، صَاحِبَةٌ﴾ (سورة الأنعام: ١٠١) ونحو الآيتين.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ إضراب عن إرادة الاتِّخاذ، أو عن الاتِّخاذ، والمعنى: لكنَّا لا إرادة لنا لاتِّخاذ اللهو، أو لا اتِّخاذ له، بل من شأننا أن نضرب بالحقِّ على الباطل، بمعنى أن نغلِّبه عليه، ولذلك جاءت «عَلَى».

والمراد: عموم الحقِّ والباطل الذي من جملته اللهو، لا خصوص القرآن بالحقِّ، والشيطان بالباطل، والحجَّة بالحقِّ، وشُبَهِهم والولد والزوج بالباطل، أو الحقُّ الإيمان والباطل الكفر، أو الحقُّ نفي الولد والباطل إثباته.

(بلاغة) واستعير القذف وأصله الرمي البعيد مع صلابة للإيراد، أي بل نورد الحقَّ على الباطل العقليَّان والحسِّيَّان، أو ذلك استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه غلبة الحقِّ على الباطل وإذهابه إيَّاهُ برمي جرم صلب كحجر أو حديد على رأس دماغ رخو فيشقّه، فالحقُّ عال باق، والباطل سافل فانٍ.

﴿فَيَدْمَغُهُ،﴾ يمحقه بالكلِّيَّة كتلك القرى المهلَكة، والدمغ: كسر الشيء الرخو الأجوف، واستعير للمحق، أو شبَّه الباطل بالرخو الأجوف، ورمز إليه بلازمه وهو الدمغ.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذاهب، أسرع إليه الذهاب حتَّى كأنَّه لم يكن من أوَّل الأمر ﴿وَلَكُمُ﴾ معشر كُفَّار قريش، أو معشر كُفَّار العرب ﴿الْوَيْلُ﴾ العقاب في الآخرة،

كما لهؤلاء الكفرة قبلكم ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ «مِن» للتعليل أو الابتداء متعلّقة بـ«لَكُمْ» لنيابته عن نحو: ثابت أو ثبت أو بثابت أو ثبت؛ أو حال من المستتر في «لَكُمْ» و«مَا» مَصدَرِيَّة، أو نكرة موصوفة، أي من ولد تصفون الله به، أو من شيء تصفون الله به، من نحو الولد، أو اسم موصول أي من الولد الذي تصفون الله به، على جواز حذف الرابط المجرور بلا شرط، لظهور المعنى، وإن قدّر تصفونه فيهما بردِّ الهاء لـ«مَا» وهو الولد أو نحوه، أي تـثـبتونه لله حاشاه، أو من الوصف الذي تصفونه بردِّ الهاء للوصف فقد حُذف منصوبا لا مجرورا.

﴿وَلَهُ،﴾ لا لغيره ﴿مَن﴾ للعقلاء وغيرهم تغليبا لهم ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ تقرير لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ والاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ إلاَّ أنَّه جمع السماء هنا إظهارا لمزيد العظمة، أي له كلٌّ ما في واحدة، وهناك أراد مجرَّد هذا السقف الذي يشاهدونه، والفراش الممهد، وما بينهما على حِكَمٍ لا تحصى.

أو تقرير لما قبله كلِّه، أي له خاصَّة ما فيهنَّ خلقا وملكا وتدبيرا وتصرُّفا وإحياء وإماتة وإثابة وعقابا. ويضعف عوده إلى «لَكُمُ الْوَيْلُ» بمعنى: لكم ما ليس لله من الشرور، ولله ما ليس لكم من الخيور، أو إلى «تَصِفُونَ» على أنَّ الواو للحال: تصفونه بالولد مع أنَّ ما في السماوات والأرض ملك له.

﴿وَمَنْ عِندَهُ،﴾ العندية عندية الشرف والتنزيل منزلة المقرَّبين عند الملوك، فـ«عِندَ»: استعارة لقرب المكانة مفردة لا تمثيليَّة، لأنَّ التمثيليَّة لا تقع في المفرد.

و«مَن» مبتدأ خبره قوله: ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه﴾ ويجوز عطف «مَن» على «مَنْ» وجملة «لاَ يَسْتَكْبِرُونَ» حال من المستتر في «عِندَ»، أو في «لَهُ» فيكون عطف خاصٍّ على عامٍّ لمزيَّته، وهو الملائكة المعبَّر عنهم بـ«مَنْ» الثانية كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ (سورة القدر: ٤) أو نوع من الملائكة، أو ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ والاَرْضِ﴾: الملائكة و﴿مَنْ عِندَهُ﴾: نوع

منهم كالحافّين حول العرش، **والعموم في ذلك كلّه أولى كما فسَّرت الآية أوّلا**، ومعنى ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾: لا يتعظّمون عنها ويعدُّون أنفسهم كبراء عنها.

﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يكلّون عن العبادة ويفترون عنها لتعب، إذ لا يصيبهم تعب، والاستفعال هنا بمعنى الفعل، كأنّه قيل: لا يحسرون، أو للمبالغة على الأصل بمعنى: انتفى الحسور انتفاء بليغا، كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت: ٤٦) أي انتفى الظلم عنه انتفاء بليغا.

﴿يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ عبارة عن المداومة، لأنّه ليس الليل والنهار في كلّ موضع فيه الملائكة، أو المراد الليل والنهار عندنا مثلا، بمعنى: يسبِّحون في كلّ وقت، الوقت الذي هو ليلكم والوقت الذي هو نهاركم، والتسبيح تتريه الله عن صفات الخلق والنقص، وتعظيمه بصفات الجلال.

﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾ عن التسبيح بفراغ أو شغل، ولو في حال تلقّي الوحي وتبليغه، ولعن الكفار وسائر الأشغال، قوّاهم الله على ذلك، كما مرَّ عن عزرائيل حين ساير إدريس، وحين عرف أنّه ملك الموت قال له: أراك اشتغلت بالذكر معي والمقام عمَّن يموت، فقال: لا.

ويقال أيضا: التسبيح منهم كالتنفّس لا يمنع كلاما ولا فعلا، ويقال: التبليغ واللعن تسبيح لهم، ويقال: لهم ألسنة يسبِّحون ببعض ويلعنون ببعض ويبلّغون ببعض، ويقال: الذين لا يفترون نوع منهم لا كلّهم، وإنّهم المراد بمن عنده، ويقال: **المراد المبالغة على عدم الفتور البتّة**، ويقال: هذا التسبيح ذكر قلبيٌّ لا يمنعه التبليغ أو غيره.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

إثبات وحدانية الله وتوبيخ المشركين

﴿أَمِ اتَّخَذُواْ﴾ مع الله ﴿ءَالِهَةً﴾ «أم» للإضراب الانتقالي، أو مع الاستفهام الإنكاري نفي للياقة الاتّخاذ شرعا ﴿مِنَ الاَرْضِ﴾ متعلّق بـــ«اتَّخَذُوا»، و«مِنْ» للابتداء، أو للتبعيض، أو نعت لـــ«ءَالِهَةً» وذلك تحقير للآلهة من حجر الأرض، أو معادنها أو شجرها، وقوله:

﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ نعت لـــ«ءَالِهَةً» أي آلهة باعثة للموتى محيية لهم الآن، أو يوم القيامة. لم يقولوا: تبعثهم، لكن كلّ من عبادتها وتسميتها آلهة وتعظيمها جدًّا يقتضي أنّها تبعثهم كما هو شأن من هو إله، وهذا النشر هو محطّ الإنكار.

ولا يبعد أن يريدوا إنكار الواقع بمعنى: إن لم يتّخذوا آلهة باعثة بل غير باعثة عندهم أيضا، أو يراد أنّها الناشرة وحدها استقلالا لا الله، ويجوز ـــ على بُعد ـــ أن يراد: أهم ينشرون؟ على تقدير الاستفهام، فيقال: لا، فيقال: تتّخذ آلهة وهي جماد عاجزة، وقال قطرب: ﴿يُنشِرُونَ﴾: بمعنى يخلقون.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ في الفريقين السماوات والأرض.

(نحو) ﴿ءَالِهَةٌ الاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ «إلاَّ» ومدخولها بمنزلة اسم نُعت به «آلِهَةٌ» ووقع الإعراب على اللفظ الذي هو اسم ولو جيء بلفظ «غير» لرُفع

وجرَّ ما بعده، وقيل: إنَّ الاسم نعت لـ«آلِهَةٌ» جعل إعرابه في الاسم بعده لأنَّها بصورة الحرف، كما جعل إعراب «الـ» الموصولة في الاسم بعدها، وفيه أنَّ كون «إلاَّ» اسما يقتضي جرَّ ما بعدها لأنَّها بمعنى غير، وكونها والاسم بعدها اسما واحدا لم يتمحَّض المعنى إذا لم يتغلَّب فيه معنى إلاَّ، ولا معنى لفظ الجلالة، كآكل موز بعسل لم يتحصَّل على طعم موز ولا عسل، فيجاب بأنَّ معنى إلاَّ النفي، كأنَّه قيل: لو كان فيهما آلهة وحدها لا الله وحده لفسدتا، وذلك لأنَّهم يدعونها آلهة مستقلَّة.

ومعنى كونها فيهما الكون بالتصرُّف والتدبير لا مجرَّد الوجود فيهما، والمراد فسادهما بالتهدُّم والسقوط وعدم بقائهما حيث هما لأنَّهما في محلِّهما بلا علاقة ولا عماد، وفساد ما فيهما كذلك بتقطُّع أجزائه وبالاختلاف.

(أصول الدين) لو كان إلهان لزم فعلهما فعلا واحدا والفعل لا يصدر من اثنين وإن اختلفا فعلا وتركا فالفاعل هو الإله، وإن عجزا فلا واحد منهما إله، وإن اصطلحا فعجزٌ فلا إله منهما، والإله قادر على كلِّ شيء، فإن أراد تحريك زيد فحرَّكاه معا لزم وقوع فعل من اثنين، وإن أراده أحدهما والآخر تسكينه فالواقع ما أراد هو الفاعل، ولا يتصور وقوع التحريك والتسكين معا، لأنَّه تناقض وتضادٌّ، ثمَّ استواؤهما في القدرة يوجب أنَّ أُلُوهيَّة أحدهما دون الآخر تحكّم.

﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزهوا الله عما لا يليق به أكمل تنزيه من وجود إله غيره، أو تعجَّبوا أَيـُّهَا العقلاء ممن يعبد الأشياء التي هي خسيسة عاجزة لا تضرُّ ولا تنفع، مع وجود المالك القادر النافع الضارِّ.

(بلاغة) وأعاد لفظ الجلالة لإدخال المهابة والروع والإشعار بأنَّ الأُلُوهيَّة مناط لجميع صفات الكمال النافية للشركة، وأكَّد ذلك بوصف الرُّبُوبِيَّة، والإضافة للعرش.

وكأنّه قيل: إذا كان الله ناهيا عن الشركة لاستقلاله بالتصرُّف والتدبير فلم خلق من يعصيه باتِّخاذ إله غيره؟ وإذ خلقه فلم لم يصرفه عن العصيان؟ فأجاب بقوله: ﴿**لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ سؤال اعتراض لأنّه الحكيم التام الحكمة لا يقدر أحد على إدراك تفاصيلها، ومن أبى إلاّ الاعتراض عنادا فليخلق مثل ما خلق ﴿**وَهُمْ**﴾ أي العباد المكلَّفون ﴿**يُسْئَلُونَ**﴾ عَمَّا يفعلون، ويعترض عليهم بما فعلوه باختيارهم مما يثاب عليه أو يعاقب، لأنّه ولو كان بخلقه منهم لأنّ لهم اختيارا ولو كان هذا الاختيار أيضا خلقا منه، وهو مما لا يسئل عنه أيضا، مع أنّ الفاعل يجد من نفسه قدرة على الفعل والترك.

(أصول الدين) وذلك كلُّه بعلمه وإرادته، ولا أوَّل لهما وهما من صفاته، وصفاته هو، وليس كما قيل: إنّ الخلق مسبوق بالإرادة والإرادة مسبوقة بالعلم، إلاّ إن أريد بالإرادة المسبوقة مقاربة الفعل[1] وأسبابه من الله عز وجل .

قال ﷺ : «**من وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاّ نفسه**»[2]. والسؤال في الموضعين على العموم، قال الزجَّاج: هما يوم القيامة لظهور الوعيد فيه وهو مناسب، والعموم أولى إذ لا دليل على التقييد.

(أصول الدين) وأفعال الله لا تعلَّل بالأغراض وإلاّ كان الله محتاجا إلى ذلك الغرض مستكملا به، وما يوهم العلل فبالنظر إلى الخلق أو العاقبة، والله المستعان، وزعمت المعتزلة والمَاتُريدِية والحنابلة أنّها تعلَّل بها.

١- كذا في النسخ ولعلّ الصواب: مقارنة الفعل، بالنون بدل الباء.

٢-هذا جزء من حديث قدسيٍّ رواه **مسلم** في كتاب البر والصلة والآداب (١٥) باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧. من حديث أبي ذر. وَأَوَّلُه قوله: «يا عبادي إِنـِّي حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّما فلا تظالموا...».

﴿أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ إضراب انتقال من ذكر اتِّخاذهم آلهة مع الله إلى ذكر اتِّخاذهم آلهة مع إنكار الله، وهو لفريق من المشركين، أو بيان لكون اتِّخاذهم آلهة مع الإقرار بالله سبحانه مثل اتِّخاذها مع إنكار الله، أو ما مرَّ في اتِّخاذ آلهة من الأرض، وما هنا في اتِّخاذها مطلقا حتَّى تشمل النجوم والملائكة لمن يعبدها، أو ما مرَّ في آلهة تبعث الموتى وما هنا في آلهة تعبد.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد تبكيتا لهم ﴿هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ﴾ ما تعدُّونه برهانا أو إيتوا ببرهان صحيح عقليٍّ أو نقليٍّ، فلا يصحُّ القول بلا دليل، أو هاتوا برهانكم الصحيح، وهذا تهكُّم عليهم بأنَّ لهم برهانا ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِي وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ أي هذا برهان من معي من المسلمين، على أنَّ الله سبحانه واحد، وبرهان الأنبياء قبلي ومن آمن من أممهم على الوَحدَانيَّة، آتوا ببرهانكم على الشركة كما أتيت ببرهاننا على التوحيد.

وذلك تحضيض لهم على الإتيان ببرهان إن كان حَتَّى يظهر عجزهم، وأعاد الذكر مع أنَّه واحد لتأكيد الإزعاج، ولأنَّ وحي كلِّ نبيء غير وحي الآخر، ولو اتَّحَدَ المعنى، أو الذكر الأوَّل: القرآن والثاني: التوراة والإنجيل والزبور والصحف، فانظروا هل تجدون فيها شركة، وأفرد لأنَّه في الأصل مصدر ولاتِّحادها مأصدقا.

﴿بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ لا يعرفون، فتعدَّى لواحد، أو يقدَّر لا يعلمونه الحقِّ، أو لا يعلمون العلم الحقَّ، على أنَّه مفعول مطلق. أي كلُّهم، أو على ظاهره على أنَّ بعضهم القليل يميِّز الحقَّ ولكن يجحده، وذلك إضراب انتقال من تبكيتهم إلى بيان أنَّ الاحتجاج عليهم لا ينفع لعدم تمييزهم بين الحقِّ والباطل.

﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتِّباع الرسل مصرُّون على ما هم عليه، أو عَمَّا ألقي إليهم من البراهين العَقليَّة وَالنَّقليَّة، لا يتفكرون،

[معرضين] إعراضا مستمرًّا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ الاَّ يُوحَىٰٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ، لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَاْ فَاعْـبُدُونِ﴾ تقرير لِمَا تَقَدَّمَ من التوحيد، وإن أريد بذكر «مَنْ قَبْلِي» التوراة والإنجيل والزبور فهذا تعميم بعد تخصيص.

(نحو) والإفراد في «إِلَيْه» مراعاة للفظ «رَسُول»، وواو «اعْـبُدُون» مراعاة لمعناه لعمومه إذ كان نكرة في سياق النفي، ولا سيما أنَّها أكِّدت بـ«مِن» على أنَّ «فَاعْـبُدُونِ» من جملة ما أوحي من قبل، ويجوز أن يكون خارجا عن ذلك خطابا للنبيء ﷺ وأمَّته، وعلى الأوَّل يكون الموحى مفردا معنويًّا ولفظا، أي إلاَّ انفرادي بالألوهيَّة، ولفظ «فَاعْـبُدُون» وذلك لفتح همزة «أَنَّـهُ» فـ«أَنْ» مصدريَّة، أو يقدَّر: قائلا فاعبدون، أو مقولا للرسل: فاعبدون.

وعلى كلِّ حال يقال لكلِّ رسول وأمَّته «اعْـبُدُون». و«يُوحَى» لحكاية الحال الماضية كأنَّها حاضرة، ومعنى حكاية الله كذا: ذِكْرُه له. وفي الأثر: منع أن يقال: حكى الله عن فلان أو عن قوم أو نحو ذلك، كأنَّه يوهم أنَّ الله لا يعلمه إلاَّ من جهتهم.

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

الملائكة عباد مكرمون، وتعالى الله عما يقوله المشركون

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ الواو للمشركين إجمالا، والمراد: طائفة أو طوائف منهم، وهم حيٌّ من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله، سبحانه، وقيل: قال بذلك خزاعة وبنو المليح، وبنو سلامة وجهينة وقريش. وروي عن قتادة أنَّ اليهود قالوا: صاهر الله الجنَّ فكانت الملائكة أولاده منهم. وشملت الآية أيضا قول النصارى: المسيح ابن الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، والآية **نزلت ردًّا عليهم جميعا.**

﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزَّه الله تعالى نفسه عن ذلك، أو نزِّهوه تنزيهه اللائق به، وقيل: هو علم للتسبيح الذي هو قول من الله مقول على ألسنة العباد، والأصل على هذا إخبار من الله، أي سبَّح الله نفسه تسبيحا، ثمَّ كان الحذف والتأخير والنيابة إلى سبحان الله، ونذكره على الإنشاء.

ويدلُّ على أنَّ المراد بالولد الملائكة قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي بل هم عباد له بخلقه إيـَّـاهُم مكرمون، والولد لا يكون عبدا لوالده، وعلى أنَّ المراد بالولد عموم ما مرَّ خصَّ منهم بالذكر هنا الملائكة ليصفهم بأنَّهم مكرمون، أي مقرَّبون عنده، وبأنَّهم لا يسبقونه بالقول، وبإنَّهم لا يعملون إلاَّ بأمره، ويصفهم بالخشية والإشفاق كما قال:

﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ...﴾الخ لا يقولون شيئا حتَّى يقوله أو يأمرهم به، وذلك شأن أدباء العبيد، والأصل لا يسبقون قوله بقولهم، أو بالقول المعلوم لهم، فـ«الـ» نائبة عن الضمير، أو للعهد، أعني ظهور أن القول لهم، وحذف المضاف وهو قول واتَّصل الهاء بـ«يَسْبِقُونَ» ليكون اللفظ نفيا لسبقهم وجود الله استهجانا لقول من يقول ما لا يجوز في وصفه تعالى، حتَّى كأنَّه قول بالتقدُّم لهم على وجود الله عَزَّوَجَلَّ ، وأوضح بعد ذلك أنَّ التقدُّم بالقول في الآية، وإن شئت فقل: الأصل: لا يسبق قولهم قوله، ثمَّ عاد الكلام إلى لفظ الآية تشنيعا

بلزوم أنَّهم بمنزلة من ادَّعى سبْقَ وجودٍ وجودَهُ تعالى.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِ﴾ لا بغير أمره، وغير أمره شامل لأمرهم وأمر غيرهم من الخلق، قدِّم على قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ للحصر والفاصلة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا يخفى عنه شيء من أحوالهم، فهم لعلمهم بذلك يراقبونه غاية مراقبة، فلا يقولون إلاَّ بقوله، ولا يفعلون إلاَّ بأمره.

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أي ارتضاه الله عَزَّ وَجَلَّ أن يشفعوا له، وهو من يقول: «لا إله إلاَّ الله» وأتبعه بالعمل الصالح ومات على غير كبيرة، وشفاعتهم الاستغفار في الدنيا ويوم القيامة، وكما لا يشفعون إلاَّ له [أي لمن ارتضاه الله] لا يشفع الأنبياء والأولياء إلاَّ له، لأنَّ الأمر في ذلك على حدٍّ سواء.

(فوائد الصلاة على رسول الله) [قلت:] ومن أسباب الارتضاء الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، قال ابن فرحون القرطبي[1]: في الصلاة عليه عشر كرامات: صلاة الملك الجَـبَّار، وشفاعة النبيء المختار، والاقتداء بالملائكة الأبرار، ومخالفة المنافقين وَالكُفَّار، ومحو الأوزار، وقضاء الأوطار، وتنوير الظواهر والأسرار، والنجاة من دار البوار، ودخول دار القرار، وسلام الرحيم الغفَّار.

وفي بعض الكتب: الصلاة عليه ﷺ تفيد اثنتين وأربعين فائدة: امتثال أمر الله تعالى، وموافقته تعالى في الصلاة عليه، وموافقة الملائكة فيها، وعشر صلوات من الله تعالى، ورفع عشر درجات، وعشر حسنات، ومحو عشر سيِّئات، وإجابة الدعاء، وشفاعته ﷺ، وغفران الذنوب، وستر العيوب، وكفاية ما أهمَّ

١– هو علي بن محمَّد بن فرحون القيسي، عالم بالحساب من أهل قرطبة، أقام زمنا بفاس ثُمَّ جاور بِمَكَّةَ إلى أن توفي سنة ٦٠١هـ، له كتاب لب اللباب في مسائل الحساب. الأعلام للزركلي، ج٤، ص٣٣٠.

والقرب منه ﷺ ، وقيامها مقام الصدقة، وقضاء الحوائج، وطهارة المصلِّي، والتبشير بالجنَّة قبل الموت، والنجاة من هول القيامة، وردُّه ﷺ إليه السلام، وتذكير ما نسي، وتطييب المجلس، والنجاة من حسرة القيامة، ونفي الفقر، ونفي البخل إذا صلَّى عليه عند ذكره ﷺ ، والنجاة من رغم الأنف الذي دعا به ﷺ لمن لم يصلِّ عليه عند ذكره، وإتيانها بصاحبها إلى الجنَّة، والنجاة من نـــتن المجلس أي إذا لم يذكر فيه، وإتمام الكلام المبدوء باسم الله تعالى، والجواز بسرعة إلى الجنَّة، والنجاة من أن يكون جافيا له ﷺ ، وإلقاء الله تعالى عليه الثناء الحسن بين السماء والأرض، وسبب الرحمة، وسبب البركة، ودوام محبَّته ﷺ ، وازديادها في قلبه، ومحبَّته ﷺ له، وسبب لعرضه وذكره عنده ﷺ ، وتـــثبيت القدم، وأداء قليل من حقِّه ﷺ ، وشكر نعمة الله تعالى عليه به ﷺ ، وشكر الله تعالي [إيـــَّاه]، ومعرفة إحسانه، ودعاء له ﷺ ، ودعاء لنفسه، وانطباع صورته ﷺ في صدره، وقيام الإكثار منها مقام الشيخ[١]. قال ﷺ : «**أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة عليَّ**»[٢].

﴿**وَهُم**﴾ مع تلك المراقبة منهم لحقِّ الله ﷻ ﴿**مِّنْ خَشْيَتِه**﴾ من خوفه الشديد أو بسبب خوف عذابه ﷺ ، متعلِّق بقوله: ﴿**مُشْفِقُونَ**﴾ قدِّم للحصر والفاصلة، أي كائنون على حذر من أن يقربوا زلَّة أو من أن يكون في خشيتهم قصور.

والخشية خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك وصف بها العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَآءُ﴾ (سورة فاطر: ٢٨) والإشفاق: خوف

١- كذا في النسخ، ولَعَلَّ الصواب: مقام التسبـــيح.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب الصلاة (٣٥٢) باب ما جاء في فضل الصلاة على النبيء ﷺ ، رقم ٤٨٤، من حديث ابن مسعود. مع تقديم وتأخير في آخره.

مع اعتناء. ومن شدَّة خوف الملائكة أنَّ جبريل عليه السلام يتضاءل أحيانا حتَّى يصير كالوَصْع، وما روى جابر بن عبد الله عنه ﷺ : «**مررت ليلة أسري بي بجبريل عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ملقى كالحلس البالي من خشية الله تعالى**».

﴿**وَمَنْ يَّــقُلْ**﴾ على سبيل الفرض والتقدير لا قول تحقيق خارجا، إذ لا يصدر عنهم ﴿**مِنْهُم**﴾ من الملائكة، لأنَّ الكلام فيهم وفي تتريههم عمَّا قيل فيهم من الولديَّة، وقيل: الهاء للخلق كلِّهم، وقيل: المراد بــ﴿مَن يَّــقُلْ﴾: إبليس، وهو ادَّعى الأُلُوهيَّة لنفسه تحقيقا لا فرضا، وأمر بادِّعائها وإِلْهَاءً للخلق ﴿**إِنِّيَ إِلَهٌ مِّن دُونه فَذَلكَ نَجْزِيه جَهَنَّمَ**﴾ كسائر المجرمين، لا ينفعهم ما سبق من عبادتهم.

﴿**كَذَٰلكَ نَجْزِي الظَّالمينَ**﴾ الواضعين للأشياء في غير مواضعها، ويتعدَّوْن أطوارهم.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

توبيخ آخر للمشركين على عدم تدبُّر آيات الكون

الدالة على وجود الإله الواحد

﴿**أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُواْ**﴾ تجهيل لهم وتوبــيخ على عبادة ما لا يملك ضرًّا ولا نفعا، ولا يضرُّ ولا ينفع، وترك الإيمان والإخلاص لمالك كلِّ شيء من أجسام وأعراض ومنافع ومضارٍّ وخالق ذلك.

والتقدير: ألم يتفكّر الذين كفروا ولم يروا؟ ولَمَّا حذف ذلك أظهر «الذين كفروا». والرؤية: رؤية علم، والمراد أن يخبرهم الله بالرتق والفتق فيدركوهما، لا الأمر باستعمال النظر استعمالا يدركونهما به لأنّه لا يدركونهما به ولو كان ممكنا، أو أراد: ألم يعلموا من أهل الكتاب؟.

﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ثنّى لاعتبار أنّ السماوات كمفرد بمعنى فريق أو طائفة، كقوله عز وجل: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (سورة المائدة: ١٧) وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ أَن تَزُولاَ...﴾ (سورة فاطر: ٤١) ، وقول الشاعر:

إنّ المنية والحتوف كلاهما دون المخارم يرقبان سوادي[1]

وأفرد «رَتْقًا» لأنّه في الأصل مصدر بمعنى الضمّ، فيُؤَوَّل بمرتوقتين، أي بمضمومتين، أو ذاتَيْ رتقٍ، أو مبالغة كأنّهما نفس الضمّ، أو كانتا شيئا واحدا مضموما.

﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ إلى سبع سماوات، وجعلناهنَّ حيث كنَّ الآن وإلى سبع أرضين وجعلناهنَّ حيث هنَّ الآن، بين كلٍّ من ذلك وأخرى خمسمائة عام، سمَّى كلَّ ما يكون سماء أو أرضا من ذلك المجموع المضموم سماء وأرضا، على مجاز الأوْل وذلك أنّ السماوات والأرض في ألف «كَانَتَا».

(أصول الدين) والممكن قبل وجوده متميِّز في نفس الأمر لأنّه متصوَّر، ولا يمكن تصوُّر الشيء إلاّ بتمييزه عن غيره وإلاّ لم يكن بتصوُّره أولى من غيره، ولأنّ بعض المعدومات قد يكون مرادا دون بعض، ولولا التمييز

١- البيت للأسود بن يعفر النهشلي من شعراء الجَاهِليَّة، وورد أيضا بلفظ: «يوفى المخارم يرقبان سوادي». شواهد المغني، ص١٨٨.

بينهما لما عقل لأنَّ القصد لإيجاد غير المتعيِّن ممتنع، لأنَّ ما ليس متعيِّنا لا يتميَّز القصد إليه عن القصد إلى غيره.

وعن الحسن: خلق الله الأرض كالفهر في موضع بيت المقدس عليها دخان ملتصق به، فصيَّره سماوات، والفهر أرضين، والفتق بقدرته تعالى. وعن كعب الأحبار: بريح توسطها. أو خلقهنَّ كألواح متطابقة، وسمَّى تماسَّهما رتقا. وروي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنَّ السموات والأرضين في محالِّهنَّ من حين خلقهنَّ الله، وأنَّ الرتق هو عدم نزول الماء ونبت الأرض، والفتق: إنزال الماء وإنبات الأرض، بعد أن خلق الله للأرض من يسكنها، وللسماوات مدخل في نزول الماء بقدرة الله عز وجل، وشهر أنَّ الماء من السماء الدنيا، وشهر أنَّه من السحاب.

﴿**وَجَعَلْنَا**﴾ خلقنا أو صيَّرنا ﴿**مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ عطف على «فَـتَـقْنَا» لا على «أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ...» لأنَّ «يرى» لا يتسلَّط على «جَعَلْنَا» بلا حرف مصدر، ولا معلَّق كالاستفهام.

والمعنى: خلقنا كلَّ حيوان من الماء كقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّـةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ (سورة النور: ٤٥) . و«مِن» للابتداء، ولو قدَّرنا: ثابتا من الماء. ومعنى كونه من الماء أنَّ الإنسان من طين والطين ماء وتراب، وهو والدوابُّ من نبات وثمار متولِّدة من الماء، والماء أعظم ما يحتاج إليه أيضا، وخصَّت الملائكة والجنُّ فليست من الماء.

ويجوز أن يكون المعنى: لا ينفكُّ عن الماء فتدخل الجنُّ لأنَّها تأكل وتشرب، ويجوز أن تكون من التجريد مبالغة في شدَّة الاحتياج إلى الماء كقولك: رأيت من زيد البحر والأسد. فالمعنى: جرَّد من الماء الحيَّ أو الماء النطفة، فلا تدخل الملائكة أيضا، ولا ما يتولَّد بدونها.

﴿**اَفَلاَ يُومِنُونَ**﴾ أيعلمون ذلك فلا يؤمنون، أنكر لياقة انتفاء إيمانهم مع

مشاهدهم موجبه.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت راسخة على وجه الأرض وداخلها. و«فواعل» جمع لمذكر غير عاقل، على وزن «فاعل»، كما يجمع عليه المؤنَّث مطلقا ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ تميل بتحرُّك إذ كانت على الماء.

وحذْفُ المضاف ــــ وتقديره: كراهة أن تميد ــــ أولى من تقدير لام الجرِّ ولا النافية، لأنَّ قلَّة الحذف أولى، نعم يجوز أن تقدَّر لام الجرِّ بدون «لا»، أي جعلناها لأنْ تميد، أي أعددناها لأن تميد، كقولك: أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط، والأوَّلان أولى، لاقتضائهما أنَّها لا تميد، وما يوجد من ميدها في بعض الأزمان ليس من كونها على الماء. والباء للتعدية أي أن تُميدهم بضمِّ التاء.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض وكرَّر الجعل لما فيه من كمال الامتنان، ولأنَّ المجعول هناك الرواسي، وهنا الفجاج، أو الضمير للرواسي، كما روي عن ابن عبَّاس، ويناسبه أنَّها أشدُّ احتياجا للسبل، والأوَّل أولى، لأنَّ سبل الأرض أكثر وأشدُّ احتياجا إليها من الجبال ﴿فِجَاجًا﴾ جمع فجٍّ وهو طريق بين جبلين، أو مطلق الواسع طريقا أو غيره في الجبل أو الأرض.

(نحو) ﴿سُبُلاً﴾ عطف بيان على جوازه في النكرات، أو بدل من «فِجَاجًا»، وهذا أولى من جعله مفعولا، و«فِجَاجًا» حال منه، وأنَّ أصله نعت، لأنَّ في جعله حالا مأخوذة من نعت تقديما وتأخيرا، ووقوع النعت والحال غير مشتقَّين إلاَّ بتأويل بواسع، فهو ينعت كسائر الجوامد، كما نعت في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (سورة الحج: ٢٧) . وفي البدليَّة التأكيد بنية تكرار العامل، ونزيد أنَّ المبدل منه ليس في نية السقوط. وأخِّر «فِجَاجًا» في سورة نوح للفاصلة والامتنان، وقدِّم هنا للحثِّ على التفكُّر.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة،

وقيل: إلى مصالحهم ومهمَّاهم، ويردُّه أنَّه لا ترجية في الاهتداء إليها لأنَّهم قد اهتدَوا إليها.

﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا**﴾ من البلى والتغيُّر، فألوانها الآن ألوانها من يوم خلقها الله، كما روي عن قتادة.

وقال جمهور المسلمين وجمهور الفلاسفة: إنَّها قد تغيَّرت ولا بدَّ من تغيُّرها يوم القيامة وزوالها بنصوص القرآن، وقيل: ﴿مَحْفُوظًا﴾ عن الوقوع.

وقيل: ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن استراق السمع بالرجوم لا كسقوف الدنيا يمكن السرق منها، وهذا يتمُّ إن اعترف المشركون باستراق الشياطين السمع ورجمها بما ترمى به، وقد اعترف به بعضهم فهلاَّ آمنوا لهذه القدرة ؟.

وقيل: ﴿مَحْفُوظًا﴾ عَمَّن تحتها لا تقع عليهم، ولا يصلونها إلاَّ من شاء الله، وعنه ﷺ : «**السماء سقف مرفوع وموج مكفوف، تجري كما يجري السهم، محفوظة من الشياطين**»[1] فهذا يدلُّ على الحفظ من الشياطين، لكن ليس فيه منع أنَّها حفظت عن غيرهم أيضا، وقيل: محفوظا من الشرك والمعاصي فكيف تشركون أنتم من لم يخلقها بمن خلقها ؟ [2].

﴿**وَهُمْ عَنَ ــ ايَاتِهَا**﴾ دلالاتها على وحدانيَّتـــنا وكمال قدرتنا الظاهرة ظهور الشمس، وما لم يظهر يعلم بالبحث ﴿**مُعْرِضُونَ**﴾ لا يتفكَّرون بعقولهم فيها.

١- أورده الألوسي في تفسيره، ج٦، ص٣٩. من حديث ابن عبَّاس نقلا عن ابن حبَّان في البحر، ج٦، ص٣٠٩.

٢- راجع كتاب «من الإعجاز في القرآن الكريم» للدكتور حسين أبو العينين، ففيه ما يتناسب ويساير مكتشفات هذا العهد.

﴿وَهُوَ الذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ اللذين هما آيتا الليل والنهار، والأربعة بيان لبعض تلك الآيات التي أعرضوا عنها على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة، لتأكيد الاعتناء بالفحوى، وذكر إيجاد الحيونات والرواسي والسماء والطرق بالجعل، وهذه الأربع بالخلق، لأنَّ ذلك ليس على نمط واحد فما هنا محض خلق وما هنالك جعل في الأرض وجعل من الماء والتكوين سقفا.

﴿كُلٌّ﴾ كلٌّ واحد من الشمس والقمر ﴿فِي فَلَكٍ﴾ ثابت في فلك بالإفراد على سبيل البدليَّة، ولو قدِّر ثابتان نظرا للمجموع لا للبدليَّة لصحَّ كما قال أبو حيَّان.

(نحو) لا كما قال ابن هشام: يجب إفراد الضمير ولو قدِّر ما أضيف إليه «كلّ»، فإنَّا نرى جواز [قولنا:] كلُّ رجل قائمون كما جاز قائم، وإذا قال: كلُّهم، أو قدِّر الجمع وجبت المطابقة، وما قاله ابن هشام حسن لكن لا يجب.

والمراد: في فلكين ــ بالتــثــنية ــ لكن أفرد نظرا إلى أنَّ الكلام على سبيل البدليَّة، وكذا لو قدِّر: كلُّهم فالمراد: في أفلاك، وأفرد لإرادة الجنس على أنَّ لكلِّ واحد فلكا وحده، ووجه الجمع مع أنَّ الشمس والقمر اثنان أنَّهما معظَّمان كأنَّهما جماعة، وكذا جمعا في قوله تعالى:

﴿يَسْبَحُونَ﴾ أو جمعا باعتبار طلوعهما في كلِّ ليل وكلِّ نهار، كما يقال بهذا الاعتبار شموس وأقمار، أو بتغليبهما على النجوم وباستحضار النجوم عند ذكرهما، وقد قيل: الواو للنجوم، ولو لم تذكر لدلالة ما ذكر عليها، وقيل: للشمس والقمر والليل والنهار، وفيه أنَّ الليل والنهار لا يوصفان بالسباحة إلاَّ مجازا عن السير، فلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز.

(بلاغة) أو الحمل على عموم المجاز، وهو هنا مطلق التحوُّل، وفيه أنّ السباحة مجاز ولو في القمرين، وإنَّما هي حقيقة للحيوان والإنسان في الماء، وعلى كلِّ حال اختير الجمع للفاصلة، والواو لغير العقلاء تعظيما، ولوصفهما بوصف العاقل وهو السباحة، ولو كانت تكون أيضا للحيوان مطلقا، وقيل: في الشمس والقمر والنجوم عقول، كما قال به بعض المسلمين كالفلاسفة. و«يَسْبَحُونَ» حال، و إن جعل خبرا علّق به «فِي فَلَكٍ».

(فلك) وهو جسم مستدير، وكلُّ مستدير فلك، مثل فلكة الغزل. وعن ابن عبَّاس: إنَّه السماء فهي مستديرة. وأكثر المفسِّرين على أنّ الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر. وقال الضحَّاك: ليس جسما بل مدار النجوم والقمرين، وزعم الفلاسفة أنّ الفلك السماء وأنَّه حيٌّ عالم متحرِّك بالإرادة حركة مستديرة لا يقبل السكون والذبول والخرق والالتئام.

وشهر أنّ الأفلاك تسعة: سبعة للسيارة الدراري السبعة والثامن للثوابت، والتاسع يدور بالكلِّ دورة يوم وليلة، ولعلّها أكثر أو أقل، وقد قيل: إنّ القمرين والنجوم بأيدي ملائكة تحت سماء الدنيا تجري بها الملائكة حيث شاء الله، كما نرى.

ونسبة السباحة إليها ظاهر في أنّها تتحرَّك حركة ذاتية، واختار بعض أنّها تتحرَّك حركة عارضة، أعني أنّه يتحرَّك ما هي فيه كمن هو في سفينة تتحرَّك به، والأوَّل أولى إذ لا يقال لمن في زورق أو سفينة أو صندوق أو على جذع في الماء: إنَّه يسبح، فهي تتحرَّك تحرُّك الحوت في الماء.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قيامة الساعة بغتة، والخلود ليس من شأن البشر

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ البقاء في الدنيا لمخالفته الحكمة، أو المكث الطويل، والأوَّل أولى لطول مكث الخضر وإلياس [فيما قيل]. واستدلّ بعض على موتهما بالآية، وليس كذلك، فإنّ المراد بالخلد البقاء بلا موت، وهما يموتان عند رفع القرآن والكعبة، بل لو كانا لا يموتان إلاّ عند قيام الساعة لكفى.

﴿أَفَإِيْن﴾ أطمعوا في الخلد فإن **﴿متَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾** الاستفهام توبيخ وإنكار منسحب على مجموع الشرط والجزاء، كقولك: أإن قام زيد قمت، ومحطُّه بالذات الجواب أي أهم خالدون إن متَّ؟. نزلت حين قالوا: نتربَّص به ريب المنون، وذلك في بيان عجزهم عن المعارضة الصحيحة، بأنّ الخصم إذا لم يبق له متمسَّك تمنَّى موت خصمه أو سعى في إهلاكه.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تلابسه على وجه تتألَّم به على اختلاف الناس

في شدَّته، فهو على بعض أشدُّ منه على آخر، قال ﷺ: «**إنَّ للموت سكرات**»[١]. وأمَّا ما جاء أنَّ بعض الناس ما أحسُّوا للموت أَلَمًا فشاذٌّ.

والذوق مجاز عن أصل الإدراك، وحقيقته في الطعم، والموت لا يؤكل، وبعد حصوله لا يدرك لعدم وجود الروح في البدن، فذوقه ذوق مقدِّماته من الآلام العظام، وزعم بعض أنَّ الروح تتألَّم بالموت بعد مفارقة البدن.

والموت: زوال الحياة عن الحيِّ فهو أمر عدميٌّ كزوال البصر عن من يبصر والسمع عن من يسمع، والنطق عن من ينطق والحسِّ عن من يحسُّ، فالجنين قبل نفخ الروح فيه ليس ميِّتا لعدم تقدُّم الحياة فيه، هذا مذهب الجمهور، وقيل: هو عدم الحياة عما من شأنه أن يحيى أو لم يحي.

(أصول الدين) فالجنين ميِّت على هذا لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾(سورة البقرة:٢٧) وقال أبو الحسن الأشعري: الموت أمر وجودي يضادُّ الحياة لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾(سورة الملك:٢) والخلق الإيجاد، ولأنَّه جائز، والجائز لا بدَّ له من فاعل، وأجيب بأنَّ الخلق بمعنى التقدير، أو بأنَّ ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ﴾: خلق أسبابه على تقدير مضاف، وأنَّ الفاعل يريد العدم كما يريد الحياة، فالفاعل يعدم الحياة كما يعدم البصر مثلا، وإذا كان أمرا إعداميا فهو عرض.

وتوقَّف بعض القائلين بأنَّه وجودي: أجوهر أو عرض؟ ويدلُّ لعرضيته ما روي في بعض الأحاديث أنَّه أمر خلقه الله في كفِّ ملك الموت، وعلى أنَّه جوهر ما في بعضها أنَّه خلقه الله على صورة كبش أملح لا يمر بشيء يجد ريحه

١- رواه **البخاري** في كِتَاب المغازي، باب مرض النبيء ووفاته، رقم ٤٠٩٤. وفي كِتَاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم ٦٠٢٩. عن عائشة.

إلاَّ مات.

وجلُّ عبارات العلماء إمَّا أنَّه عرض يعقب الحياة، واعترض بأنَّه غير مانع لشموله العمي بعد البصر، ونحو ذلك وأجيب ببقاء حياة العين مثلا، وإمَّا أنَّه فساد بنية الحي، وهو تعريف بالعارض.

ومثله قول بعض: إنَّه تعطُّل القوى لانطفاء الحرارة الغريزة التي هي آلتها، فإن كان ذلك لانطفاء الرطوبة الغريزة فالموت الطبعي وإلاَّ فغير الطبعي، وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ والْحَيَاةَ﴾(سورة الملك:٢) أنَّ الموت الآخرة والحياة الدنيا.

والآية تقضي بموت الإنسان والجنِّ والملائكة والحيوانات والحور والولدان والأرواح، ويعبَّر عنها بالنفوس، ثمَّ يبعثون ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ الاَّ وَجْهَهُ﴾(سورة القصص:٨٨) وزعم بعض أنَّ الأرواح لا تموت وبعض أنَّ الحور والولدان لا يموتون، وبعض أنَّ بعض الملائكة لا يموتون كالملائكة الأربعة، وأنَّ أرواح الأفلاك والقمرين والنجوم لا تموت على زعم أنَّ لها أرواحا قال أحمد بن الحسين أبو العلاء المعرِّي:

تنازع الناس حتَّى لا اتفاق لهم إلاَّ على شَجَبٍ والخُلف في شَجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمــة وقيل تشرك جسم المرء في العــطب

﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ نعاملكم معاملة المختبر، ولا يخفى عنا شيء، والخطاب للناس كلِّهم أو للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿بِالشَّرِّ﴾ ما تكرهون فيكم وفيمن يليكم مطلقا، كالشدَّة والفقر والمرض وغير ذلك هل تصبرون عليه؟ ﴿وَالْخَيْرِ﴾ ما تحبُّون فيكم وفيمن يليكم مطلقا، كالرخاء وصحَّة البدن والغنى والعقل وغير ذلك، هل تشكرونه؟ وقدِّم ما تكرهون وهو الشرُّ لأنَّه أليق بهم لكفرهم، ولو أريد بالخطاب الناس مطلقا، ولأنَّه أنسب

بالموت المذكور، قبله ولأنَّ الخير أيضا شرٌّ لميل النفس به إلى البطر.

﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاء، فهو مفعول مطلق أو مفعول من أجله، أي لإظهار جودتكم بالشكر والصبر ورداءتكم بالجزع والكفر، والأوَّل أولى لعدم احتياجه إلى تأويل بالإظهار.

وزعم بعض أنَّه يجوز أن يكون حالا بمعنى مظهرين، وهو خطأ لأنَّ اللفظ تسمية لله ﷻ بلفظ الفتنة مع التأويل بالمشتقِّ والتفسير بالإظهار، وكلٌّ من المنحة والمحنة ابتلاء هل يصبرون ويشكرون؟ والنفس تميل بالطبع إلى البطر فالقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، قال عمر: «بلينا بالضراء فصبرنا وبالسراء فلم نصبر»، قال علي: «من وسِّع عليه دنياه و لم يعلم أنَّه لعله مكر به فهو مخدوع عن عقله».

﴿وَإِلَيْنَا﴾ وحدنا ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء بما فعلتم من خير أو شرٍّ، على أنَّ الخطاب بالكاف للناس فذلك وعد ووعيد، أو للعقاب على أنَّه للكفار فهو وعيد وإنَّما خلق المكلفون للابتلاء.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أشركوا، وقوله: ﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُؤًا﴾ حال من الذين أو الكاف، و«هزءا» مفعول ثان بمعنى ذا هزؤ أو نفس الهزؤ، أو بمعنى مهزوء به، حصر اتخاذهم إياه على الهزؤ أي لا يجاوز اتخاذهم إياك الهزؤ، وقيل: المعنى ما يفعلون بك إلاَّ اتخاذك هزؤًا، وهو تفسير معنى لا صناعة، وجواب «إذا» قول محذوف عامل في قوله:

﴿أَهَذَا الذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ تقديره قالوا: أهذا الذي، وليس الجواب ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُؤًا﴾ لأنَّه لا يصلح شرطا، فلا بدَّ فيه من الفاء لو كان جوابا كسائر أجوبة «إذا» في القرآن وغيره على الأصل.

(نحو) ومتى لم يقرن ما يتوهَّم أنَّه جواب قدِّر جريا على الوارد

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمُ إِلآ أَن قَالُواْ﴾(سورة الجاثية:٢٥) كسائر أدوات الشرط فلاً تختصُّ إذا بجواز عدم الفاء كما قال بعض مع أنَّه لو جعل «إِن يَّتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُؤًا» جوابا لم يجز عن معنى القول في قوله: ﴿أَهَذَا الذي﴾ بل لا بدَّ أن يقدَّر قول معطوف على «إِن يَّتَّخِذُونَكَ»، أي ويقولون، أو حال أي قائلين: «اَهَذَا الذي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ؟».

أو ضمِّن معنى القول فينصب ﴿أَهَذَا الذي...﴾ وإذا كان كذلك فتقديره جوابا أولى لسلامة من شذوذ ترك الفاء ومن حذف العاطف والمعطوف.

(بلاغة) والاستفهام إنكار وتعجُّب، عاملهم الله بعدله، والمراد يذكر آلهتهم بالسوء، و لم يذكر بالسوء لأنَّه معروف إذ هو ﷺ عدوٌّ لها ولهم، أو ضمِّن الذكر معنى العيب أي أهذا الذي يعيبها؟ وكذا يقال في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾(سورة الأنبياء:٦٠) وحذفوا السوء أو ضمَّنوه هزؤا تأدُّبا مع آلهتهم.

﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حال من ضمير القول المقدَّر، والمعنى: أنكروا على رسول الله ﷺ ذكر آلهتهم بالسوء، مع أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ، والحال أنَّهم يذكرون الله بالجحود، أو بالشركة مع أنَّه لا نفع ولا ضرَّ إلاَّ منه، وأنَّه المعروف بغاية الرحمة، أو حال من واو «يتَّخذونك».

وكرَّر قوله: ﴿هُمْ﴾ تأكيدا بإشهارهم في السوء، وهو توكيد لفظي للأوَّل، و«كافرون» خبر للأوَّل.

وقيل: «ذِكر» بمعنى القرآن أو التوحيد، أو الوعظ والإرشاد بالرسل والكتب، أو ذِكر الرحمن، ذكر لفظ الرحمن إذ قالوا: ما نعرف الرحمن إلاَّ رحمان اليمامة، **وفيه ضعف والأولى ما تقدَّم أوَّلا.**

(سبب النزول) مرَّ الرسول ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل يتحدَّثان وضحك أبو جهل وقال: «هذا نبيء بني عبد مناف»! فغضب أبو سفيان فقال: ما إنكارك أن يكون لبني عبد مناف نبيء، فوقع ﷺ في أبي جهل وخوَّفه وقال: «**ما أراك منتهيا حتَّى يصيبك ما أصاب عمَّك الوليد بن المغيرة**» وقال لأبي سفيان: «**ما قلت ذلك إلا حَمِّية**» ونزلت الآية في ذلك على ما قيل.

﴿**خُلِقَ الانسَانُ**﴾ جنس الإنسان على الصحيح ﴿**مِنْ عَجَلٍ**﴾ طلب الشيء قبل أوانه لقلَّة الصبر، حتَّى كأنَّه خلق من نفس العجل، فهو ملازم له لا ينفكُّ، كما يقال لملازم اللعب: أنت من اللعب، وقال ﷺ: «**لست من الداد ولا الداد منِّي**»[1] وذلك هو الصحيح.

(قصص) وقيل: المراد النضر بن الحارث إذ قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا...﴾(سورة الأنفال:٣٢).

(قصص) وقيل: آدم إذ همَّ بالقيام قبل وصول الروح إلى رجليه، أو إذ خلق آخر يوم الجمعة، ولما جرت الروح في عينيه ولسانه و لم تبلغ أسفله، حين وصلت الروح بطنه واشتهى الطعام، وقد رأى ثمار الجنَّة في أشجارها، وقام إليها فسقط فقال: يا ربِّ عجِّل خلقي قبل غروبها، أو إذ خلق بمرَّة لا تدريجا كذرِّيته، وعلى كلِّ حال صارت العجلة في ذرِّيته على نمط ذلك. وقيل: العجل الطين بلغة حمير كما قال شاعرهم:

١- رواه **البيهقي** في كتاب الشهادات (٥٨) باب: من كره كُلَّمَا لعب الناس به من الخزة وهي قطعة خشب... رقم ٢٠٩٦٥. **والطبراني** في الكبير، ج١٩، ص٣٤٣ . **والبخاري** في الأدب المفرد باب في الغناء واللهو، رقم٧٨٥ من حديث أنس. بدون ألف كما أورده صاحب اللسان بدون ألف هكذا: «ما أنا من دَد ولا الدَّدُ مني»، وفي رواية: «ما أنا من ددًا ولا ددًا مني»، قال ابن الأثير في تفسير الحديث: الدَّد: اللهو واللعب. اللسان مَادَّة «ددم» وقال: إنَّ المادة محذوفة اللام.

النبع في الصخرة الصماء منبته والنخل منبته في الماء والعجل

ووجهه تحقير شأن الإنسان تتميما للتهديد في قوله:

﴿سَأُرِيكُمُ، ءَايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ والخطاب للكفرة المستعجلين عموما، وآياته: نقماته، وإراءتهم إياها: إحضارها لهم في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة، لقوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ لَوْيَعْلَمُ الذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ﴾ بأنفسهم **﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾** بغيرهم **﴿بَلْ تَاتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾** والعجلة ولو كانت بالطبع لا يكون التكليف بتركها تكليفا بما لا يطاق، لأنّه عَزَّ وَجَلَّ جعل لهم أسبابا يتوصّلون بها إلى تركها، واستعجالهم استهزاء وإعجاز وكذا طلب تعيين وقته، أي متى وقوع هذه الساعة الموعود بها.

(نحو) والجملة اسمية، وقال بعض الكوفيين: فعلية، أي متى يأتي هذا الوعد. والخطاب في «كنتم» للنبيء ﷺ والمؤمنين، وجواب الشرط محذوف، أي إن كنتم صادقين فليأتنا به، أو فلتأتونا به، دلّ عليه ما قبله، وليس كقوله: «أقوم إن قمت» مما نقول فيه: يغني عنه ما قبله ولا يقدّر.

(نحو) وقوله **﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾** استئناف لبيان شدّة هول ما يستعجلون به، وإنّما يستعجلون به لفرط جهلهم، و«يعلم» للحال المستمرّة إذ عدم علمهم مستمر، ومقتضى الظاهر: لو يعلمون حين...الخ، وضع الظاهر موضع المضمر ليصرّح بكفرهم الذي هو علّة استعجالهم، و«حين» مفعول به لـ«يعلم» أي لو يعرف الذين كفروا نفس وقت لا يكفّون، أو نزل كاللازم، أي لو كان لهم علم، فيتعلّق «حين» بمحذوف أي حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال، وذلك حين لا ينفعهم.

(نحو) أو المفعول لفظ مجيء يتعلّق به «حين» أي لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود حين لا يكفّون. وجواب «لو» محذوف يقدَّر بعد قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هكذا لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال أو لم يستعجلوا، وقدَّر بعضهم: لسارعوا إلى الإيمان، وبعض: لعلموا صحَّة البعث، وهما ضعيفان لأنَّ المقام للاستعجال، وقيل: «لو» للتمنِّي على معنى: من شأنهم أن يتمنَّوْا المعرفة المحقَّقة المستتبعة للعمل، فلا جواب لها، وهو ضعيف.

(نحو) وما قيل: من أنَّ إضافة «حين» للجمل بعدها تنزيل لهنَّ منزلة ما عرفوه لشدَّة ظهور حقيقته ينافيه قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾. وضمير «تأتي» لتلك الساعة المدلول عليها وهي في أذهانهم وألسنتهم بالإنكار، أو العدَة المعلومة من الوعد، أو الحين لتأويله بالساعة، أو النار، وذلك استدراك ببل على قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ أو تأتي الآيات بغتة لا على حسب اقتراحهم على أنَّ الاستدراك متعلِّق بقوله: ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ والعطف عليه.

(نحو) و«بغتة» مفعول مطلق لـ«تأتي» لتضمُّنه معنى تبغتهم، أو لمحذوف حال أي باغتة بغتة، أو التقدير: إتيان بغتة. والبغتة: الفجأة و«تبهتهم»: تدهشهم أو تقلبهم. و«ها» في قوله: «ردَّها» لما عاد إليه ضمير «تأتي»، وقيل: على البغتة. ومعنى ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: لا يؤخَّرون لحظة للاستراحة، وقد أهملوها في الدنيا وضيَّعوا أعمارهم.

﴿**وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾ شروعٌ بعد وعظ المشركين والاحتجاج عليهم والجواب عما قالوا، في تسلية رسول ﷺ عن استهزائهم بأنَّه قد استهزئ برسلٍ كثيرين عظامٍ أقوامُهم وصبروا، وتلويح بأنَّك قد بلَّغت ولك عاقبة الخير، كما لهم ولقومك السوء كما لأقوامهم كما قال: ﴿**فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُون**﴾.

و«مِن قَبْلِكَ» نعت لرسل، أو متعلّق بـ«استهزئ»، وعليه فالمعنى على إجمال أن يراد قبل زمانك كالأوّل، أو قبل الاستهزاء بك، ويقال بالصناعة قبل استهزائك، أي الاستهزاء المنسوب إليك الصادر منهم. ومعنى «حاق»: نزل محيطا بهم ولا يستعمل إلاّ في الشرِّ، و﴿الذِينَ سَخِرُواْ﴾: كفّار أمم هؤلاء الرسل. والهاء في منهم للرسل، و«ما» اسم، وهاء «به» لـ«ما»، أي عذاب عظيم كانوا يستهزءون به، أو العذاب الذي كانوا يستهزءون به، أو كلام يستهزءون به، أو الكلام الذي يستهزءون، سمّى الله به العذاب لأنّه سبب العذاب، أو يقدَّر مضاف أي جزاء ما كانوا...الخ، ويبعد جعلها مصدرية، وهاء «به» للرسل إفرادا به باعتبار أنّ كلّ واحد لقومه عذاب على حدة.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾

عناية الله وحفظه للإنسان وعدله في الحساب

﴿قُلْ﴾ يا محمد سائلا سؤال تقريع عن الاغترار بالنعم التي بين أيديهم ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قدّم الليل لأنّ الدواهي فيه أكثر

وأشدُّ، ولأنَّه أسبق ﴿مِنَ الرَّحْمَـٰنِ﴾ اختار لفظ الرحمة إيذانا بأنَّه لا حفظ لهم إلاَّ برحمته، وتلقينا بأن يجيبوا: تكلؤنا برحمتك، وإعلاما بشدَّة البأس إن لم يؤمنوا، كما يقال: أعوذ بالله من غضب الحليم، وتقبيحا لهم بشدَّة خبثهم حتَّى لم تنلهم رحمته مع سعتها.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ انتقال إلى ذكر أنَّهم ليسوا من أهل السماع، وأنَّهم يستمرُّون على الإعراض اشتغالا بآلهتهم ونعمهم عن ذكر المنعم عليهم المربِّي لهم، والمقام لتقبيح حالهم، فلا يصحُّ ما قيل إنَّ المعنى إنَّهم لم يغفلوا من الله البتَّة، لأنَّهم يعبدون الآلهة لتشفع لهم عند الله، ولكن أعرضوا عن ذكره وعن التذكُّر بتذكير المذكِّر لهم.

﴿أَمْ لَهُمُ، ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ توبيخ لهم على اعتمادهم على آلهتهم في التنجية من العذاب، أي بل لهم آلهة، انتقال عن وصفهم بالإعراض إلى وصفهم بالاعتماد على آلهتهم في التنجية. و«تمنعهم» نعت، و«مِن دُونِنَا» نعت ثان، أو انتقال من الأمر بالسؤال في «قُلْ مَن يَّكْلَؤُكُمْ» الذي في الغافل عن الشيء إلى السؤال الذي في المعتقد لنقيض الشيء، فإنَّه أفحش، وهو الذي في ﴿أَمْ لَهُمُ، ءَالِهَةٌ...﴾؟ أو عن السؤال عن الكالئ من ربِّهم إلى ذكر الإعراض عن الربِّ فإنَّه أقبح، ونعت الآلهة أيضا بقوله:

﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ الواو للآلهة لأنَّهم يعظِّمونها كالعقلاء ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ لا يستطيعون نصر أنفسهم بأنفسهم، ولا بناصر منَّا فكيف ينصرون من يعبدونهم؟ أو الضمائر للكفار، بمعنى لا ينصرون أنفسهم بأنفسهم ولا بآلهتهم ولا بناصر منا، والجملة مستأنفة، والمعنى على كلِّ حال: لا يصحبون بنصر منا أو بناصر منا لعدمه، فـ«منا» متعلِّق بالفعل بعده، أو نعت لمحذوف كما رأيت.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ انتقال إلى ذكر استدراجهم المتضمِّن للوعيد، أو من توهُّمهم أنَّهم في كلاءة من آلهتهم ـــ أو من توهُّم أنَّها تمنعهم، وأنَّ ما هم فيه يدوم ـــ إلى أنَّ إبقاءهم متنعمين استدراج.

﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَاتِي الاَرْضَ﴾ ألا يعتبرون فلا يعلمون أنَّا نأتي أرضهم؟ أو أرض الكفرة مطلقا ﴿نَنقُصُهَا مِنَ اَطْرَافِهَآ﴾ بتغليب المؤمنين عليها، و لم يقل: أفلا يرون أنا ننقص الأرض، بل قال: ﴿نَاتِي الاَرْضَ...﴾ إشارة إلى أنَّ انتزاعها بإتيان جيوش المؤمنين وأنَّه بقدرته تعالى، كأنَّه قيل: إنَّ جيوشنا يأتون الأرض ينقصونها من أطرافها، وإشارة إلى تعظيم أمر الجهاد والمجاهدين إذ أسند ما لهم إليه.

و«ننقص» حال مقدَّرة، والآية مدنية بعد فرض الجهاد جعلها الله تعالى في سورة مكية، وعلى أنَّها نزلت بمكة فنقص الأرض إذهاب بركتها، قيل: تخريب قراها، وموت أهلها، وفيه أنَّه لم يظهر التخريب وموتهم.

ولا يصحُّ أيضا ما روي عنه ﷺ: «**إنَّ نقصها بموت العلماء**» فهو حديث موضوع إذ لم يظهر موتهم وإن أريد علماء أهل الكتاب لم يظهر أيضا، وإن ظهر ففيم ذكر موتهم في هذا المقام؟.

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أنحن الناقصون لها فهم مع ذلك الغالبون على رسول الله ﷺ والمؤمنين، لا يتصوَّر ذلك، بل المؤمنون هم الغالبون، وضمائر الغيبة في ذلك كلِّه من قوله ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ إلى هنا تحقير لهم، وتنزيل لهم منزلة ما هو أخسُّ من البهائم.

وأمر رسوله بخطابهم في قوله: ﴿قُلِ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ في شأن الاستعجال ﴿بِالْوَحْيِ﴾ الصادق الناطق بإثبات الساعة وشدَّة هولها، وقوله: ﴿وَلاَ يَسْمَعُ

الصُّمُّ الدُّعَآءَ اذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ صيح عليهم بحدوث مخوف، وذلك من جملة ما أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقوله لهم، أو مستأنف من الله ﷻ، أي قل لهم ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ ولا يؤثِّر فيهم قولك، ولكن تبليغا وقطعا للاعتذار، كما لا يؤثِّر النداء المكرَّر المرفوع به الصوت جدًّا في الصمِّ، فإنَّ من شأن الإنذار رفع الصوت جدًّا وتكريره على هيئة تدلُّ على حادث مكروه.

هم يسمعون ولكن شبهوا بمن لا يسمع فضلا عن أن يعملوا بما يقال لهم، و«الصمُّ» المراد به الجنس، فهؤلاء داخلون أوَّلا إذ فيهم الكلام، أو هم المقصودون ذُكروا بالاسم الظاهر ليصرح ببعدهم عن قبول، فلذا لم يقل: ولا يسمعون، وأجيز أن يكون المعنى: لا يسمع هؤلاء أو هم وأمثالهم الدعاء إلى الحقِّ إذا أنذروا به.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أدنى شيء **﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾** يوم القيامة، أو في الدنيا كما مثَّل ابن عباس بالجوع الذي نزل بمكة، أو مطلقا وهو أولى.

(بلاغة) بالغ بالمسِّ الذي هو دون إنفاذ، ودونه تشديد بل مجرَّد إيصال، وبما في النفح من القلَّة كإعطاء قليل وضرب بحدِّ حافر، وبناء المرَّة، وبالتنكير[1]، عابهم الله ﷻ بالسرعة إلى الويل، والقسم العظيم بأدنى عذاب، مع بطئهم عن التصديق بالخبر، ومع عمد التصديق مع طول الإخبار كما قال:

﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ رسول الله وأنفسنا بالتكذيب، وما قيل: من أنَّه لا مبالغة بالمسِّ بل هو أقوى لدلالته على تأثُّر حاسة المحسوس غير مسلَّم لكثرة استعمال المسِّ في القلَّة، وعدم شهرة استعماله في القوة وربما قيل: إنَّ في تلك التقليلات تلويحا بأنَّ اللائق أن يتأثَّروا بأقل قليل من

١- يريد استعمال كلمة «نفحة» التي تفيد بصيغتها المرة والتنكير.

الوحي الصادق.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ تمثيل لانتفاء أن ينقص شيء من الأعمال، أو من الجزاء.

(أصول الدين) ولا ميزان حقيق، كما قال الضحاك، وقتادة ومجاهد والأعمش، [قلت:] **وهو الحقُّ ولا داعي إلى العدول عنه مع ظهوره، إلى جعلها حقيقة** وهو غير ظاهر لاحتياجه إلى دعوى تجسيم الأعراض، أو إلى وزن البطاقة وليست من الأعمال، وإلى دليل من حديث ولا يوجد إلاَّ ما وضع أو اتهم بالوضع، فما الميزان إلاَّ كيد الله وقبضته ونحو ذلك من المؤوَّل، والجمع باعتبار الحسنات والسيِّئات.

ومن قال: كموازين الدنيا فمن قائل لكلِّ أمة ميزان، وقائل لكلِّ مكلَّف ميزان، وقائل لكلِّ مؤمن موازين بعدد حسناته، وشهر أنَّه واحد لكلِّ المكلَّفين من الثقلين كفَّتاه كأطباق السماوات.

والجمع للتعظيم، أو لتعدُّد الموزون، كما يقال شموس وأقمار لتعدُّد طلوعهما. يأخذ جبريل بعموده ناظرا إلى لسانه ومكائيل أمين عليه، وإن الحسنات أجسام نورانية والسيِّئات أجسام مظلمة، وهل هو موجود؟ الظاهر أنَّه سيوجد كالصراط على دعواهم.

وروي أنَّ داود عليه السلام سأل الله عز وجل أن يريه الميزان فأراه فغشي عليه، وقال: بعد إفاقته من يقدر على ملئه؟ فقال تعالى: «يا داود أرضى أن يملأه عبدي بتمرة» **ولا ندري أصحَّ الحديث أم لم يصح، وعلى صحَّته فهو تمثيل لما سيكون.**

(نحو) و«القسط» نعت به مبالغة، أو يقدَّر ذوات القسط، أو مفعول من أجله أي لأجل القسط، أي العدل، والجملة عطف قصَّة على أخرى، أو حال على تقدير قد أو نحن من الضمير في «ليقولن» والربط بواو الحال.

﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ في يوم القيامة متعلق بـ«نضع» أو بـ«القسط» وقيل: تعليل أي لحساب يوم القيامة، أو لأهل يوم القيامة، وقيل: اللام للاختصاص. ولا وزن للمشرك ومن يدخل الجنَّة بلا حساب ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ مفعول مطلق، أي لا تظلم ظلما مَّا بزيادة سيِّئة أونقص حسنة، أو نقص ثواب أو زيادة عذاب عما قضى الله، أو مفعول به أي لا تنفع ثوابا أو حسنة، أو مفعول مطلق أي لا تنقص نقصا مَّا فحذف المفعول به، ومثله في السيِّئة.

﴿وَإِن كَانَ﴾ العمل المدلول عليه بوضع الموازين، أو الشيء المذكور أنَّه لا يزاد ولا ينقص ﴿مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي ما يوازنها في ثقلها ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي بالمثقال، وأنِّث لإضافته لمؤنَّث، وذلك المثقال هو العمل ومعنى الإتيان به الجزاء عليه بعد إحضاره أنَّه كذا، ثمَّ تذكَّرت أنَّ قراءتنا رفع «مثقال» فاعلا لـ«كان» بلا خبر لها، أي إن حصل مثقال حبَّة أحضرناه، ويضعف أن يجعل «إن» وصلية و«أَتَيْنَا بِهَا» مستأنف.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ «نا» فاعل و«حاسبين» حال بمعنى عادِّين، أو بمعنى مجازين على الأعمال.

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله سيخلِّص رجلا من أمَّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ينشر له تسعة وتسعون سجلا، كلُّ سجل مدُّ البصر، ويقول له أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، فإنَّه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها** «أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمدا رسول الله»**، فيقال له: أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنَّك لا تظلم اليوم، فتوضع السجلات في كفَّة والبطاقة في كفَّة فطاشت**

السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء»[1] قلت: هذا [في حقِّ] مشرك ختم بالشهادة ومات قبل أن تقع عليه الفرائض، أو فاسق ختم بها عمله مخلصا، وأما الوضع في الكفَّة فعبارة عن تجويد الحساب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

القصة الأولى: قصَّة موسى عليه السلام

مقارنة بين خصائص القرآن وخصائص التوراة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هنَّ التوراة هي فرقان من حيث إنَّها تفرق بين الحقِّ والباطل، و«ضياء» من حيث إنَّها تزيل ظلمة القلب والجهل، و«ذكرا» من حيث إنَّها تعظ وتذكِّر، والمراد التوراة الجامعة للفرق والضوء والذكر، وذلك مختصٌّ في العطف بالواو، وأجازه الأخفش بالفاء.

وإنَّما هي على موسى ولكن هارون نبيء أخوه في زمان واحد معاضد له، فنسبت إليهما معا. وخصَّ المتقين بالذكر لأنَّهم المنتفعون بها.

أو الذكر: ذكر ما يحتاجون إليه في الشريعة، أو الشرف لهما، أو «الفرقان»: النصر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾(سورة الأنفال:٤١) للفرق بين

١- رواه **الترمذي** في كتاب الإيمان (١٧) باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد... رقم ٢٦٣٩. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (٣٥) باب ما يرجى من رحمة الله رقم ٤٣٧٦. من حديث عبد الله بن عمرو.

العدو والولي، والضياء حينئذ التوراة أو الشريعة أو اليد البيضاء، والذكر أحد المعاني المذكورة، أو الفرقان فرق البحر، **والأولى ما تقدَّم أوَّلا وهو المناسب لتحقيق القرآن** المشارك لسائر كتب الله عز وجل، ولا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات، ولأنَّ في قولهم: ﴿فَلْيَاتِنَا بِئَايَة﴾ تلويحا بفرق البحر ألا ترى كيف عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ انزَلْنَاهُ﴾ وهو القرآن.

﴿**الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم**﴾ أي عذاب ربِّهم نعت للمتقين وهو أولى، أو بدله أو بيان، وأمَّا دعوى أنَّه منصوب أو مرفوع على المدح فلا دليل عليه ﴿**بِالْغَيْبِ**﴾ حال من «رب» أي يخشونه غير محسوس لهم، وذلك مدح لهم إذ آمنوا للدَّلائل بما لم يروا وذمٌّ للكفرة إذ لا يتأثَّرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروا به، أو حال من الواو أي لا يدري الناس بخشيتهم، ويقرب منه ما قيل يخشونه في قلوبهم.

﴿**وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ خائفون مع استعداد واعتناء، وخصَّ الخوف من الساعة بعد التعميم للخشية، لأنَّ الساعة أعظم مخوف، ولذا وللفاصلة قدَّمها على «مشفقون» وفي ذلك مضادة لصفة المستعجلين.

﴿**وَهَذَا**﴾ هذا الكتاب وهو القرآن، أشار إليه إشارة القرب لأنَّه كالشيء الحاضر لأنَّه شرع في نزوله، وما تمَّ نزوله حينئذ فهو كالحاضر المتَّصل، ولا سيما أنَّ هذه الألفاظ التي هي قوله: ﴿وَهَذا...﴾ بعضه، وأيضا إشارة القرب لسهل تناوله حفظا وفهما.

﴿**ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ**﴾ يتذكَّر به كلٌّ من لم يواجهه بالردِّ، كثير البركة، والحمد لله على حصول منفعته لنا ﴿**انزَلْنَاهُ**﴾ خبر ثان أو نعت ثان، ولا يخفى تعظيمه بوصف أنَّه من الله ﴿**أَفَأَنتُمْ لَهُ، مُنكِرُونَ**﴾ هو كالتوراة فأنتم له منكرون؟ لا

يليق إنكاره، ولو لم تعترفوا أنَّه مثلها فإنَّه مثلها في أنَّه من الله، مع أنَّه أفضل منها، وهو بلغتكم وعلى نبيئكم، وهذه نعمة كفرتموها.

وقدَّم «له» للحصر الإضافي، أي أنكرتموه لا التوراة والزبور والإنجيل، وللفاصلة ولاهتمامهم بإنكاره واعتنائهم بإنكاره.

﴿وَلَقَدَ ـاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيَ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمُۥٓ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمَ اَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِے فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا اِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمُۥٓ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾

القصة الثانية : قصَّة إبراهيم عليه السلام

-١-

إنكار عبادة الأصنام والدعوة إلى توحيد الله تعالى

﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ يعني اهتداءه إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والصحف والحكمة والوحي والتوفيق للخير من صغره ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل موسى وهارون ومحمد ﷺ، وعن ابن عباس وابن عمر: قبل موسى وهارون، وقيل: قبل البلوغ حين خرج من السرب، وقيل: قبل الولادة إذ كان في صلب آدم، **ولا دليل لهذه التعيينات.**

والمقبول الأوَّلان واختير منهما قول ابن عباس لقرب ذكر موسى وهارون، ولمجيئهما بعد إبراهيم، ولأنَّهما يتأسَّيان بإبراهيم، ويتسلَّيان به، ولكثرة آيات

موسى وتكاثفها، كآيات نبيئنا ﷺ فيسليه به، ثمَّ بإبراهيم وهكذا، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾(سورة الأنبياء:٧٦) أي قبل هؤلاء، وقيل: قبل إبراهيم ولوط وهود وصالح.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي عالمين بأحواله وما فيه من الكمالات، وهذا أولى من أن يقال: كناية عن حفظه، كما قال له جبريل في الهواء وقت ألقي في النار: هل لك حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا، فقال: فسل ربَّك، فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ دخلت أمُّه في قومه توسُّعا ولم يذكرها لأنَّ الرجال أشدُّ اعتناء بعبادة الأصنام، وذكر الله عنه الأب أوَّلا مع أنَّ الواو لا ترتِّب لعلَّه لأنَّه بدأ به وهم مجتمعون لأنَّه أحقُّ من ينصح، و«إذ» متعلِّق بـ«آيتنا» وهو أولى أو بـ«عالمين» أو بـ«رشد» أو بدل «من قبل» باعتبار نصبه لأن «من» لا تدخل على «إذ» أو مفعول لـ«اذكر» محذوف.

﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ التِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ الصور التي تشبه صور الرجال أو الكواكب، وإشارة القرب تحقير، والسؤال بما ـــ الموضوعة لطلب الحقيقة، أو شرح الاسم مع علمه بأنَّها حجر أو نحوه ـــ من تجاهل العارف[1]، ليتفاوضوا معه في الكلام. والعكوف على الشيء: ملازمته تعظيما له، قيل: أو لغرضٍ مَّا. يريد أنَّ هذا العكوف عجيب غير لائق فكيف في عبادتها؟ واللام بمعنى على كقوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾(سورة الأعراف:١٣٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَ اَسَأْتُـمْ فَلَهَا﴾(سورة الإسراء: ٠٧) أي فعليها أو هي كلامِ التقوية على تضمين «عاكفون» معنى عابدون.

١– يريد السؤال بـ«ما» من تجاهل العارف.

وليس امتناع تفسير العكوف بالعبادة في قول عليٍّ ـــ إذ مرَّ على لا عبين للشطرنج: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأن يمسَّ أحدكم جمرا حتَّى ينطفئ خير له من أن يمسَّها» ـــ مانعا من تفسيره في الآية به، وهي فيه بمعنى على، أي مقيمون عليها، أو للتعليل كما جاز في الآية أي مقيمون لأجلها وحذف على عبادتها، أو لا يقدَّر بل المعنى: أنتم لها فاعلون العكوف.

﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ جواب تقليد ممن لا حجَّة له **﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمُ، أَنتُمْ﴾** تمكَّنتم مستمرِّين، وليس المراد مطلق الكون **﴿وَءَابَآؤُكُمْ﴾** لعبادتكم وعبادتهم لها **﴿فِي ضَلاَلٍ﴾** عجيب، مثله قليل **﴿مُّبِينٍ﴾** ظاهر لكلِّ عاقل، **والحقُّ لا يكون مغلوبا بالكثرة**، واختار قوله: ﴿فِي ضَلاَلٍ﴾ على الضَّالين ليكون كالتصريح بمعنى أنَّهم مغمورون في الضلال، وليصفه بـــ«مبين». وتعجَّبوا من ردِّه عليهم هذا الردَّ المتين، فقالوا: على وجه الإنكار والتعجُّب ما قال الله ﷻ عنهم: **﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾** بالجدِّ **﴿أَمَ اَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾** داخل في زمرة اللاعبين، و«أم» متَّصلة، ينتظرون ما يجيب عليها، ويجوز أن تكون للإضراب الإبطالي جزما منهم بالردِّ عليه، أي بل أنت من اللاعبين، أو كبل والهمزة، وعدل عن أن يقال: أما جئت به جدٌّ أم لعب؟ إلى ما في الآية مطابقة له بألطف وجه كالمنصف.

﴿قَالَ بَل رَّبــُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ الذِي فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهنَّ مع ما فيهما كتماثيلكم وأنفسكم، أو فطر تماثيلكم، ويترجَّح الأوَّل بالعموم ودخول التماثيل فيه بالذات، والثاني بأنَّ المقام لإبطال التماثيل، وهنَّ ضمير لا يختصُّ بالعقلاء، ولو خصَّ به لقيل: إنَّها عندهم كالعاقل، ووصفه بالربوبية إيذانا بأنَّ ما لا يخلق ولا يربِّي بالنعم على الإطلاق بعيد عن الألوهية.

﴿وَأَنَاْ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ «على» متعلّق بمحذوف جوازا، أي شاهد على ذلكم المذكور من ضلال عباد التماثيل، وأنّ ربَّ السماوات والأرض وما فيهما هو ربُّ كلِّ شيء وإلهه، لا متعلّق بـ«شاهدين» لأنّه صلة «ال»، ومعمول الصلة لا يتقدَّم على الموصول، وقيل: بالجواز للتوسع في الظروف فلا يقدَّر محذوف، وعلى الأوَّل وهو تقدير محذوف يكون «مِنَ الشَّاهِدِينَ» زيادة تقرير، كأنّه قيل: من جملة الراسخين في الشهادة العالمين بالشيء علما محقّقا بمشاهدة البراهين.

(بلاغة) فـ«بل» إضراب إبطالي عن اعتقادهم التماثيل آلهة، وعن أن يكون من اللاعبين بإيراد البرهان، وهذا من الأسلوب الحكيم، إذ مقتضى الظاهر: بل أنا من المحقّين لا من اللاعبين، وجاء ببدله وهو قوله: ﴿بَلْ رَّبُّكُمْ﴾ لأنّ فيه تحقيق ما أراد، ونفي اللعب وقرّره بقوله: ﴿وَأَنَاْ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وزاد إذ لم ينفعهم جوابه شدَّة بالفعل، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ في يوم عيدكم هذا ﴿أَصْنَامَكُم﴾ أجتهد في كسرها باحتيال، فإنّ أصل الكيد الاحتيال في إيجاد ما يضرُّ، مع إظهار خلافه، وهو يستلزم الاجتهاد، ولكن أخبرهم ليجمعوا أمرهم في حفظها، فإذا كسرها مع ذلك كان أشدَّ غلبة.

أو قال ذلك في قلبه أو حيث لا يسمعون، وقيل: سمعه رجل واحد منهم، وقيل: سمعه ضعفاء في آخر الناس في مشيهم إليها يوم العيد، وكانت سبعين تمثالا وقيل: اثنين وسبعين.

(نحو) والمشهور أنّ ما يفيد التعجُّب من حروف القسم هو اللام، ويجوز في التاء أن تكون للتعجُّب وأن لا تكون، وقيل: لا تكون إلاّ له، وأصل حروف القسم الباء إذ يجوز ذكر فعل القسم معها، وتجرُّ الظاهر والمضمر، والتاء بدل من الواو، كما في «تجاه»، والواو قائمة مقام الباء لمناسبة الشفوية فيهما،

مع أنّ في الواو معنى قريبا من الإلصاق الذي هو أصل في الباء، وقيل: ليس حرف قسم أصلا للآخر.

﴿**بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ**﴾ ترجعوا عن عبادتها ﴿**مُّدْبِرِينَ**﴾ عنها فهو حال مؤكّد لعامله كذا شهر، وانظر كيف يرغب إبراهيم عليه السلام في تأكيد تولّيهم فلو قلت بعد أن تولّوا تولّيا عظيما أومحقّقا لم يقبل، اللهمّ إلاّ أن يريد أن تولّوا تولّيا محقّقا لا يبقى منكم من يتخيل بي.

فإذا قلنا: بعد أن تولّوا عنها بأجسامكم مدبرين عن عبادتها لم يكن في ذلك تأكيد، **وهذا أولى.** أوهمهم في طريقه معهم إلى عيدهم بأنّه سقيم من رجليه في مشيه هذا، وتركوه فرجع إلى الأصنام.

﴿**فَجَعَلَهُم جُذَاذًا**﴾ عطف على محذوف أي تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا، وكان معهم يترقّب ذهابهم، أو أتى فجعلهم جذاذا أي قطعا بمعنى مجذوذا أي مقطوعا كالحطام بمعنى محطوم، أي جعلهم شيئا مقطوعا وهو في الأصل مصدر يصدق على القليل والكثير، وقيل: جمع أو اسم جمع مفرده جذاذة كزجاج وزجاجة وكلام وكلمة.

(قصص) ويقال: خرج به آزر في عيد فدخلوا عليها وسجدوا لها وجعلوا طعاما بين أيديها تبارك لهم فيها، فإذا رجعوا أخذوه، وقعد إبراهيم في الطريق، وقال: إنّي سقيم فكسرها بفأس إلاّ كبيرا عند الباب من ذهب عيناه جوهرتان تضيئان ليلا، وعلّقه في يده أو عنقه كما قال عزّ وجلّ: ﴿**إلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ**﴾ فإنّه لم يكسره ليرجعوا إليه كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿**لَعَلَّهُمْ، إِلَيْهِ**﴾ إلى الكبير ﴿**يَرْجِعُونَ**﴾ لعلّ للتعليل، أي ليرجعوا إليه فيخاطبوه بأن يقولوا له: أخبرنا من كسر الأصنام؟ و لم تركت مريد كسرها إلى كسرها؟ و لعلّك أنت الكاسر لها غضبا لأن عبدت معك؟ و لم كُسرت وسلمت أنت؟ و لم علّق فيك الفأس؟ فلا يجيبهم بشيء.

فيتبيَّن عجزه وخطأهم في عبادته إذ لا ينفع ولا يدفع الضرَّ، و لم ينتقل من مكانه إلى كسرها غضبا، وهو كسائرها مثبَّت في الأرض برصاص أو غيره، وإن لم يثبت بذلك فإنَّهم لا يرون أثر المشي إليها للكسر.

ظنَّ فيهم لشدَّة ميلهم إليها وإلى الكبير أنَّهم يعتقدون أنَّها تفعل كالعاقل فبكتهم، وإن لم يظن ذلك فيهم فكسْرُها وتعليقه الفأس عليه استجهال لهم واستهزاء، فإنَّ من شأن المعبود أن لا يفعل به ذلك وأن يضرَّ وينفع.

وقيل: الضمير لله أي لعلَّهم يرجعون إلى الله بتوحيده إذ سألوا وظهر عجز آلهتهم، وقيل: لإبراهيم أي لعلَّهم يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه فيفحمهم، وعليه الجمهور، وذلك كلُّه ترجٍّ منه عليه السلام.

(بلاغة) ويجوز أن يكون ذلك من الله أخبر به عنه. والتقديم للفاصلة، وقيل: للحصر ولها، وقيل: للحصر على القول الأخير وللفاصلة، ويحتمل الحصر والفاصلة على الأوَّلين.

(فقه) ومن وجد عند صبي مثلا فخَّارا أو عودا أو نحوه على صورة آدمي أو صليب أو نحو ذلك مما يحرم لزمه كسره، لوجوب الأمر والنهي باليد لمن قدر بها في مثل ذلك في سنَّة رسول الله ﷺ وكذا من قصة إبراهيم، فإنَّ هذا مما لا تختلف فيه الشرائع.

وكأنَّه قيل: ما قالوا إذ رجعوا من عيدهم ورأوها جذاذا؟ فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾

-٢-

تكسير الأصنام والنقاش الحاد بين إبراهيم وقومه

﴿**قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا**﴾ من فعل هذا الكسر، ﴿**بِئَالِهَتِنَآ**﴾ والاستفهام حقيقي إذ لا يدرون الفاعل فهم يريدون أن يعيَّن لهم، وفي ضمنه توبيخ وإنكار للياقة ﴿**إِنَّهُ، لَمِنَ الظَّالمِينَ**﴾ مستأنف أو «من» موصولة، وهذه الجملة خبرها، وذكروها باسم الآلهة إعظاما لها كما يعبدونها، ولم يسمُّوها تماثيل أو أصناما، وللتشنيع على كاسرها إذ أهانها وعرَّض نفسه للهلكة من جانبها أو من جانبهم.

﴿**قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ، إِبْرَاهِيمُ**﴾ قال بعضهم وهم من سمعوه أو مع من سمع من السامع إذ قال: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ﴾ وعلى أنَّه قال في قلبه أو لم يسمعه أحد فالمراد سمعنا فتى يذكرهم بالسوء في ذلك اليوم أو قبله، ويعيبهم مطلقا، فلعلَّه كاسرها.

(نحو) وفي الكلام حذف أي سمعنا كلام فتى، والجملتان بعده نعتان له، وأجيز أن تكون الجملة بعده بدل اشتمال منه، وأجيز أن تكون مفعولا ثانيا لـ«سمع» على أنَّه يتعدَّى لاثنين إذا أتي بعده بمفرد، وجملة «فتى...» مما يسمع، وإبراهيم نائب الفاعل مفرد، ولو كان القول أصله نصب الجمل، لأنَّه قد ينصب المفرد ولو لم يتضمَّن معنى الجملة، أو منادى أي يقال له: «يا إبراهيم»، أو خبر لمحذوف أي «هو إبراهيم»، أو «هذا إبراهيم»، والأولى **أنَّ إبراهيم نائب فاعل والقول نصب المفرد** بمعنى يذكر لفظ إبراهيم في شأنه فشمل هذا: «يا إبراهيم» و«هو إبراهيم»، و«أنت إبراهيم» و«جاء إبراهيم» وغير ذلك من كلِّ كلام يذكر فيه.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي قال القائلون: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِئَالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إذا كان الفتى يذكرهم بسوء فأتوا به، أي أحضروه يعاينه الناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بفعله أو قوله، أو ليشهدوا عقابه، ويحضروا له.

وكأنَّه قيل: فماذا كان؟ فقال ﷻ: ﴿قَالُواْ﴾ بعد ما أوتي به ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِئَالِهَتِنَا يَآ إِبْرَاهِيمُ﴾ استفهام حقيقي، لا علم لهم بأنَّه الفاعل، ويجوز أن يكون للتقرير بأنَّه الفاعل لترجُّح أنَّه الفاعل لأنَّهم سمعوا أنَّه يعيبها، أو وصلهم قوله: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ...﴾ ولم يحقِّقوه.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ على مقتضى زعمكم أنَّه إله أكبر، غضب أن يعبد معه غيره منها، فاعلموا أنَّ الله يغضب أن تعبدوا معه غيره؛ أو أراد إثبات الفعل لنفسه ونفيه عنها استهزاء بهم، كقولك لأمِّيٍّ: بل أنت كتبته، بعد قوله: أأنت كتبته استهزاء به، تريد إثبات الكتب لك ونفيه عنه.

وفي البخاري ومسلم والترمذي عن رسول الله ﷺ: لم يكذب إبراهيم إلاَّ ثلاث كذبات: اثنتين في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي سقيم القلب بضلالكم، أو سأسقم، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله لسارة: «هذه أختي»[1] وكذا تسمية ذلك كذبا في حديث الشفاعة وذلك صورة كذب.

ويجوز أن يكون قد أذن الله تعالى له أن يقول ذلك كما أذن ليوسف أن يقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾(سورة يوسف:٧٠) وليسوا بسارقين،

١- رواه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء (٠٨) باب قوله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} رقم ٣١٧٩. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٤١) باب من فضائل إبراهيم عليه السلام، رقم ٢٣٧١. ورواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن (٢٢) باب: ومن سورة الأنبياء، رقم ٣١٦٦. من حديث أبي هريرة.

وتسمية ذلك كذبا مجاز، لأنّ التعريض أو الاستهزاء صورة كذب لا كذب، وفي المعارض مندوحة عنه، وكذا قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إن أراد به ضيق قلبه بكفرهم فبطل قول من استدلّ على عدم عصمة الأنبياء قبل النبوءة بالآية.

وكذا لو قيل على بُعد: إنّ فاعل «فَعَلَهُ» ضمير إبراهيم، أو فتى وهو مستتر، و«كبيرهم هذا» مبتدأ وخبر، ووجه بعده ردُّ المتكلّم ضمير الغائب إلى نفسه، وتكلّف ذلك إيهاما لهم وخروجا عن الكذب، ويضعفه أيضا الإضراب ببل فإنّه غير مناسب لما قبله، وقد يوجّه بأنّه إضراب عن شكّهم واستفهامهم إلى التصريح، ولا يشعرون بالتصريح.

ومع ذلك هو قول الكسائي [حسب قراءته]، وكان يقف على «فَعَلَه» إلاّ أنّه قال: الفاعل محذوف، وكان يجيز حذف الفاعل بلا ضرورة ولا ساكن، أو أراد بالحذف هنا الاستتار.

(نحو) وحذف الفاعل بلا دليل لحن ولا يباح اللحن للتقيّة، أعني أنّه لا يخرج الكلام عن كونه لحنا لكونه تقيّة، فهو مع التقيّة لحن.

(انتقاد لتخريجات بعض المفسّرين) وكلام الله منزّه عنه، إلاّ إن كان كلام إبراهيم بالعجمة فلعلّه وقع ذلك في كلام إبراهيم فذكره الله عزّ وجلّ كما هو في كلامه، ولم يصلحه، **وذلك ضعيف لا يخرج عليه القرآن، ولا على مثله في الضعف** مثل ما قيل: إنّ كبيرهم إبراهيم، وفيه أنّ إبراهيم ليس من تلك الأصنام فيحتاج أن يراد بالكبير الرئيس عليهم والسيادة عليهم، كما يقال للإنسان إنّه سيّد دوابه، ومثل ما قيل: المراد كبيرهم هذا الإله الذي هو الله، وفيه مع بعده الإشارة إلى الله بهذا في اللفظ ولو أراد به مقصودا في قلبه، ومثل ما قيل: إنّه فاعل «فعل» وهو الله، أو إبراهيم نفسه، وما قيل: إنّ الفاء عاطفة و«علّ» هو «لعلّ» حذفت لامه الأولى ولام من آخره كما قرأ ابن السميقع: «فعلّه» بشدّ اللام.

أو المراد: فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون، والإشارة للصنم، فيكون قوله: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ﴾ معترضا بين قوله: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وما أغنى عن جوابه هو: ﴿فَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وما تقدَّم أولى. «فاسألوهم» غير معترض بل مغن عن جواب «إن كانوا ينطقون».

﴿فَرَجَعُواْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بتذكر وتدبُّر بأنَّ ما لا يدفع الضرَّ عن نفسه حتَّى كسر ولا يدفع ذلك لا يكون إلها ولا يعبد ﴿فَقَالُواْ﴾ كان القول فيهم بأن قال بعض لبعض: ﴿إِنَّكُمْ، أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بعبادة ما لا ينطق وما لا ينطق ولا حواس له ولا يعقل، أو بسؤال إبراهيم وترك سؤالها وهي آلهتكم، أو بسؤاله موبِّخين له، أو بغفلتكم عنها حتَّى كسرت، أو بعبادة الصغار مع هذا الكبير حتَّى غضب وكسرها إذ عبدت معه، أو باتهام إبراهيم وقد رأيتم الفأس معلَّقا بالكبير، ومن لا يدفع عن رأسه الفأس كيف يدفع عن عابديه البأس؟!. والحصر إضافي أي: أنتم الظالمون لا إبراهيم.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾ النكس: قلب الشيء حتَّى يصير أعلاه أسفله، وذلك مجز عن ذكر الرأس فقوله: ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ تأكيد، أو جرِّد النكس عن بعض معناه فتمَّ بقوله: ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، وقد يستعمل النكس لغة بمعنى مطلق قلب الشيء من حال إلى حال، فيذكر الرأس للتصوير والتقبيح، والمراد:

– إمَّا الرجوع عن الجدال معه بالباطل إذ قالوا: «مَن فَعَلَ...» وقالوا: «ءَآنتَ...» إلى الجدال عنه بالحقِّ إذ قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم ﴿مَا هَؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أصبت في أنَّهم ليسوا آلهة إذ لا يعقلون ولا قدرة لهم على شيء مَّا، وهذا حقٌّ، فتسميته نكسا على معنى مجرَّد تقلب حال إلى أخرى، أو باعتبار أنَّهم مع هذا القول منهم ما اعتقدوا حقًّا بل رجعوا عنه إلى عبادتها.

– وإمَّا الرجوع عن الكفر الصحيح بأنَّها لا تستحقُّ العبادة لعجزها إلى عبادتها عنادا وتقليدا.

– وإمَّا المبالغة في إطراق الرؤوس خجلا حتَّى كأنَّهم منكوسون فقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ...﴾ جواب عاجز متحيِّر فإنَّه حجَّة عليهم، وقد يكون كناية عن مبالغة الحيرة وانخزال الحجَّة، ولو نطقوا حقًّا بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ...﴾.

– وإمَّا الرجوع عن قولهم: إنَّه غضب لعبادة الصغار معه فكسرها إلى قولهم إنَّها لا تنطق، أي لا تعقل، وأمَّا النكس في الرأي.

– وإمَّا أن يراد بالرؤوس الرؤساء بأن ردَّت السفلة منهم على رؤسائهم في عبادتها وعنَّفوهم عليها وما مرَّ أولى.

(بلاغة) والكلام استعارة تمثيلية، والجملة محكية بـ«نُكِسوا» لتضمُّنه معنى القول، أو منصوبة بقول مقدَّر أي قائلين: «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون».

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾

–٣–

انتصاره عليهم ونجاته من النار

﴿**قَالَ**﴾ مبكتا لهم ﴿**أَفَتَعْبُدُونَ**﴾ أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿**مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا**﴾ من النفع ﴿**وَلاَ يَضُرُّكُم**﴾ شيئا من الضرِّ، وطلب المحتاج من المحتاج زلَّة في رأيه وقلَّة في عقله، **والاستعانة بمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون.**

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ اللام للبيان، ومقتضى الظاهر: من دونه، وأظهر لفظ الجلالة لمزيد استقباح الإشراك به ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ألا تتفكَّرون فلا تعقلون!، قُبِّحَ صنيعكم حتَّى إنَّكم تأمرون به. ولما عجزوا عن الحجَّة أمروا بقتله كما قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿قَالُواْ﴾ كأنَّ فيهم القول أي قال بعض لبعض: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإنَّ النار أشدُّ ما يعذَّب به ولذلك كانت عذاب الله في الآخرة، **ولا يعذِّب بالنار إلاَّ ربُّها** ﴿وَانصُرُواْ﴾ بتحريقه ﴿ءَالِهَتَكُمُ، إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ مريدين لفعل نصرها، وإن لم تعذِّبوه البتة أو عذَّبتموه بغير النار فقد خذلتموها، أمرهم نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(قصص) وروي أنَّه تليت الآية على ابن عمر فقال: أتدري يا مجاهد من أمر بذلك؟ قال: لا، قال: رجل من أعراب فارس، يعني الأكراد على أنَّ الأكراد من الفرس، وذهب كثير إلى أنَّهم من العرب، وذكر أنَّ منهم «جابان» أبا ميمون من الصحابة، ولعلَّ المراد بالأعراب أهل الصحراء ولو عجما.

(قصص) ومات نمروذ ببعوضة في دماغه صارت فيه كالفرخ. وذكر ابن عطية أنَّ الآمر بذلك رجل من الأكراد خسف به الأرض، تجلجلا إلى يوم القيامة، واسمه هبون، وقيل: هدير، وذلك لأمره ولو كان المنفِّذ له نمرود، لا إياه، وحيي نمرود إلى أن مات بالبعوضة.

(قصص) حبسوه وجمعوا له الحطب الغليظ أربعين يوما، وقيل شهرا، وأوقدوه في حظيرة في بلدة يقال لها كوثى، من قرى الأنباط في حدود بابل من العراق، ولا يمرُّ عليها طائر إلاَّ احترق ولا يقدرون على أن يقربوها، فأمرهم إبليس أو الرجل الذي أمر بها أن يلقوه فيها بالمنجنيق، وجعلوه فيه مغلولا مقيَّدا،

فصاحت ملائكة السماء والأرض: «إلهنا ما في أرضك من يعبدك غير إبراهيم وهو يحرق فيك فأذن لنا في نصره» فقال عَزَّ وَجَلَّ: «إن استغاث بأحد منكم فلينصره، وإن لم يدع غيري فأنا إلهه ووليه وعالم به، فخلُّوا بيني وبينه، فإنَّه خليلي ليس لي خليل غيره، وليس له إله غيري»، فأتاه خازن الماء وخازن الرياح فاستأذناه، فقال: «لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل»، وأتاه جبريل وهو في الهواء، فقال: هل لك حاجة؟ فقال: «أمَّا إليك فلا»، فقال: سل ربَّك، فقال: «هو عالم بحالي»، وحين أوثقوه قال: «لا إله إلاَّ أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك». وفي البخاري عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(سورة آل عمران:١٧٣) قالها إبراهيم حين ألقي في النار، ومحمد حين قيل: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾[١].

(قصص) وأنت خبير بما قيل هنا من روايات أنَّ الضفادع تسعى في إطفاء النار بالماء فذهب ثلثاها، وإنَّ الوزغ كان ينفخ في النار إلى غير ذلك. وكانت المرأة تنذر أنَّ عليها كذا من الحطب لإحراق إبراهيم إن نالت حاجتها.

ولم تضرَّه النار وبقي ضوءها وإشراقها ولم تغيِّره شيئا سوى أن أحرقت كتافه، أي رباطه أبقى الله حرارتها على الكتاف وأزالها عنه كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾** كوني باردة وذات سلام، أو ذات برد وسلام، أو نفس البرد والسلامة، ولو لم يقل: ﴿وَسَلاَمًا﴾ لمات بالبرد، وهو مراعاة للَّفظ، وَأَنَّ هناك لافظا هو ملك أو ما شاء الله من الخلق، ويقال هو جبريل وأنَّه تعالى خلق العقل في النار وخوطبت.

١- رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن (١٣) باب {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} رقم ٤٥٦٣. من حديث ابن عبَّاس.

[قلت:] والذي لي أنَّ معنى الآية أنَّه تعالى أزال الحرارة التي خلقها فيها وجعلها باردة كالريح، وأزال مضرَّتها، أو أبقاها حارة بلا تأثير كما قيل: لا تحرق السمندل، وكان يعمل من وبره مناديل إذا اتسخت جعلت في النار فتزيل وسخها، ولا لفظ هناك من ملك ولا غيره.

(قصص) وروي أنَّ الملائكة أخذوا بضبعي إبراهيم فأقعدوه في الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر، وكلُّ حطب أثمر ثماره، ومكث فيها أربعين يوما أو خمسين يوما، وقال: أعظم أيامي طيبا أيام كنت في النار، وبعث الله ملك الظل في صورة إبراهيم يؤنسه في النار، وبعث الله عَزَّ وَجَلَّ إليه جبريل بقميص حرير من الجنَّة، وطنفسة وقعد معه يحدِّثه، وقال: يقول لك ربُّك: «أما علمت أنَّ النار لا تضرُّ أحبابي؟».

وناداه نمرود من أعلى صرحه: إنَّ ربَّك عظيم القدرة إذ فعل بك ذلك، فهل تطيق الخروج؟ وقال: نعم، قال: فاخرج، فمشى فيها حتَّى خرج، فقال: من الذي معك بجانبك على صورتك؟ قال: ملك الظل من الله ربِّي يؤنسني، قال: فإنِّي أذبح لربِّك أربعة آلاف بقرة لقدرته، قال: لا يقبل منك إلاَّ إن رجعت إلى ديني، قال: لا أترك ملكي ولا بدَّ من ذبحها. وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن أربع عشرة سنة وسالموه بعد ذلك.

(أنواع من النار) ويقال: نار تحرق كلَّ ما لاقاها وهي نار الدنيا، إلاَّ السمندل، ونار لا تحرق شيئا وهي نار الحجر والشجر ما دامت فيهما، ونار تحرق بعضا دون بعض وهي نار إبراهيم أحرقت كتافه والحطب دونه ودون لباسه، ونار الآخرة تحرق أهلها والحجارة دون الملائكة، ونار مضيئة وهي سائر النيران، ونار مظلمة وهي نار الآخرة، ونار تأكل وتشرب وهي نار الدنيا تأكل الحطب والفتيل وتشرب الزيت ونحوه، ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار الحجر

ما دامت فيه، ونار تشرب ولا تأكل وهي نار الشجر ما دامت فيه، ونار تأكل ولا تشرب وهي نار الآخرة [فسبحان من جعل النوع الواحد أنواعا].

﴿**وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا**﴾ مكرا عظيما ﴿**فَجَعَلْنَاهُمُ الاَخْسَرِينَ**﴾ لسعيهم في إطفاء نور الله سبحانه، أخسر من كلِّ خاسر إذ عقَّب كيدهم بما هو نصرة له وخذلان لهم، وقيل: ﴿الاَخْسَرِينَ﴾ بأكل البعوض لحومهم وشرب دمائهم، وسلَّط على نمرود بعوضة في دماغه تعضُّه وأحبُّ الناس عنده من يضرب رأسه فتنحلُّ عنه، ولكن تعود والصحيح ما تقدَّم.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

-٤-

نعم أخرى على إبراهيم وإنجاؤه مع لوط إلى الأرض المباركة

﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا**﴾ هو ابن عمه وقيل: ابن أخيه، ضمِّن «نجينا» معنى أخرجنا ولذا عدي بـ«إلى» في قوله: ﴿**إِلَى الاَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾ أرض الشام وهي المشهورة ببركة الحرث والثمار والمال والخصب، ويقال: كلُّ ماء عذب من تحت صخرة بيت المقدس.

[قلت:] وفي الشام بركة الدِّين فإنَّ أكثر الأنبياء منها، وانتشرت بركة الدين إلى سائر الأرض، ودلَّ بـ«فيها» على أنَّها محيطة بالبركة، فلم يقل: باركناها، وقيل: المراد باركنا بالخصب وغيره مما هو دنيوي، **والأوَّل أليق بشأن الأنبياء وفيه الدنيا أيضا** ولا بدَّ منها.

(قصص) خرج من العراق عراق العرب وهو [منطقة] بغداد ومعه لوط وسارة بنت عمِّه هاران الأكبر، وناخور، خرجوا من كوثى من العراق، فنزل حران، وقيل: تزوَّج سارة في حران وهي بنت ملك حران، وشرط عليه أن لا يغيِّرها عن دينها، ولما مكث ما شاء الله ارتحل منها إلى مصر، ثمّ من مصر إلى الشام، ونزل السبع من فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة على مسير يوم وليلة منها، أو أقرب.

وفي الآية مدح الشام، وفي الحديث: «**ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم لمهاجر إبراهيم**»، وعنه ﷺ: «**طوبى لأهل الشام**» فقال زيد بن ثابت: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**إنَّ الملائكة عليهم السلام باسطة أجنحتها عليها**»، وذكر الغزالي وغيره ذمَّ العراق واستحباب الخروج منه بل الفرار، وقيل: ﴿الاَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مَكَّة، وقيل: مصر، والصحيح الأوَّل.

﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ، إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً**﴾ مفعول مطلق نوعي، لأنَّه بمعنى الهبة الزائدة، أو حال من «إسحاق ويعقوب» مؤسِّسة لا مؤكِّدة محضة لإفادة معنى الزيادة على العامل كذلك، وهما زائدان على مطلوبه، أو من «يعقوب» كما قيل: إنَّه ولد الولد، وأمَّا إسحاق فمن جملة مطلوبه، أي ذوي نافلة، أو ذا نافلة، وهو من المصادر التي بوزن فاعل كالعاقبة والعافية.

﴿**وَكُلاًّ**﴾ من إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ﴿**جَعَلْنَا صَالِحِينَ**﴾ وفّقنا للصلاح دينا ودنيا فكمَّلناهما.

﴿**وَجَعَلْنَاهُمُ، أَيِمَّةً**﴾ يقتدى بهم في الدين ﴿**يَهْدُونَ**﴾ الناس إلى الحقِّ ﴿**بِأَمْرِنَا**﴾ لهم أن يهدوا الناس ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوٰةِ**﴾ ذكرنا لهم بالوحي فعل الخير، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على

طريق أمرهم وأمر غيرهم بهنَّ، كما تقول: ذكر الأمير الغزو إلى بلد كذا اليوم، فيعلم السامع أنَّه أمر بإيقاعه.

(نحو) فـ«فعْلَ» مفعول به لـ«أَوْحَيْنَا» مصدر مضاف لمفعوله، ولا حاجة إلى جعل «فعْلَ» مصدرا بمعنى الأمر أي: افعلوا الخيرات فعلا فحذف العامل، وأضيف المصدر لمفعول ذلك العامل، فصار «فعْلَ الْخَيْرَات» كـ[قوله تَعَالَى:] ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ (سورة محـمَّد: ٤)، والخطاب فيه للأنبياء الذين ذُكروا، وإنَّ المعنى: أوحينا إليهم قولنا: افعلوا الخيرات فعلا، ولا حاجة أيضا إلى أنَّ الأصل: أوحينا إليهم أن تُفْعَل الخيرات بالبناء للمفعول ثمَّ فعلا الخيرات برفع الخيرات نائبا لفعلاً بالتنوين على أنَّه مصدر للمفعول ثمَّ أضيف فكان فعل الخيرات لتكلُّف جعل المصدر بمعنى المبني للمفعول، ورفع الظاهر به مع الحذف للعامل، ثمَّ حذف تنوينه وإضافته.

(نحو) والصحيح منع المصدر من المبني للمفعول والداعي لذلك أنَّ المعنى المصدري ليس موحى وفيما ذكرت إغناء عن ذلك، وفيه عموم الموحى إليهم الأنبياء وغيرهم، وإن خصُّوا فغيرهم تبع لهم.

وذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة تخصيص بعد تعميم بفعل الخيرات. وحذف التاء من مصدر «أفعل» المعتل العين المعوِّضة عن محذوف مقيس مطلقا عند سيبويه، واشترط له الفراء الإضافة كما هنا، واختير الحذف هنا لموافقة «إيتاء»، وهي عوض عن العين، أو عن ألف «إفعال» كما قررته في النحو والتصريف.

[قلت:] وفي الآية أنَّ الأمم يصلُّون ويزكُّون وليستا كهيئة صلاتنا وزكاتنا ولا كعددهما ﴿**وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ**﴾ وافين بعهد العبودية لنا.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

القصة الثالثة: قصة لوط عليه السلام

﴿**وَلُوطًا**﴾ منصوب على الاشتغال في قوله: ﴿**ءاتَيْنَاهُ**﴾ أي وآتينا لوطا آتيناه، والمقدَّر معطوف على «وهبنا»، والمذكور تأكيد له عمَّ في قوله: ﴿وَكُلاًّ﴾ وخصَّ كلاًّ بما أنعم به عليه، أو كلاًّ غير شامل للوط بل لإبراهيم وإسحاق ويعقوب فخصَّ لوطا هنا، ولا حاجة إلى تقدير: اذكر لوطا واستئناف قوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾.

﴿**حُكْمًا**﴾ أي حكمة، وهي ما فرض الله، أو النبوءة، فالأنبياء حكام على أممهم، أو القضاء بين الخصوم، وقيل: صحف إبراهيم واستبعد بأنَّها تنسب بالإيتاء إلى إبراهيم لا إليه ولو جاز ﴿**وَعِلْمًا**﴾ سائر ما ينبغي للأنبياء علمه، كالوعظ والأخبار والأمثال، وإذا فسَّرنا الحكم بشيء فالباقي علم.

﴿**وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ**﴾ سدوم، أو سبع قرى عبَّر عنها بأعظمها وأشهرها، قلبن كلُّهنَّ على المشهور، وقيل: قلبت الواحدة لاتفاق أهلها وروي: قلبن إلاَّ زعر لأنها مسكن لوط ومن آمن به ﴿**الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ**﴾ كان أهلها يعملون، أو القرية اسم لأهلها حقيقة أو مجازا، كأنَّه قيل: من القوم التي كانت تعمل.

﴿**الْخَبَآئِثَ**﴾ أقبحها اللواط، وقيل: هو المراد لكن جمع لكثرته، قال ﷺ: «**عشر خصال عملتها قوم لوط بها أهلكوا، اللواط والرمي بالجلالق والحذف، واللعب بالحمام، وضرب الدفوف، وشرب الخمور،**

وقصُّ اللحية وطول الشارب، والصفر، والتصفيق ولبس الحرير، وتزيد أمتي بسحاق النساء»[١].

﴿**إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**﴾ خارجين عن الطاعة غير منقادين للوط عليه السلام، علّة لـ«تَعْمَلُ الْخَبَآئِثَ»، وقيل: لـ«نَجَّيْنَاهُ» أي لم نبقه معها لأنّهم فسّاق لا يناسبهم، ولئلاّ يصيبه ما يصيبهم لفسقهم، **والأوّل أولى.**

﴿**وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ**﴾ في أهل رحمتنا، والظرفية مجازية وكذا إن فسِّرت الرحمة بالنبوءة بتقدير مضاف، أي في أهل نبوءتنا، أو بدون تقديره، أي في نبوءتنا، وإن فسَّرنا الرحمة بالجنَّة كما قال رسول الله ﷺ : «**إنّ الله قال للجنَّة: أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي**»[٢] كانت الظرفية حقيقة والرحمة مجازا ﴿**إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى، تعليل لقوله: ﴿أَدْخَلْنَاهُ...﴾.

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

١ - أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٣٢٤. **والهندي** في الكنز: ج٥، ص٣١٧، رقم ١٣٠١٤، وقال: رواه ابن عساكر عن الحسن مرسلا.

٢- رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن (٠١)باب قوله {وتقول هل من مزيد} رقم ٤٨٥٠. ورواه **مسلم** في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (١٣) باب النار يدخلها الجبارون... رقم ٢٨٤٦ و٢٨٤٧. وراه **الترمذي** في كتاب صفة الجنة (٢٢) باب ما جاء في احتجاج الجنة النار رقم ٢٥٦١. من حديث أبي هريرة. وأول الحديث عنده: «تحاجت الجنَّة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين...».

القصَّة الرابعة: قصَّة نوح عليه السلام

﴿وَنُوحًا﴾ اذكر نوحا، قيل: أو معطوف على «لُوطًا» أمَّا على تقدير: اذكر لوطا، فظاهر، وأمَّا على نصب «لُوطًا» على الاشتغال فضعيف، لأنَّ فيه ذكر اسمين بالعطف وتخصيص أحدهما بالاشتغال، والمعنى عليه: وآتينا نوحا، ولا ضعف في عطفه على هاء «ءَاتَيْنَاهُ».

(قصص) ونوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، وقيل: اسمه عبد الغفَّار ولقِّب نوحا لكثرة بكائه على نفسه أو على قومه، وقيل: معناه بالسريانية: ساكن.

لَمَّا ذكر الله عزَّ وجلَّ أبا العرب وهو إبراهيم ذكر أبا الناس كلِّهم ممن جاء بعد الطوفان وهو نوح، وهو الأب الثاني، والأوَّل آدم عليه السلام.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربَّه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (سورة القمر: ١٠) ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ...﴾ (سورة نوح: ٢٧). بدل اشتمال من «نوح» والرابط ضمير نادى، قيل: أو يقدَّر مضاف لنوح يتعلَّق به «إذ»، أي واذكر نبأ نوح إذ نادى، وفيه أنَّه لا يصحُّ التعلُّق به لأنَّه ليس الإخبار وقت النداء، بل ليس النبأ بمعنى الإخبار بل القصَّة نفسها ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء أو من قبل إبراهيم.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ،﴾ دعاءه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ، مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الطوفان، أو إيذاء قومه، وأصل الكرب: قلب الأرض بالحفر أو لنحو الحرث، والغمُّ يثير النفس كذلك، أو من كربت الشمس دنت للغروب، والغمُّ الشديد تكاد شمس الروح تغرب به، أو من الكرب الذي هو عقدة غليظة في حبل الدلو فالغمُّ على القلب مثلها.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَآ﴾ ضمِّن «نَصَرْنَاه» معنى منعناه فعدي بـ«من»، أو «من» بمعنى على، أو النصر بمعنى الإعانة على العدوّ مع الانتقام منهم يتعدَّى بـ«من» كما هنا، وبمعنى مطلق الإعانة يتعدّى بعلى ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ منهمكين في الشرِّ فيما بينهم وبين الخلق، وفيما بينهم وبين الله عز وجل، تعليل لما قبل وتمهيد لقوله تعالى:

﴿فَأَغْرَقْنَاهُمُ أَجْمَعِينَ﴾ لانهماكهم المذكور، و«أَجْمَعِينَ» تأكيد بلا تقدُّم «كلّ»، ومن منع التأكيد به دون تقدُّم «كلّ» جعله حالا من الهاء، والكثير استعماله تأكيدا بعد «كلٌّ»، والأولى جواز التأكيد به ولو لم يتقدَّم «كلّ».

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

القصَّة الخامسة: قصَّة داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ عطف على «نُوحًا» بحسب ما تقدَّم فيه، أو على «لُوطًا» كذلك.

(قصص) وهو داود بن إيشا بن عوبر بن باعر بن سلمون بن بختيون بن يارب بن حضرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام. وكان أحمر الوجه سبط الرأس أبيض الجسم، طويل اللحية فيها جعودة، حسن الصوت جمع له بين النبوءة والملك كابنه سليمان، عاش مائة سنة، وملكه أربعون عاما، وله

اثنا عشر ابنا، أحدهم سليمان، وكان يشاوره مع صغر سنِّه لوفور عقله وعلمه. وكان سليمان أبيض جسيما وسيما وضيئا خاشعا متواضعا، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

والاسم ممنوع الصرف للعلميَّة وزيادة الألف والنون، إن كان قد سماه الله بذلك للسلامة، أو سمَّاه والده مثلا لذلك، وإلاَّ فالعلمية والعجمة ﴿**إِذْ يَحْكُمَانِ**﴾ ظرف لذلك المقدَّر، أو بدل، والمراد: حَكَمَا بصيغة الماضي وجيء بالمضارع استحضارا للحالة الماضية كأنَّها تشاهد بصورتها ﴿**فِي الْحَرْثِ**﴾ والمراد بالحرث هنا الزرع، وعن ابن مسعود: العنب، تشبيها له بما يحرث.

﴿**إِذْ نَفَشَتْ**﴾ رعت ليلا بلا راع، وأصل النفش التفرُّق، فالمراد: تفرَّقت فيه وانتشرت ﴿**فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ**﴾ حاضرين بعلمنا فلا يختلُّ، والهاء لسليمان وداود، والجمع للتعظيم كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (سورة المومنون: ٩٩) . أو اثنان جماعة حقيقة أو مجازا، ويدلُّ لذلك قراءة ابن عبَّاس: «لِحُكْمِهِمَا»، وقيل: الهاء لهما وللخصوم المدلول عليهم بالمقام، وللقوم، أي للحكم الواقع بينهم هكذا فلا يضرُّنا اختلافهم بالوقوع منها وعلى القوم ولخصومهم.

﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**﴾ عطف على «يَحْكُمَانِ» لأنَّه ماض بصورة المضارع كما مرَّ، و«هاء» للقضية أو الفتيا المعلومة من «يَحْكُمَانِ».

(قصص) روي أنَّ جاريتين جميلتين لعابدة إسرائيلية كبيرة السن قالتا: لو قتلناها لنصير إلى الرجال، فألقتا ماء البيض في فرجها وثوبها حين سجدت، وصاحتا بأنها زنت، فأراد داود رجمها فقال له سليمان: بل أوقد عليه النار فإن كان بيضا اجتمع، أو ماء الرجل افترق، فاجتمع و لم يرجمها.

(قصص) ودخل رجل يدَّعي على الآخر معه أنَّ غنمه أفسدت حرثه فقضى له بالغنم، وخرجا وسليمان على الباب كعادته فسألهما عمَّا حكم به، فقال: غير هذا أرفق بهما، فسأله داود بالنبوءة والأبوة: ما هو؟ فقال: أن يقوم صاحب الغنم بالحرث حتَّى يعود وينتفع صاحبه بلبن الغنم والصوف، ثمَّ يترادَّا فحكم داود بهذا، وكان سليمان ابن أحد عشر عاما وأحبَّه أبوه حبًّا شديدا لهذه الحكم.

(فقه) وكلا الحكمين عن اجتهاد لا عن وحي لأنَّ داود رجع عَمَّا حكم به، وسليمان قال: أرى، لو كان وحيا لبتَّه ولم ينتظر إلى ان يطلب إليه مع أنَّه ليس في سنِّ النبوءة، والوحي لا يبطل بالاجتهاد، ولا بأس برجوع المجتهد إلى غير ما ظهر له إذا رآه أفضل، كما ترجع الصحابة بعض إلى بعض، ألا ترى إلى قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ وتكلَّف خلافَ الظاهر من زعم أنَّهما وحيان الثاني ناسخ للأوَّل، أو أنَّه أوحي إلى داود أن يرجع إلى قول سليمان ولو كان ما قال سليمان اجتهادا.

(فقه) والمذهب أنَّه يضمن صاحب الغنم الحرث وعلى أصحاب المواشي حفظها ليلا ونهارا، إلاَّ ما لا طاقة لهم، فقد جاء الحديث: «**جرح العجماء جبار**»[1] وإن اتبعها صاحبُها يصيح ضَمِنَ لأنَّها تزيد بصياحه، وفي رواية: على أصحاب الماشية حفظها ليلا وعلى أصحاب الأموال حفظها نهارا ورد هذا في شأن ناقة البراء[2] أفسدت في حائط رجل، وفي الرواية اضطراب

١- رواه **النسائي** في كتاب الزكاة (٢٨) باب المعدن رقم ٢٤٩٦. ورواه **مالك** في كتاب العقول ٦٠٤ (١٨) باب جامع العقل رقم ١٦٧٠. من حديث أبي هريرة.

٢- راجع الرواية عند ابن قدامة في المغني الشرح الكبير، ج٥، ص٤٥٤. ونص الرواية: «روى مالك عن الزهري عن حرام بن سعيد عن محيصة: أنَّ ناقة البراء دخلت حائط قوم فأفسدت فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار وما أفسدت بالليل فهو مضمون عليهم».

وكلام في سنده، مع أنَّه يمكن أنَّ البراء أرسلها كما يجوز له.

(فقه) وزعم أبو حنيفة أنَّه لا ضمان على صاحب الدَّابـَّة إذا لم يكن معها سائق أو قائد، وذكر لذلك حديث العجماء، وزعم الشافعي أنَّه يجب الضمان ليلا، وإنَّه من غصب عبدا فأبق منه أنَّه يضمن القيمة، وينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوَّته الغاصب، فإذا ظهر الآبق ترادَّا.

(فقه) وعن أبي حنيفة في العبد القاتل أنَّه يعطى الوليّ أو يفديه ويبيعه، وروي أنَّه لم يكن بين قيمة الحرث والغنم تفاوت.

(أصول الفقه) روي أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمرو بن العاصي: اقض بين هذين، فقال: أقضي وأنت حاضر؟ فقال: نعم، قال: على ماذا أقضي؟ قال: «**على أنَّك إن أصبت فلك عشر حسنات وإن أخطأت فلك أجر واحد**» فقد بيَّنَ ﷺ أنَّ المجتهد يصيب ويخطئ، وفي الآية إلى قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ ـ اتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ مدح لسليمان بأنَّه فهم ما لم يفهم أبوه، وأنَّ المجتهد معذور في خطئه وأنَّ حكمه علم ولو أخطأ.

﴿**وَكُلاًّ**﴾ منهما ﴿**ـ اتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ كثيرا في الجملة، وأمَّا في هذه المسألة فالعلم لسليمان، وقد يقال: حكم داود فيها حقٌّ أيضا، إذ كلُّ مجتهد في الفروع مصيب عند الله، بمعنى أنَّ الله عز وجل أباح حكمه، وعذره وأثابه ولو لم يوافق الحقَّ عنده، أو بمعنى أنَّ الحقَّ عند الله ما يحكم به الحكام، ولو تناقضت أحكامهم في مسألة واحدة.

ولا حكم لله غير أحكامهم، فضلا عن أن يقال: وافق الحكم ما عنده أو لم يوافق، وهو الذي خلقها منهم على كلِّ حال، وإذا عيَّن الوحي واحدا تعيَّن في العمل به وترك غيره كحكم داود.

وعن مجاهد: ما لسليمان صلحٌ وما لداود حكمٌ والصلح خير، وذكر الجصَّاص أَنَّهم ضمنوا لأَنَّهم أرسلوا الغنم. وإِنَّما أثيب المخطئ على اجتهاده لا على خطئه.

ولفظ البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن رسول الله ﷺ : «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر**»[1].

(قصص) وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إِنَّما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إِنَّما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: إيتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل رحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى لشفقتها عليه**».

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ إذا سبَّح يقلن: سبحان الله، ويسمعها داود، وقيل: وغيره أيضا، كما سبَّح الحصا في يد رسول الله ﷺ تسبيحا سمعه هو وغيره من الصحابة، وألقاهنَّ في يد صحابي فسبَّحن، وفي يد آخر كذلك، وهو أعظم لأَنَّهنَّ سبَّحن بلا تسبيح منه، وسبَّحن ببركته في يد غيره.

وقيل: تسبيح الجبال صوت يسمع من جانبها وليس في ذلك من الكرامة ما في تسبيحها، مع أَنَّه خلاف الظاهر، وقيل: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بلسان الحال ولا كرامة

١-رواه **البخاري** في كتاب الاعتصام بالكتاب وَالسُّنَّة (٢١) باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم ٧٣٥٢. وراه **مسلم** في كتاب الأقضية (٠٦) باب بيان أجر الحاكم إذ اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم ١٧١٦. من حديث عمرو بن العاص.

فيه، وقيل: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: يسرن فيحملن من رآها على التسبيح ولا دليل على هؤلاء الأقوال **وهنَّ خلاف المتبادر والتفسير الأوَّل هو الصحيح.**

وقوله ﷻ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾(سورة سبأ: ١٠) يخالف التفسير بلسان الحال، وتفسير بعض بالصدى والتفسير بالسير. والجملة حال من «الْجِبَالَ» أو مستأنفة، و«مَعَ» متعلّق بـ«سَخَّر» أو بـ«يسبّح» **﴿وَالطَّيْرَ﴾** عطف على الجبال، أو مفعول معه، تسبّح كما تسبّح الجبال **﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾** من شأننا أن نفعل ما يستعظم ويستغرب لكمال قدرتنا.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ عمل الدروع، و لم يعملها أحد قبله إلاَّ صفائح كألواح، وألهمه الله جعلها نسجا وحلقا، فكانت أخفَّ.

مرَّ به ملكان فقال أحدهما للآخر: نعم العبد داود إلاَّ أنَّه يأكل من بيت المال، فسأل الله مكسبا، فألان له الحديد يصنع منه الدروع ويبيعها يسيله الله له من الجبل ويعمل منه. وقوله: **﴿لَكُمْ﴾** متعلّق بـ«عَلَّمْنَاهُ» أو بـ«صَنْعَةَ»، أو نعت «لَبُوسٍ»، وأصله: كلّ ما يلبس كقوله على المجاز:

البَسْ لكلِّ حالة لبوسها إمَّا نعيمها وإمَّا بؤسها

﴿لِيُحْصِنَكُم﴾ متعلّق بـ«عَلَّمْنَاهُ» ولو علّقنا به أيضا «لَكُمْ» لاختلاف معنى اللاَّمين، لأنَّ هذه للتعليل بخلاف الأولى، أو بدل اشتمال من «لَكُمْ» وضمير «يُحْصِن» للبوس أو لداود، أو للتعليم أو لله على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة، ويدلُّ له قراءة «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون، أي لنحصنكم به.

﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي من الضرِّ الواقع فيكم معشر الناس، وهو مضرَّة السيف مثلا، فلا يضرُّكم معه ما يضرُّكم دونه؛ أو يقدَّر مضاف أي من بأس عدوِّكم، أي ضرُّه أو حربه، وقدَّر بعض من آلة بأسكم كالسيف.

﴿**فَهَلَ انتُمْ شَاكِرُونَ**﴾ توبيخ على التقصير في الشكر، وأمر به على وجه بليغ، كأنَّه قيل: هو مستحق الوقوع ولا بدَّ، فهل وقع؟.

﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ**﴾ مطلقا، وقيل: الصبا، عطف الريح على «الْجِبَالَ»، و«لِسُلَيْمَانَ» على «مَعَ»، و لم يقل: ومع سليمان، لتفاوت التسخيرين، فإنَّ ما له بالانقياد لأمره ونهيه، وما لداود بطريق التبعيَّة له، وهو دون ما لسليمان ﴿**عَاصِفَةً**﴾ حال من «الرِّيح»، والعامل فيها حصَّتها في «سَخَّرْنَا» المذكور، وكذا العامل في «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ»؛ وبعض يقدِّر: وسخَّرنا لسليمان الريح عاصفة.

والعصوف: شدَّة الهبوب، ولا ينافي وصفها بالرخاء في الآية الأخرى لأنَّها في نفسها ليِّنة. والعصوف: شدَّتها لقطع المسافة البعيدة في زمان قريب؛ أو تلين إذا شاء وتعصف إذا شاء، أو تعصف في الذهاب وتلين في الرجوع لحصول قضاء الوطر، أو بالعكس للحنين إلى الوطن. ﴿**تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الاَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ هي الشام، والظاهر من الآية أنَّ البركة فيها قبله وهو كذلك.

وما قيل: من أنَّ الأرض أعمُّ من الشام ـــ وأنَّه وصفها بالبركة لأنَّه إذا حلَّ أرضا قتل كفَّارها وأثبت فيها الإسلام، ولا بركة أعظم من هذا ـــ يُنافي ذلك، **فلا يصحُّ، إلاَّ إن أراد زيادة بركة**. ويقال: تجري بأمره إلى الشام رواحا بعد ما سارت منها بكرة، ولشيوع أنَّها مسكنه لم يذكر جريانها منها بل جريانها إليها[1].

١- في الطبعة العمانية إضافة، هَذَا نصُّها:

«وقيل: مسكنه إصطخر، فتجري به إِلَى الشام، منها يقعد عَلَى منبر من ذهب، وحوله الأنبياء عَلَى كراسي من ذهب، والعلماء عَلَى كراسي من فِضَّة، وحولهم سائر الناس، وحول الناس الجن في بساط من ذهب وحرير، فرسخ في فرسخ من عمل الجنِّ، تحمله الصبا مسيرة شهر من الصباح إِلَى الرواح، ومنه إِلَى الصباح؛ أو مركبا من خشب فيه ألف ركن، في كُـلِّ ألف بيت، فيه الجِنّ وَالإِنس، تحت كُـلِّ ركن ألف شيطان يرفونه إِلَى الجو فتسير به الريح، وَلَعَلَّ =

وقيل: تحمله العاصفة من الأرض إلى الجوِّ، وتسير به الرخاء، قال وهب: وجد في منزل بناحية دجلة مكتوب بيد بعض أصحاب سليمان من الإنس أو الجنِّ: «نحن نزلناه وما بنيناه، ومبنيًّا وجدناه، غدوُّنا من اصطخر فقلناه، فنحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فنازلون بالشام».

وعن الحسن: يغدو من إيليا فيقيل باصطخر، ثمَّ يروح منها فيكون رواحه ببابل.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فما أعطيناه ذلك إلاَّ لحكمة علمناها، ومنها تعويضنا عن الخيل.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ عطف على «مع» و**﴿مَنْ﴾** عطف على الجبال بحدِّ ما مرَّ، أو ذلك مبتدأ وخبر، والأوَّل أولى لزيادة انسحاب التسخير فيه **﴿يَغُوصُونَ لَهُ،﴾** يدخلون تحت ماء البحر لأجله، يستخرجون منه النفائس له، والواو لمعنى «مَن»، والجملة نعت لـ«من» لا صلة لها، إذ لا عهد للغوص لنا قبل نزول الآية، وإن كان فذهنيٌّ، وهو خلاف الأصل.

(قصص) ويروى أنَّه رأى بحرا عميقا جدًّا فأمر الشياطين بالغوص فيه فأخرجوا منه قبة بيضاء، فقال: يَا رَبِّ أريد أن أعلم ما فيها، ففتحها الله تعالى له فإذا فيها رجل بلباس جميل، فقال له: أبشر أنت أم جني؟ قال: بشر، قال: ما حالك؟ قال: كنت أطيع أُمـِّي وأحملها على ظهري وبين يدي، ودعت لي أن يجعل الله تعالى لي موضعا أعبد فيه ليس سماء ولا أرضا، وماتت وأتيت ساحل البحر ورأيت هذه القبَّة، وأعجبتني فدخلتها، فانتقلت بي، ولا أدري أفي البحر

=

في هَذِه الخشب ذَلِكَ البساط، والطير تظلهم أعطاها الله ذَلِكَ عوضا عن عقره الخيل إذ فاتته بها صلاة العصر».

أنا أم في البرِّ أَم في السماء؟ فقال: بم تعرف الليل والنهار؟ قال: تضاء عند الفجر ويزال الضوء عند الغروب، قال: ما تأكل وما تشرب؟ قال: طعام وشراب كلاهما أشدُّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل، قال: أدع الله أن يردَّني حيث كنت، فغلقت عليه فعاد.

﴿**وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً**﴾ كثيرا ﴿**دُونَ ذَٰلِكَ**﴾ كبناء القصور والمدن، وابتداع الصنائع الغريبة كالحمام والنورة[1] والطاحون والقوارير، كما قال الله ﷻ : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ...﴾الآية (سورة سبأ: ١٣)، وقيل: الصابون من ذلك واختير أنَّه من صناعة هرمس واندوخيا، وقيل: من بقراط وجالنوس، وقيل: أوَّل من صنعه الفارابي في دمشق.

والجنُّ: أجسام لطيفة عاقلة نارية، ومع لطفها تعمل الأعمال الشاقّة كالريح تقلع وتهدم مع لطفها، والشياطين الذين يستخدمهم كفّار، فحلّ استخدامهم قهرا كالجزية، والمتبادر من لفظ الشيطان الكفر، ويناسب ذلك ما يأتي.

﴿**وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ**﴾ بتوكيل جماعات من الملائكة ومن مؤمني الجنِّ عليهم، عن أن يخبِّلوا الناس أو يقتلوهم، وعن أن يفسدوا ليلا ما عملوه بالنهار، وعن أن يزيغوا عن أمره.

استعمل الله له ما هو لطيف وهو الريح والشياطين، ولداود الأشياء الكثيفة الغليظة، وليس كما قال الجبَّائي: إنَّ الله ﷻ كثف أجسام الجنِّ لسليمان لتعمل الأمور الشاقّة، ولَمَّا مات ردَّها إلى لطفها لِئَلاَّ يلبس بهم على الناس من يتنبــَّأ.

١– كذا في النسخ ولعله النورج وهي آلة تداس به الأكداس من حديد أو خشب.

وقال رسول الله ﷺ : «لَمَّا دعا بها حفّت بالعرش، فقالت الملائكة صوت ضعيف من موضع غريب»، وروي: «صوت معروف من موضع مجهول» فقال الله ﷻ : أما تعرفونه؟ قالوا: لا، قال: صوت عبدي يونس، قالوا: يا ربّنا فرِّج عنه إذ لم يزل يرفع منه عمل مقبول في الرخاء، فأمر الحوت بإلقائه بأن جذبها الماء إلى البرِّ، أو أقدرها الله على الحياة والمشي في البرِّ والرجوع إلى الماء.

والغمُّ: غم المكث في بطن الحوت من الضحى للعشية، أو ثلاثة أيّام، أو سبعة أو أربعين يوما أقوال، ويضعف تفسير الغمِّ بالخطيئة.

وقال هنا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ بالواو وفي قصَّة أيُّوب ﴿فَكَشَفْنَا﴾ بالفاء لأنَّ ما هنا زيادة إحسان على مطلوبه، فلم يترتَّب بالفاء كترتُّب الاستجابة والكشف، ولا مانع من كون التنجية من الغمِّ بعض تفصيل للاستجابة قبله، والتفصيل يكون بالواو كالفاء، إلاَّ أنَّ الفاء فيها أكثر.

والفاء في أيُّوب ونوح لاعتبار شأن التفصيل لكثرة ما يفصل فيهما، والواو في ذي النون وزكرياء لقلَّته بالنسبة.

ورد في القرآن أذكار ذكر جزاءها بعدها [منها] قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ...﴾، ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ...﴾ (سورة آل عمران: ١٧٣) ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ (سورة غافر: ٤٤-٤٥) ﴿مَا شَآءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ...﴾ (سورة الكهف: ٣٩) ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا...﴾ (سورة الأنبياء: ٧٩) وغير ذلك.

﴿**وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُومِنِينَ**﴾ ننجي سائر المؤمنين مثل ذلك الإنجاء، إذا دعونا في غمٍّ مخلصين، وهو مضارع أنجى حذفت النون الثانية الأصلية في الخطِّ لا الأولى الزائدة، لحصول التكرير بالثاني دون الأوَّل، لكن تخفى في الجيم لأنَّها ساكنة تخرج من الخيشوم، وكذلك تخفى في الشين والضاد.

وقيل: أجدب الشام فقال له فرعون: الحق بي فعندي سعة، فأقطع له أرضا، وَاتَّفَقَ أنَّه دخل شعيب على فرعون وهو عنده، وقال: أما تخاف أن يغضب الله فيغضب له السماوات والأرض والجبال والبحار؟، ولم يعنه أَيُّوب، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: أتسكت على إعانة شعيب على فرعون لأجل أن دعاك إلى أرضه، إنِّي أبتليك قال: فديني؟ قال: أسلمه لك، فقال: لا أبالي. **والله أعلم بصحَّة ذلك.**

(قصص) وكان غليظ البدن والأعضاء طويلها جميلا وله سبعة بنين وسبع بنات وأصناف البهائم، وخمسمائة فدان في كلِّ واحد عبد له بزوج وولد، ويقال: ثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة، وذهب ذلك كلُّه وصحَّة بدنه، وبقي كذلك ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة أو سبعا أو ثلاثا أو سبعة أشهر، أو سبعة أَيَّام وسبع ساعات، وعمره إذ ذاك سبعون أو ثمانون أو أكثر، وعمره كلُّه ثلاث وتسعون أو أكثر.

وسبب دعائه قيل: إنَّ إبليس أتى زوجه في صورة عظيمة وقال: أنا إله الأرض غضبت على زوجك إذ عبد إله السماء دوني، فإن سجدت لي سجدة أردُّه إلى حاله، فأخبرت أَيُّوب بذلك، فقال: لعلَّك افتتنت باللعين وطردها، وحلف لا يقبل طعامها وشرابها، ولئن عافاني الله لأضربنَّك مائة سوط، فبقي فريدا فحينئذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي...﴾. وعن الحسن: مرَّ به رجلان فقال أحدهما لآخر: لو أحبَّه الله لم يفعل به هذا، فقال: ﴿رَبِّ...﴾، ومثله ما قيل: أنَّه لو كان نبيئا لم يفعل الله تعالى به ذلك، وعن أنس عنه ﷺ : «**نهض ليصلِّي فلم يقدر فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾**».

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أرحم من كلِّ راحم، وكلُّ رحمة من مخلوق رحمة من الله خلقها على يده، وذلك دعاء بألطف وجه وأبلغه، إذ لم يقل:

أشفني أو أزل عنّي هذا الضرَّ. ومن هذا الباب أنّ امرأة شكت إلى بعض ولد سعد بن عبادة قلّة الفأر في بيتها، فقال: املئوا بيتها خبزا وسمنا ولحما، تريد ما في بيتي ما يأكل الفأر.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ أوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إليه: ارفع رأسك من السجود، اركض برجلك، فركض فنبعت عين ماء فاغتسل منها، فبرئ ظاهره، وركض أخرى فنبعت أخرى شرب منها فبرئ باطنه كما كان، وكساه الله حلّة فقعد في مكان مشرف. وقالت زوجه: لا أتركه ولو طردني لئلاّ يموت جوعا وعطشا، فطافت حول الكناسة وبكت، فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فقالت: هذا المبتلى، فقال: ما كان منك؟ فقالت: بعلي، فقال: أتعرفينه إن رأيته؟ فقالت: هل يخفى؟ وهو أشبه خلق الله بك، فتبسَّم فقال: أنا هو، فعرفته بضحكه فاعتنقته.

وروي أنّها قالت له: ادع الله أن يشفيك فقال: كم مدَّة الرخاء؟ فذكرت مدَّة طويلة، وروي ذكرت ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغَتْ مدَّةُ بلائي مدَّةَ رخائي.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ،﴾ زوجه وأولاده، ومعنى ردِّ امرأته ردُّ شبابها، لأنّها حية قائمة به في مرضه، أو كان زوج أو أزواج أخر ميِّتات فأحياهنَّ الله تعالى له، وقيل: ماتت فردَّها الله وقيل: أولاده ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ عطف على «اسْتَجَبْنَا» ولا مانع من عطفه على «كَشَفْنَا» المنسحب عليه الدعاء لأنّ الضرَّ في دعاء أيُّوب شامل لذهاب المال والبنين.

فالضرُّ في كلام الله ضرُّ بدنه فقط، وذكر زوال ضرِّ الذهاب بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أو أراد الضرَّ العامَّ الذي في دعاء أيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخصَّ بعد تعميم إذ قال: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ﴾ وإن أراد أيُّوبُ ضرَّ بدنه فلا بأس بأن يذكره الله ويزيد عليه، كما تقول: سألت الله العلم فأعطانيه والمال.

وإيتاء ذلك إحياء الله له أولاده الموتى وزوجه إن ماتت، وزاد له زوجا أخرى، وأولادا أخر، بأن يلدهم منها.

ويروى أنَّ الله تعالى قال له: اذهب إلى أندارك، فذهب فأرسل الله تعالى عليه جرادا من ذهب فذهبت جرادة فردَّها، فسمع نداء: يا أَيُّوب ألم أغنك؟ فقال: بلى يَا رَبِّ، ولكن هذه بركة من بركاتك فلا أشبع من بركتك.

وعن ابن عبَّاس أنَّه سأل النبيء ﷺ عن الآية فقال: «**ردَّ الله امرأته إليه وزاد في شبابها حتَّى ولدت ستًّا وعشرين ذكرا**» وعلى هذا ليس ذلك بإحياء الأولاد الموتى.

وروي أنَّه جعل الله تعالى له مخزنا من جراد كلُّها من ذهب فطارت جرادة فأخذها، فقال له ملك: ألم يكفك ما بقي؟ وعنه ﷺ : «**أفرغ الله ﷻ سحابة ذهب في أندر قمحه، وسحابة فضَّة في أندر شعيره، حتَّى فاضا وكان يغتسل فخرَّ عليه جراد من ذهب فجعل يجمعه في ثوبه، فأوحى الله إليه: ألم أغنك عَمَّا ترى؟ فقال: بلى وعزَّتك، لكن لا غنى لي عن بركتك**»[1] رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعا.

قال عكرمة: قيل لأيُّوب: أهلك في الآخرة فإن شئت عجَّلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: بل يكونون لي في الآخرة، وأوتى مثلهم في الدنيا، فمعنى الآية: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ في الآخرة و﴿مِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وأراد بالأهل الأولاد. وعاش بعد زوال الضرِّ سبعين سنة فيما قيل عن ابن عبَّاس، ففي قول: يكون عمره ثمانين أو سبعين ونحو ذلك بحسب الأقوال السابقة.

١– أورد الحديث ابن كثير في قصص الأنبياء، ص٢٧٣، عن أبي هريرة بعدَّة أسانيد.

﴿رَحْمَةً﴾ مفعول من أجله، أي لأجل رحمتنا له، أو مفعول مطلق لـ«آتَيْنَا» لأنَّ الإيتاء رحمة، أو لمحذوف أي رحمناه رحمة، ولا ضعف فيه، بل هو أقوى من التعليل ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ نعت لـ«رَحْمَةً»، أو متعلِّق بـ«آتَيْنَاهُ».

﴿وَذِكْرَى﴾ اسم مصدر بمعنى التذكير ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ ليصبروا فيثابوا، كما أثيب أَيُّوب، وكلٌّ على قدره، ولا يجزعوا فيحبطوا ثواب عبادتهم، متعلِّق بـ«ذِكْرَى» شبه لام التقوية، وإن أريد بالذكرى المعنى الحاصل من المصدر كان نعتا لـ«ذِكْرَى» ولا يحسن أن يجعل «رَحْمَةً» متنازعا مع «ذِكْرَى» في «لِلْعَابِدِينَ»، لأنَّ «رَحْمَةً» ذكر في شأن أَيُّوب.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

القصَّة السابعة:

قصَّة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ واذكر إسماعيل...الخ على حدِّ ما مرَّ، وظاهر الآية أنَّ ذا الكفل نبيء، وهو كذلك عليه السلام، وعليه الجمهور واسمه: بشير بن أَيُّوب، وقيل: ذو الكفل اسمه، بعث نبيئا بعد أبيه، وأمَّا وصيه فهو ابنه حرمل، كما روي عن وهب.

(قصص) وكان ذو الكفل مقيما بالشام، ومات ابن خمس وسبعين [قضاها] كلَّها في الشام، وأوصى إلى ابنه عبدان، ثمَّ بعث الله شعيبا، أو هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى، أو يوشع بن نون أو زكرياء، أو اليسع بن أخطوب بن العجوز ، أقوال.

وزعم اليهود أنَّه حزقيال وجاءته النبوءة وهو في وسط سبي بخت نصر على نهر جوبار، وقيل: ليس نبيئا لكنَّه عبد صالح استخلفه اليسع بشرط أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب.

(قصص) وعن ابن عبَّاس: احتضر قاض من بني إسرائيل فقال: من أستخلف على أن لا يغضب؟ فقال رجل: أنا، وقيل: احتضر ملك منهم، فقال له الرؤساء: استخلف، وفزع إليه الناس، فقال: أستخلف من يتكفَّل لي بثلاث، فقال فتى: أنا، فقال: اجلس فأعاد، فقال: أنا، فأعاد فقال: أنا، فقال: أن تقوم الليل ولا ترقد، وتصوم النهار ولا تفطر، وتحكم ولا تغضب، فقال: نعم، وفي هذه الأقوال لقِّب لأنَّه تكفَّل بما وجب، أو بما شرط عليه. ومن قال: هو زكرياء، فلأنَّه كفل مريم، وقيل له: ذو الكفل بهذا لأنَّ له حظًّا عظيما، والكفل: الحظُّ، وقيل: لأنَّ له ضعف ثواب أعمال أنبياء زمانه.

﴿كُلٌّ﴾ ممن ذكر ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على العبادة والمصائب وعن الشهوات، وهذا حضٌّ على الصبر **بإشارة أنَّ من لم يصبر فهو خارج عن طريق الأنبياء** ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ وعلَّل هذا تعليلا جمليا بقوله: ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح لعصمتهم من الذنوب.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾

القصَّة الثامنة: قصة يونس عليه السلام

﴿وَذَا النُّونِ﴾ صاحب الحوت يونس بن متَّى، ومتَّى أبوه كما قال البخاري وغيره، وصحَّحه ابن حجر، وكذا قالت اليهود، إلاَّ أنهم يسمُّونه يونه

ابن اميتاي، وبعض: يونان بن اماتي. وكان في زمان ملوك الطوائف من الفرس، ومعنى ملوك الطوائف تعدُّد الملوك، كلٌّ على طائفة ولم يجمعهم ملك واحد.

وقيل: متَّى اسم أمِّه، فلم ينسب نبيء إلى أمِّه إلاَّ يونس وعيسى عليهما السلام. ويروى أنَّ جبريل قال ليونس: أنذر أهل نينوى، فقال: ألتمس دَابَّة، فقال: الأمر أعجل من ذلك، فغضب، وانطلق إلى السفينة. ولعلَّ هذا قبل النبوءة ولم يعلم أنَّه جبريل. وعن وهب: أنَّه كان يونس عبدا صالحا في خلق ضيِّق فَلَمَّا تحمَّل أثقال النبوءة تفسَّخ تحتها تفسُّخ الربع تحت الحمل الثقيل، فقذفها من يده وهرب منها، فأخرجه الله من أولي العزم من الرسل، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٥) وقال: ﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (سورة القلم: ٤٨) .

وعن ابن عبَّاس: كانت رسالته بعد الخروج من بطن الحوت لقوله تعالى عقب ذكر خروجه من بطن الحوت: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ اَوْ يَزِيدُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٤٧) . وأجاز بعضهم الصغيرة قبل النبوءة، وقد قال الله ﷻ : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذَ اَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ﴾ (سورة الصافات: ١٣٩) فهو من المرسلين قبل الإباقة لا بعدها.

﴿**إِذ ذَّهَبَ**﴾ عن قومه ﴿**مُغَاضِبًا**﴾ غضب عليهم غضبا شديدا لطول مكثه فيهم بالأمر والنهي.

(بلاغة) فالمفاعلة هنا للمبالغة شبَّه غضبه وحده بالغضب الذي هو مقابل لغضبهم عليه لجامع الشدَّة، ولا يقال هو على بابه من المفاعلة بين متعدِّد، لأنَّهم أيضا غضبوا عليه، إذ خافوا العذاب لذهابه بلا إيمان منهم، لأنَّا نقول ليس الخوف غضبا، اللهمَّ إلاَّ على طريق الشبه، ولا يقال: هذا مفاعلة بلا مقابل ولا مبالغة، مثل: سافرت، لأنَّا نقول تحقَّق وجود «سافرت» في ذلك ولم يتحقَّق

وجود المغاضبة كذلك في كلام آخر.

(قصص) ويقال: سبى ملك من فلسطين تسعة أسباط، ونصفًا من قوم يونس، وهو ساكن فيها، فأوحى الله إلى شعياء أن يأمر حزقيل الملك أن يوجِّه خمسة من الأنبياء لقتاله، فأمر يونس فقال: هل أمرك الله بإخراجي أو سمَّاني؟ قال: لا، قال: هنا أنبياء غيري، فألحُّوا عليه فخرج بلا إذن من الله عز وجل مغاضبا له، وركب سفينة في بحر الروم وأشرفت على الغرق في اللجَّة، فقال الملاحون: هنا عاص أو آبق، ومن العادة أن نقترع فنلقي من وقعت عليه، فغرق واحد أهون من غرق السفينة ومن فيها، وخرجت على يونس ثلاثا، فقال: أنا العاصي الآبق.

فكلَّما أتى جانبا من السفينة، وجد حوتا فاغرا فاه فألقى نفسه، فأوحى الله إليه[1] أن لا تخدشيه فإنَّك سجنه، وهذا على ظاهره، أو بمعنى قضى الله عز وجل أن لا تخدشه، وَلَمَّا نبذته بالعراء ضعيفا كالفرخ أنبت الله عز وجل عليه شجرة من يقطين، قيل: يأكل من ثمارها أو تظله، وترضعه أروى، وَلَمَّا يبست حزن، فأوحى الله إليه: «أتحزن على شجرة و لم تحزن على مائة ألف أو أكثر؟».

(قصص) وأوحى الله إليه أن اذهب إليهم، فقل لملكهم: «إنَّ الله أمرك أن ترسل بني إسرائيل معي» فقال: لو علمنا أنَّك نبيء لفعلنا، ولو كان الأمر كذلك لمنعنا الله من سبيهم، ودعاهم ثلاثة أيـَّـام، فأوحى الله عز وجل : أبلغهم إن لم يؤمنوا عذِّبوا، فأبلغهم و لم يؤمنوا وندموا، فسألوا العلماء من بني إسرائيل، فقالوا: إن خرج فقد صدق فلم يجدوه، وقيل لهم: خرج العشية وأغلقوا الأبواب على المواشي فلم تدخل، وفرَّقوا بين الأولاد والأمهات من كلِّ حيوان، فلما انشقَّ الصبح جاء العذاب وألقت الحوامل ما في بطونها، وصاحت الصبيان

١– أي من الوحي بمعنى الإلهام على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

والدواب، فرفع العذاب فبعثوا إلى يونس فآمنوا وأرسلوا بني إسرائيل معه.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ نضيِّق عليه بالسجن في بطن الحوت أو غيره، ولا علم له بالحوت حتَّى وقع في فمه.

دخل ابن عبَّاس على معاوية، فقال معاوية: ضربتني أمواج القرآن الليلة فغرقت، كيف ينفي نبيء الله القدرة عن الله؟ فقال ابن عبَّاس: ذلك من القدْر لا من القدرة، أي من التضييق لا من معنى القدرة ضدّ العجز تعالى الله.

أو: لن نقضي عليه بعقوبة، ويدلُّ له قراءة عمر بن عبد العزيز بضمِّ النون وشدِّ الدَّال، وقراءة عليٍّ بـياء مضمومة وشدِّ الدال من التقدير بمعنى القضاء، ولكن يجوز أن تكون القراءتان من معنى التضييق.

ويجوز أن يكون المعنى: **عمل عمل من ظنَّ أن لا تعمل فيه قدرتنا أو لا نستعمل فيه قدرتنا بتنجيته بل نتركه،** وأمَّا أن يسمَّى وسوسة الشيطان له ــــ بأن لا قدرة لله تعالى على تنجيتك ظنًّا مع أنَّه ينفيها جزما، كما زعم بعض أنَّه أزلَّه الشيطان حتَّى ظنَّ أنَّ الله عز وجل لا يقدر عليه وتاب، وقبلت توبته ــــ فلا يتم، لأنَّ ذلك غير ظنٍّ إلاَّ مجازا.

[قلت:] حتَّى إنِّي أقول لا وجه لتوقُّف المصلِّي وسكوته والاشتغال بنفي ما وسوس به الشيطان مع مقارنة إنكاره لوسوسته، وإنَّما يقف وينفي لو ترجَّح عنده ما يوسوسه به، أو ارتاب به.

﴿فَنَادَىٰ﴾ كان ما كان من ركوب السفينة والمقارعة والتقام الحوت، فنادى **﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾** ظلمة واحدة شديدة، كأنَّها ظلمات، أو تركَّبت من أجزاء كلٌّ جزء ظلمة وأمَّا قوله:

وليل تقول الناس في ظلماته   سواء صحيحات العيون وعورها[١]

فيحتمل أنَّ الجمع لتعدُّد الناس، ومع ذلك لا بدُّ من اتِّفاقهم في شدَّة الظلمات، وكذلك الظلمة في الحوت، كظلمة العين العوراء التي لم يبق فيها إبصار مَّا، أو ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، إذا جاء عليه الليل، أو هؤلاء الثلاث مع ظلمة حوت أخرى بلع هذه.

﴿**أَن لَّآ إِلَهَ إِلَّآ أَنتَ**﴾ أن مخفَّفة من الثقيلة، أي إنَّه أي الشأن، أو تفسيريَّة لتقدُّم ما فيه معنى القول لا حروفه، وهو النداء، ومن الجائز أن يقدَّر: إنَّك لا إله إلاَّ أنت.

﴿**سُبْحَانَكَ**﴾ أسبِّحك تسبيحك أي اللائق بك، أو حكاية لقول الله سبَّحت نفسي، كما قال بعض إنَّ «سبحان الله» عَلَم على تسبيح الله نفسه، لا تسبيح فيه لأحد إلاَّ حكايته.

﴿**إِنِّي كُنتُ**﴾ بهجرتي بلا إذن منك ﴿**مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ لأنفسهم أو لها ولغيرها بذنوبهم، قال ﷺ : «**دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلاَّ أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، لا يدعو بها مسلم ربَّه إلاَّ استجاب له**»[٢]. وعن الحسن: إنَّها اسم الله الأعظم، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**﴾ دعاءه ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ**﴾ وليست الإجابة مختصَّة باسمه الأعظم. عن أبي هريرة عنه ﷺ : «**لَمَّا انتهى به الحوت إلى أسفل البحر سمع حسًّا فقال في نفسه: ما هذا؟ قيل: هذا تسبيح دوابِّ البحر، فسبَّح هو، فسمعت الملائكة تسبيحه فشفعت له**».

١- البيت للأعشى، ونسب لمضرس بن ربعي. المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبيَّة، ج٣، ص٣٣٥.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٨٢) باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم٣٥٠٥. ورواه **أحمد** في مسند العشرة المبشَّرين بالجنــَّة، رقم ١٤٦. من حديث أبي هريرة.

وقال رسول الله ﷺ : «لَمَّا دعا بها حفّت بالعرش، فقالت الملائكة صوت ضعيف من موضع غريب»، وروي: «صوت معروف من موضع مجهول» فقال الله عز وجل : أما تعرفونه؟ قالوا: لا، قال: صوت عبدي يونس، قالوا: يا ربّنا فرِّج عنه إذ لم يزل يرفع منه عمل مقبول في الرخاء، فأمر الحوت بإلقائه بأن جذبها الماء إلى البرِّ، أو أقدرها الله على الحياة والمشي في البرِّ والرجوع إلى الماء.

والغمُّ: غم المكث في بطن الحوت من الضحى للعشية، أو ثلاثة أيـّام، أو سبعة أو أربعين يوما أقوال، ويضعف تفسير الغمِّ بالخطيئة.

وقال هنا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ بالواو وفي قصَّة أيُّوب ﴿فَكَشَفْنَا﴾ بالفاء لأنّ ما هنا زيادة إحسان على مطلوبه، فلم يترتَّب بالفاء كترتُّب الاستجابة والكشف، ولا مانع من كون التنجية من الغمِّ بعض تفصيل للاستجابة قبله، والتفصيل يكون بالواو كالفاء، إلاّ أنّ الفاء فيها أكثر.

والفاء في أيُّوب ونوح لاعتبار شأن التفصيل لكثرة ما يفصل فيهما، والواو في ذي النون وزكرياء لقلّته بالنسبة.

ورد في القرآن أذكار ذكر جزاءها بعدها [منها] قوله تعالى: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ...﴾، ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ...﴾ (سورة آل عمران: ١٧٣) ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ (سورة غافر: ٤٤-٤٥) ﴿مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ...﴾ (سورة الكهف: ٣٩) ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا...﴾ (سورة الأنبياء: ٧٩) وغير ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُومِنِينَ﴾ ننجي سائر المؤمنين مثل ذلك الإنجاء، إذا دعونا في غمٍّ مخلصين، وهو مضارع أنجى حذفت النون الثانية الأصلية في الخطّ لا الأولى الزائدة، لحصول التكرير بالثاني دون الأوّل، لكن تخفى في الجيم لأنّها ساكنة تخرج من الخيشوم، وكذلك تخفى في الشين والضاد.

﴿وَزَكَرِيَّآءَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾

القصَّة العاشرة:

قصَّة زكرياء ويحيى عليهما السلام مع قصَّة مريم

﴿وَزَكَرِيَّآءَ اذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ بلا ولد يرثني، كما في آية أخرى، وكما دلَّ عليه قوله تعالى: **﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** أي الباقين بعد الموت، ولو أراد فردا بلا ولد يعينني لقال: وأنت خير المعينين.

وفي ذلك مدح لله سبحانه بالبقاء، وتلويح بفناء ما سواه، لا تلويحا بأنَّه إن لم ترزقني ولدا فحسبي أنت وارثا، لأنَّه لا يناسب مقام الدعاء، لأنَّ مقام الدعاء كما قال ﷺ : «**إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت، اللَّهُمَّ ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنَّ الله لا مكره له**». ويروى: «**فإنَّ الله يفعل ما يشاء ولا مكره له**». وروي: «**ولكن ليعزم المسألة وليعزم الرغبة، فإنَّ الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[1].

[قلت:] لكن يحتمل أنَّ النهي في الحديث لمن يقول ذلك مهملا على ظاهره لا لمن يقوله إظهارا للرضا بكلِّ ما قضى الله ولو خلاف مطلوبه.

١- رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٠٣) باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، رقم ٢٦٧٩. ورواه الربيع في كتاب الأذكار (٢٢) باب أدب الدعاء وفضيلته، رقم ٥٠٣. من حديث أبي هريرة.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ،﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ،﴾ للمعاشرة بتحسين خلقها، وكانت سيِّئة الخلق طويلة اللسان رضي الله عنها، أو بردِّ شبابها بعد أن كبرت، أو بالولادة وكانت عاقرا.

(بلاغة) وعلى الأوَّل العطف على «اسْتَجَبْنَا» لأنَّه لم يدع بتحسين خلقها، أو على «وَهَبْنَا» فلزيادة إصلاحها على مطلوبه، كان بالواو لا بالفاء التفصيلية، وقدَّم هبة الولد لأنَّه مطلوبه الأعظم، وهو لا يتوقَّف على إصلاح خلقها، وإن أريد بالإصلاح إزالة العقم فالمراد: أردنا هبة يحي له وأصلحنا له زوجه للولادة.

ويضعف ما قيل من أنَّ المراد: وهبنا لمجرَّد امتناننا لأنَّ المتبادر أنَّه إجابة لدعائه، والعطاء بعيد الإجابة أشدُّ امتنانا، والداعي إلى هذا الضعف أنَّه قال: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ ولم يقل: فوهبنا، قلت: لا تنس أنَّ المعطوف بغير الفاء على مدخول الفاء ينسحب عليه حكم الفاء.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء المذكورين، لأنَّ العموم زيادة فائدة ولأنَّ فيه السلامة من إتمام الثلاثة بمؤنَّث جيء به من عرض لا لذاته اللازم في تفسير الضمير بزكرياء وزوجه ويحي، وهذا تعليل جملي لمحذوف أي فعلنا بهم ذلك لأنَّهم...الخ، أو استـئناف لتعظيمهم.

﴿كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ إلى الخيرات كقوله سبحانه: ﴿سَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّـكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣) وتفسير القرآن بعضه ببعض أولى من تجديد معنى آخر، كتضمين «يسارع» معنى يرغب فيتعدَّى بفي، ما لم يترجَّح المعنى الآخر لدليل أو يتعيَّن، [قلت:] ولا داعي إلى كونها للتعليل لضعف معناه هنا، سواء قلنا الخيرات العبادات أو ثوابها أو المراتب، إذ يقدَّر ما يسارع به والأصل عدم الحذف إذا أغنى عنه المذكور.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ في نعمنا وقبول الأعمال ﴿وَرَهَبًا﴾ من نقمنا وردِّ الأعمال، ويروى أنَّ الدعاء رغبة ببطون الأكفِّ ورهبة بظهورها.

(نحو) [قلت:] والنصب على التعليل، وأيُّ داع إلى جعلهما حاليين بتقدير مضاف، أي ذوي رغب، أو للمبالغة، أو بتأويلهما بالوصف، أو إلى جعلهما مفعولين مطلقين، كقولك: قمت وقوفا. وعطف الجملة على «يُسَارِعُونَ» فيتسلَّط ـ قيل ـ عليها الكون، فهذا دعاء من توابع تلك المسارعة، ولو عطفت على «كَانُواْ...» لم يفد ذلك، وفيه أنَّه لا يلزم من قولك: «كان زيد يطعم الفقراء ويقرأ» أنَّ إطعامهم يستلحق القراءة. بل العطف على «يُسَارِعُونَ» للموافقة في المضارعة والتجدُّد.

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَاشِعِينَ﴾ منقادين لنا خائفين. ﴿وَالتِي﴾ واذكر مريم التي، أو مِمَّا يتلى عليكم مريم التي، أي شأنها، لا مبتدأ خبرها «نَفَخْـنَا» لأنَّ فيه زيادة الفاء من غير أن يتضمَّن المبتدأ معنى الشرط وجواز ذلك ضعيف، ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عن الزنى وعن التزوُّج.

(فقه) وفي شرع قومها جواز التبتُّل للرجال والنساء، وحرِّم في شرعنا، إلاَّ من لم يجد أو لم يحتج، وادَّعى بعض أنَّ الفرج جيب قميصها إذ جاء جبريل للنفخ فيه و لم تعرفه فمنعته، وفي هذا مزيد مدح لها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أمرنا جبريل بالنفخ فيها نفسها في بطنها كريح الفم لكن من جيب القميص فوصل النفخ منه الفرج وذلك نفخ في الفرج تحقيقا.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾ هو الروح المعروف في الكلام، والإضافة إضافة ملك للمالك، و«مِن» للتبعيض أي بعض روحنا أرواحا من جملة روحنا على تعدِّي النفخ لتضمُّن معنى الإلقاء، كما تقول: لفظت النواة، أو للابتداء.

وقيل: **لا نفخ حقيقا هناك بل المراد الإحياء**، فيحتاج إلى أنَّ عيسى في بطنها كلحمة وضعها الله فيه، أو نطفة منها فأحياه الله، وقيل: الروح جبريل فـ«من» للابتداء.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ دليلا على كمال قدرتنا إذ تولَّد منها بلا أب، أو جنس آيات كلٌّ منهما، أو يقدَّر: وجعلناها آية وابنها آية.

[قلت:] ولا دليل في ذكرها مع الأنبياء على أنَّها نبيئة، وإنَّما ذكرت لأجل ابنها، وذُكرَا عند ذكر زكرياء وزوجه وابنهما يحيى للقرابة بينهم عليهم السلام.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

وحدة الرسالات السماوية، ووعد الله لا يتخلف

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ هذه الطريقة أو الملَّة المذكورة عن الأنبياء ـــ وهي التوحيد والعمل بما أوحي إليهم ـــ أمَّتكم، أي طريقتكم أيـُّهَا الناس أو أيـُّهَا المؤمنون أو أيـُّهَا المعاندون من أمَّة محـمَّد ﷺ، بدأ السورة بهم ووعظهم وذكر لهم الأنبياء وأممهم وختم بهم.

ومن معاني الأمَّة في اللغة: الطريقة، أو هؤلاء الأنبياء أمَّتكم جماعتكم التي تتبعونها، ولا تميلون عنها، وذلك في التوحيد وصفات الله وأفعاله، وتختلف الأنبياء وأممهم في الفروع وقيل: الأمَّة الدين مجازا، وقيل: حقيقة **﴿أُمَّةً﴾** حال

من «أُمَّتُكُم» فلا يختلف عامل الحال وعامل صاحبها، فإنَّ عامل الخبر المبتدأ، وهذا المبتدأ رافع للخبر ناصب للحال، وقيل: بدل من «هَذِه»، ﴿وَاحِدَةً﴾ متَّحدة فيما بين الأمم والأنبياء كلِّهم، أو في أنَّها لا يخالطها الشرك في القبول وصحَّة الاتِّباع.

﴿وَأَنَاْ رَبُّكُم﴾ وأنا إلهكم واحد، الملَّة واحدة، والربُّ واحد، وأمر الأنبياء واحد، ويناسب أنَّ الربَّ بمعنى الإله قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ خاصَّة، والإله المعبود، والإلاهة: العبادة، وفي لفظ الربِّ ترجيح جانب الرحمة ودعاء إلى العبادة بالترغيب.

﴿وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ عطف على محذوف بطريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، قطعا عنهم ونعيا لهم على كفرهم، أي أمروا بالاتفاق على التوحيد وتقطَّعوا أمرهم، أو عطف على قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم﴾ عطف فعليَّة على اسميَّة.

(نحو) أو عطف على المعنى كما يقال في غير القرآن: عطف توهُّم، كأنَّه قيل: أمرتم بالاتِّفاق وتقطَّعتم. و«أَمْرَهُمْ» منصوب على تقدير في، أي تفرَّقوا فيه، أو مفعول به على أنَّ «تَقَطَّع» بمعنى قطَّع بالشدِّ من «تفعَّل» بمعنى «فعَّل» بالشدِّ، وإن ضمِّن معنى جعلوا فأين المفعول الثاني؟ وإن جعل تمييزا فالتمييز لا يكون معرفة.

ومعنى تفرُّقهم: اختلافهم في أنواع الشرك والمعاصي، أو تقطَّعوا المسلمون والمشركون باختلافهم بالإسلام والشرك.

﴿كُلٌّ اِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ للجزاء، كما قال تفصيلا للجزاء: ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ قدرا واجبا من الصالحات، أو زاد، أو بعض الصالحات وهو

الواجب، أو مع زيادة **﴿وَهُوَ مُومِنٌ﴾** بما يجب الإيمان به **﴿فَلاَ كُفْرَانَ﴾** لا حرمان ولا جحود، كما أنّي حرَّمت على عبادي الكفر بي وجحود نعمتي، وهذا تأكيد عظيم في الثواب **﴿لِسَعْيِهِ﴾** لثواب سعيه أي عمله.

﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ أي لسعيه، وهذا أولى من أن يقال: الهاء عائد إلى «مَن» على معنى أنّه لا ننساه ولا يلتبس علينا، كما تكتب أسماء الجند في بعض الأحيان **﴿كَاتِبُونَ﴾** في اللوح المحفوظ بقدرتنا، أو بالملائكة في الصحف.

﴿وَحَرَامٌ﴾ ممتنع كما يمتنع الحرام ولا يرجى حصوله، أو واجب كقوله:

وإنّ حراما ما لا أرى الدهر باكيا   على شجوة إلاّ بكيت على صخر

وهو وجه في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾الآية (سورة الأنعام: ١٦١) وهذا الوجه على أنّ «لا» زائدة. أو الرجوع للدنيا أو بمعنى التوبة من الشرك **﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾** أهل قرية **﴿اَهْلَكْنَاهَآ﴾** أردنا إهلاكها أو قدّرناه في الأزل، أو الإهلاك الخذلان بالكفر، والرجوع التوبة[1] **﴿أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾** بالبعث أو إلى الدنيا أو عن الشرك.

(**نحو**) وانتفاء الرجوع مبتدأ، أو نفس الرجوع إذا جعلنا «لا» زائدة و«حَرَامٌ» خبر، أو «حَرَامٌ» مبتدأ رافع لمكتفى به ولو لم يتقدَّم نفي أو استفهام، وهو قول، وقال ابن مالك: يجوز بلا خلاف، وإنَّما الخلف في حسنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ﴾ «حَتَّى» حرف ابتداء، ولا تخلو عن غاية، وقيل: جارَّة لـ«إِذَا»، وهي عائدة إلى محذوف، أي يستمرُّون على الكفر كافر بعد كافر إلى قرب الساعة، وتقوم عليهم مصرِّين، وإذا قامت آمنوا

١- كذا في النسخ، ولعلّ الصواب: «والرجوع عن التوبة».

ولا ينفعهم، أو عائدة إلى «أَهْلَكْنَا» أو إلى «حَرَامٌ» أو إلى «لاَ يَرْجِعُونَ» أو إلى «تَقَطَّعُوا» وفيه كثرة الفصل، أي يدومون على التقطُّع والخلاف حتَّى إذا جاءت الساعة آمنوا كلُّهم، ولكن يتَّفقون على الكفر فتقوم.

ولا جواب لـــ«إذا» وقيل: جوابها هي «شَاخِصَةٌ» قرن بالفاء وإذا الفجائية معا للتأكيد. وتفتيح ياجوج وماجوج مجاز عن إخراجهم، أو يقدَّر مضاف أي فتح سدُّ ياجوج.

﴿**وَهُم**﴾ ياجوج وماجوج، وقال مجاهد: الناس، ﴿**مِّن كُلِّ حَدَبٍ**﴾ مرتفع منحدر كجبل وأكمة ﴿**يَنسِلُونَ**﴾ يُسرعون، وأصله: مقاربة الخطو مع الإسراع، وعلى أنَّه حقيقة في مشي الذئب يكون هنا مجازا.

(قصص) ياجوج وماجوج قبيلتان هما تسعة أعشار وبنو آدم عشر، قيل: يوحي الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام : أنِّي أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد أن يقاتلهم فاحرز عبادي إلى الطور، يشرب أوائلهم ماء طبرية، ويقول آخرهم: كان هنا ماء، ويكون رأس الثور لأصحاب عيسى خيرا من مائة دينار.

﴿**وَاقْتَرَبَ**﴾ قرب قربا شديدا ﴿**الْوَعْدُ الْحَقُّ**﴾ ما بعد نفخة البعث من البعث والحساب والجزاء.

(قصص) قيل: يقتل عيسى عليه السلام الدجَّال عند باب لد الشرقي في الشام، فيوحي الله سبحانه إليه: أحرز عبادي المؤمنين إلى الطور فقد أخرجت عبادا لا يطاقون وهم ياجوج وماجوج، ويدعو عيسى والمؤمنون في إهلاكهم فيصبحون موتى بالنغف في رقابهم بمرَّة، ويرسل الله سبحانه طيرا كأعناق البخت تلقيهم في البحر، ويغسل الأرض بمطر كزلفة، ويبارك في الأرض حتَّى يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقشرها، وتكفي اللقحة الفئام من الناس وهم الفخذ، والشاة أهل البيت، ويبعث الله عز وجل ريحا طيِّبة في آباط المؤمنين فيموتوا،

ويبقى الكفار يتهارجون كالحمر.

والساعة بعد ياجوج وماجوج كالحامل المتمّة لا يدرى متى تضع، وتلد الفرس ولا يركب ولدها حتّى تقوم الساعة كما روي[1].

﴿**فَإِذَا هِيَ**﴾ أي القصّة ﴿**شَاخِصَةٌ**﴾ خبر لقوله: ﴿**أَبْصَارُ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أو مبتدأ رافع له على الفاعلية، مستغن به عن الخبر على ما مرّ آنفا.

(**نحو**) فذلك كالفعل والفاعل فصحّ أن يكونا خبرا لضمير القصّة، ولا يحكم لهما بحكم المفرد فلا تهم، فلو حكم لهما بحكم المفرد لم يجز أن يقال: أقائم الزيدان؟ بل أجاز بعض الكوفيين الإخبار بالمفرد عن ضمير القصّة أو الشأن.

وقيل: هي عائد إلى مبهم فسّره «أبصار» بعده، وقيل: ضمير الساعة والخبر محذوف، أي واقعة، وقوله: ﴿أَبْصَارُ...﴾ مستأنف، وفيه ضعف لعدم الاحتياج إلى التقدير. **وشخوص الأبصار**: ارتفاع أجفانها من غير أن تطرف لشدّة الهول.

﴿**يَاوَيْلَنَا**﴾ مفعول لقول مقدّر حال مما قبل، أومستأنف أي قائلين، أو يقولون، أو جواب «إذا». ونداء الويل تحسُّر. ﴿**قَدْ كُنَّا**﴾ قبل الفوت أو قبل اليوم ﴿**فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾ عن هذا اليوم، أو عن هذا الذي دهمنا من البعث للحساب ﴿**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ إضراب عن ذكر الغفلة إلى ذكر أنّه قد أنذروا بقدر ما ينتفعون، وأنّهم ظلموا أنفسهم بعدم الاتباع، وتعريضها للعذاب الدائم.

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب الفتن (٣٣) باب فتنة الدجال وخروج عيسى... رقم٤١٥٣. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٣٥٤٦، من حديث ابن مسعود. وللتوسع راجع: تفسير ابن كثير، تفسير الآية ٩٦.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

أحوال الكافرين والمؤمنين في الآخرة

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ «ما» لغير العاقل أصالة ووضعا، ولا تستعمل في غيره أو في العموم إلاَّ لدليل، فلا تدخل الملائكة إذ عبدها بنو الْمُلَيح بالتصغير بطن من خزاعة، ولا عيسى إذ عبده النصارى، ولا عزير إذ عبده اليهود. والنبيء ﷺ ذكر الآية لابن الزبعري حين احتجَّ بهؤلاء على معنى أنَّها لم تشملهم، ثمَّ إنَّه شُهر حتَّى لا يخفى عن نحو ابن الزبعرى أنَّ الملائكة وعيسى ويلتحق بهم عزير يكرهون أن يعبدوا، فكيف يعذَّبون بما فعل غيرهم بلا رضى منهم؟!.

(سيرة) دخل النبيء ﷺ المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاث مائة وستون صنما، فعرض له النضر بن الحرث فأفحمه ﷺ، وتلا ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْـبُدُونَ من دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآيات الثلاث، فأخبر الوليد ابن المغيرة عبد الله بن الزبعرى بذلك، فقال: ولو وجدت محمَّدًا لخصمته، فدعوا رسول الله ﷺ، فقال له: أنت قلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْـبُدُونَ...﴾ قال:

نعم، قال: عبدت النصارى المسيح واليهود عزيرا وبنو المليح الملائكة؟ فقال ﷺ : عبدوا الشيطان، فأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ أي عزيرا والملائكة وعيسى ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ونزل في ابن الزبعرى ﴿مَا ضَرَبُـوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٥٨) .

وروي أنّه ﷺ قال له: ما أجهلك بلغة قومك! إنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ و لم يقل: ومن تعبدون، يعني أنّ ما للأصنام لأنّها لغير العقلاء، ولو أراد الملائكة وعزيرا وعيسى لقال: ومن تعبدون، [قلت:] وقوله ﷺ : «ما أجهلك بلغة قومك!» صحيح المعنى غير ثابت الرواية.

وسمّى الله الأصنام وعبّادها حصبا لأنّهم يرمون لجهنّم كما يرمى الحطب للنار، وأصله الحجارة الصغار يرمى بها إنسان أو غيره، كما قرأ جماعة «حطب جهنم» بالطاء، وعن ابن عبّاس: الحصب الحطب بالزنجية، وإنّما يذكر في القرآن من العجمة ما ذكره العرب منها أو ما ذكره الله عن أهلها.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ مستأنف مؤكّد لما قبله، واللام بمعنى على، أو للاختصاص، أو لام تقوية على أنّ الورود متعدٍّ كقوله: ﴿وَرَدُوهَا﴾. ضَعُفَ «وارد» عن العمل لكونه وصفا لا فعلا ولتقدُّم المعمول فقوي بها. والورود هنا الدخول. والخطاب للكفرة أو لهم ولما يعبدون تغليبا للعاقل، وفي ورودها معهم زيادة غمٍّ إذ علموا أنّها معهم ولا شأن لها، كيف عبدنا وحالها هذا؟ وقد أضعنا عبادتها إذ لم تشفع لنا، وعذّبنا بها!.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَآءِ﴾ الأصنام التي تعبدونها ﴿ءَالِهَةً﴾ كما تزعمون ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ عبّر بالواو مراعاة لتعظيمهم لها ولو في وقت هذا الخطاب لهم، والشياطين أيضا واردوها لكن كلامهم في الأصنام.

﴿وَكُلٌّ﴾ من العابدين والمعبودين ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أبدا ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ متعلّق بما تعلّق به «لهم» أو بـ«لهم» لنيابته عنه، وأصل «خالدون» و«هم» أن يستعملا للعقلاء لكن غلبوا على غيرهم، كما أثبت الزفير وهو للعابدين دون الأصنام بقوله: ﴿زَفِيرٌ﴾ إلاّ إن جعل الله سبحانه لها حياة، وزفيرا بلا تعذيب لها بل بها، فلا تغليب في جنب زفير، وهو صوت نفس المغموم من أقصى الجوف، وقيل: أصله ترديد النفَس حتّى تنتفخ الضلوع، ولا يقال: يجوز أن نجعل الخطاب في «أنتم» للعقلاء المخاطبين بـ«إنّكم» فلا تغليب في «خالدون» ولا في «زفير» لأنّا نقول: لا يصحُّ أن نجعل الخطاب لهم خاصّة في قوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ مع إثبات الورود لها أيضا في قوله: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلآءِ...﴾ الواضح في شمول أنتم لها.

﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ متعلّق بقوله: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ﴾ ولا صدر لـ«لا» هذه، وقدّم للفاصلة وعدم السمع لصممهم، لقوله تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (سورة الإسراء: ٩٧) وهم على الصمم إلاّ نادرا.

ونهاية عذاب أهل النار أن لا يرى بعض بعضا ولا يسمعه، ويجعل في تابوت من حديد جوف تابوت آخر، ولا يرى أنّ أحدا يعذّب معه في النار، ذكر ذلك ابن مسعود وقرأ هذه الآية، وقيل: لا يسمع بعض زفير بعض لشدّة الهول، وقيل: لشدّة الزفير، وقيل: لا يسمعون ما يسرُّهم، ولا دليل في الآية لهذا.

﴿إِنَّ الذينَ سَبَقَتْ﴾ في الأزل لا كما قيل في قوله: ﴿فَمَن يَّعْمَلْ﴾ وإنّه تبشير لهم ﴿لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ اسم تفضيل، أعني أنّه تأنيث «أفعل» التفضيل، فالمعنى: الخصلة المفضّلة في الحسن، وهي السعادة، وقيل: التوفيق للطاعة وذلك على العموم، لأنّه يعتبر عموم اللفظ لا خصوص السبب، فلا يشكل عليه ما

ورد أنّ سبب النزول: الملائكة وعزير وعيسى، فما هم إلاّ بعض أفراد العموم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين سبقت لهم مِنـَّـا الحسنى، وإشارة البعد لعلوّ درجتهم ﴿عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لا يدخلونها ولا يقربون منها، وذلك إبعاد حكم ورتبة، وقد يقال: إبعادٌ بعد قرب لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ، إلاّ وَارِدُهَا﴾ (سورة مريم: ٧١) ، أو هم إذ كانوا في الجَنــّـة مبعدون عنها ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوت حركتها حين كانوا في الجَنـــّة، ومن حين ورودها وقبل ذلك.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتَ اَنفُسُهُمْ﴾ من كلّ لذّة ﴿خَالِدُونَ﴾ وما لم يكتبه الله لهم لا يخطر ببالهم، وإن خطر لم يشتهوه، كدرجة من هو أعلى. والتقديم للحصر أي لا يخلدون إلاّ فيما اشتهت أنفسهم، لا بدَّ من الخلود ولا بدَّ من كونه فيما اشتهوا.

﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الاَكْبَرُ﴾ فأولى أن لا يصيبهم الأصغر، كذا قيل، وفيه أنّه قد يصاب بالأصغر ولا يصاب بالأكبر، الجواب: أنّ الآية في إعلاء درجتهم فلا يهانون بالأصغر أيضا، أو لأنّ المقام لذكر الأكبر، والآية من نفي السبب وهو إصابة الأكبر مثلا بنفي المسبَّب، وهو الحزن.

والفزع الأكبر: الفزع حين انصرف أهل النار إلى النار، أو حين أطبقت النار على أهلها، أو حين يقال: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُون﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨) ، أو حين يذبح الموت بصورة كبش أملح بين الجَنـــّة والنار، ونودي: «خلود لا موت في النار ولا في الجنَّة»، أو حين تطوى السماء، أو حين النفخة للبعث.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ ملائكة الرحمة بالرحمة أو بالسلام حين الخروج من القبور ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي قائلين هذا يومكم الذي كنتم توعدونه في الدنيا لإيمانكم وطاعتكم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ﴾ متعلّق بـــ«تَتَلَقَّاهُم» أولى من تعليقه بـــ«يَحْزُنُ» أو بـــ«الفَزَع»، والمصدر يتعلّق به ولو نعت، كقوله:

إنّ وجدي بك الشديد أراني عاذرا من وجدت فيك عذولا[1]

أو فُصِل، أو بدل كلٍّ من هاء توعدونه المحذوفة.

والمراد بالسماء الجنس بل الاستغراق لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (سورة الزمر: ٦٧) ، وهذا الطيُّ يعقبه إفناء أو تبدُّل بغيرهنَّ لقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الاَرْضُ غَيْرَ الاَرْضِ والسَّمَاوَاتُ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٨) ، أو يراد بهذا التبديل تعويض أرض الجنَّة وسماءها.

﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ الكاف اسم مضاف مفعول مطلق نائب عن محذوف، أي طيًّا مثل طيٍّ، أو حرف أي طيًّا ثابتا كطيِّ السجل، والسجلُّ الصحيفة، وخصَّه بعض بصحيفة العهد، وقيل: هو في الأصل حجر يكتب فيه، ثمَّ سمِّي به كلُّ ما يكتب فيه من قرطاس أو جلد أو غيرهما.

﴿لِلْكِتَابِ﴾ نعت للسجلِّ على قصد الجنس، أو حال له والكتابة مصدر، أو اللام للتعليل متعلّق بـــ«طَيِّ» فإنَّ المكتوب يطوى محافظة على ما كتب فيه، وإنَّ جعلنا السجل اسما للذي كتبه فاللام للتقوية، والكتاب مفعول به لـــ«طي».

فقد قيل: السجل اسم ملك موكَّل بحفظ الصحف، إذا مات إنسان رفع كتابه إليه فطواه ليوم القيامة، ولا بأس بتشبيه الأقوى بالضعيف، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ (سورة النور: ٣٥) أو اعتبر القُوَّة هنا بما في الأذهان من أنَّ طيَّ الورقة لضعفها ودقَّتها وصغرها أقوى من طيِّ السماء، و[قيل] عن ابن

١- أورده صاحب المعجم في شواهد اللغة العَرَبِـيَّة: ج٦، ص١٢٥، ولم ينسبه لأحد.

عبَّاس وابن عمر: السجل كاتب النبيء ﷺ ، وهو وصف لا علَم له، فلا يضعَّف بأنَّه لا يعرف في الصحابة رجل اسمه سجل، وقد قيل: اسمه زاد بن مردويه، والأكثر أنَّ السجلَّ الصحيفة، والجمهور على أنَّه اسم عربيٌّ، وقيل: فارسيٌّ معرَّب.

﴿**كَمَا بَدَأْنَـآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ**﴾ نعيد الموتى بعد فنائهم بأجسامهم الأولى بنفسها، كما خلقناهم أوَّل مرَّة، وقيل: ما تلف وفني يخلق مثله.

(أصول الدين) والروح لا تبدَّل، أو هي المتلذِّذة أو المتألِّمة، وليس الإحياء بعد الموت أصعب من الإيجاد الأوَّل، بل أسهل لبادي الرأي، وهما عند الله سواء، ومن قال: أسهل أشرك لوصف الله سبحانه بالعجز. وعجم الذنب لا يفنى. والأنبياء ومن التحق بهم لا تفنى أجسامهم، كما ورد في المؤذِّنين المحتسبين، وفي أنواع من الأعمال.

(نحو) والكاف اسم مضاف للمصدر مفعول مطلق، أي نعيده إعادة مثل بدئنا له، أو إعادة ثابتة كبدئنا له. و«ما» مصدرية كما رأيت، أو اسم أي كبدءٍ بدأناه، أو كبدءِ الذي بدأناه، أو «كما» مكفوف وكافٌّ[1]، وفي ذلك خلقانً: الثاني يشبه الأول.

(سيرة) قالت عائشة رضي الله عنها: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي عجوز من بني عامر، فقال: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقالت: إحدى خالاتي: فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنَّة يا رسول الله، فقال ﷺ : «**إنَّ الجنَّة لا يدخلها عجوز**»، فأخذها ما أخذها، فقال ﷺ : «**ينشئهنَّ الله خلقا غير**

١-انـتبه أنَّ الشيخ يقصد بالكافٌّ: ما الكافَّة عن العمل كما في إنَّما وحيثما وغير ذلك، وبالمكفوف إنَّ أو حيث وغيرهما من الكلمات العاملة.

خلقهنَّ»، ثمَّ قال: «**تحشرون حفاة عراة غلفا**»، فقالت: حاشى الله تعالى من ذلك، فقال رسول الله ﷺ : «**بلى إنَّ الله تعالى قال:** ﴿**كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾»، فأفادت الآية البعث ردًّا على منكريه، وأفادت أنَّهم يبعثون كما كانوا فتردُّ إليهم شعورهم وأظفارهم وقلفة الختان من ذكر وأنثى، وكلُّ جلدة في طول أعمارهم وقصرها.

﴿**وَعْدًا عَلَيْنَآ**﴾ مصدر مؤكَّد، مثل أنت ابني حقًّا، أي وعدنا ذلك وعدا، وإذا اعتبر في «نُعِيدُ» معنى الوعد كان مصدرا مؤكِّدا له، كعليَّ ألف عرفا. و«عَلَيْنَا» نعت «وَعْدًا» أي ثابتا باللزوم منَّا، أو «وَعْدًا» بمعنى إخبار بخير، ونعت بـــ«عَلَيْنَا» اعتبارا لمعنى موعود على معنى: علينا إنجازه بطريق الاستخدام، وفيما مرَّ كفاية.

﴿**إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ لذلك لا محالة، وذلك تأكيد آخر، ويقال: معناه قادرين على الفعل، ويقال: فاعلين للماضي لتحقُّق الوقوع، وكلُّ ذلك صحيح المعنى في نفسه، إلاَّ أنَّنا نعتبر الظاهر ما وجدنا صحَّة بلا ضعف، ولعلَّ وجه التفسير بالقدرة اعتبار أنَّ اسم الفاعل للحال، الموجود في الحال القدرة والفعل مستقبل.

﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُــورِ**﴾ الموحى إلى داود عليه السلام ﴿**مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ**﴾ التوراة، وقيل: الزبور جنس كتب الله التي بعد التوراة، وقيل: الزبور القرآن والذكر التوراة، وقيل: الزبور كتب الله كلُّها، والذكر اللوح المحفوظ. وتسميته ذكرا مجاز لاشتماله على حروف تنظم منها كلمات تتضمَّن تذكيرا وعنه ﷺ : «**كان الله ولم يكن قبله شيء، وكان عرشه على الماء ثمَّ خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كلَّ شيء**»[1] أي في اللوح المحفوظ. والزبور لفظ

١- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٠١) باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾
=

عربيٌّ، «فعول» بمعنى «مفعول»، أي مزبور أي مكتوب، وخصَّه بعض بالكتابة الغليظة، أو بمعنى «فاعل» أي زابر أي زاجر.

﴿أَنَّ الاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أرض الجنَّة لأنَّها خلقت للصالحين، وما يدخلها فاسق إلاَّ بعد أن يوفَّق للتوبة، ويعدُّ صالحا ولو عند الموت ما لم يشاهد، ويدلُّ لهذا أنَّها ذكرت بعد ذكر البعث، ولا أرض بعد البعث يتمكَّن فيها الصالحون غيرها.

وعن ابن عبَّاس: أرض الدنيا يستولي عليها المؤمنون، كقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الاَرْضِ﴾ (سورة النور: ٥٥) قال ﷺ : «**إنَّ الله تعالى زوَّى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمَّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**»[1].

[قلت:] وهذا وعد بإعزاز الدين الإسلامي وأهله بالاستيلاء على أكثر المعمور الذي يتردَّد إليه المسافرون، وهذا هو المراد ولا يشكل علينا الدنيا الجديدة التي لم يدخلها المؤمنون والهند المغربي، وإن اعتبرنا زمان المهدي وعيسى وهو من هذه الأمَّة إذا نزل فلا إشكال، وأمَّا وضعه الجزية عن أهل الكتاب والمجوس فلا يقبل منهم إلاَّ الإسلام، فمن سنَّة النبيء ﷺ إليه إذا أتى، وقيل: أرض المقدس، وقيل الشام كلُّه، **والصحيح الأوَّل**، وعلى أنَّها أرض الدنيا لهذه الأمَّة لا يشكل كفر جميع المكلَّفين عند قرب الساعة جدًّا، لأنَّ الإرث لا يختصُّ بالدوام ولأنَّ أيـَّـام قرب الساعة قليلة لا يعتدُّ بها كأنَّها من أيـَّـام الآخرة.

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر في هذه السورة من دلائل الوَحْدَانيـَّـة والنبوءة والمواعظ والوعد والوعيد، وقيل: في هذا القرآن **﴿لَبَلاَغًا﴾** كفاية كما

=

رقم ٣١٩٠. ورواه **أحمد** في مسند البصريين، رقم ١٩٣٧٥. من حديث عمران بن حصين.

١- تَقَدَّمَ تخريجه في ج٨، ص٢٠٢.

يقال لفلان بلغة من العيش، أي كفاية يبلغ بها المراد، أو لسبب بلوغ إلى المراد من الدين، أو لنفس البلوغ إليه على المبالغة في أنَّ ما ذكر كاف، ﴿لِقَوْمٍ عَابدينَ﴾ لقوم مآلهم العبادة بالتوحيد والطاعة إذا سمعوا ذلك، أو زيادة عبادة بكلِّ ما سمعوا من ذلك بعد إيمانهم، أو همَّتهم العبادة يبحثون عن طرقها الصحيحة. وعن الحسن: الذين يصلُّون الخمس جماعة. وعن ابن عبَّاس عنه ﷺ أنَّه قرأ ذلك فقال: «**هي** ـــ أي العبادة ـــ **الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة**». وعن أبي هريرة: الصلوات الخمس، وعن كعب الأحبار: صوم رمضان والصلوات الخمس، قلت: المراد في ذلك التمثيل ولا يكفي التخصيص.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُل رَّبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

النبيء عليه السلام رحمة للعالمين وتذكير ونذر لهم

﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ**﴾ يا محمَّد بما ذكروا مثاله من الشرائع والأحكام والوعظ والوعد والوعيد ﴿**إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ نصب على التعليل أي لنرحم بك العالمين، والرحمة من الله لا على التعليل، والرحمة منه ﷺ لاختلاف الفاعل لأنَّ فاعل الإسال هو الله عز وجل، ويجوز أن يكون حالا من الكاف مبالغة، كأنَّه ﷺ نفس الرحمة، أو بمعنى راحما، أو ذا رحمة، أو حالا من «نَا» أي ذوي رحمة، أو راحمين.

[قلت:] ودخل في «الْعَالَمينَ» الكُفَّار والمؤمنون، وأهل الشقاوة مطلقا لأنَّ الله رحمهم به لأنَّهُ ﷺ يُبَيِّنُ لهم الهدى وأسباب السعادة، فلم يقبلوا

رحمته لخلافهم، وضيَّعوها، وأيضا هو لهم نفع دنيويٌّ أيضا إذ لا يستأصلون كما استؤصلت أمم قبلهم بنحو مسخ وخسف وإغراق وصاعقة.

وهل دخلت الملائكة في «الْعَالَمِينَ» ؟ وهل بعث إليهم؟ قولان، قالت جماعة: بعث إليهم فهو رحمة لهم، ولا ندري بم أمرهم وعمَّا نهاهم وعليه المحلّي في شرح جمع الجوامع، وَادَّعَى الفخر الرازي الإجماع عليه ولا إجماع، وقال قوم: لم يبعث إليهم و لم يدخلوا في «الْعَالَمِينَ»، القول الثالث أنَّهم داخلون في «الْعَالَمِينَ» و لم يبعث إليهم.

قلت: كنت أقول بهذا في المذهب لأنَّهم ازدادوا به عبادة و لم يبلهم الله تعالى بما بلى به هاروت وماروت، وقال ﷺ لجبريل: «**هل أصابتك هذه الرحمة؟**» قال: نعم كنت أخشى عاقبة فأمنت لقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (سورة التكوير: ٢٠) ، ولا سند لهذا الحديث، فهو رحمة لهم كما هو رحمة لسائر الحيوان غير مرسل إليها، وكذا المجانين والأطفال هو رحمة لهم بلا بعث إليهم، ويجوز أن نقول: بعث للأطفال والبلّه الذين يفهمون قليلا فإنَّهم يثابون بحسناهم بلا عقاب على سوء، وكما دخلت الملائكة في نحو «الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ» دخلوا هنا، وقد زعم بعض أنَّ الأشياء كلَّها من نوره ﷺ .

﴿**قُلِ اِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ, إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ هنا حصران: قصر الصفة على الموصوف: قصر الوحي على الوَحْدَانيَّة، وقصر الموصوف على الصفة: أنَّ الله لا يجاوز الوَحْدَانيَّة، وكأنَّه قيل: ما يُوحي إليَّ إلاَّ أنَّه ما الله إلاَّ واحد.

(بلاغة) ومعنى قصر الوحي على الوَحْدَانيَّة مع أنَّه قد أوحى إليه أيضا القصص والتكاليف، أنَّ الوَحْدَانيَّة الأصل وغيرها راجع إليها، والوحي بها هو الأصل وما عداه راجع إليه، أو غير منظور إليه في جنبه، فهو قصر ادِّعائي، أو قصر قلب إضافي، أي أوحي إليَّ التوحيد لا الشرك، وكذا الكلام في

قصر الموصوف على الصفة. و«أَنَّمَا» بالفتح تفيد القصر كالمكسور على الصحيح اعتبارا للّفظ قبل التأويل بالمصدر.

﴿فَهَلَ اَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون والمعنى: الأمر بالانقياد، وزعم بعض أنّه أمر بلازم الانقياد، وهو إخلاص العبادة، والعقل طريق لإثبات الواجب، وأمّا الوَحْدَانيـةّ فطريقها السمع، قلت: والعقل أيضا، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ الاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢) .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُل ـ اذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ استعارة تمثيلية، شبّه ﷺ بمن بينه وبين أعدائه هدنة فأحسّ بغدرهم فنبذ إليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه. و«عَلَى سَوَآء» حال من التاء والكاف أي ثابتين أنا وأنتم على استواء في العلم بنبذ العهد، لا أخدعكم، أو من الكاف أي مستوين كلُّهم في العلم به، أو نعت لمحذوف أي إيذانا على سواء، ويجوز أن يكون الاستواء في ذلك كلّه استواء في المعاداة، أو في وجوب العلم بالوحدانيَّة. والإيذان: الإعلام، والمفعول الثاني محذوف أي أعلمتكم حربي لكم، أو التوحيد.

﴿وَإِنَ اَدْرِي﴾ لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبر ﴿اَم بَعِيدٌ﴾ مبتدؤه قوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ قدّم لأنّه الأهم لهم، وللفاصلة، أو مبتدأ رافع لمستتر مغن عن خبره. و«ما» فاعل لـــ«بَعِيدٌ» على التنازع أغنى عن الخبر، أو فاعل لـــ«قَرِيبٌ» أغنى عن خبره ولا ضمير فيه بل في «بَعِيدٌ».

﴿إِنَّهُ، يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ المجهور به ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ في تكذيب الوحي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من ذلك ومن الحقد على المسلمين، فيجازيكم بذلك كلّه، وعلى سائر كبائركم وصغائركم، وعلى ترك عمل الفرائض.

﴿وَإِنَ اَدْرِي لَعَلَّهُ،﴾ أي التأخير المعلوم من الكلام أي لعلّ تأخير جزائكم ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ بعد فتن أُخَر، أو اختبار بعد اختبارات، لينظر كيف تعملون،

وهو عالم به قبل وقوعه وجملة «لَعَلَّهُ...» سدَّت مسدَّ مفعولي «أَدْرِي» معلَّقة كما يكون الاستفهام معلَّقا.

﴿وَمَتَاعٌ﴾ اسم مصدر وهو التمتيع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقت الموت أو يوم بدر أو القيامة ﴿قُل رَّبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ المراد طلب التعجيل لأنَّ الحكم لا بدَّ واقع، وإنَّه بالحقِّ لابدَّ، وأجاب الله له بعد أن دعاه بقتلهم يوم بدر.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ خبر ثان أو نعت للرحمن مراعاة للجمود والعلَميَّة، أو «الرَّحْمَنُ» نعت و«الْمُسْتَعَانُ» خبر، ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الإشراك والتكذيب بالوعيد، ودعوى خمود الإسلام ونحو ذلك، وكونه لا ولد له ﷺ فينقطع بموته ذكره، خيَّبهم الله!.

والله المستعان على كُلٍّ من يعادينا، وختم لنا بالسعادة

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه

يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ .

تفسير سورة الحج وآياتها ٧٨

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④﴾

إنذار الناس بهول الساعة

﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ**﴾ الخطاب الذي حكمه العموم خطاب للموجودين من المكلّفين في حال النزول والذين سيوجدون، أو سيوجد تكليفهم، مثل من وجد وهو طفل أو مجنون، وقضى الله حياته، وذلك تغليب وقيل حقيقة، وهو مذهب الحنابلة وطائفة من المتقدّمين والفقهاء.

وقيل: مجاز، وقيل: خاصٌّ بالمكلّفين الموجودين حال النزول، وأمّا غيرهم فملتحق بهم من الحديث ومن القرآن لِمَا جاء فيه بطريق العموم والغيبة مثل: من فعل كذا، ومن لم يفعل كذا فله كذا وعليه كذا.

وكذا الخلف في جمع المذكر السالم جمع صفة وواو الجمع تدخل فيه الإناث تغليبا أو حقيقة أو مجازا؟ أو لدليل آخر من القرآن مثل من فعل أو لم يفعل أو من الحديث.

وقيل: الخطاب خاصٌّ بأهل مَكّة، وعليه فالتقوى ترك الشرك بخلاف غير هذا القول فإنّها تعمُّ ترك المعاصي مطلقا، لكن لا مانع من التعميم أيضا في أهل

مَكَّة، لأنَّ التحقيق خطاب المشركين بالفروع، ولو كان الأنسب الأمر أوَّلا بالتوحيد، ولا خلاف في دخولهنَّ في نحو الناس والإنسان، مثل: ﴿إِنَّ الانسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾الآية (سورة العصر: ٢) مما لفظه عامٌّ. ولا علامة تذكير ولا تأنيث فيه. ولفظ الربِّ تغليظ، كأنَّه قيل: احذروا عقوبة مالك أمركم ومربِّيكم.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تحريك الأرض الدالُّ على قرب الساعة جدًّا، وهي قبل طلوع الشمس من مغربها شيء عظيم، وهي نفخة الفزع وبعدها نفخة الموت، وبعدها نفخة البعث، تموج الوحوش والإنس والجن مختلطين. وأضاف الزلزلة للساعة لأنَّها من أشراطها وقربها، كأنَّها مجاورة كأنَّها وقعت الزلزلة في الساعة، فيكون من إضافة المصدر إلى وقته أي في الساعة، أو إلى فاعله، على أنَّ المزلزل للأرض هو الساعة مجازا، أو إلى المفعول به المتجوَّز به كأنَّه زلزل الله الساعة، والمزلزل حقيقة هو الله عز وجل في ذلك كلِّه، أو الملك وفعله فعل لله سبحانه.

[قيل:] والزلزلة تكون بأمره ملكا موكَّلا على جبل قاف بتحريق عروق الأرض المتَّصلة بجبل قاف، كذا قيل: إذا أراد زلزلة أرض يأمره بتحريك عرق تلك الأرض.

وتقول الفلاسفة: إنَّ الزلزلة باجتماع بخار واحتباسه في بطن الأرض وغلظه مع انتفاء منفذ، فقد يكون منه خسف وأصوات ونار لشدَّة اشتعال البخار، وإن صحَّ فالله جامعه ومخرجه، ومزلزل به إذا شاء، ويناسبه شدَّة الزلزلة وكثرتها في الأرض الصلبة بالنسبة إلى الرخوة.

ويدلُّ على إرادة نفخة الفزع وجود المرضعة والحامل لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ فإن كان المراد نفخة البعث كما قال الجمهور فالمراد بذهول المرضعات ووضع

الحوامل الكناية عن شدَّة الهول لا حقيقة الإرضاع والوضع، **وهو وجه حسن** مع أنَّ نفخة الفزع ليست نفس ما يوعدون، ولا دلالة فيها على البعث، الجواب أنَّها ولو لم تدلَّ على البعث بذاتها لكنَّها علامة على تحقُّق البعث وقربه، وقد أخبر النبيء ﷺ أنَّها من أشراط الساعة المنذرين هم بها الموعود بالبعث بعدها.

(سيرة) كان النبيء ﷺ في غزوة بني المصطلق فنزلت عليه ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ...﴾الآيتين فقال ﷺ : «**أتدرون أيُّ يوم ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:«**ذلك يوم يقول الله لآدم** عليه السلام : **قم ابعث بعث النار، قال: يَا رَبِّ وما بعث النار؟ قال: من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنَّة**» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال ﷺ : «**قاربوا وسدِّدوا وأبشروا فإنَّه لم تكن نبوءة قطُّ إلاَّ كان بين يديها جَاهليَّة، وما مثلكم في الأمم إلاَّ كمثل الرَّقْمَة**[1] **في ذراع الدَّابَّة، أو كالشامة في جنب البعير، وإنِّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنَّة**»[2]، وهذا نصٌّ في أنَّ زلزلة الساعة بعد البعث.

(نحو) و«يَوْمَ» متعلِّق بـ«تَذْهَلُ» قدِّم على طريق الاهتمام ولا حاجة إلى تعليقه بـ«عَظِيمٌ» أو إبداله من «السَّاعَة» وبناؤه جوازا للإضافة إلى الجملة، ولا إلى تقدير: اذكروها من ترونها للزلزلة، لأنَّها المحدَّث عنها وهي المشاهدة، وقيل: الساعة.

١- الرقمة: قال النووي: قال أهل اللغة: الرقمتان في الحمار هما الأثران في باطن عضده. وقيل: هي الدائرة في ذراعيه، وقيل هي الرمة الناتئة في ذراع الدَّابَّة من الداخل.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن باب (٣٢) ومن سورة الحج، رقم ٣١٦٨. ورواه **أحمد** في مسند البصريين، رقم ١٩٤٠٠. من حديث عمران بن حصين مع زيادة.

والمرضعة وذات حمل شامل للنساء وسائر إناث الحيوان. و«ما» واقع على من لا يعلم ومن يعلم، وتكون الأنثى ملقمة ثديها للرضيع فتذهل عنه، ولا يتعلّق قلبها به مع سقوطه عنها، وكأنّه غير ولدها، أو كأنّه حجر، أو «ما» مصدريَّة.

(صرف) والمرضعة والحائضة بالتاء من في حال الإرضاع والحيض، وأمَّا بلا تاء فمن لها من ترضع ومن بلغت سنَّ الحيض، ولم يقل: وتضع كلُّ ذات حمل ما حملت، لأنَّ الحَمل بفتح الحاء الجنين، وما حملت يحتمل الظهر وغيره، وإطلاق الحَمل بالفتح على ثمر الشجرة ولو كان حقيقا لكن لا يتبار شمول الآية له. والرؤية في الموضعين بصرية. وقيل: تبعث الحامل حاملا والمرضعة مرضعة بحالها، وكلُّ أحد يحشر بحاله فتلد الحامل بعد البعث وتذهل هي والمرضعة عَمَّا ولدتا.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ ترى يا من يصلح للرؤية، وهذا عموم أولى من جعل الخطاب للنبيء ﷺ، لأنَّه أبلغ في التهويل، ولم يقل: وتصير الناس سكارى للإيذان بكمال ظهور تلك الحال، حتَّى لا تكاد تخفى عن كلِّ مبصر، والمراد: ترى حال الناس كحال السكارى لكنَّهم ليسوا سكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ حال مؤكِّدة؛ أو «تَرَى» بمعنى تظنُّ وأزال الظنَّ بقوله: ﴿وَمَا هُمْ﴾ فلا تأكيد.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ متعلّق بقوله: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ أي لكن شدَّة العذاب صيَّرتهم كالسكارى، أو صيَّرتهم بحال تظنُّهم سكارى معها، ويبعد الاستدراك على محذوف ما ذكر من الذهول والوضع، ورؤية الناس هيِّن ولكن عذاب الله شديد، وهو عذاب النار والمحشر، بخلاف ما ذكرت فإنَّ العذاب فيه هو نفس ما به الذهول والوضع والسكر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّجَادِلُ﴾ ينازع ﴿فِي اللهِ﴾ في شأن الله بإنكاره، أو بجعل الشريك وإنكار كتابه ورسوله، أو بوصف الله بغير صفته وإثبات الأباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بـ«يُجَادِلُ» أو حال من ضميره.

(سبب النزول) ونزلت في النضر بن الحرث وكان خَصِمًا، إذ قال: الملائكة بنات الله سبحانه، والقرآن أساطير الأوَّلين، وأنَّه سبحانه لا يقدر على إحياء الموتى، وفي أبي جهل وفي أُبي بن خلف.

وهي عَامــّة في كلِّ من يجادل في الله بغير علم، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فالحكم بالعموم.

﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في أقواله وأفعاله واعتقاده ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ متجرِّد عن الخير، شجرة مرداء: لا ورق فيها، ورملة مرداء: لا نبات فيها، ورجل أمرد: لا لحية له، وأمرد المكيال: مسح عليه كما تفعل قوم لوط في كيلهم، والمراد: إبليس وجنوده، وهو الظاهر، أو رؤساء الناس الداعون للعامة إلى الكفر.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي على الشيطان ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشأن، أولى من عوده إلى الشيطان ﴿مَن﴾ شرطيَّة، والمقام للعموم كما هو شأن الشرطيَّة، لا موصولة لأنَّ أصلها العهد وللاحتياج إلى زيادة الفاء ﴿تَوَلاَّهُ﴾ والضمير المستتر لـ«من» والهاء للشيطان، أي اتــّبَعَ الشيطان وَاتــّخَذَه وَلِيًّا، أو بالعكس أي صار الشيطان واليا عليه، غالبا له.

﴿فَأَنــّهُ﴾ أي الشيطان ﴿يُضِلُّهُ﴾ عن الحقِّ الذي هو طريق الجنَّة ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ يوصله ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ إلى عذاب النار المسعورة أي الموقدة، وجملة «مَن تَوَلاّهُ...» خبر «أنَّ»، والمصدر نائب فاعل «كُتِبَ» أي كتب عليه إضلال متولِّيه، أو متولاّه وهداه إلى عذاب السعير، وجملة «كُتِبَ» ونائبه نعت

«شَيْطَان»، ومعنى ﴿كُتِبَ﴾ قضي وقدِّر، أو كتب عليه بالحروف أنَّه من تولاَّه...الخ، أي رسم عليه الإضلال والإيصال إلى النار كتابة لا يتخلَّف عَمًّا فيها، وأصل الهداية أن تكون إلى الخير فاستعمالها في السوء استعارة تهكُّمية تمثيلية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾

الاستدلال بخلق الإنسان والنبات على البعث

﴿يَآ أَيُّـهَا النَّاسُ﴾ الكُفَّار بإنكار تحقُّق البعث **﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾** شكٍّ **﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾** من إمكان البعث، عبَّر بالريب مع جزمهم بالإنكار تلويحا إلى أنَّ إنكاره لوضوح دلائله كأنَّه لم يكن، وليست في شيء من الاحتمال، كما أنَّ التصدير بإنْ وتنكير «رَيْب» تلويح إلى أنَّ حقَّه أن يضعف ويشكَّ فيه عندكم، لا أن ينكر، أو عبَّر بالريب مع جزمهم بالإنكار تنبيها على أنَّ جزمهم بالإنكار بمنزلة الشكِّ الضعيف، لقوَّة الدلائل.

و«من» بمعنى في متعلِّق بــ«رَيْب» وعدل إليها لئلاَّ تتكرَّر «في»، أو بمعنى الابتداء تتعلَّق بمحذوف نعت لــ«رَيْب» واستظهر أنَّ المراد: في ريب من إمكان البعث، كما يدلُّ له إثبات الإمكان في قوله: **﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن**

تُرَابٍ...﴾ الخ وأجيز أن يكون المراد: في ريب من وقوع البعث، واعترض بمخالفته لما اتّصَلَ به من إثبات الإمكان وتكرُّره مع قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾.

ويجاب بأنَّه لا تكرُّر لأنَّ هذا شكٌّ منهم في الوقوع، وأنَّ الله يبعث من القبور جزم من الله بالوقوع ردًّا عليهم، **وأيضا لو تكرَّر** لم يضرَّ، لأنَّ المراد التأكيد وللفصل، ولأنَّ المعنى: كيف تشكُّون في وقوع البعث مع أنَّه قد وقع خلقه لكم من تراب.

(نحو) والجملة تعليل نائب عن جواب الشرط، أي: أخطأتم في شكِّكم لأنَّا خلقناكم من تراب، أو معطوفة على جواب محذوف عطف إخبار على إنشاء هكذا: فانظروا إلى مبدإ خلقكم ليزول ريبكم فإنَّا خلقناكم من تراب، ومعنى خلقهم من تراب أنَّ أصلهم الذي تكوَّنوا منه من تراب وهو آدم، والأغذية التي تكوَّنوا منها من تراب.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ منيٍّ، من النَّطْف وهو التقاطر، أو من قولهم للماء القليل الصافي نطفة، والمراد ما يشمل ماء الرجل وماء المرأة، ولو كان ماء الرجل أكثر، والمراد نطفة واحدة، وزعم بعض أنَّ المراد نطفة آدم **﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾** قطعة جامدة من الدم متكوِّنة من النطفة **﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾** قطعة صغيرة من اللحم قدر ما يمضغ تكوَّنت من العلقة **﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾** تعظم بعد فيكون إنسانا عظيم الجسم **﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾** يكون إنسانها صغير الجسم.

والتخليق إظهار أعضاء بعد أن كانت غير مظهرة، كسائر الترتيب، قبل أن تكون أوَّلا غير متبيِّنة الأعضاء ثُمَّ تكون متبيِّنة، وعلى هذا الأصل تقديم «غير مخلَّقة» على «مخلَّقة»، لكن أخِّرت لكونها عدم وجود والوجود أولى بالتقديم، والكلام في إيجاد ما لم يكن، والإيجاد في «مخلَّقة».

(لغة) وعبَّر بالتخليق لا بالخلق لكثرة الأعضاء المختصِّ كلٌّ واحد منها بخلق وصورة، وقيل: المخلَّقة: المسوَّاة من النقص والعيب، يقال: خلَّق السواك أو العود سوَّاه وملَّسه، وصخرة خلقاء، وجبل أخلق: أملس، فمَن نطفتُه كذلك يخرج بدنه سويًّا حسنا منظرا وخصلة، وما نقص فيها ينقص منهما أو من أحدهما.

وقيل: المخلَّقة: التي تمَّت مدَّتها فولدت وغيرها ما سقطت، وليس في الآية شرط الحياة فهو مخلوق الصورة نفخ فيه الروح أو لم ينفخ.

قال ابن مسعود: إذا استقرَّت النطفة في الأرحام أخذها ملك الأرحام بكفه فقال: يَا رَبِّ أمخلَّقة أم غير مخلَّقة؟ فإن كانت غير مخلَّقة لم تكن نسمة وقذفها الرحم دما، وإن كانت مخلَّقة قال: يَا رَبِّ ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ ما الرزق؟ وبأيِّ أرض تموت ؟ [1].

ولا دليل في هذا القول الأخير لأنَّ ما يقذفه الرحم دما لا يقال إنَّه مراد بالخلق في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ نعم يقال من جنس هذه النطفة الموصوفة بالتامَّة والناقصة.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللام الأوَّل متعلِّق بـ«خَلَقْنَاكُمْ» وحذف المفعول للعموم وهذا الحذف بمنزلة قولك: لنبيِّن لكم ما لا تحصر عبارة تفاصيله، ومن ذلك أمر البعث، والدلالة عليه بإنشاء حيٍّ بأطوار متوالد من تراب.

وقدَّر بعض: لنبيِّن لكم أمر البعث، ولا بأس به، وزعم بعض أنَّ التقدير: لنبيِّن لكم أنَّ التخليق اختيار من الفاعل المختار، ولولا ذلك لم يصر بعض غير مخلَّق.

١–وقد رواه الربيع في مسنده: ج٣، رقم ٨٠١، باب ما جاء في الحجَّة على القَدَرِيَّة حديثا مرفوعا ما يقربه معنى.

﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ من الأجنَّة، والعطف على جملة مستأنفة محذوفة والله أعلم هكذا: نخلقكم في الأرحام ونقرُّ ما نشاء ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت الوضع، وأقلّه ستَّة أشهر وأكثره عندنا وعند الشَّافعيَّة أربع سنين، وقال مالك: سنتان وكذا الحَنَفيَّة، وإذا تحقَّق أنَّه في البطن حكم به بلا غاية ما دام متحقّقا[1].

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من الأرحام ﴿طِفْلاً﴾ أطفالا يطلق على الجماعة والاثنين، كما يطلق على الواحد لأنَّ أصله مصدر طَفُل بالضمِّ على غير قياس بمعنى لان، وإذا أريد واحد جمع على أطفال، أو المراد الجنس، أوالمراد طفلا طفلا كما يقال: اخرجوا رجلا رجلا فاختصر.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ﴾ عطف على محذوف تقديره: نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا، ثمَّ لتبلغوا أو نمهلكم لتكبروا شيئا فشيئا، ثمَّ لتبلغوا، وجملة نخرجكم محذوفة مستأنفة غير مقرونة بـ«ثم».

(صرف) وقيل: المعطوف محذوف أي ثمَّ نمهلكم لتبلغوا، و«أَشُدَّ» مفرد بوزن الجمع، كـ«آنُك» ولا ثالث لهما، وهو أفعل بفتح الهمزة وإسكان الفاء وضمِّ العين، وأصل الشين السكون نقلت إليه ضمَّة الدال فأدغمت، أو جمع لا واحد له، أو جمع شذوذا لشِدَّة بكسر الشين كنِعمة وأنعم أو لشَدٍّ بفتحها أو كسرها، وهو ما بين ثمانية عشر عاما إلى ثلاثين.

﴿وَمِنكُم مَّنْ يُّتَوَفَّى﴾ بعد الإخراج من الرحم، وقبل بلوغ الأشدِّ ﴿وَمِنكُم مَّنْ يُّرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ﴾ أخسِّ ﴿الْعُمُرِ﴾ بالكبر بعد ما كان فيه بالطفولية ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ﴾ يعرف ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ مفعول مطلق أي علما

١– وقد توفَّر في عصرنا هذا من وسائل التحقيق ما يغني ويحسم الخلاف.

مًّا، أو مفعول به أي شيئا من الأشياء، وذلك تقسيم لما بعد الإخراج بعد تقسيم ما قبله، و«مِن» للتبعيض.

فالله عزّ وجلّ لم يذكر الأبعاض كلّها، لأنّ من المردودين إلى أرذل العمر من يعرف بعض الأشياء. واللام للعاقبة والله عالم بها، ولم يسق الآية على معنى أنّي أردُّه إلى أرذل العمر لأجل أن لا يعلم.

والله جلّ جلاله ذكر أفضل الأحوال وهو بلوغ الأشدِّ، وأبدعها وهو الإخراج، وأسوأها وهو أرذل العمر، وبنى التوفّي والردَّ للمفعول للعلم بالفاعل سبحانه وتعالى .

واحتجَّ للبعث أيضا بقوله: ﴿**وَتَرَى الاَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنـبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ العطف على «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ»، والخطاب لمن يتأتّى منه الرؤية البصريَّة، أو للمجادل له صلّى الله عليه وسلّم ، ويجوز أن يكون له صلّى الله عليه وسلّم ، والمراد تنبيه غيره.

وخصَّ الإنزال لأنّ ماء المطر أعمُّ إنباتا وأسرع، ويبعد أنّ الإنزال بمعنى الإرسال الشامل له ولماء العين. وهمود الأرض: سكونها بيبس واندراس، كما قابله باهتزاز، أي تحرُّكها بالنبات.

(بلاغة) شبَّه خلوَّها بالسكون والتباسها به بالتحرُّك على الاستعارة، أو أسند الاهتزاز إليها وهو للنبات على المجاز العقليِّ كما في «أَنبَتَتْ»، والإنبات فعل لله عزّ وجلّ ، ويبعد أنّ اهتزازها انفصال بعضها عن بعض لخروج النبات، وكذا الوجهان في «رَبَتْ» أي ازدادات وانتفخت. والزوج: الصنف، والبهيج: حسن المنظر يسرُّ الناظر.

﴿**ذَالِكَ**﴾ الأمر البعيد المترتِّب العالي الذي هو خلق الإنسان أطوارا والإنبات بأنواع بهيجة ﴿**بِأَنَّ اللهَ**﴾ أي ثابت بِأَنَّ اللهَ...إلخ والباء سَبَبِـيَّة، وإن

قدَّرنا الخبر كونا خَاصًّا، أي مشعر بأنَّ الله...إلخ لم تكن سَبَبِـيَّة، ولكن الكون الخاصَّ لا يحذف إلاَّ لدليل. وقدَّر بعضهم: ذلك ليعلموا أنَّ الله...الخ ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت وحده ثبوتا لا يحصل لغيره، لا يشاركه أحد في فعل ولا في قول، فهو القادر على البعث كما لا ينكره من عرف الولادة والنبات إلاَّ عنادا أو إهمالا لعقله.

﴿وَأَنَّهُ، يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ شأنه تكرير إحياء الأشياء الموتى، كالأرض الميِّتة، والنطفة والأطوار بعدها، وعزير وحماره، وغيرهما كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُم﴾ (سورة البقرة: ٢٤٣) وكيف لا يقدر على إحياء الموتى يوم القيامة ؟.

﴿وَأَنَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدرة بليغة إذ لم يقل قادر، وفيه مناسبة الفواصل كما قُدِّم «كلّ» للفاصلة، وإبراز تعميم القدرة.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لوقتها المستقبل، واسم الفاعل أدلُّ على الثبوت من الفعل، ولذلك لم يقل: تأتي ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ خبر ثان لـ«أنَّ» أو حال من المستتر في «آتِيَةٌ» لا شكَّ فيها، والمعنى: ذلك بسبب حقِّـيَّة الله ذاتا وفعلا، وسبب اعتياده الإحياء، وسبب قدرته التَّامَّة على كلِّ شيء، وسبب إتيان الساعة بلا ريب، وسبب بعثه من في القبور كما قال:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ لا بمعنى أنَّ إتيان الساعة وبعث من في القبور مؤثِّران في خلقه الإنسان وإنباته الأرض تاثير القدرة فيها بل من حيث إنَّ كُلاًّ من إتيانها والبعث داع بموجب رحمته للعباد إلى خلقهم، وإنبات الأرض، وذلك بناء على حكمته البالغة، كأنَّه قيل: ذلك بسبب أنَّه الموجود حقًّا، وأنَّه قادر على إحياء الموتى، وعلى كلِّ مقدور، وأنَّه حكيم، ولعدم ظهور السَّـبَبِـيَّة في الآخرين إلاَّ بالتأويل قدَّر أبو حيان: الأمر أنَّ الساعة آتية...الخ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾

أحوال بعض الناس: الجدال بالباطل والإيمان المضطرب، وجزاء المؤمنين الصالحين

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ**﴾ أي في صفاته من القدرة ونحوها، وأفعاله من نحو البعث ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ كرَّر الآية تأكيدا لذمِّ المجادل، وهو الأخنس ابن شريق عند محمَّد بن كعب، وأبو جهل عند ابن عبَّاس، والنضر عند جماعة، قلت: أو كلُّهم، أو كرِّرت [الآية] لأنَّ في كلٍّ ما ليس في الأخرى، ويتخلَّص عن التكرير بجعل الواو للحال من محذوف، أي أوضحنا الأمر والحال أنَّ من الناس من بقي على الجدال، أو بجعل هذه في النضر وأبي جهل والأخنس، **والأولى في أتباعهم** لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ والشيطان: الأخنس ونحوه، والمراد بالعلم [المنفيِّ] العلم بلا نظر وكسب. ﴿**وَلاَ هُدًى**﴾ علم بنظر واستدلال موصل إلى العلم ﴿**وَلاَ كِتَابٍ**﴾ موحى من الله ﴿**مُّنِيرٍ**﴾ موضح لما أبهم، وهو الحجَّة السمعيَّة، فليسوا على علم ضروريٍّ ولا كسبيٍّ ولا سمعيٍّ.

﴿ثَانِيَ﴾ حال من المستتر في «يُجَادِلُ» أي لاَوِ ﴿عِطْفِهِ﴾ جنبه، ولَيُّ الجنب كناية عن كِبْره وعدم قبوله، ويحتمل حقيقة اللَّيِّ لكن لَوَاه لِمَا ذُكِر من الكبر وعدم القبول.

﴿لِيُضِلَّ﴾ متعلِّق بـ«يُجَادِلُ» وقد يعلَّق بـ«ثَانِيَ» على أنَّ معناه ثناه ليتبع على ذلك الثني، والمعنى: ليضلَّ المؤمنين بالردَّة والشاكِّين بأن يجزموا بالإنكار، والجازمين به بالبقاء عليه.

﴿عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ، فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ جزاء على إضلاله، والجملة مستانفة، ويجوز ان تكون حالا من ضمير «يُضِلُّ» مقارنة أي مستحقًّا الخزي.

(نحو) وكلُّ حال مقدَّرة ترجع بمعنى التأهُّل والاستحقاق والنية ونحوها إلى المقارنة، ونحو: مررت بزيد اليوم صائدا غدا فيقدَّر بمعنى: ناويا الصيد غدا، والنية مصاحبة له حال المرور، وما لم يعلمه يقدَّر منويًّا له ونحوه، كأنَّه علمه.

وقد أصاب القتل من أصاب يوم بدر، وأصابهم إفحام المؤمنين لهم إذ لا حجَّة لهم، وذلك إذلال والإذلال خزي.

﴿وَنُذِيقُهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ النار البالغة في الإحراق، أو اسم طبقة منها، والإضافة فيهما من إضافة المسبَّب إلى السبب، وأجيز أن تكون من إضافة المنعوت إلى النعت، أي العذاب المحرق، وهو في ذلك كلِّه وصف في الحال، أو في الأصل، ويجوز أن يكون بمعنى الاحتراق.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ معمول لحال مقدَّرة من ضمير «نذيق» أي قائلين له: ذلك...الخ، أو من الهاء أي مقولا له ذلك...الخ. و«بِمَا» خبر أي ثابت بسبب ما قدَّمت يداك من الكفر والمعاصي، والأصل: بما قدَّمْتَ بإسكان

الميم وبتاء الخطاب وإسقاط «يداك»، ولكن أسند الفعل إلى اليدين لاعتياد الكسب بالأيدي.

[قلت:] ولا حاجة إلى تقدير: الأمر ذلك، فيبقى الباء بلا تعلُّق ظاهر، ولا إلى تقدير: فعلنا ذلك، وإن لم نقدِّر القول كانت الجملة مستأنفة على طريق الالتفات لتأكيد التشديد عليهم بالخطاب، والأصل: ذلك بما قدَّمت يداه.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ذلك بكسبك فقط لم يقترن معه ظلم الله لك بزيادة ما لم تفعل، ولا ذلك بمجرَّد ظلم الله لك دون عملك، وهذا من عموم السلب، و«ظلاَّم» للنسب أي ليس بذي ظلم عظيم ولا حقير، ولا بذي ظلم قليل ولا كثير، قيل: أو المبالغة راجعة إلى نفي، أي انتفاء الظلم عنه انتفاء بليغا، وهو ضعيف لا نظير له.

وقدَّر بعض: ليس بظلام ولا بذي ظلم مَّا، إبقاء له على المبالغة، كما يجوز إبقاؤها على معنى هذا العذاب العظيم الذي أنتم فيه ليس ظلما من الله، ولو كان ظلما لكان ظلما عظيما حاشاه، وهما ضعيفان.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ طرف من الدين لا تشبُّث ولا توغُّل فيه.

(بلاغة) وفي «حَرْف» استعارة مفردة، إذ شبَّه حاله في الدين بطرف الشيء، وليست الجملة استعارة مركَّبة تمثيليَّة، لأنَّ قوله: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ﴾ حقيقة على أصله، وإنَّما يجوز ذكر المشبَّه في الجملة التي يقال لها كناية، فإنَّه يجوز إرادة الحقيقة وغيرها فيها، ولو كان المعنى: إنَّه كالذي في طرف الجيش إن أحسَّ بظفر قرَّ، وإلاَّ فرَّ، كما فسَّر ذلك بقوله سبحانه:

﴿فَإِنَ اَصَابَهُ، خَيْرٌ﴾ كالرخاء والعافية، والولد والمال والصحَّة، مما يشتهيه، أو لم يخطر بباله ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ ثبت على ذلك الطرف من الدين ﴿وَإِنَ اَصَابَتْهُ

فِتْنَةٌ﴾ كغلاء ومرض وخسارة وموت ولد مما يفتن به **﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾** رجع إلى الشرك، شبَّه الرجوع بالانكباب على الوجه، أو بالذهاب إلى الجهة المقابلة لوجهه، ولو حفرة أو بئرا أو سبخة أو جبلا أو حريقا كالمنهزم من حرب قلقا، فهو مقابل لـ«اطْمَأَنَّ». وفي الانقلاب على الوجه استعارة اشتقَّ منها «انقَلَبَ».

(سبب النزول) قال ابن عبَّاس: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإلاَّ قال: دين سوء.

وضعَّف ابن حجر ما روي عن أبي سعيد: أسلم يهودي فذهب بصره وماله وولده، فقال لرسول الله ﷺ : أقلني، أُصبت بالإسلام، فقال ﷺ : «**الإسلام لا يقال، الإسلام يسبك الرجل كما تسبك النار خَبَثَ الذهب والفضَّة والحديد**» فنزلت الآية، ووجه ضعفه أنَّ اليهود لا تعبد الأصنام، وقد ذكرت في قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ، وَمَا لاَ يَنفَعُهُ﴾ إلاَّ أن يقال «مَا» لرهبانهم إذ كانوا معهم كالأصنام، وهو خلاف الأصل، ولو عبَّر بعد بـ«مَن» أيضا.

وقيل عن ابن عبَّاس: نزلت الآية في شبيب بن ربيعة، أسلم قبل ظهوره ﷺ وارتدَّ بعد ظهوره. وعن الحسن: في المنافقين.

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالاَخِرَةَ﴾ فاته ما يسرُّه فيهما، مستأنف أو بدل من ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ بدل الشيء من الشيء، أو عطف بيان على جوازه في الجمل، أو حال من ضمير «انقَلَبَ» ولو لم تكن فيه قد أو تقدَّر.

﴿ذَلِكَ﴾ الخسران البعيد جدًّا، أو الانقلاب البعيد جدًّا، ولا يصحُّ ما قيل: إشارة البعد لكون المشار إليه غير مذكور صريحا، لأنَّ ذكر «انقَلَبَ» و«خَسِرَ» ذكرٌ له. **﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾** لا يشكُّ فيه.

﴿**يَدْعُواْ**﴾ يعبد أو ينادي للتخلُّص من شدَّة ﴿**مِن دُونِ اللهِ**﴾ فقوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ﴾ استـئنافُ ذكرِ لقُبحِ صنيعه، وبيانٌ لعظم خسرانه، أو حال من ضمير «انقَلَبَ» ﴿**مَا لاَ يَضُرُّهُ،**﴾ من الأصنام، ولو لم يعبده أو كسره أو بال عليه ﴿**وَمَا لاَ يَنفَعُهُ،**﴾ ولو عبده.

﴿**ذَلِكَ**﴾ الدعاء ﴿**هُوَ الضَّلاَلُ**﴾ الخروج عن الطريق في الأرض دون اهتداء إلى حيث قصد، فالضلال استعارة تصريحيَّة للخروج عن الدين ﴿**الْبَعِيدُ**﴾ عن الاهتداء.

﴿**يَدْعُواْ**﴾ يقول الكافر يوم القيامة ﴿**لَمَنْ ضَرُّهُ،**﴾ وهو محقّق، لأنَّهم معاقبون على ذلك في الدارين ﴿**أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ**﴾ لو كان، واللهِ ﴿**لَبِيسَ الْمَوْلَىٰ**﴾ هو ﴿**وَلَبِيسَ الْعَشِيرُ**﴾ هو.

(**نحو**) وهذا كلُّه مفعول لـــ«يَدْعُو» بمعنى يقول، واللام في «لَمَنْ» للابتداء وليست جواب قسم كما رأيت، والقسم وجوابه خبر «مَن» الموصولة أو الموصوفة، وأجيز أن يكون تأكيدا لفظيًّا لـــ«يَدْعُو» الأوَّل فيكون «لَمَن ضَرُّهُ...» من كلام الله ﷻ ، وفيه أنَّ الأصل عدم التأكيد بالتكرير، وعدم فصل المؤكّد، ولا سيما اللفظي.

﴿**إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ**﴾ أشجارا متكاثفة تجنُّ ما تحتها أي تستره ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ**﴾ تحت تلك الأشجار المعبَّر عنها بالجنَّة.

(**لغة**) وإن أريد بالجنَّة أرض دار السعداء قدِّر مضاف أي من تحت أشجارها، وإن أريد الأرض والأشجار فالتحتية باعتبار الجزء الذي تكون به الأرض جنَّة وهو الشجر، ويجوز ردُّ الضمير في «تحتها» بمعنى الشجر للجنات بمعنى الأرض على الاستخدام.

﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل جملي لما قبله، وتقرير له بأنَّ ما يريده لا يتخلَّف، ومنه إثابة المؤمن وعقاب الكافر.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

حال اليائس من نصرة الله، وإنزال الآيات البيّنات

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَّنصُرَهُ اللهُ﴾ أي ينصر محمَّدًا ﷺ، عاد الضمير إليه ولو لم يذكره، لأنَّ الكلام فيه وله ومعه، فهو كالجبل الشامخ الذي لا يشتبه، أو الهاء لـــ«مَن». أي من كان يظنُّ أن لا ينصره الله فيغتاظ لعدم نصره فليخنق نفسه.

والجمهور على أنَّها للنبيء ﷺ وبه قال ابن عبَّاس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدِّي والزجَّاج، ويرجِّحه أن مشركي العرب لا يقرُّون بالآخرة وهي مذكورة بقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالاَخِرَةِ﴾ فكيف يطمعون أن ينصروا فيها وفي الدنيا؟ اللهمَّ إلاَّ إن يطمعوا على فرض أن تكون، أو يراد من أقرَّ بها منهم كأميَّة، أو يقال: المراد اليهود.

[قلت:] والصحيح أنَّها له ﷺ، فمن أقرَّ بها أو فرضها وظنَّ أنَّه ﷺ لا ينصر في الدنيا ولا في الآخرة، أو لا ينصر في الدنيا أو لا ينصر في الآخرة.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ اِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ، مَا يَغِيظُ﴾ ينصر الله عَجَّلَ نبيئه ﷺ ودينه وأتباعه ويثيبهم ويعاقب أعداءه دنيا وأخرى ومن غاظه ذلك فليستفرغ جهده في الكيد، فلن يصرفه عن ذلك الموعود لهم، فلا يبقى له إلاَّ أن يقتل نفسه فيرجع كيده عليه.

والباء صلة فالمعنى: فليمدد سببا أي حبلا، أو للإلصاق على معنى فليتمسَّك. و«السماء» سقف البيت، يعلّق الحبل به، ويجعل عنقه في ربقة منه بحيث يختنق لعدم وصول رجله الأرض، ويقطع نَفَسَه ـــ بفتح النون والفاء ـــ أو أجَلَه، فحذف المفعول، ولا يقدَّر: فليقطع الحبل، إذ لا فائدة في قطعه.

والنظر: التدبُّر على سبيل الفرض فقط، لأنَّ الميِّت لا تدبُّر له، أو المأمور بالنظر غيره من الأحياء، فيكون ذلك تهكُّما به، كما أنَّ لفظ الكيد تهكُّم، أو ذلك تشبيه بالكيد لأنَّ هذا غاية ما يقْدِر، والكائد يأتي بغاية ما يقدر عليه، وذلك خلاف الظاهر لأنَّهما أمران مقرونان لا دليل على صرف أحدهما لغير ما صرف إليه الآخر.

أو لينظر ذلك المادُّ للحبل قبل فعل ذلك هل يفيده ذلك شيئا لو فعله؟. أو «السماء» إحدى السماوات وهي الأولى يطلع إليها بحبل ليقطع الوحي، أو النصر أو المسافة.

وقيل: الآية في مسلمين استبطؤوا النصر فليختنقوا غيظا، أو يطلعوا فيأتوا بالنصر، وقيل: قوم مِن أسلم وغطفان أحبُّوا الإسلام وخافوا من حلفائهم اليهود، واستبطؤوا، وفي القولين أنَّ الاستبطاء ليس نفيا للنصر بطريق الظنِّ نعم قريب منه. و«ما» مصدريَّة أو اسم، أي ما يغيظه.

﴿**وَكَذَلِكَ**﴾ مثل إنزال لهذه الحكم ﴿**أَنزَلْنَاهُ**﴾ أي انزلنا سائره ﴿**ءَايَاتٍ**﴾ حال ﴿**بَيِّنَاتٍ**﴾ واضحات ﴿**وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ**﴾ أي الأمر أنَّ الله يهدي من يريد، أو أنزلناه كذلك لأنَّ الله يهدي من يريد، أو عطف على الهاء، فالمعنى: أنزلنا أنَّ الله يهدي من يريد، وهداية الله من ضلال أو إثبات على الهدى، أو زياد فيه، والمراد الأوَّل فقط، أي من يريد هدايته وإلاَّ لزم استعمال اللفظ في

معانيه أو في حقيقته ومجازه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

الفصل بين الأمم، وخضوع كل ما في الكون لعزة الله

﴿**إِنَّ الذينَ ءَامَنُواْ**﴾ بما يقول محـمَّد ﷺ عنـا ﴿**وَالذينَ هَادُواْ**﴾ أصحاب التوراة القائلين: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أو المنتسبين إلى يهوذا ــــ فعرِّب بإهمال الذال ــــ ﴿**وَالصَّابِينَ**﴾ هم قوم يعبدون الملائكة ويصلُّون إلى الكعبة ويقرأون الزبور، أو قوم يزعمون أنَّهم على دين نوح، وقبلتهم من مهبِّ الشمال فليست الكعبة، وقيل: قوم يصبون من دين إلى دين، أو أخذوا مطائب التوراة والإنجيل، أو خرجوا من دين إلى دين وكانوا على عهد إبراهيم وأفحمهم، قيل: ومنهم عبدة الكواكب ومنهم عبدة الأصنام.

﴿**وَالنَّصَارَى**﴾ قالوا نحن أنصار الله، أو نزلوا قرية تسمَّى ناصرة ﴿**وَالْمَجُوسَ**﴾ قال قتادة: هم قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران، وقيل: يعبدون الشمس والقمر، وقيل: يعبدون النيران، وقيل: قوم اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوح، وقيل: أخذوا من دين النصارى وأخذوا من دين اليهود، وقالوا: للعالم أصلان نور وظلمة، وهم قبل اليهود والنصارى، وهم يعظِّمون النار أنزل عليهم كتاب فعاجلوه بالإنكار، فذهب.

وأصل مجوس صغير الأذنين أو نابت الشعر فيهما، قيل: هو معرب

مكئوس، وقيل: معرَّب ميخ كوش، وقيل: إنَّه معرب موكوش ، وإنَّه أطلق عليهم لأنَّهم يرسلون شعورهم إلى آذانهم.

﴿وَالذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ بعبادة الأصنام أو غيرها ممن لم يسمَّ صابــيا ولا مجوسيًّا، أو بإنكار الله أو بإهماله لم يخطر له و لم يعبد غيره.

﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بإدخال الذين آمنوا واليهود التابعين للتوراة والنصارى التابعين للإنجيل الجنَّة، وغيرهم ومن أدرك القرآن و لم يؤمن والصابين والمجوس والذين أشركوا النار، كلٌّ في طبقة غير طبقات الآخرين.

(نحو) وجملة «إنَّ» واسمها وخبرها خبر «إنَّ» الأولى ولا مانع من ذلك فلا حاجة إلى تقدير خبر للأولى أي مفترقون، وحسَّنَ إعادةَ «إنَّ» طولُ الفصل، ولا قبح ولو لم يطل نحو: إنَّ زيدا إنَّ أباه قائم. ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حاضر له بعلمه، فالجملة تعليل جملي لقوله «يَفْصِلُ».

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا من يتأتَّى منه العلم. والآية بيان لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب فريق بعمله وإهانته، وإثابة آخر بعمله وإكرامه، أو تقرير لقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ أو تفريع على اختلاف الكفرة مع وجود الصارف إلى الإيمان.

﴿أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الاَرْضِ﴾ ينقادون له في خلقه إيــَّاهُم وتصرُّفه فيهم، لا يتعاصون، أو السجود مجاز عن دلالة لسان حال الأشياء بذلّتها وافتقارها على صانعها وعظمته عز وجل . و«مَن» عمَّت العقلاء وغيرهم، فعطفُ قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ﴾ عطفُ خاصٍّ على عامٍّ لشهرة هذا الخاصِّ، واستبعاد الجاهل إذعانه بالسجود، ولأنَّه عبد من دون الله.

عبدت حمْير الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدبران، ولخم وقريش الشعرى، وطيِّء الثريا، وأسد عطارد، وربيعة المرزم، وأكثر العرب الأصنام المنحوتة من الحجر، وقد ذكر الجبال، وغطفان العزّى وهي شجرة، وقد ذكر الشجر، ومن الناس من عبد البقر، وقد ذكر الدوابَّ.

(نحو) ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ فاعل لمحذوف أي ويسجد له كثير من الناس سجود الصلاة والتلاوة والشكر والدعاء، دلَّ عليه «يَسْجُدُ»، ولو اختلف معناهما لحصول الملازمة والمناسبة، لأنَّ في سجود العبادة سجود الانقياد، فهو كقولك: «زيدا ألبست غلامه»، أي أكرمت زيدا، و«عمرو ضربت غلامه» أي أهنت عمرا، فليس كقولك: «زيد ضارب بالعصا وعمرو» تريد: وعمرو ضارب، أي مسافر فضلا عن أن يمنع.

ولك العطف بلا تقدير فإنَّ المعنى: يسجد له بالانقياد الناس كلُّهم وغيرهم، وكثير منهم بالانقياد بسجود الوجه أيضا، بل قد أجاز بعض استعمال المشترك في معنييه، وبعض استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، ويجوز تقدير: وكثير من الناس حقَّ له الثواب، مقابلة لقوله:

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ ويبعد التفسير بقولك: وكثير من الناس المعتبرين لتقواهم وصلاحهم وغير المتقي كأنَّه ليس من الناس، كما تقول: «زيد الرجل» تريد الكمال، على أن يكون «كَثِيرٌ» مبتدأ و«مِنَ النَّاسِ» خبر. ويجوز أن يعطف عليه «كَثِيرٌ» الثاني وخبرهما «حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» كما تقول: «لي ألف وألف» أي ألوف، والوجهان ضعيفان بعيدان. بل «كَثِيرٌ» مبتدأ خبره «حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» أي لا يسجد، فالمعنى: وكثير من الناس يسجد عبادة وكثير لا يسجد، فعبَّر عنه بـ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وهو لازمه وسببه.

ويجوز ـــ على بعد ـــ عطف «كَثِيرٌ» على «كَثِيرٌ»، على أنَّ

«حَقَّ...» نعت الثاني، وكلاهما ساجدٌ عبادةً، لَكِنَّ الثاني سبقت له الشقاوة، أو يسجد لله ويسجد للأصنام.

[قلت:] والكلام على الجنِّ كالكلام على الإنس، لأنَّ الصواب القول بأنَّهم مكلَّفون، وزعم بعض أنَّ الناس الجنَّ، وورد في كلام العرب نحو جاء ناس من الجنِّ.

﴿وَمَنْ يُّهِنِ اللَّهُ﴾ بالخذلان والشقاوة لعمله ﴿فَمَا لَهُ، مِن مُّكْرِمٍ﴾ يسعده ﴿اِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من إكرام وإهانة وغيرها.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اِخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ٢١ كُلَّمَا أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ٢٢ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْحَمِيدِ ٢٤﴾

مصير الكافرين والمؤمنين يوم القيامة

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ الفريق المؤمن والفريق الكافر الشامل للخمس، قاله ابن عبَّاس رضي الله عنه ومجاهد وعطاء والحسن وعاصم والكلبي، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عبَّاس أنَّهما اليهود والمؤمنون.

وأخرج البخاري[١] ومسلم والترمذي وابن ماجة والطبراني وغيرهم عن أبي

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٣) باب: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ}، =

ذر رضي الله عنه أنَّه كان يُقسم أنَّ الآية في الثلاثة: حمزة وعبيدة بن الحرث وعلي، والثلاثة المحاربين لهم يوم بدر: عتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة.

وقيل: الجنَّة والنار، واعترض الأقوال الثلاثة بقوله تعالى: ﴿**اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ**﴾ لأنَّ اختصام الجنَّة والنار بِأَنَّ النار تقول: خلقني الله للأقوياء الجَبَّارين، والجنَّة: خلقني الله لأحبابه، والثلاثة قاتلوا الثلاثة بلا خصام، واليهود قالوا: نحن أفضل لقدم ديننا ونبيئنا، والمؤمنون قالوا: نحن أفضل لأنَّا آمنا بنبيئكم، وكتبكم، كما آمنَّا بنبيئنا وكتابنا، وأنتم كفرتم بهما حسدا، وليس شيء من ذلك اختصاما في الله، وقد يجاب بأنَّه يستلزم الخصام في الله.

﴿**فَالذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ**﴾ شدِّد للمبالغة ﴿**لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ**﴾ طبقات منها متراكمة على قدر أجسامهم، كتراكم الثياب بعض على بعض، وليس في ذلك استعارة تمثيلية بل الاستعارة في «ثياب» فقط.

وعن سعيد بن جبير: إنَّ الثياب قطع من نحاس مذاب وإذا حمي في النار النحاس فلا شيء أحرَّ منه، وهي كسوة قبيحة كما قال وهب: يكسى بها أهل النار والعري خير لهم، ثمَّ إن كانت تلك الطبقات أو ذلك النحاس مقطَّع قبل نزول الآية فالماضي على حقيقته في المضي ونفس التقطيع، وإلاَّ أريد بالتقطيع القضاء بها، أو إعدادها في اللوح المحفوظ وعلمِه تعالى، فالماضي على حقيقته في المضيِّ، مجاز في التعبير عن الإعداد.

أو القضاء بالمسبب واللازم عن السبب والملزوم، والنار والجنَّة وجدتا الآن وليس في ذلك تعبير بالماضي لتحقُّق وقوعه، على أنَّه لا مانع من أنَّهما موجودتان، والتقطيع مؤخَّر إلى يوم القيامة، فيكون عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع بعد. واللام

=

رقم ٤٧٤٣، من حديث أبي ذر.

للاستحقاق، أو للفائدة تهكُّما بهم، أو للتعليل على حذف مضاف أي لتعذيبهم، وكذا في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ﴾ ويضعف أن تكون فيهما بمعنى على.

﴿**يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**﴾ الماء البالغ النهاية في الحرارة، إذا طلبوا الماء للشرب أو خطر في بالهم، لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا كلِّها لأذابتها، ذكره ابن عبَّاس، وهو المشهور. وقال سعيد بن جبير: النحاس المذاب.

وذكر «مِن» بيانا لتشديد الصبِّ بأنَّه يعمُّ الفوق كلَّه، وتلويحا إلى أنَّه ينتهي أثره إلى أسفله. والجملة مستأنفة أو حال مقدَّرة من هاء «لهم» لأنَّ الصبَّ لم يوجد الآن ولو وجد التقطيع، أو خبر ثان للذين.

﴿**يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ**﴾ يذاب ويسال أمعاؤهم وأحشاؤهم، أو أريد بالبطون الباطن، فشمل الحلق والحلقوم، وتلا أبو هريرة هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الحميم ليصبُّ على رؤوسهم فينفذ الجمجمة** ـــ أي الرأس وما تحته ـــ **حتَّى يخلص إلى جوف أحدهم، فيسلت ما في جوفه، حتَّى يمرق من قدميه وهو الصهر، ثمَّ يعاد كما كان**»[1]. ويستثنى القلب لأنَّه لا موت في النار ولا في الجنَّة، وليس المراد أنَّه يسلت الجوف، ويبقى الجسد بل يسلت الجوف في سائر البدن، فيبقى العظم والقلب.

ألا ترى إلى قوله: ﴿**وَالْجُلُودُ**﴾ فكما يصهر الجلد يصهر اللحم تحته. وأخَّر الجلد للفاصلة، وصرَّح بعض بأنَّ الآية على ظاهرها، وهو صهر الجلد دون اللحم تحتها. والعطف على «ما»، وقدَّر بعضهم: وتحرق الجلود، لأنَّ الجلود لا

١-رواه **الترمذي** في كتاب صفة جهنَّم (٤) باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم ٢٥٨٢. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٨٦٤٧. من حديث أبي هريرة.

تذاب بل تجتمع في النار، فذلك كقوله: «علفتها تبنا وماء باردا»، والماء لا يعلف فيقدَّر: وسقيتها، قلت لا حاجة إلى ذلك بل خلق الله ذلك الحميم يصهر الجلود **وأحكام تلك الدار ليست كهذه.**

وفسَّر بعضهم الصهر بالنضج كقوله: تصهره الشمس ولا ينصهر، فناسب الجلد بلا تأويل، لكن يحتاج إلى ذكر الإسالة كما ذكر في الحديث، فالصهر بمعنى الإسالة أولى. ﴿**وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيد**﴾ المفرد مقمعة أو مِقْمَع وهو آلة الضرب أعلاها غليظ، وهي آلة القمع أي الردع، وفسِّرت بالمطارق وبالسياط، قال ﷺ : «**لو وضع مقمع منها في الأرض لم يقدر الثقلان على رفعه**»، وهو في يد الملك كالريشة.

﴿**كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنْهَا**﴾ ترفعهم بلهبها حتَّى يقربوا من موضع الخروج منها فيريدون الخروج، وهذا أولى من حمل الإرادة على القرب ﴿**مِنْ غَمٍّ**﴾ أي للغم العظيم كما يفيده التنكير، متعلّق بـ«أَرَادُوا» أو بـ«يَخْرُجُوا». و«مِن» الأولى للابتداء، وإن جعلنا «مِنْ غَمٍّ» بدل اشتمال من الضمير في «مِنْهَا» أي من غمها أو غمٌّ فيها كان «من» فيه أيضا للابتداء. والغم: الهمُّ، وأجيز أن يكون التغطية، يقال: غمَّه أي غطَّاه، أي من تغطيتها ﴿**اعِيدُواْ فِيهَا**﴾ أي في قعرها بالمقامع، فيهوي فيها سبعين خريفا و لم يخرجوا منها، لأنَّه لا خروج منها.

(أصول الدين) وزعم بعض أنَّهم يخرجون ويعادون فيها ولا دليل له، والنصُّ على أن لا يخرجوا، وقيل: ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بمعنى أبقوا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَنْ يَّخْرُجُواْ﴾ و لم يقل: كلّما خرجوا، ولا دليل على تقدير: كلّما أرادوا أن يخرجوا فخرجوا، ولا أنَّه عبَّر عن الخروج بإرادته وهو سببه، وأمَّا قوله أعيدوا فيها فمعناه أعيدوا في قعرها، وزعم بعض أنَّ الخروج من أماكنهم فيها، وزعم بعض أنَّ الضمير في «منها» للثياب وكذا في «فيها».

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذينَ ءامَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالحَات جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الاَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ يحلّيهم الله بواسطة الملائكة أو بدون واسطة بأن يطير إليهم ذلك بإذن الله سبحانه، أو تحلّيهم الملائكة بأمر الله عز وجل .

(نحو) و«مِنَ اسَاوِرَ» نعت لمفعول ثان محذوف، أي يحلّون فيها حلـيًّا ثابتا من أساور، أو شيئا ثابتا من أساور، أو أساور ثابتة من أساور من ذهب، أو من مفعول به ثان مضاف لـ«أَسَاوِرَ»، أو «أَسَاوِرَ» مفعول ثان و«مِنْ» صلة في الإثبات، في قول، و«مِنْ ذَهَبٍ» نعت لـ«أَسَاوِرَ» أي ثابتة من ذهب، أو متعلّق بنعت هو كون خاصة، أي موصوغة من ذهب. و«لُؤْلُؤًا» معطوف على المفعول الثاني في تلك الوجوه كلّها، وإن جعلنا «من» للابتداء لا للتبعيض وعدّينا «يحلّى» لواحد قدّرنا: يعطَون لؤلؤا.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ خلقة من الله لا حرير دود، ومعلوم أنّه لا بدَّ من اللباس لا كالحلي، ولا ندري ممَّ هو، فقال الله عز وجل : إنّه حرير، وهذا لكون الكلام جملة اسميَّة أدلُّ على الثبوت، ولذلك وللفاصلة جيء بالاسميَّة بعد الفعليَّة، ولم يقل: يلبسون من حرير مع أنّه يصحُّ أن يكون يلبسون من حرير جوابا لقولك ممَّ يلبسون؟ وذلك عامٌّ لأهل الجنَّة.

روى ابن حبَّان والنسائي عن أبي سعيد عنه ﷺ : «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنَّة لبسه أهل الجنَّة، ولم يلبسه**»[1].

١- رواه **ابن حبَّان** في صحيحه باب: ذكر البيان بأنَّ لابس الحرير في الدنيا في كلِّ وقت محرَّم لبسه في الجنَّة إذا دخلها، رقم ٤٥١٣ من حديث أبي سعيد. ورواه **النسائي** في كتاب الزينة (٩٠) باب التشديد في لبس الحرير... رقم ٥٣١٩ من حديث عبد الله بن الزبير (الشطر =

ولعلّ قوله: «وإن دخل الجنَّة...» زيادة من راو باطلة، ويدلُّ لهذا رواية البخاري ومسلم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[1] بمعنى أنَّه ليس من أهل الجنَّة.

هكذا كنت أقول حتَّى رأيت البيهقي قال عن ابن الزبير عنه ﷺ : «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ولم يدخل الجنَّة**»[2].

(**فقه**) وذلك أنَّ لبسه من الكبائر فلا يحسن التأويل بأنَّه لا يدخلها مع السابقين، مع أنَّ التأويل بلا مرجِّح له غير مقبول، وعلى صحَّة الزيادة وعدم ثبوت رواية البيهقي لا يكون ذلك إلاَّ للتائب، وعدم لبسه لقصور درجته عن درجة من لم يلبسه كسائر تفاوت الدرجات بتفاوت الأعمال، وذكر بعض أنَّ من استحلَّ الحرير بالتأويل يلبسه في الجنَّة.

﴿**وَهُدُوٓاْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ في الجنَّة هو ﴿الْحَمْدُ لله الذي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ...﴾ إلى: ﴿...لُغُوبٌ﴾ (سورة فاطر: ٣٤) و﴿الْحَمْدُ لله الذي صَدَقَنَا...﴾ (سورة الزمر: ٧٤) وقيل: ذلك وسائر ما يتحاورون به في الجنَّة، وقيل: قولهم في الدنيا: «لا إله إلاَّ الله والْحَمْدُ لله، واللهُ أكبر» وسائر الأذكار والقرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿**وَهُدُوٓاْ**﴾ في الجنَّة ﴿**إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ طريق هو الطريق المحمود على أنَّ

=

الأوَّل منه).

١- رواه **البخاري** في كتاب اللباس (٢٥) باب: لبس الحرير وافتراشه للرجال، رقم ٥٨٣٤، من حديث ابن الزبير. ورواه **مسلم** في كتاب اللباس والزينة (٢) باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضَّة... رقم ٢٠٧٣، من حديث أنس.

٢- رواه **البيهقي** في كتاب الصلاة (٥١٦) باب نهي الرجال عن ثياب الحرير، رقم ٤٢٠٣، من حديث ابن الزبير. بدون لفظ «لم يدخل الجنَّة».

الإضافة للبيان، أو صراط الله الحميد، أي المحمود، أو الحامد للمؤمنين حمدا عظيما لهم، أي المُثنى عليهم، وهي الأقوال والأفعال والمعاشرة الجاريات بينهم في الجنَّة.

أو هدوا في الدنيا إلى صراط الله الحميد وهو دينه، كما قال: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أو صراط هو دينه المحمود، أو طريق الجنَّة وهو الإسلام، أو الصراط: الطريق إليها في الأرض، كما قال في الأشقياء: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (سورة الصافات: ٢٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

جزاء الصادّين عن المسجد الحرام، وهداية إبراهيم لمكانه

﴿إِنَّ الذينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءٌ الْعَاكِفُ فيه وَالْبَادي وَمَنْ يُرِدْ فيه بِإِلْحَادٍ بظُلْمٍ نُّذِقْهُ من عَذَابٍ اَليمٍ﴾ خبر «إنَّ» محذوف يقدَّر بعد «أَليمٍ» هكذا: هلكوا أو خسروا، ولابأس بهذا القول لأنَّه بالعطف والنعت وصلة النعت من حال أو تفسير.

(نحو) وذلك أنَّ «المسجد» معطوف على «سَبِيلِ» أو «اللهِ»، و«الذي» نعت كـ«الْحَرَامِ» و«جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ» صلة، و«سَوَاءٌ» خبر مقدَّم

لـ«العَاكِفُ» و«البَادِي»، والجملة مفعول ثان، و«للنَّاسِ» متعلّق بـ«جَعَلْنَاهُ» أو هو الثاني، والجملة حال أو مفعول ثان متعدِّد، وجملة الشرط بعدُ معطوفة على الصلة كقولك: أعجبني الذي أكرمك ومن أساء إليه عفا عنه، تريد: أعجبني الجامع بين الإكرام والعفو.

(سبب النزول) ومعنى «يَصُدُّونَ» صدُّوا، لأنّها نزلت في أبي سفيان إذ صدَّ النبيء ﷺ عن مكّة عام الحديبيّة، فالمضارع لاستحضار ما مضى.

[قلت:] ومما وفّقت لاستخراجه أنّ في مواضع من القرآن التعبير عن الفعل الواقع مرّة بصيغة التكرير لأنّ صاحبه من شأنه أن يكرِّره، ولو لم يكرِّره، فتحتمله الآية.

والمسجد الحرام: مكّة كلُّها، وعبَّر عنها بجزئها الأعظم المراد بالذات، والعاكف: المقيم، والبادي: الحادث، والإقامة ليست في المسجد بل في مَكّة، فهي المراد بالمسجد.

(فقه) ويجوز بيع دور مكّة وأرضها وكراؤها أَوْ لاَ، أو أرضها، أو جاز في غير الموسم، أقوال.

و«إلحاد» مفعول، والباء صلة، أو المفعول محذوف أي يرد شيئا. والإلحاد: العدول عن الحقِّ، و«بِظُلْمٍ» متعلّق به.

(فقه) ومن الإلحاد فيه احتكار الطعام فيه، كما جاء في الحديث، ودخوله بلا إحرام، والهمُّ فيها بمعصية ولو لم يفعلها، وقيل: الإلحاد الشرك، وتضاعف السيِّئة فيها وتكتب إرادتها، وجعل ابن عمر منزلا في الحرم وآخر في الحلّ فقيل له؟ فقال: لأنّ الحسنة في الحرم أفضل فهو يصلّي فيه والخطيئة فيه أعظم فهو حال غير العبادة في الحلّ. والحرم مما يلي المدينة ثلاثة أميال، ومما يلي العراق والطائف واليمن سبعة، ومما يلي جدَّة عشرة،

ومما يلي جعرانة تسعة.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ «إذ» مفعول به لـ«اذكر»، أي واذكر للكفرة الصَّادِّينَ عن سبيل الله والمسجد الحرام وقت تبوئتنا لجدِّهم إبراهيم مكان الكعبة، وتبوئة البيت له: جعله مباءة، أي مرجعا للعمارة والعبادة عنده؛ أو بيَّنَّا مكان البيت له ليبنيه ويكون مباءة له ولعقبه للعبادة والحجِّ.

(قصص) لَمَّا أمره الله ببنائه أمر الله له الريح فكشفت له أساسه وهو البناء الثاني، والأوَّل: بناء الملائكة من ياقوتة حمراء، رفع عند الطوفان.

(سيرة) والثالث: بناء قريش والنبيء ﷺ شابٌّ، وَاتَّفَقُوا بعد نزاعهم فيمن يضع الحجر الأسود، فكان على أوَّل من يخرج من هذه السكَّة، فخرج ﷺ، فقالوا: هذا الأمين، فوضعوه في ثوب ومسكوا بأطرافه فرفعوه فطلع ﷺ فوضعه، والرابع: بناء عبد الله بن الزبير بنى فيه الحجر الحطيم، والخامس: بناء الحجَّاج ردَّه كما كان فأخرج الحطيم[1]. وجمع البيت بيوت، والنظم أبيات لا بيوت، نصُّوا على ذلك.

﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ «أن» تفسيرية لأنَّ في «بَوَّأنا» معنى القول دون حروفه لأنَّ التبوئة للعبادة، فكأنَّه قيل: أمرنا أن لا تشرك بي شيئا، أو لأنَّ «بوَّأنا» بمعنى قلنا له: تبوَّأ. والخطاب لإبراهيم عليه السلام، كما قرئ: «أن لا يشرك» بالتحتية، وكما قال: ﴿وَأَذِّن﴾، وقيل: للنبيء ﷺ، والصحيح الأوَّل.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الأوثان والأوساخ والأنجاس والمعاصي ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ به ﴿وَالْقَآئِمِينَ﴾ المصلِّين عنده ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع ساجد خصَّهما مع

١- راجع الجزء الأوَّل، ص ٢٦٢، ففيه الحديث عن تاريخ بناء الكعبة. وفي سنة ١٩٩٧ وقعت ترميمات فيها في عهد الملك فهد بن عبد العزيز.

دخولهما في القائمين إظهارا لشأن الخضوع بالانحناء، ولم يعطف السجود لأنَّ السجود والركوع كليهما انحناء، أو خصَّهما تلويحا بأنَّ مجموعها مستحقٌّ للتبوئة أو التطهير كما استحقَّه القيام، أو بأنَّ صلاة هذه الأمَّة اشتملت عليهما وعلى القيام.

(قصص) ﴿وَأَذِّن﴾ ناد ﴿فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ بأمر الحجِّ، روي عنه ﷺ : لَمَّا فرغ من بنائه قال: يا ربِّ فرغت؟ قال: أذِّن بالحجِّ، قال: يَا رَبِّ ما يبلغ صوتي؟ قال: عليَّ إبلاغه، قال: يَا رَبِّ ما أقول؟ قال: قل: «يا أيُّهَا الناس كتب الله عليكم الحجَّ إلى البيت العتيق» فسمعه أهل السماوات والأرض، ألا ترى كيف يجيئون يلبُّون من أطراف الأرض؟ ولا يحجُّ إلاَّ من لبَّى يومئذ من الأصلاب والأرحام والموجودين.

قيل: وأوَّل من أجاب أهل اليمن وقبلهم نبيئنا ﷺ ، وكان نداؤه على أبي قبيس واضعا إصبعيه في أذنيه، أو على الحجر أو الصفا أو على الصفا فتطاول به كأعلى جبل، أو على المقام فتطاول كذلك، روايات. ولعلَّ النداء تكرَّر. وقيل: «أذِّن» خطاب له ﷺ بالتأذين في حجَّة الوداع، ولا دليل عليه.

﴿يَأتُوكَ﴾ يأتوا بيتك، أو ضمن معنى يجيبوك ﴿رِجَالاً﴾ مشاة جمع راجل بمعنى ماش ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وراكبين على كلِّ بعير هزيل لطول السفر، ولم يقل رجالا راكبين، ليدلَّ على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة.

(فقه) واستدلَّ بعض على أنَّه لا حجَّ على من لا يجد الحجَّ إلاَّ بالبحر بالآية إذ لم يذكره، ويردُّه أنَّ عدم ذكر الشيء لا يوجب سقوطه، وبأنَّ أهل البحر يأتون مكَّة بعد الخروج منه رجالا وعلى كلِّ ضامر، وأيضا يجوز الحجُّ على نحو حمار وبغل مع أنَّه لم يذكره.

وبدأ بالمشي لأنَّه أفضل، وعن ابن عبَّاس: ما آسى على ما فاتني إلاَّ الحجُّ راجلا، وقد كبرت الآن وربِّي بدأ به، وإنَّ رسول الله ﷺ قال: «للحاجِّ

راكبا بكلّ خطوة تخطوها دابّته سبعون حسنة، وللماشي بكلّ خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم»، وحسنة الحرم مائة ألف حسنة. ولفظ «كلّ» للمبالغة.

﴿يَاتِينَ﴾ ضمير الإناث للجماعات من الرجال والركبان وليس فيه تغليب لأنّ الجماعات لفظ مؤنّث، وقيل: الضمير لـ«كلّ» أو لـ«ضَامِرٍ» المتّصف بالكُلّيّة. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ «كُلّ» للمبالغة، و«الفجّ» الطريق مطلقا، وأصله بين الجبلين ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد على وجه الأرض طولا وأصله البعيد سفلا.

﴿لِّيَشْهَدُواْ﴾ ليحضروا متعلّق بـ«يَاتُوكَ»، ويجوز تعليقه بـ«أذّن»، والأوّل أولى لقربه، وجاز التنازع. ﴿مَنَافِعَ﴾ عظيمة كثيرة، ولذلك نكّر، والمراد الدنيويّة والأخرويّة، وساغ الدنيويّة إذ لم تقصد بالذات، والمقصود بالذات الأخرويّة، وذلك المرويُّ عن ابن عبّاس الرواية الصحيحة، وعنه: الدنيويّة، وهي لحوم الأضاحي ونحوها وربح التجر، **وهو ضعيف**، لأنّه لا يصحّ النداء لأجلها، ولا يمدح الآتي لأجلها، وأولى منه أنّها الأخرويّة رضوان الله وثوابه ﴿لَهُمْ﴾ نعت «مَنَافِعَ».

﴿وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الاَنْعَامِ﴾ الثمانية عند ذبحها بأن يقولوا: «بسم الله الله أكبر» أو يزيدوا: «اللهمّ منك ولك عنّي» أو عن فلان أو فلانة.

(فقه) والأيّام أربعة: يوم النحر وثلاثة أيّام بعده، وهو الصحيح، لقوله ﷺ: «**أيّام التشريق كلّها أيّام ذبح**»[1] وعليه الحسن، أو يومه

١– رواه **أحمد** في مسند المدنيين، رقم ١٦٣٠٩، من حديث جبير بن مطعم بلفظ: «وكلّ أيّام التشريق ذبح».

ويومان بعده عند عمر وابنه وعليٍّ وابن عبَّاس وأنس وأبي هريرة، إذ قالوا: أيـــَّام النحر ثلاثة أفضلها أوَّلها، وعند النخعي: وقت النحر يومان، وابن سيرين: يوم، وأبي سلمة وابن يسار: إلى هلال محرَّم.

وقيل: المعلومات عشرة ذي الحجَّة. والذكر في هذه الأربعة حمد الله وشكره عند الذبح وغيره، واليوم يشمل الليل، فجاز الذبح على الصحيح فيه ويحذر الخطأ، وقال: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ تسهيلا للتقرُّب إليه عَزَّ وَجَلَّ بأنَّه هو رازقهم بها، والذكر عليها مشعر بالذبح ففرَّع على ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ :

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ ليس هذا التفاتا لأنَّه أمر ولو لم يكن الالتفات لقيل فيأكلوا منها، وليست مرادا بل إباحة الأكل بعد تحرُّج الجَاهليَّة والشرع، إذ قال ﷺ : «**كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي فكلوا وادَّخروا وأطعموا**»[1] والأمر بعد النهي للإباحة لا للوجوب، وقيل: يجب الأكل وقيل: يندب.

﴿وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ﴾ صاحب البؤس، وفسَّره بقوله: **﴿الْفَقِيرَ﴾** وخصَّ بعض هنا البائس الذي يسأل ويجوز إطعام الغنيِّ لأنَّ صاحبها يأكل منها غنيًّا أو فقيرا.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ ليقطعوا ما طال من الأظفار وشعر العانة والإبط والرأس، والقضاء في الأصل القطع، كما يطلق على الفصل بالحكم، أو هو هنا أداء ما وجب من إزالة ما ذكر، قيل: سُمِّيَ القطع قضاء لمضيِّ زمان ذلك.

١- روى ما يقاربه لفظا **الترمذي** في كتاب الأضاحي (١٤) باب ماجاء الرخصة في أكلها بعد ثلاث، رقم ١٥١٠، من حديث بريدة عن أبيه. **النسائي** في كتاب الفرع والعتيرة (٢) باب ما جاء في تفسير العتيرة، رقم ٤٢٤١، من حديث نبيشة. **ابن ماجه** في كتاب الأضاحي (١٦) باب ادِّخار لحوم الضحايا، رقم ٣٢١٩، من حديث نبيشة. مع زيادة في آخره.

وقيل: قضاء التفث: أفعال الحجِّ كلُّها، وذلك لأنَّ التفث الوسخ، والمحرم لا يخلو عنه، ففعل ما ذكر من خروج عن التفث، فسمِّي بالثفت للجوار أو التسبُّب.

﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما وعدوه من أفعال الخير في الحجِّ كالذبح والصدقة والصلاة في مواضع مخصوصة، وقصدها للزيارة ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ليتطوفوا، أبدلت التاء طاء فأدغمت، وهو أبلغ من طوِّفوا، وهو طواف الإفاضة، ولا حجَّ لمن تركه، وقيل: طواف الوداع واختلف أهو من المناسك؟.

روى البخاري والترمذي والحاكم والطبراني عن عبد الله بن الزبير عنه ﷺ: «**سمَّى الله البيت العتيق لأنَّه أعتقه من الجبابرة ولم يظهر عليه جبَّار قط**»[1].

(قصص) وقصده تبَّع بالهدم إذ قيل له كذبا: فيه كنز فأشير إليه بأنَّه مولد نبيء آخر الأنبياء، وأنَّ له ربًّا يحميه فكساه، وهو أوَّل من كساه، وقيل: أصابه الفالج فتركه، وقصده أبرهة فأصابه ضرٌّ وأنت خبير بقصَّة أصحاب الفيل، وأمَّا هدم الحَجَّاج فليخرج منه ابن الزبير إذ التجأ إليه وليردَّه كما كان، وليس أخذ القرامطة الحجر الأسود وبقاؤه عندهم سنين تملُّكا له، وإلقاء الحبشة أحجاره في البحر آخر الزمان من أشراط الساعة لا يرد نقضا.

وعن مجاهد: سمِّي عتيقا لأنَّه لم يملك موضعه قطُّ، أو لأنَّه لم يصبه الطوفان، وابن جبير: لأنَّه جَيِّـــد، كما يقال: فرس عتيق، وعن الحسن وابن زيد: **لقدمه، إذ هو أوَّل بيت وضع للناس**، وقيل: لإعتاقه من طاف به.

(فقه) ولا يجوز الطواف بغير الكعبة ولو بالمسجد النبوي، ولو بالبيت

١- أخرجه **البخاري** في تاريخه الكبير: مج١، ق١، ص٢٠١. **والحاكم** في «مستدركه» كتاب التفسير (٢٢) باب في تفسير سورة الحج، رقم ٣٤٦٥/٦٠٢، من حديث عبد الله بن الزبير.

المقدس، وأهل يسجن يطوفون بمسجد عند شعبة يُقال لها مومو وبمسجد فوق جبل أبي العباس يطوفون بهما سبعا تعظيما وتضرُّعا وتبركا وهو بدعة محرَّمة[١]، وكذا أهل غرداية يطوفون سبعا بمسجد ويطوفون سبعا بسارية في المكتب [أي المحضرة]، وأظنُّ ذلك قد ترك ولا حجَّة لذلك **فهو حرام، وذلك عجيب يطاف على مسجد كأنَّه كعبة ولا يخافون العقاب!!** ومثل ذلك ما يفعله [بعض] أهل المغرب الأقصى من محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها، وتحديد الحرم على مسافة معلومة، بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم آمنا، وسوق الذبائح لها على هيئة الهدي، واتِّخاذ الموسم لها كلَّ عام[٢].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

١- كان ذلك في زمان الشيخ رحمه الله أمَّا الآن فلم يبق لذلك أثر.

٢ - ولا يزال كثير من ذلك في مواضع من الجزائر أيضا.

تعظيم حرمات الله وشعائره وبشارة المخبتين الصابرين

﴿ذَلكَ﴾ أي الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك، وهو مقرِّب للاقتضاب من التخلُّص ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ﴾ ما يحترم شرعا من فعل الواجب وترك المحرَّم في الحجِّ وغيره، وقيل: ﴿حُرُمَاتِ اللهِ﴾ المشعر الحرام، والمسجد الحرام، والبيت الحرام، والشهر الحرام، والمحْرِم حتَّى يحلَّ من إحرامه ﴿فَهُوَ﴾ أي تعظيمه ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ منفعة له وإثابة ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ يوم القيامة، وإضافة الربِّ إليه تشريف له.

﴿وَأُحلَّتْ لَكُمُ الاَنْعَامُ﴾ الثمانية ذبحا وأكلا وانتفاعا بأجزائها غير الدم ﴿إلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في تحريمه من نحو الميتة وما أهلَّ لغير الله به، والمضارع لاستحضار ما مضى ليشاهد، أو للاستمرار لأنَّه يتلى مرَّة بعد أخرى، وإن أريد بـ«ما» قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ (سورة المائدة: ٣) كان الاستثناء منقطعا لأنَّ فيه ما ليس من الأنعام.

﴿فَاجْتَنبُواْ الرِّجْسَ منَ الاَوْثَانِ﴾ ترتيب على تحريم ما هو دونها، كالميتة المستثناة بإلاَّ أو تسبَّب على «أُحلَّتْ» فإنَّ إحلالها نعمة توجب الشكر، ومجانبة الأوثان.

(فقه) والرجس: هو الأوثان. و«مِن» للبيان. وأوجب اجتنابها من كلِّ وجه لا عبادتها فقط، فلا تصنع ولا تشترى ولا تباع ولا تمسك ولا تبقى، ولا تعظَّم بوجه مَّا.

﴿وَاجْتَنبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الكلام المائل عن الحقِّ، كتسمية الأوثان آلهة وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقولهم في الطواف: «لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيك لا شريك لك إلاَّ شريكا تملكه وما ملك» وكلٌّ كذب، وشهادة الزور. قال ابن مسعود: انصرف رسول الله ﷺ من صلاة الصبح فقال قائما: «**عدلت**

شهادة الزور الإشراك بالله تعالى»[1] ثلاث مَرَّات فتلا الآية.

﴿**حُنَفَآءَ لله**﴾ مائلين لوجه الله أو إلى دين الله عن كلِّ دين، وكلِّ معصية ﴿**غَيْرَ مُشْرِكِينَ به**﴾ شيئا بعبادة أو رياء، ونحوهما مما خرج عن الإخلاص، كالأكل بالدِّين. و«غَيْرَ» حال من واو «فَاجْتَنِبُوا».

﴿**وَمَنْ يُّشْرِكْ بالله**﴾ أظهر [لفظ الجلالة] بيانا لقبح الشرك ﴿**فكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ**﴾ إحدى السبع أو عال سقط منها، وهذا تشبيه للإيمان بالسماء لعظم شأنه، والإشراك بالحضيض الأوهد لخسَّته عقلا وشرعا.

وذلك بالارتداد أو الخروج عن إقرار يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وعن الفطرة إذ كلُّ مولود يولد على الفطرة، أو عن الإيمان المقدور عليه جدًّا حتَّى كأنَّه وقع وخرج عنه.

(بلاغة) والاستعارة إمَّا تمثيليَّة فهي مركَّبة كأنَّه قيل: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده، بأن صوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفه الطير، فتفرَّق قطعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتَّى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإمَّا استعارة إفراديَّة بأن شبَّه الإيمان في علوِّه بالسماء، والذي أشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء المردية بالطير المختطفة، والشيطان الذي هو يوقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

﴿**فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ**﴾ تأخذه بسرعة للأكل، والأصل: فتختطفه الطير قلبت التاء طاء وأدغمت في الطاء، والمضارع لاستحضار الحال العجيب، كما في قوله

١- رواه **الترمذي** في كتاب الشهادات (٣) باب ما جاء في شهادة الزور، رقم ٢٣٠٠. ورواه **أبو داود** في كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، رقم ٣٥٩٩. من حديث خريم بن فاتك. مع زيادة في آخره.

سبحانه ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ والأصل: فاختطفه الطير أو هوت به الريح، بصيغة الماضي كما قال: ﴿خَرَّ﴾ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد يموت فيه جوعا وعطشا، أو بأكل السباع إن لم يمت بالسقوط.

(بلاغة) والشيطان المضلُّ كالريح المهوية، والباء للتعدية أي قمويه الريح. و«أو» للتخيير، شبَّهه بالخارِّ من السماء أو بمن قموي به الريح، أو للتنويع: نوع لا يرجى خلاصه كمن أكلته الطير، ونوع يرجى وهو الساقط، ونوع شاكٌّ ينتقل من كفر إلى كفر كمن توزعته الطير، وكلَّما أخذ طائر قطعة نازعه آخر فيها، ونوع مصمِّم معجب بما هو فيه، كمن سقط في مكان بعيد واستقرَّ فيه، والهلاك جامع لذلك. والكلام على فرض قدرة الطير على ذلك لأنَّ الكلام تشبيه لا تحقيق، أو على فرض طير كبار، أو هي كذلك بين السماء والأرض لا نراها لبعدها ولا تنزل للأرض.

﴿ذَلِكَ﴾ الأمر ذلك، أو امتثلوا ذلك الأمر باجتناب الرجس وقول الزور ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللهِ﴾ البدن والهدايا للذبح والمفرد شعيرة أو شعارة، سمِّيت لما فيه من علامة الحَجِّ، أو علامة طاعة الله أو أثر الجرح بيانا أنَّها لذلك.

وتعظيمها: قصد أعظمها وأغلاها ثمنا كما أهدى ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه حلقة من ذهب، وعمر بدنة طلبت منه بثلاثمائة دينار فأراد بيعها فيشتري بدنا كثيرة فنهاه ﷺ عن بيعها.

[قلت:] وذلك أصحُّ، لا ماقيل: الشعائر الصفا والمروة والبدن والجمار والمسجد الحرام وعرفة والركن، أو الدين كلُّه ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي تعظيمها أي تعظيمه إيـــَّاهَا.

(نحو) فحصل الربط بالضمير المقدَّر العائد إلى «من» أو الرابط «الـــ» النائبة عن الضمير، أو يقدَّر: تقوى القلوب منهم أو منه، ويجوز الربط بالعموم في ذوي تقوى القلوب. والجملة جواب، أو يقدَّر الجواب: يُثَبْ ثَوَابًا لا

يُكْـتَـنَه لأنَّ تعظيمها ﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ تقوى ذوي القلوب، وقدَّر بعض: من أفعال ذوي تقوى القلوب. و«مِن» للابتداء أو للتبعيض، وقيل: فهم متَّقون لأنَّ تعظيمها من تقوى القلوب.

﴿**لَكُمْ فِيهَا**﴾ أي في الشعائر المعلَّمة للذبح ﴿**مَنَافِعُ**﴾ كركوبها ولبنها ووبرها وصوفها وشعرها ونسلها وإعارتها ولا تكرى إجماعا فيما قيل ﴿**إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ وقت تسميتها هديا، [قلت:] والذي عندي وقت نحرها ثمَّ رأيته للشافعي ثمَّ تذكَّرت أيضا قوله ﷺ : «**اركبوا الهدي بالمعروف حتَّى تجدوا ظهرا**»[1] وقوله ﷺ لرجل مرَّ به يسوق الهدي وهو في جهد: «**اركبها**» فقال: يارسول الله، إنَّها هدي، فقال «**اركبها ويلك**»[2]، والحديث السابق كالنصِّ في أنَّ الجهد في الثاني ليس قيدا، وقيل: قيد، والآية ظاهرة في أنَّ الأجل المسمَّى وقت الذبح لأنَّ الضمير عاد إليها على الإطلاق.

﴿**ثُمَّ مَحِلُّهَآ**﴾ مصدر ميميٌّ، أي وجوبها، أي وجوب نحرها، مِن «حَلَّ الدين»: وجب، أو اسم زمان ميميٌّ، أي وقتها، أي وقت نحرها، والعطف على «مَنَافِعُ». و«ثُمَّ» للتراخي الزمانيِّ باعتبار أوَّل زمان الثبوت، أو للتراخي الرتبي، أي لكم فيها منافع دنيويَّة إلى أجل مسمًّى، وبعده منافع دِينيَّة مقتضية للثواب الأخروي.

﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ متعلِّق بحال محذوف أي منتهية إلى البيت العتيق، أي إلى مقارب الكعبة وهو فجاج منى وفجاج مَكَّة، كما قال ﷺ : «**كلُّ فجاج**

١- رواه **النسائي** في كتاب المناسك (٧٦) باب ركوب البدنة بالمعروف، رقم ٢٨٠١، **ومسلم** في كتاب الحج (٦٥) باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها، رقم ٣٧٦. من حديث جابر.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الحج (١٠٣) باب ركوب البدن، رقم ١٦٨٩ و١٩٦٠. **والنسائي** في كتاب المناسك (٧٤) باب ركوب البدنة، رقم ٢٧٩٩. من حديث أنس.

مَكَّة منحر وكلُّ فجاج منى منحر»[1].

وعلى أنَّ الشعائر مواضع الحجِّ يكون المعنى: لكم في تلك المواضع منافع الأجر والثواب بأداء ما وجب فيها إلى أجل مسمًّى، وهو انقضاء أيـــّام الحجِّ، ثمَّ محلُّ الناس من إحرامهم منته إلى الكعبة، لطواف الزيارة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، قيل: أو على ﴿مَن يُعَظِّمْ...﴾. والمنسك اسم مكان ميميٌّ، أي موضع النسك، أي مذهبا من طاعته تعالى، أو مصدر ميميٌّ أي نفس النسك، والنسك العبادة مطلقا، وقيل: المراد هنا الذبح تقرُّبا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وقال قتادة: الحج.

﴿لِّيَذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ﴾ خاصَّةً لقوله: ﴿فَإِلَهُكُمُ، إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وقوله: ﴿اجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الاَوْثَانِ﴾. **﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الاَنْعَامِ﴾** عند ذبحها.

﴿فَإِلَهُكُمُ، إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ، أَسْلِمُواْ﴾ لأنَّ إلهكم إله واحد ترتيب للإسلام على وحدانيَّته **﴿وَبَشِّرِ﴾** يا محمَّد **﴿الْمُخْبِتِينَ﴾** المطمئِّنين بالإسلام إطمئنانا يترتَّب عليه التواضع وانتفاء الظلم منهم للناس، وعدم الانتصار إذا ظلمهم غيرهم، والرضا بقضاء الله سبحانه، والاجتهاد في العبادة، من الإخبات وهو نزول الخبت وهو ما اطمأنَّ من الأرض، وفي ذلك مناسبة للحاجِّ.

﴿الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ ذكروه في قلوبهم بإلهام أو سماع **﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** خافت خوف إجلال لإشراق نور الجلال عليها **﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾** ممَّا يشقُّ على النفس من مشاقِّ التكليف والأمراض والمصائب

١- رواه **الدارمي** في كتاب المناسك (٥٠) باب عرفة كلُّها موقف، رقم ١٨٧٩. وأوَّل الحديث عنده هو: «إنَّ رسول الله e رمى ثمَّ قعد للناس، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله إني حلَّقت قبل أن انحر، قال:...». ورواه **أبو داود** في كتاب المناسك باب الصلاة بجمع، رقم ١٩٣٦ و١٩٣٧. من حديث جابر مع اختلاف في اللفظ.

[قلت:] ولا يجوز الصبر على ما فيه إهانة الدين بل يدفع ولو بقتال.

﴿**وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ**﴾ الآتين بها على الوجه المستقيم من طهارة وحضور القلب، وفيه مناسبة للحاجّ لأنّ السفر مظنّة الإخلال.

﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ قدِّم للفاصلة والتنبيه على أنّ الله هو الرازق ﴿**يُنفِقُونَ**﴾ في وجوه الخير، كالضحايا والهدي والإنفاق على الفقراء في الحجّ، وإقراض المستحقّ فيه. والجملة معطوفة على صلة «الـ» وهي وصف، ولو كانت «الـ» الموصولة هذه لا تدخل على الجملة إلاّ ضرورة أو نادرا، ويجوز جعلها حالا من المستتر في «الْمُقِيمِي» على تقدير قد، أو اكتفاء بفصل «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ».

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

التسمية عند الذبح والأكل والإطعام منها

﴿**وَالْبُدْنَ**﴾ جمع بدنة، بقرة أو بعير، ذكرا وأنثى، تنحر بِمَكَّةَ هديا كالضحية من الغنم، وسمِّيت لأنّها تسمَّن ثمّ تهدى، فهي عظيمة البدن.

روى مسلم عن جابر: «**كُنَّا نَنحر البدنة عن سبعة فقيل: والبقرة فقال: هي من البدن**»[1]. وعن مجاهد والحسن: «ليست منها» روى أبو داود عن جابر

١-رواه **مسلم** في كتاب الحج (٦٢) باب الاشتراك في الهدي... رقم ١٣١٨، من حديث =

عن رسول الله ﷺ : «**البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة**»[1] ويجمع بأنَّ الأصل والأكثر استعمالها في الإبل وقلَّ في البقر، أو هي منها حكما في الأجر لا لغة.

﴿**جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ اللهِ**﴾ علامات دينه ﴿**لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ**﴾ دنيوي وديني عند ابن عبَّاس، وعن السدِّي: ديني.

﴿**فَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا**﴾ عند النحر «بسم الله والله أكبر اللَّهُمَّ منك ولك»، وقال أبو حيان: «الله أكبر لا إله إلاَّ الله والله أكبر اللَّهُمَّ منك وإليك». ﴿**صَوَآفَّ**﴾ كلٌّ واحدة قائمة صفَّت ثلاثة أرجل وتعقل اليد اليسرى عند الجمهور كما يفعله النبيء ﷺ ، كما رواه ابن أبي شيبة وأبوداود عن ابن سابط الصحابي [والده][2]، وعن ابن عمر اليمنى وعن عطاء: أيهما شئت. وهو حال من مجرور «على».

﴿**فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا**﴾ سقطت على الأرض، كناية عن الموت، أو ﴿وَجَبَتْ﴾: ثبتت بلا تحرُّك جنب منها وذلك موتها، ولم تجر عادة بذبح البقر قائمة بل مضطجعة، وقلَّما نحر البعير مضطجعا عند الأوائل فترجَّح أنَّ البدن الإبل.

﴿**فَكُلُواْ مِنْهَا**﴾ ثلثا ومنه الادِّخار للأكل ﴿**وَأَطْعِمُواْ الْقَانِعَ**﴾ ثلثا والمراد الجنس، فشمل القانعيْن وما فوقهما، وهو الراضي بما يعطى ولا يسأل، أو بما

=

جابر، مع اختلاف في اللفظ.

١- رواه **أبو داود** في كتاب الضحايا باب في البقر والجزور رقم٢٨٠٩ . وأول الحديث عنده هو: « نحرنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية للبدنة عن سبعة...» من حديث جابر.

٢- عبد الرحمن بن سابط من الطبقة الوسطى من التابعين جمحي النسب أقام وتوفي بِمَكَّةَ سنة ١١٨ هـ. ثقة كثير الإرسال. موسوعة الحديث الشريف الكتب التسعة، (CD ROM).

عنده، والفعل قَنع يقنع كفرح يفرح، أو هو الساتر لفقره بعدم السؤال كالقناع الساتر للرأس ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ ثلثا، والمراد الجنس وهو المتعرِّض للسؤال وهو يسأل، وقيل: القانع السائل، والفعل كسألت الله أسأله كقوله:

وما خنت ذا عهد وأبت بعهده ولم أحرم المضطرَّ إذ جاء قانعا[1]

والمعترُّ: المتعرض بلا سؤال، وعن سعيد بن جبير: القانع أهل مَكَّة والمعترُّ غيرهم، وعن مجاهد: الجار ولو غنيًّا، وقيل: الصديق الزائر، **والصحيح الأوَّل.**

والقسمة بالثلث لابن مسعود، وقيل عن محمَّد بن جعفر من ذرِّيَّة فاطمة: للقانع والمعتر ثلث، ولأهلي ثلث، وللبائس الفقير ثلث. ويروى: ادَّخِرْ ثلثا وكلْ ثلثا وتصدَّق ثلثا. وعن سعيد بن المسيّب: للبائس الفقير والقانع والمعترِّ ثلاثة أرباع، ولك الربع قيل: وهو مضطرب. **ولا يأكل مِمَّا هو كَفَّارَة.**

﴿كَذَلِكَ﴾ التسخير لها الذي شاهدتم حتَّى قويتم على عقلها ونحرها مع شدَّة قوَّتها ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أثبتناها بعد، ويبعد أنَّ المعنى سخرناها لكم كما أمرناكم بذلك، وإنَّما قلت ما ذكر لأنَّه لا يشبَّه الشيء بنفسه، وأولى من ذلك أن يقال: سخَّرناها لكم على الكَيفيَّة التي شاهدتم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا بالتقرُّب مخلصين، ونفعها لكم.

ولا حاجة لله بها كما قال: ﴿لَنْ يَّنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا﴾ فينتفع بها، أو لن تصيب رضى الله بل تصيبونه بالتقوى كما قال: ﴿وَلَكِنْ يَّنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ بجعلها من حلال وإخلاصها، وقيل: أرادوا بسط اللحم حول الكعبة ونضحها بالدم تعظيما لها كالجاهليَّة، فنزلت الآية.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرَّره تذكيرا للنعمة كقوله: أنعمت عليكم

١- البيت لعدي بن زيد في ديوانه، ١٤٥. شواهد اللغة، ج٤، ص٢٣٨٠٠.

أنعمت عليكم، فانتبهوا، وتعليلا بقوله عز وجل :

﴿لِتُكَبِّرُواْ اللهَ﴾ لتعتقدوا كبرياءه لقدرته على ما لا يقدر الخلق عليه فتوحِّدوه، بصفاته وأفعاله، أو لتقولوا: «الله أكبر» عند الإحلال أو التذكية ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاٰيكُمْ﴾ «ما» مصدريَّة، والتقدير: على هدايته إيَّاكم، متعلِّق بـ«تُكَبِّرُوا» لتضمُّنه معنى تشكروا أو تحمدوا، أو التقدير: لتكبِّروا الله شاكرين أو حامدين على هدايته إيَّاكم، أو «عَلَى» للتعليل.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ العابدين الله بتوحيدهم له، والإخلاص في قولهم وفعلهم، كأنَّهم يشاهدونه، حاشاه عن إمكان مشاهدته.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾

دفاع الله عن المؤمنين وأسباب مشروعية القتال

﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذينَ ءَامَنُواْ﴾ المفاعلة للمبالغة كمًّا وكيفًا، أي يدفع دفعا عظيما كثيرا مرَّة بعد أخرى الكفَّار الصادِّين عن سبيل الله عن المؤمنين، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ (سورة المائدة: ٦٤) ، ولا نسلِّم أنَّ المقام ليس للعموم وإن سلَّمنا فالعموم مشعر بالمقصود بالذات.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ كلام مستأنف، يتضمَّن أنَّ دفعهم

على وجه الخزي لأنّه لا يحبُّهم، وأن دفعهم لخيانتهم وكفرهم، وأنّ أحبَّاءه المؤمنون لا هم، والنفي لعموم السلب إذ لا يوجد كافر إلاّ مبالغا في الكفر والخيانة، لأنّ كفرة واحدة تتضمَّن العموم، وليس فيها ما يحتقر، والخيانة في أمر الله سبحانه ونهيه ومنه خيانتهم للناس والكفر في النعم.

﴿**اذنَ**﴾ أذن الله عزّ وجلّ في القتال كما دلّ عليه قوله: ﴿**للذين يُقاتَلُونَ**﴾ للمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون ﴿**بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ**﴾ متعلّق بـ«أَذِنَ»، أي أمرهم بالقتال بسبب أنّهم مظلومون. يأتونه ﷺ متظلّمين، ما بين مشجوج ومضروب، فيقول: «**اصبروا لم أومر بالقتال**» وقد نهي عنه في نيِّف وسبعين آية في دعوى من يقول: كلُّ أمر بالصبر نهي عن القتال، ولَمَّا هاجروا نزلت هذه الآية آمرة بالقتال.

وقيل: أوَّل آية نزلت في الأمر به: ﴿قَاتلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذينَ يُقَاتِلُونَكُم...﴾ (سورة البقرة: ١٩٠) وقيل: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ...﴾ (سورة التوبة: ١١١) وقيل: نزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ...﴾ في المؤمنين هاجروا إلى المدينة فاتبعهم كُفَّار قريش ليردُّوهم وقاتلوهم.

﴿**وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ هذا وعد لهم بالنصر في القتال، لا بالتخليص فقط من أيدي المشركين، على سنن التعاظم كالوعد بعسى ولعلّ دون تصريح.

﴿**الذينَ**﴾ نعت لـ«الذينَ» أو بدله أو بيانه، و﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ معترض، ولهذا الاعتراض حسن جعله منصوبا أو مرفوعا على المدح ﴿**أُخْرِجُواْ**﴾ أخرجهم المشركون بالتضييق عليهم، لَمَّا كان التضييق عليهم بالإيذاء سببا للخروج سمِّي إخراجا ﴿**مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ متعلّق بـ«أُخْرِجُوا»، وهو مفيد لما أفاده قول بعض: إخراجا ثابتا بغير حقٍّ، ولِمَا أفاده

قول بعض: كائنين بغير حقٍّ، ومترتِّب عليهم بموجب إخراجه فلا حاجة إليهما.

﴿الآ أَنْ يَّقُولُواْ رَبـــنَّا اللهُ﴾ بدل من «حَقٍّ» لتقدُّم النفي بغير قيل، أو بدل من «غَيْر» على تضمين «أُخْرِجُوا» معنى النفي، أي لم يقرُّوا في ديارهم إلاَّ بـــ«أَنْ يَّقُولُواْ...»، وعلى الوجهين ذلك من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، كقول النابغة: «ولا عيب فيهم...». كأنَّه عدَّ «ربُّنا اللهُ» غير حقٍّ، وأجيز كون الاستـــثـــناء منقطعا.

﴿وَلَوْلاَ دفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ في الأمم السابقة، متعلِّق بقوله: ﴿أُذِنَ﴾، كأنَّه قيل: قاتلوا الكُفَّار فإنَّه لولا تسليط الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين على الكفَّار بالقتال ﴿لَّهُدِمَتْ صَوَامِعُ﴾ هي متعبدات الرهبان من النصارى، والصابـــين حين كانوا على الحقِّ وكانت للصابـــين ملَّة حقٌّ كما دخلوا في قوله تعالى: ﴿مَنَ ـــ امَنَ مِنهُم...﴾ (سورة البقرة: ١٢٦) . والصومعة: بناء رقيق الأعلى، كما تسمَّى مئذنة الإسلام صومعة إذ كانت كذلك.

﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بيعة وهي مصلَّى النصارى حين كانوا على الحقِّ، ولا تختصُّ بالرهبان، وقيل: كنيسة اليهود، وزعم بعض أنَّ المراد بالصوامع والبيع متعبَّدات هؤلاء حال الإسلام، وأنَّها لمن في حماية المسلمين منهم، ولو اتَّخَذَ بعضها المسلمون مسجدا.

[قلت:] حاشا الله أن يعتني بما للنصارى واليهود والصابـــين من المتعبَّدات بعد بعثه ﷺ .

وقيل: لولا دفع ظلم المدَّعي ما ليس له بشهادة العدول المناقضين، أو بكون البيِّنة عليه، وقيل: لولا دفع الظلمة بعدل الولاة، وقيل: لولا دفع العذاب بدعاء الأخيار، وقيل: لولا الدفع بالقصاص، وقيل: بالنبيئين.

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ جمع صلاة كنيسة اليهود، وقيل: متعبَّد للنصارى دون

البيعة، تسمية للمحلّ باسم الحالّ، وقيل: المراد نفس الصلاة على تقدير: وعطِّلت صلوات، أو تضمين «هُدِمَتْ» معنى عطِّلت، أو تقدير: ومواضع صلوات، والتنكير ينافي ذلك.

وقيل: هو مفرد أصله «صلوثى» بالإعجام والقصر فعرِّب، كما قيل: بيع إن كان عربيًّا كان من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى... ﴾ (سورة التوبة: ١١١) ، وهو نكرة وإن كان علما فصرفه لشبه الجمع.

﴿**وَمَسَاجِدُ**﴾ للمسلمين، وفي اسمها تشريف بمزيد الخضوع بالسجود، وبأنَّ أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجدا، وباختصاص المسلمين بالسجود، ووقوعه في الأمم قبلنا قليل، كقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾ (سورة آل عمران: ٤٣) . وأخَّر ذكرها لتأخُّر زمان هذه الأمَّة، وإنَّما أخَّر ما لليهود على ما للنصارى مع تقدُّمهم لمناسبة المساجد بلفظ الصلاة، أو ذلك ذكر للأشرف بعد الشريف، لأنَّ البيع أكثر عبادة من الصوامع، وكنائس اليهود أكثر عبادة من البيع، لطول زمانها، والمساجد أشرف من الكلّ، أو أخِّرت لتبعد من ذكر التهديد، أو لتجاور المدح في قوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾. ﴿**يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ المراد: ذكرا كثيرا، أولى من تقدير: زمانا كثيرا. والجملة نعت «مَسَاجِدُ» أولى من جعلها نعتا للكلّ، إذ لا يخفى أنَّ الاعتناء بالذكر في ما قبل المساجد بعد البعثة خلاف الأصل، وأنَّه لا يتصوَّر إلاَّ باعتبار بقاء بركة ما قبل البعثة، مع أنَّ أكثر ما قبلها كفر إلاَّ قليلا جدًّا.

﴿**وَلَيَنصُرَنَّ**﴾ والله لينصرنَّ ﴿**اللَّهُ مَنْ يَّنصُرُهُ**،﴾ ينصر دينه أو أولياءه، وقد أنجز الله الوعد بنصر المسلمين على مشركي العرب، والأكاسرة والروم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ**﴾ على ما أراد ومنه نصر ناصره

﴿**عَزِيزٌ**﴾ لا يمنع عَمَّا أراد.

﴿**الذينَ**﴾ نعت ﴿الذينَ أُخْرِجُواْ﴾ أو بدل منه أو من «مَن»، أو منصوب أو مرفوع على المدح ﴿**إن مَّكَّنَّاهُم في الأرْضِ**﴾ قوَّيناهم على إنفاذ الأمر في جنس الأرض، أو في أرض مَكَّة ﴿**أَقَامُواْ الصَّلاَةَ**﴾ المكتوبة الخمس ﴿**وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ**﴾ المالية الواجبة ﴿**وَأَمَرُواْ**﴾ من خالف ﴿**بالْمَعْرُوف**﴾ التوحيد والعبادة ﴿**وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ الشرك والمعاصي، والآية على العموم، وقيل: لفظها في المهاجرين والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿**وَلِلَّهِ**﴾ لا لغيره ﴿**عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ مرجعها إلى حكمه، وهذا تأكيد للوعد بالنصر.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

الاعتبار بهلاك الأمم السابقة وتحديد مهمّة الرسل

﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ**﴾ يكذِّب قومك، تسلية له ﷺ بما يترتَّب على التكذيب،

ولذلك كان مضارعا لا ماضيا مع أنَّ التكذيب ماض، أو لأنَّ شأن التكذيب أن لا يقع كما تناسبه أداة الشرط، ومفعول «كذَّب» محذوف أي أنبياءهم، ويقدَّر بعد كلمة «مَدْيَنَ»، أو نزِّل مترلة اللازم بمعنى: أوقعت التكذيب.

﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ﴾ التأنيث لأنَّ القوم اسم جمع فهو جائز التذكير والتأنيث، وإنَّما جاز التأنيث في اسم الجمع لتأويله بمؤنَّث كأمَّة هنا، كما أشار إليه أبو حيَّان ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ لم يذكرهما بلفظ قوم، لاشتهارهم بالاسمين بلا ذكر لفظ «قوم»، فالمراد بهما القومان فلم يقل: قوم هود وقوم صالح.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ يذكِّر بالقوم من لا علم به للمخاطبين ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ لم يقل: وقوم شعيب لأنَّ أهل مدين ليسوا قومه، وعلى أنَّهم قومه قد كذَّبه أصحاب الأيكة وليسوا قومه، فلو قال: وقوم شعيب لم يشملهم، واختصَّ أصحاب مدين لأنَّهم أسبق في التكذيب وأشدُّ فيه.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذَّبه القبط وقومه، كما أنَّه لم يعتبرتصديق القليل من هؤلاء.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلت لكلِّ قوم من هؤلاء في زمانهم، وصرَّح بالظاهر تقبيحا لهم على كفرهم، ولم يقل: فأمليت لهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك لآجالهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تغييري عليهم بالفعل؟! كما يقع بالقول بأنَّ غيَّر حياتهم بالموت، ونعمهم بزوالها، وعمارة بلادهم بخرابها. والاستفهام تعجيب وإرهاب لقريش.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا﴾ «كأي» أي كثير مبتدأ أو منصوب على الاشتغال والأصل عدم الحذف، ولكن الاشتغال موافق للجملة الفعليَّة قبلها، وأمَّا ما قيل كون «كَأَيِّنْ» منصوبة بمضمر قليل فلا دليل له، بل هي من جملة المحتمل، و«قَرْيَةٍ» اسم لأهلها مجازا، أو يقدَّر أهلكنا أهلها، ويجوز أن

يكون الإهلاك استعارة لعدم الانتفاع بها لهلاك أهلها.

﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من ضمير النصب في «أَهْلَكْنَاهَا» وإسناد الظلم إليها مجازا، أو يقدَّر: وهي ظالمة الأهل، أو أهلها ظالمون ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها تسقط أوَّلا إلى الأرض ولو تعدَّدت، ثمَّ تسقط عليها الحيطان، وكأنَّه اعتبرت الحيطان كلّ البيان لكونها العمدة فيه، وذلك أولى من أن يقال: تسقط الحيطان والسقوف باقية على حالها على حيطانها.

أو ﴿خَاوِيَةٌ﴾: بمعنى خالية من أهلها مثل: خوي البطن من الطعام، وعليه فـ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ بمعنى: مع بقاء عروشها، أو ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خبر ثان أي قائمة على عروشها الساقطة، فالسقوف ساقطة والحيطان باقية مشرفة عليها، وأسهل من ذلك تقدير مضاف هكذا: فحيطانها خاوية.

﴿وَبِـــير﴾ في الصحراء البادية ﴿مُّعَطَّلَة﴾ عن الانتفاع بها لهلاك أهلها، سمِّيت بــيرا لأنَّها بُــيِرَت بمعنى حُفِرَت، سواء بالهمز أوبالياء، «فعيل» بمعنى «مفعول» في الأصل.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوع أو بني بالشيد أي الجص، أو صُقل به، والعطف على «قَرْيَة» فضمير النصب في «أَهْلَكْنَاهَا» شامل للبئر والقصر فسلِّط الإهلاك عليهما. والتكثير على حدِّ ما مرِّ في القرية. وأكِّد إهلاك البير بذكر زيادة التعطيل، وقيل: ذلك عطف على معمولي عاملين، أي وكأيِّن من بير وقصر مشيد أهلكناهما.

ومعنى إهلاك البير مع أنَّها معطَّلة الإخبار بأنَّ تعطيلها بإهلاك أهلها، أو يقدَّر: وكم من بئر معطَّلة أهلكنا أهلها، وصار تعطيلها بإهلاكهم، وكم قصر مشيد أخليناه بإهلاك أهله.

(قصص) قيل: ومن جملة تلك الأبــآر والقصور بــير أهل عدن من

اليمن وهي «الرس»، وقصر لعاد الثاني، ومنها قصر على جبل بحضرموت، وبير بسفحه نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف آمنوا به، وسمِّيت القرية حضرموت لموته فيها، وقيل: مات في عكا، ومن ذلك قرية بناها قومه عند البـــير، وأمَّروا عليها جلهس بن جلاس، وعبدوا صنما وأرسل إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه في السوق، فأهلكت قريتهم وبـــيرهم.

﴿**اَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ**﴾ أمكثوا فلم يسيروا ؟ أو أتقاعدوا عن اكتساب النظر الاعتباري فلم يسيروا ؟ والاستفهام للأمر، أي سيروا للنظر، أو انظروا نظر اعتبار، فعبَّر عنه بما توقَّف عليه وهو السير، أو للإنكار أو التقرير.

﴿**فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ**﴾ التوحيد أو ما يوجبه ﴿**بِهَآ**﴾ أي ليحصِّلوا سيرا فكون قلوب عاقلة لهم بلام الأمر داخلة على يحصلوا، أو لم يكن لهم سير، فكون قلوب عاقلة لهم وقد كانت لهم لكن غير عاقلة. والعقل: العلم هنا وهو يحصل بالقلب.

﴿**أَوَ ــ اذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ ما يوحى، أو التوحيد، أو أخبارا توجبه عن الأمم السالفة ممن يجاورهم، فإنَّه أعرف منهم بحال الأمم ﴿**فَإِنَّهَا**﴾ أي القصَّة، وكذا يؤنَّث ضمير الشأن إذا كان بعده مؤنَّث مسند أو مسند إليه ﴿**لاَ تَعْمَى الاَبْصَارُ**﴾ تعليل لمحذوف، أي عموا عن الرشاد ولو كانت لهم عيون لأنَّه لا تعمى الأبصار، ليس الضلال متوقِّفا على عمي العيون فإنَّه كلا عمى بالنظر إلى عمى القلوب.

﴿**وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ التِي فِي الصُّدُورِ**﴾ ينتفي عنها نور إدراك الحقِّ الذي هو كنور العيون.

ويقال: لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الاَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ (سورة الإسراء: ٧٢) ، قال عبد الله بن زائدة بن أمِّ مكتوم:

«يا رسول الله، أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟» فنزل: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ...﴾ جوابا له، وتفريعا بالفاء على ما قبله.

وروي أنّه تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : أن اتَّخذ نعلين من حديد وعصا من الساج ثمّ سح في الأرض فاطلب الآثار والعبر، حتَّى تحفى النعلان وتنكسر العصا. فإمَّا أنَّه لا يصحُّ هذا لأنّ موسى لم يفعل ذلك، وإمَّا أن يراد به **أنّ العبر كثيرة لا يحصرها بشر في الأرض، متفرِّقة فيها.**

﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**﴾ أي قريش حين تنذرهم بالعذاب على الإشراك ﴿**بِالْعَذَابِ**﴾ إنكارا لوقوعه واستهزاء به وتعجيزا لك، وذلك ذمٌّ لهم، أو في معنى الاستفهام التوبيخي، والعذاب موعود به من الله لا يتخلف ولو أبطأ، كما قال عز وجل : ﴿**وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ،**﴾ أي وعيده وهو الإخبار بذلك العذاب، فالوعد يستعمل في الشرِّ كما في الخير.

أو المراد مطلق ما وعده من خير أو شرٍّ فدخل عذابهم ـــ قيل ـــ وعذاب الأمم السابقة، وتردُّه «لن»[1] قال أبو عمرو بن العلاء لعمرو بن عبيد المعتزلي: يا أبا عثمان كيف قلت: لا يخلف الله وعيده؟ وخلف الوعيد مدح، ألم تسمع قول القائل:

ولن يخشى نجل العم ما عاش صولتي ... ولا أنا أخشى صولة المتمـــرِّد
وإنـــِّي إذا أوعدتــــه أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فقال له عمرو إذا صرت إلى ذلك فقد قيل:

إنّ أبا خالـــد لمعتــــدلُ ... الرأي كريم الفعــــــال والبيت
لا يخلف الوعد والوعيـــد ... ولا يـــبـــيت من ناره على فوت

١– لأنّ لن تنفي المستقبل لا الماضي.

فانقطع أبو عمرو بن العلاء.

قلت: لا ينقطع لاحتمال أنَّ الشاعر أراد أنَّه لا يخلف الوعد والوعيد جميعا بل الوعيد فقط، لأنَّه لم يقل: لا يخلف الوعد ولا الوعيد.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عندَ رَبِّكَ كَأَلْف سَنَة مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي المدَّة الطويلة عندهم مدَّة قصيرة عند الله تعالى، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، بَعيدًا وَنَرَيٰهُ قَرِيبًا﴾ (سورة المعارج: ٦ــ٧) والعذاب المذكور عذاب الدنيا، وقيل: إنَّه الأخروي، وإنَّ اليوم وقته الأخروي، وهو المراد بقوله: ﴿عندَ رَبِّكَ﴾ وكونه كألف سنة لشدَّته، وقيل: إنَّ أيَّام الآخرة اعتبرت طوالا واليوم في الآية من أيَّام الآخرة.

(أصول الدين) والآية صريحة في أنَّه تعالى لا يخلف ما وعد وخلفه نقص تعالى عنه، ولو في الشرِّ لأنَّه تعالى لا يكذب ولا يجهل عاقبة تبدو له فيرجع إليها، **لا تبدو له البدوات علمه عامٌّ قديم.**

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَة امْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء ، وهذا تحقيق لردِّ استعجالهم، فكان بالواو لا بالفاء المفرعة، كما كانت الأولى بالفاء في مقام التفريع **﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾** كما ظلم قومك، توجب العذاب كما أوجبه قومك، ففي قومك ما في الأمم السابقة من موجبات العذاب، فلم لا يخافونه؟ **﴿ثُمَّ أَخَذتُهَا﴾** بالإهلاك بعد الإمهال الطويل **﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾** لا إلى غيري، أو إلى أحد معي، فلا يخلف أي يردُّ أحد ما أريد فيهم، أو في غيرهم من العذاب والحكم.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد **﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾** المشركون المستعجلون بالعذاب **﴿إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذيرٌ﴾** بالعذاب **﴿مُّبِينٌ﴾** واضح، أو مظهر لما خفي عنكم من الدين، لا قدرة لي على تعجيل ما أخرَّ الله عزَّ وجلَّ .

ويتحصَّل من إنذاري نوعان: مصدِّق ومكذِّب، كما قال: ﴿**فَالذين ءَامَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالحَات لَهُم مَّغْفرَةٌ وَرزْقٌ كَريمٌ**﴾ إلى قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَحيم﴾ وفي ذكر المغفرة والرزق الكريم للمؤمنين لزيادة الاجتهاد والتخلُّص من الذنوب.

أو يقدَّر: نذير وبشير، وحذف للفاصلة، والأوَّل أولى، ويجوز أن لا يدخل في القول كأنَّه قيل: قل يا أيــُّهَا الذين آمنوا، أو عطف على «قل» إخبار على إنشاء. والمغفرة لذنوبهم قبل الإسلام وذلك امتنان عليهم بذكرها، أو بما بعده. والرزق الكريم: الجنَّة، وكذا في جميع القرآن.

﴿**وَالذينَ سَعَوْاْ**﴾ اجتهدوا ﴿**فِي ءَايَاتنَا**﴾ في شأنها بالردِّ اجتهادا شبيها بالإسراع في المشي إلى مهمٍّ فقالوا: سحر، وقالوا: افتراء ونحو ذلك، فذلك استعارة تبعيَّة ﴿**مُعَاجِزِينَ**﴾ معالجين عجز المؤمنين بإبطال دعواهم، أو طالبين لعجزهم كما أنَّ المؤمنين طالبون لعجزهم في دعواهم ﴿**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ**﴾ ملازمو ﴿**الْجَحِيمِ**﴾ النار الشديدة التوقُّد.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧ ﴾

إحكام الوحي وصونه عن الشياطين وقصّة الغرانيق

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ «مِنْ» للابتداء ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ «مِنْ» صلة لتأكيد العموم المعلوم من النكرة بعد النفي، والتصريح بالاستغراق، بحيث لا يبقى وجه واحتمال، وهو من أوحى الله إليه وبُعث إلى غيره بأمر شرعي جديد، أو مقرِّر لمَا تقدَّمه، كأنبياء بني إسرائيل بين موسى وعيسى عليهما السلام من الرجال ﴿وَلاَ نَبِيءٍ﴾ مَن أوحى الله إليه كذلك بعث إلى غيره أو لم يبعث، أو الرسول مبعوث إلى غيره بشرع جديد، والنبيء بالجديد، أو بالتقرير وقيل: الرسول بالمعجزة والكتاب والنبيء من لا كتاب له.

(نحو) ﴿إلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾ دليل على جواز إتيان الجملة بعد «إلاّ» مطلقا، وشهر أنَّه لا بدَّ أن يليها مضارع أو ماض مسبوق بفعل، أو مقرون بقد، ويجاب بأنَّ «أَلْقَى» متَّصل بإلاَّ تقديرا و«إِذَا» خارجة عن الشرط. والتمنِّي نهاية التقدير أو القراءة كقول حسان في عثمان:

تمنى كتاب الله أوَّل ليلة   تمني داود الزبور على رسل

كما في ديوانه وهو راجع للتقدير لأنَّ القارئ يقدِّر حرفا حرفا.

والأمنية: التمنِّي أو الصورة الحاصلة من التمنِّي، والمعنى أنَّ الشيطان يلقي في قراءة الأنبياء ما يبطلها، كما قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٩١) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ﴾ (سورة الأنعام: ١١٢) الآيتين وذلك كقولهم: يحلُّ ما ذبحتم ويحرِّم ما ذبح الله، حين قرئ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ (سورة المائدة: ٣) وقولهم: عيسى والملائكة عبدوا من دون الله، حين قرأ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ الآية (سورة الأنبياء: ٩٨) ، والشياطين كما تلقي في قراءة الأنبياء وتلقي في الرؤيا إذا نزلت من السماوات وكانت تحت السماء

الدنيا، فما في السماوات صادق ولا بدَّ، وما تحت السماء هذه يصدق ويكذب.

وفي الحديث: «**الرؤيا الصالحة من الله تعالى والحلم من الشيطان**»[1]، ومن الصالحة رؤيا عائشة رضي الله عنها ثلاثة أقمار نزلت في حجرها، قصَّتها على أبيها فلمَّا توفي ﷺ ودفن فيها قال أبوها: هذا أحد أقمارك، وهو خيرها، ولما توفي أبوها ودفن فيها قيل لها: هو القمر الثاني، ولما دفن فيها عمر قيل لها: هو الثالث.

﴿**فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ بردِّ النبيء له أو بوحي ﴿**ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءَايَاتِه**﴾ يأتي بها مثبتة لا تقبل الردَّ.

والأفعال الثلاثة للتجدُّد، و«ثمَّ» للترتيب الرتبي لأنَّ الإحكام أولى من النسخ المذكور، وأظهر لفظ الجلالة بعد «يُحْكِمُ» لزيادة التقرير والإيذان بأن الأُلوهيَّة تقتضي إحكام الآيات، وكذا إظهار الشيطان للإيذان بِأَنَّ الشرور من شأن الشيطنة.

﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ**﴾ علما عظيما بكلِّ شيء، ومنها ما يلقي الشيطان، والإظهار لما ذكر ﴿**حَكِيمٌ**﴾ في تسليط الشيطان بالإلقاء والجدال.

﴿**لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ أي ما يلقيه أو إلقاءه، والإظهار لما مرَّ لا يتعلّق بـ«أَلْقَى» على معنى سلَّط الله الشيطان بالإلقاء لعطف «لِيَعْلَمَ» عليه مع أنَّ الإلقاء لا يصحُّ علّة له، بل يتعلّق بـ«يُحْكِمُ» أو «يَنسَخُ» فيصحُّ تعلُّقه بـ«أَلْقَى» ويقدَّر لقوله: «لِيَعْلَمَ» متعلّق، أي فعل النسخ والإحكام ﴿لِيَعْلَمَ الذينَ...﴾الآية.

١- رواه الربيع في مسنده (٨) باب في الرؤيا، ج١، رقم ٥٢، مرسلا مع زيادة في آخره.

﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاء بالخذلان ﴿لِّلذينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المشركين المضمرين الشرك في قلوبهم، المظهرين التوحيد في ألسنتهم، كما قال في آية أخرى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ (سورة البقرة: ١٠) ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المظهرين الشرك كأبي جهل وعتبة.

(سيرة) وشهر في أحاديث كثيرة أنّه قرأ ﷺ : ﴿أَفَرَآيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾(سورة النجم:١٩ــ٢٠) قرأ الشيطان محاكيا لصوته: «تلك الغرانيق العلا وإنّ شفاعتهنّ لترجى»، ويروى «إنّ شفاعتهنّ لترتجى، وإنّها لمع الغرانيق العلا»، ويروى: قرأ ذلك ناعسا وما في قلبه شيء من ذلك، ورضي عنه المشركون، وسجدوا حينئذ إذ سجد وانتبه لذلك أو نبّهه جبريل عليه السلام ، فأخبرهم بأنّه لم ينطق هو بذلك، أو لم يقصد ذلك.

(تضعيف ونقد الحديث) وضعَّف البيهقي وعياض ذلك الحديث وذلك إمّا أن يتكلّم به النبيء ﷺ عمدا وهذا لا يجوز لأنّه إشراك، وإنّما بعثه الله عز وجل لإبطال الشرك والطعن في الأصنام لا لمدحها، وإمّا أن يجري الشيطان ذلك على لسانه ﷺ إجبارا بحيث لا يقدر أن يمتنع وهذا باطل، لأنّه لا قدرة للشيطان على ذلك في حقّ غيره، وكيف في حقّه ﷺ ؟ قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ﴾ (سورة الحجر: ٤٢) وإمّا أن يجري على لسانه في غفلة أو نوم، وذلك لا يجوز لأنّه يؤدّي إلى عدم الاعتماد على ما يقول! وقد قال الله عز وجل : ﴿لاَ يَاتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ (سورة فصّلت: ٤٢) وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر: ٩) فَلَمَّا بطلت هذه الوجوه بقي أن يقال: إنّه لَمَّا تمّت قراءته ﷺ عند قوله: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ قال الشيطان عقبه محاكيا لصوته: «تلك الغرانيق» وسمعوا صوته، وقد سمع الناس صوته في مواضع، كما

قال يوم أحد: «إنَّ محمَّدًا قد قتل» ويوم بدر: ﴿لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ...﴾ (سورة الأنفال: ١٨) وسمعوه.

﴿وَإِنَّ الظَّالمِينَ﴾ هم القاسية قلوبهم، والذين في قلوبهم مرض، وأظهر ليصفهم بالظلم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف وعناد ﴿بَعِيدٍ﴾ شديد.

﴿وَلِيَعْلَمَ الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي التمكين من الإلقاء ﴿الْحَقُّ من رَّبِّكَ﴾ إنَّه الحكمة الثابتة من لدن آدم، ولا يصحُّ ردُّ الهاء للقرآن، لأنَّ قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسولٍ﴾ للعموم.

﴿فَيُومِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ، قُلُوبُهُمْ﴾ تسكن إليه وتطمئنَّ، ويجوز ردُّ الهاء في «إنَّه» و«به» و«له» للموحى إليه العامِّ المفهوم من قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾.

﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من هذه الأمَّة إذ فيها الكلام، أو مطلقا على ما مرَّ ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الله، أو النظر الصحيح الراد للشبهات التي تلقيها الشياطين.

﴿وَلاَ يَزَالُ الذينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ من الصراط المستقيم على أنَّه دين الله، أو من القرآن أو من الرسول أو من الموحى. و«مِن» للابتداء أو إلى ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ و«مِن» للسببيَّة لأنَّ مرية الكُفَّار في ما جاءت به الرسل بسبب ما يلقي الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَاتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ يوم القيامة، لأنَّه المعروف بالبغتة وقد قال: ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة، وقيل: أشراط الساعة فحذف المضاف، فالساعة مجاز بالحذف، إذ هي كلمة تغير إعرابها بالحذف، أو سمِّيت أشراطها ساعة للجوار، فذلك مجاز مرسل، أو الساعة: الموت المعهود في الأذهان.

﴿اَوْ يَاتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم القيامة، أظهره نكرة للتعظيم، وذلك عذاب الموت يومها كما يدلُّ لذلك قوله: ﴿الْمُلْكُ﴾ أي التصرُّف التامُّ ﴿يَوْمَئِذ للّه﴾ وحده لا لغيره حقيقة ولا مجازا، ولا صورة.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة، والهاء للفريقين لذكرهما قبل وذكرهما بعد تفصيلا، ووصف اليوم بالعقم لأنَّه لا يوم بعده، أو يوم عقيم يوم موقم لأنَّه لا يوم بعده لهم، أو يوم حرب يقتلون فيه وقد قتلوا في حروب، فكأنَّه عقمت أُمـــهَّاقم، ولا سيما يوم بدر فهو عقيم من خيرهم، وعليه فهو أيضا عقيم بتفرُّده بقتال الملائكة فيه، ولا يخفى أنَّ الحكم يناسب كون الملك لله، فالجملة حال من اللفظ الجليل، لا مستأنفة جواب لسؤال نشأ من كون الملك لله كما قيل.

﴿فَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تحقيقا دون مرية بالله أو برسوله، أو بالساعة أو بالقرآن، أو نحو ذلك، والعطف على «يَحْكُمُ» عطف اسميَّة على فعليَّة، أو يقدَّر: «إن قيل: ما ذلك الحكم؟ فالذين آمنوا» ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يقدَّر وصف مستقبل أو مضارع مستقبل خبر، كما قال: «يَحْكُمُ» أو يقدَّر وصف للماضي أو فعل ماض لتحقُّق الوقوع، أو باعتبار سبق ذلك في علمه تعالى، أو في اللوح المحفوظ والمراد بالنعيم النعم الكثيرة المتنوِّعة.

﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ﴾ أشركوا بالله غيره أو كفروا النعم ولم يشكروها ﴿وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ آيات القرآن أو الدلائل، أو كليهما، وهم الذين لا يزالون في مرية ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الفاء لكون الذين كفروا بمعنى من كفروا على الشرط، أو على تقدير «أمَّا» قبل «الذينَ» ولو لم تكن أَمـــَّا في الذين آمنوا لجواز: «زيد قائم وَأَمَّا عمرو فقاعد»، وإشارة البعد لبعد مترلتهم في الشرِّ.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ اللام للاستحقاق، و لم يقل: في عذاب كما قال: ﴿في جنَّات﴾ اختيارا لجانب الاستحقاق، والإيجاب وجنَّات النعيم بطريق التفضُّل، والله أعلم، و لم يقل: وعملوا السيِّئات كما قال: ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ اكتفاء عنه بـــ«كَفَرُوا» ﴿مُّهِينٌ﴾ مذلٌّ مخزٍ.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

وعده الكريم بالنصر والجنَّة للمهاجرين المجاهدين

﴿وَالذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ تركوا ديارهم لأجل دين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُواْ﴾ لجهادهم، وهذا أولى من تفسير ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ بالجهاد استدلالا له بذكر القتل بعده ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ بغير قتل، والخبر هكذا:

والله ﴿لَيرْزُقَـــنَّهُمُ اللهُ﴾ ومَن مَنَعَ الإخبار بالقسم وجوابه قدَّر الخبر قولا حاكيا لهما هكذا: أقول، أو يقال، أو مقول فيهم: والله ليرزقنَّهم الله ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ مفعول به لـــ«يَرْزُق» ثان أي نعيما حسنا، أو مفعول مطلق على بقائه على المعنى المصدري، وعلى إخراجه إلى معنى مرزوق كالوجه الأوَّل يكون من باب ضربته سوطا.

وذلك [الرزق] في الجنَّة ولو كان الاختصاص للمهاجرين به لأنَّ المراد التبشير بالسعادة والإخبار بأنَّ سببها الهجرة، وأيضا لهم مزيد التأكيد بالقسم، أو الرزق الحسن الذي أخبر به فاق رزق غيرهم.

وقيل: في البرزخ لقول سلمان الفارسي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات مرابطا أي ولو لم تثبت له الهجرة أو مهاجرا ولو لم يقتل، أجري عليه الرزق، وأمن من الفتَّانين**»[١] اقرأوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ إِلَىٰ: ﴿...حَلِيمٌ﴾ فالهجرة تساوي القتل في الجهاد.

(سبب النزول) لَمَّا مات عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قيل: «من قتل من المهاجرين أفضل ممن هاجر و لم يقتل» فنزلت الآية تسوية بينهم. وروي أنَّه مرَّ على فضالة بن عبيد الصحابي بجنازتين من المهاجرين إحداهما قتل، فمال الناس على القتيل، فقال: هما سواء لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ...﴾الآية.

وعن أنس عنه ﷺ : «**المقتول في سبيل الله والمتوفَّى في سبيل الله بغير قتل هما في الأجر شريكان**»[٢] وظاهره التسوية، وذكر بعض أنَّ المهاجر شهيد، وقال جماعات من المهاجرين: يا رسول الله علمنا ما لهؤلاء الشهداء فما لنا ونحن نقاتل معك؟ فنزلت الآية مسوِّية.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنَّه يرزق من يشاء بغير حساب، ويرزق ما لا يقدر غيره عليه، كالإنبات والإمطار والتوليد، والإيمان، ولا يرجو مكافأة، ولأنَّ غيره يعطي مما أعطاه الله عَزَّ وَجَلَّ .

(أصول الدين) والآية صريحة في تسمية غيره تعالى «رازقا» على معنى مجرَّد الإعطاء، كما جاز في غيره أيضا: رَزَقَ وَيَرْزُقُ، ومنع الراغب في غيره لفظ «رازق».

١- أورده **الألوسي** في تفسيره: ج٦، ص١٨٧. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي بدون ذكر لفظ «ولو لم يقتل».

٢- أورده الألوسي في تفسيره: مج٦، ص١٨٨، من حديث أنس و لم يخرِّجه.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ مستأنف لتقرير ﴿لَيَرْزُقَنَّهُم...﴾ أو بدل منه، و«مُدْخَلاً» اسم مكان مفعول به ثان، وهو الجنَّة أو درجات خصّ بها هؤلاء المهاجرون، أو درَّة بيضاء لا قصم فيها ولا وصم، لها سبعون ألف مصراع، أو اسم مصدر ميميّ لأنَّه من الثلاثي وعامله رباعيٌّ، كأنَّه قيل: ليدخلنَّهم دخولا أي إدخالا، وهو مفعول مطلق.

ورضاهم لأنَّ في ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولأنَّ دخولهم براحة واحترام.

﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ﴾ بما يرضيم فيعطيهم، وبأحوالهم المستحقَّة لذلك، وبأحوال أعدائهم المقاتلين لهم كما قال: ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلهم بالعقاب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ قد حقّق، أو قد فرغ منه، أو واضح، أو الأمر ذلك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ سمِّيت الجناية الأولى عقابا في قوله: ﴿عُوقِبَ بِهِ﴾ لأنَّها سبب للعقاب المذكور في قوله: ﴿عَاقَبَ﴾ أو ملزوم له أو للجوار، فذلك مجاز مرسل أو تشبيه فهو استعارة، [قلت:] ولا يثبت عندي أنَّ العرف جار على إطلاق العقاب على العذاب مطلقا ولو أوَّليـــاًّ.

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالعود إلى الظلم وأراد العقاب ثانيا، والله ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ﴾ على الباغي، القسم وجوابه خبر «مَن» الموصولة أو الموصوفة، وإن جعلت شرطية قدِّر جوابها مدلولا عليه بجواب القسم، أي نصره الله.

﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ له فيما قد يزيد مما لا يدرك أنَّه زائد، أو في الانتقام لنفسه، لا لله، أو في إعراضه عن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ، عَلَى اللهِ﴾ (سورة الشورى: ٤٠) ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التغابن: ١٤) ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (سورة

الشورى: ٤٣) الآيات، أو ذلك تعليل للنصر بالمماثلة والجاني يستحقُّ فوق ذلك فاقتصر له على المماثلة.

والآية نزلت في تلك المعاني الخارجة عن سبب النزول، على ما قيل في مسلمين قاتلوا في الشهر الحرام مشركين قصدوهم بالقتل طمعا في أن لا ينتصروا لحرمة الشهر، فغلبوهم لكن خافوا غضب الله للشهر الحرام، [قلت:] وإنّما قلت بخروج الآية لأنّه ليس في السبب ابتداء ثمّ جزاء ثُمّ ابتداء وجزاء.

وقيل: الآية في القصاص والجراحات كما أمر عمر جبلة بن الأيهم أن يذعن لأن يعور عينه الذي أعور هو عينه، والمماثلة في الآية بحسب ما يمكن، وبحسب الحديث وسائر القرآن كقطع أصبع بأصبع، أو يد بيد، وفي الحديث: «**لا قود إلاّ بالسيف**»[1] أي بالسلاح، وجاء «**من غرَّق غرَّقناه ومن حرَّق حرَّقناه**»[2] فقيل: لم يَصِحَّ، وفي القرآن ما يدلُّ أنّه من قال: يا زاني، فقيل له: أنت الزاني جلدا معا حدَّ القذف.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ

١- رواه **البيهقي** في كتاب الجراح (٤) باب ما روي في أن لا قود إلاّ بحديدة، رقم١٦٠٨٩. من حديث الحسن.

٢- أروده الزيلعي في نصب الراية: ج٤، ص٣٤٣.

أَللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

من دلائل قدرة الله تعالى

﴿**ذَلِكَ**﴾ النصر العالي الشأن ﴿**بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الْيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الْيْلِ**﴾ بسبب أنّه قادر على ما لا يقدر عليه غيره، كالنقص من الليل وزيادة ما نقص منه في النهار وعكسه، وأنّه عالم بما يحدث فيهما من نحو بغي وانتصار، وأمّا تحصيل أحدهما في مكان الآخر فليس بإيلاج فيه، وكذا جعل نهار بين ليلين، وليل بين نهارين ليس إيلاجا في الآخر.

(**هيئة**) اعلم أنّ لكلّ برج مترلتين وثلثا، وأيّامه ثلاثون وعشر ساعات ونصف ساعة، والمترلة اثنتا عشرة درجة وإحدى وخمسون دقيقة، وكلّ درجة يوم وإحدى وعشرون دقيقة. والبروج إمّا منقلبة وهي: الحمل والسرطان والميزان والجدي، لأنّ الشمس إذا كانت فيها انقلب الزمان من حال إلى حال، ففي الحمل ينقلب من الشتاء إلى الربيع، وفي السرطان من الربيع إلى الصيف، وفي الميزان من الصيف إلى الخريف، وفي الجدي من الخريف إلى الشتاء، وأشدُّها انتقالا الحمل لاعوجاج مطالعه، والسرطان أخفُّها لخفّة سير صاحبه وهو القمر، وأعدلها الميزان لأجل الزهرة، وأقواها الجدي لسبب زحل.

وإمّا ثابتة وهي الثور والأسد والعقرب والدلو، لأنّ الشمس إذا نزلت فيها امتزج الفصلان، وإمّا مجسدة وهي الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت، لأنّ الشمس إذا نزلت فيها امتزج الفصلان فيكون النصف الأول من البرج على طبيعة الذي قبله، والنصف الثاني على طبيعة الذي بعده[1].

١- انظر: ج٦، ص١٩١ وما بعدها.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ عليم بكلِّ كلام ككلام المنتصر ﴿بَصِيرٌ﴾ عليم بأحواله وأحوال غيره، أو بجناية الجاني.

﴿ذَلِكَ﴾ الإيلاج، أو المذكور من السمع والبصر، أو ذلك الاتِّصاف بالعفو والغفران ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الواجب لنفسه لا بموجب أو موجد، فهو كامل العلم والقدرة والجود.

﴿وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ﴾ تعبدون أو تسمُّون إلها ﴿مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الكامل في البطلان، كما أنَّ الحقَّ الذي لا يوجد مثله الوحدانيَّة، إلاَّ أنَّه يقال: إنكار الله سبحانه أشدُّ بطلانا، فيجاب بأنَّ عبادة غيره مع الإقرار به من وادي إنكاره، فكأنَّ الآية شاملة للإنكار لأنَّ الأُلوهيَّة الاختصاص بالمعبوديَّة.

(بلاغة) وزيد لفظ «هُوَ» هنا دون سورة لقمان لأنَّه أنسب بالتأكيد، إذ وقع بين عشر آيات كلٌّ أكِّدت مرَّة أو مرَّتين، ولأنَّ المعلَّل هنا أكثر منه في لقمان [آية ٣٠] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ الشأن على ما سواه ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعينيك أو لم تعلم؟ ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ﴾ مما علاَ كالسقف وهو السحاب، أو من جهة السماء إحدى السبع ﴿مَآءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ﴾ تصير، وعبَّر به لتقريب الإنبات حتَّى إنَّه شوهد في بعض المواضع أنَّه نزل ليلا فنبتت الأرض فيه ﴿مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات.

(نحو) والفاء سَبَبِــيَّة تغني عن ضمير يرجع إلى المبتدأ المخبر عنه بالجملة المعطوف عليها ما بعد الفاء، واسم «أنَّ» مبتدأ قبل دخولها، ولا مانع من أن تجعل الفاء عاطفة سَبَبِــيَّة غير مفيدة للاتِّصال، ومجرَّد الترتيب مفهوم من السَّــبَبِــيَّة، وهو مما وُفِّقت لاستخراجه ثمَّ رأيته لبعض فلا إشكال في تأخير الاخضرار، ويجوز أن يكون الاتِّصال معتبرا بالاستعداد.

﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ﴾ يوصل المنافع والأرزاق إلى عباده برفق، أو من حيث لا يشعرون، ومن ذلك إنزال الماء والاخضرار ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بدقائق الأمور والمصالح، وبما في قلب القانط من الرزق وبكيفيَّة خلق النبات، وبأفعال العباد.

﴿لَّهُ،﴾ له وحده لا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾ خلقا وملكا وزيادة ونقصا وتبديلا وتغييرا وإبقاء ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي لا يفتقر إلى شيء، لأنَّه الذي خلق المنافع والمضارَّ ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود حمدا لغويًّا لصفاته وأفعاله، وفي جميع خلقه اعتقادا وقولا وفعلا وحالا، ولو أنكر منكر أو كفر كافر لكذَّبه حاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ﴾ سهَّل ﴿لَكُم مَّا فِي الاَرْضِ﴾ من نباتها وحيوانها ومياهها ومعادنها وجبالها، تتصرَّفون في ذلك بحسب المنافع ﴿وَالْفُلْكَ﴾ عطف على «مَا» عطف خاصٍّ على عامٍّ لمزيَّته بالغرابة مع كثرة منافعها، وقوله: ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ حال من الفلك، أو الواو عطفت الفلك على لفظ الجلالة، و«تَجْرِي» على «سَخَّرَ» عطف معمولين على معمولي عامل واحد هو «أَنَّ»، وهو ظاهر فصيح.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى الاَرْضِ﴾ أي عن أن تقع، أو كراهة أن تقع، أو لِئَلاَّ تقع، أو بدل اشتمال من السماء على تضمين «يُمْسِكُ» معنى يمنع، والعطف على «سَخَّرَ» وهو دليل على قدرته تعالى، إذ أوقف جسما ثقيلا في الهواء بلا علاقة من فوق ولا عمدة من تحت مع عظم ثقله.

قال ﷺ : «**أطَّت السماء وحقَّ لها ان تـئطَّ ما فيها موضع قدم إلاَّ وفيه ملك قائم أو ساجد**»[1] لا يقع بعضها على الأرض ولا كلُّها، ولو كان بعلاقة

١- تقدَّم تخريجه في: ج٨، ص٢٢٣.

أو عمدة لاحتاجت إلى علاقة أو عمدة فيتسلسل.

﴿إلاَّ بإذْنه﴾ بمعنى لو أراد أحد وقوعها لم تقع بسبب مَّا إلاَّ بأن أراد، ولا يريد، وإنَّما يكون المَوْرُ والانشقاق والطيُّ والتبدُّل[1]، وصحَّ التفريغ لأنَّ في الإمساك معنى النفي، كـ«أبى».

والسماء الجنس، قال ابن عبَّاس: «إن خفت سلطانا فقل: الله أكبر الله أكبر من خلقه جميعا، الله أكبر من خلقه جميعا، الله أكبر مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله إلاَّ هو الممسك السماوات السبع أن يقعن على الأرض إلاَّ بإذنه، من شرِّ عبدك فلان وجنده وأتباعه وأشياعه من الجنِّ والإنس، إلهي كن لي جارا من شرِّهم جلَّ ثناؤك وعزَّ جارك وتبارك اسمك لا إله غيرك» ثلاث مرَّات.

وليس هذا وعيد بل امتنان كما يدلُّ له الامتنان في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أَنزلَ...﴾ (الآية: ٦٣)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ...﴾ (الآية: ٦٥)، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إذ أنزل ماء وسخَّر لكم وهيَّأ أسباب المنافع، ولم يعطِّل ذلك بوقوع السماء، وسهَّل لهم دلائل الدين.

(بلاغة) والرأفة: ما يقتضي دفع المضرَّة، والرحمة: ما يقتضي جلب المنفعة، وأخِّرت لأنَّ الرأفة أهمُّ وأبلغ لا للفاصلة، لأنَّه لو أخَّر لفظ «رَءُوفٌ» لصحَّ فاصلة لأنَّ الواو تعاقب الياء في الردف، كما في «الحميد» بل وجدت الواو في قوله:

﴿وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمُ، إِنَّ الانسَانَ لَكَفُورٌ﴾ وقيل: الرحمة أعمُّ، والأظهر تعليق «بِالنَّاسِ» بـ«رَءُوفٌ» فتقديمه على طريق الاهتمام لا للفاصلة، والإحياء الأوَّل من مضغة وعظم، والثاني من القبور.

١- في الطور آية ٩، والحاقة آية ١٦، والأنبياء آية ١٠٤، وإبراهيم آية ٤٨.

و«الإنسان» الجنس، والمراد: إنَّ في الناس مبالغةً في الكفر لا في كلِّ فرد، وقيل: الإنسان الكافر مطلقا، ولو قلَّ كفره لأنَّ الكفرة الواحدة تتضمَّن كثيرا من الكفر، وعلى نوع عظيم منه، وقيل: [المراد] الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل وأُبي بن خلف، فإمَّا أنَّ «الـ» للعهد عنده ﷺ وإمَّا تمثيل من قائله.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾

لكلِّ أمة شريعة والله هو الذي يفصل بينهم يوم القيامة

﴿**لِّكُلِّ أُمَّةٍ**﴾ مضت أو حضرت ﴿**جَعَلْنَا مَنسَكًا**﴾ لا تتعدَّاه إلى منسك آخر، قيل: والتقديم للحصر، أي لكلِّ أمَّة لا لغيرها منسكا مختصًّا بها، لأمَّة موسى ما في التوراة، ولأمَّة عيسى ما في الإنجيل، ويردُّ إليها من أدركها من أمَّة موسى، ولهذه الأمَّة ولا أمَّة بعدها ما في القرآن، ويردُّ إليها كلُّ من أدركها من أمَّة موسى وأمَّة عيسى.

وقوله: ﴿**هُمْ نَاسِكُوهُ**﴾ نعت «مَنسَكًا». والآية زجر لأمَّتيْ موسى وعيسى عن معارضة سيِّدنا محمَّد ﷺ ، أكَّد ذلك بقوله: ﴿**فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ**﴾ أمر الدين فإنَّه يجب على كلِّ من أدرك نبيئا اتِّباعه في كلِّ ما خالف فيه ديانتهم، وذلك من نهي الغائب، وقد يقال: ذلك نهي له ﷺ ، أو كناية عن نهيه عن أن يكون بحيث يطلق أنَّه شاركهم في النزاع، أو مبتدأً له معهم كقولك: لا أرينَّك هاهنا، أي لا تكن هنا فضلا عن أن أراك، وذلك خلاف الظاهر إلاَّ أنَّه يناسبه قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والمنسك الشريعة أو العبادة، ويقوِّي هذا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أو زمان النسك أو مكانه، ويضعفهما أنَّه لم يقل: ناسكون فيه، فيحتاج إلى حذف الضمير المجرور بدون شرط حذفه على القلَّة، وأجازه بعض حيث ظهر المعنى. والواو في «يُنَازِعُنَّكَ» المحذوفة لأهل الكتاب.

وقيل: المنسك الذبح، فالواو لمشركي العرب القائلين للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله، كبديل بن ورقاء وبشر بن سفيان، ويزيد بن خنيس الخزاعيين، ووجهه مع أنَّه لا دين لهم أنَّ المعنى كيف ينازعون بما لا أثر له في الشرائع الإلهيَّة؟ وعطفت آية النسك قبل دون هذه لقوَّة الجامع لها من المنافع بخلاف هذه.

ومفعول «ادْعُ» محذوف، ادع الناس أو هؤلاء المنازعين إلى عبادة ربِّك بما أوحينا إليك. والهدى المستقيم: الدين، أو أدلَّته، شبَّهه بالطريق، ورمز إليه بـ«مُسْتَقِيمٍ»، و«عَلَى» استعارة تخييليَّة، وإن جادلوك في أمر الدين وقد أشرقت دلائله فهدِّدهم بأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أعلم بما تعملون من الأباطيل، فيعاقبكم عليها.

واستانف الله عَزَّ وَجَلَّ له ﷺ قوله: **﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾** يا أيُّهَا المؤمنون ويا أيُّهَا الكافرون، ويبعد أن يكون من المقول، على معنى: إنَّ الله يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** من الدين والجدال أو الذبائح.

﴿أَلَمْ تَعْلَمَ انَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَآءِ وَالاَرْضِ﴾ جنسهما من الأجسام والأعراض، كأقوال الكفرة وأفعالهم واعتقادهم **﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾** إنَّ ما في السماوات والأرضين **﴿فِي كِتَابٍ﴾** اللوح المحفوظ [قيل:] طوله ألف عام،

كتب فيه ما هو كائن. فلا يهمُّك أمر الكفرة فيعاقبهم، وذلك تسلية له ﷺ؛ وقيل: المراد بالكتاب الضبط.

﴿انَّ ذَلكَ﴾ المذكور من علم ما في السماء والأرض وكونه في كتاب الحكم ﴿عَلَى الله يَسيرٌ﴾ لأنَّ قدرته ذاتيَّة لا بعلاج، وقدَّم الجار والمجرور للفاصلة لا للحصر، لأَنَـّـهُ لا مدَّعيَ أنَّ غيره يقدر على شيء من ذلك، اللهمَّ إلاَّ على مجرَّد المدح.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

بعض أباطيل المشركين وتحدّيهم بخلق ذبابة

﴿وَيَعْـــبُدُونَ من دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ أي الله ﴿به﴾ بعبادته ﴿سُلْطَانًا﴾ حجَّة مَّا، وهي الدليل السمعي الحاصل بالوحي، وقدَّمه لأنَّه أقوى يشترك الناس في فهمه ولا يحتاج إلى نظر، ولأنَّه يفيد اليقين، ولقوَّته عبَّر عنه بالسلطان، أي الحجَّة القاطعة القاهرة.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ﴾ أي بعبادته ﴿عِلْمٌ﴾ من ضرورة أو استدلال، وهذا دليل عقليٌّ ولا يفيد اليقين، والكلام فيما لا إشكال فيه من الشرعيَّات، وما أشكل يحتاج إلى العقل، فلم يبنوا أمرهم على دليل سمعيٍّ ولا عقليٍّ، بل على باطل محض.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ مطلقا، ودخل هؤلاء أوَّلا وبالذات، أو المراد هؤلاء، ذكرهم باسم الظلم تقبيحا لهم، وتعليلا للحكم به ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ في الدنيا بتصويب دينهم، ولا في الآخرة بدفع العذاب.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمُ، ءَايَاتُنَا﴾ عطف جملة الشرط والجواب والأداة على جملة «يَعْبُدُونَ». والمضارع للاستمرار التجدُّدي بتكرير التلاوة عليهم، ولو لشيء واحد، وبتكرير نزول معنى واحد، وبنزول أمر بعد نزول آخر ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على الحقِّ وبطلان دينهم.

﴿تَعْرِفُ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للمعرفة مطلقا ﴿فِي وُجُوهِ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي في وجوههم، وعبَّر بالظاهر تقبيحا لهم بالكفر، ﴿الْمُنكَرَ﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى الإنكار وعدم القبول، أو اسم مفعول أي الأمر الذي ينكر شرعا من التجهُّم والغضب، وكلا الوجهين مناسب لقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون ﴿بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ، ءَايَاتِنَا﴾ والثاني أنسب.

(نحو) وفعل المقاربة معتبرة بالغالب فلا يردُّ وقوع البطش بالتالي قليلا لقلَّته، وجملة «يَكَادُونَ...» حال من «الذينَ»، ولا بأس بعود الضمير إلى المضاف إليه إذا اتَّضَحَ المعنى، وهو أولى من كونها حالا من «وُجُوه» على الاستخدام بردِّ ضمير «يَكَادُونَ» إليها لا على معناها الأوَّل، بل على معنى أصحابها.

﴿قُلَ افَأُنَـبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُم﴾ أتسمعون فأخبركم بما هو أشدُّ سواءا عليكم من غيظكم على التالين وسطوكم؟ أو من ضجركم؟ وكأنَّه قيل: ما ذاك الذي شر؟ فقال: ﴿النَّارُ﴾ أي هو النار، وإن شئت قلت: هي النار، بتأنيث ضمير المذكَّر وهو شرٌّ للإخبار عنه بالمؤنَّث، وهو عندهم أرجح.

﴿وَعَدَهَا اللهُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ مستأنف، ولا يصحُّ أن يكون خبرا ثانيا لـ«هو» أو «هي» المقدَّر. ويجوز أن يكون «النَّارُ» مبتدأ والجملة خبره، كقولك في جواب قائل: كيف جاء زيد ؟ : إنَّه من جملة الراكبين، بدل قولك: راكبا. ﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ هي.

﴿يَآ أَيـُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ﴾ بُـيِّن لكم ﴿مَثَلٌ﴾ حال غريبة أو قصَّة غريبة [قيل ذلك] في اللوح المحفوظ، والماضي لتحقُّق الوقوع بعد، وذلك كمثل سائر في الأمصار والأعصار ﴿فَاسْتَمِعُواْ لَهُ﴾ للمثل للتفكُّر فيه، أو لأجل المثل.

وفسَّر المثل بقوله: ﴿إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، ويضعف أن يكون المعنى: جُعل لله شبه فاستمعوا له، أو لأجله فتعرفوا بطلانه بعجزهم عن خلق الذباب وعن استنقاذ ما يسلب الذباب منهم.

والخطاب في ﴿يَآ أَيـُّهَا النَّاسُ﴾ للمكلَّفين ولو ذكر ﴿إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ﴾ على معنى: إنَّ فيكم هؤلاء الداعين من دون الله، خاطبهم بما فعل بعض، كقولك: يا بني تميم القاتلين لفلان، والقاتل بعضهم، أو الخطاب لِلْكُفَّارِ. وعبَّر عن الأصنام بـ«الذِينَ» لأنَّها عندهم كالعقلاء.

﴿لَنْ يَّخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ لن يقدروا على خلقه مع صغره ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ﴾ أي لخلقه، وعبَّر عن القدرة بلازمها ومسبِّبها وهو الخلق، واختاره مما يماثله في

الصغر أو كان دونه ليرتّب عليه قوله: ﴿**وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ**﴾ أي الأصنام التي يدعون ﴿**الذُّبَابُ شَيْئًا**﴾ مما يلطخونهم به من عسل أو عطر أو زعفران أو نحوه، لأنّ الذباب هو المعروف بالوقوع على الأشياء الدسمة. وسمّي ذبابا لأنّه يذبُّ أي يطرد فيرجع، من الذبِّ بمعنى الاختلاف ذهابا ورجوعا ﴿**لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ**﴾ لا يخلّصوه ﴿**مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ**﴾ الذباب ﴿**وَالْمَطْلُوبُ**﴾ الصنم.

كانوا يلطّخونها بأنواع الطيب ويغلقون عليها، ويدخل الذباب فيمصُّ منها فهو طالب لذلك، وهي مطلوبة بذلك، أو «الطّالب»: الأصنام تطلب مجازا ما سلب منها، و«المطلوب»: الذباب تطلبه بالردِّ، أو **المطلوب**: **الأصنام والطالب**: **عابدوها يطلبون أن تنفعهم.**

﴿**مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ ما عظّموه حقَّ عظمته، بأن يؤمنوا به لأنّه لا إله إلاّ هو، ولا يعبد غيره، ولا يصفوه بصفات الخلق.

(أصول الدين) وأمّا معرفته بالكنه فمستحيلة، ولا يعرف نفسه إلاّ هو، ومن قال: يعرفه بالكنه أحد فقد أشرك عندي، لأنّه أجاز في وصفه ما للخلق، قال ﷺ : «**سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك**»[1]، وهو تتريه عن الإدراك بالكنه، ثمّ رأيت ذلك والحمد لله في كلام عليٍّ، قال الصدّيق ﵁ : «العجز عن درك الإدراك إدراك» وهو نثر بوزن شطر بيت من البسيط، ولم يقصده فتفطّن له عليٌّ فأتمّه بقوله: «والبحث عن سرِّ ذات الله إشراك»، بحذف آخر الوتد المجموع وإسكان ما قبل، هكذا:

١-أرورده الألوسي في تفسيره: ج٦، ص٢٠٢. بدون إسناد ولا تخريج. كما ورد في حاشية العطار على شرح الجلال المحرلي في معرض الحديث عن التقليد في أصول الدين. (جامع الفقه الإسلامي CDROM)

العجز عن درك الإدراك إدراك والبحث عن سرِّ ذات الله إشراك

بفتح راء درك.

﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ على كلِّ ممكن ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يردُّ عَمَّا أراد. والجملة مستأنفة للمدح أو تعليل لما قبله.

(سبب النزول) ويروى أنَّ الوليد بن المغيرة لعنه الله، قال: أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ فنزل قوله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي﴾ يختار ﴿مِنَ الْمَلآئِكَةِ رُسُلاً﴾ إلى الأنبياء بأمر الدين، وإلى الناس به ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إلى الناس، والعطف على «مِنَ الْمَلآئِكَة»، فـ«رُسُلاً» شامل لرسل الملائكة إلى الأنبياء ولرسل الناس إلى الناس، كما رأيت، حين قلت: إلى الأنبياء بأمر الدين وإلى الناس به، [قلت:] فلا حاجة إلى تقدير: إنَّ الله يصطفي من الملائكة رسلا إلى الملائكة في شأن العبادة، ومن الناس رسلا إلى الناس في أمور الدين والعبادة ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ عليم بكلِّ ما تقوله الملائكة والأنبياء والناس وسائر الحيوان ﴿بَصِيرٌ﴾ عليم بكلِّ جسم وأفعاله وصفاته ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما بين أيدي رسل الملائكة والناس، أو ما بين أيدي المكلَّفين وهو ما مضى، لأنَّه لحصوله كالموجود بين الأيدي، و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: وهو ما يأتي، لأنَّه لعدم حصوله إلاَّ بعدُ كالشيء الغائب خلفك، المتبعِ لك، أو ما ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يأتي لأنَّه مستقبل لهم و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما مضى لانقطاعه.

﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ كلُّها وليس لغيره منها شيء يوم القيامة، فيجازي كلاًّ بما استحقَّ، وهو مرتبط بقوله: ﴿يَعْلَمُ...﴾ أو إليه يرجع أمر الوحي، فلا يسئل عَمَّا يفعل، فيكون مرتبطا بقوله: ﴿يَصْطَفِي﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

جملة من أوامر التشريع والأحكام

﴿**يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ**﴾ ركوع الصلاة وسجودها، وكانوا يركعون بلا سجود ويسجدون بلا ركوع في صلاتهم، فأمرهم الله سبحانه بالجمع بينهما، ذكره أبو حيَّان والفرَّاء قبله، أو هما أمر بالصلاة، وخصَّا لأنَّهما أعظم أجزائها من حيث الخضوع، ولو كان القيام أعظم من حيث اشتماله على القرآن، وقيل: المراد الأمر بالخضوع لله.

(**فقه**) ولا سجدة هنا عندنا وعند مالك وأبي حنيفة والحسن وابن المسيب وابن جبير وسفيان الثوري، وقال الشافعي: يسجد عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، قال عقبة بن عامر: يا رسول الله فضِّلت سورة الحجِّ بسجدتين، قال: «نعم»، وقوله بعد هذا: «ومن لا يسجدهما لا يقرأهما» موضوع. وقال عمرو بن العاص: أقرأني رسول الله ﷺ خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحجِّ سجدتان[1]، وبذلك قال عليٌّ وعمر وابنه عبد الله، وعثمان، وأبو الدرداء وأبو موسى وابن عبَّاس.

١-أروده **الألوسي** في تفسيره: ج٦، ص٢٠٨. وقال: أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن عمرو بن العاص.

﴿وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالفرض والنفل وقيل: المراد الفرض ﴿وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ﴾ النفل، على أنَّ ما قبله في الفرض أو فيه والفرض، وعليه فهو تخصيص بعد تعميم، أو فعل الخير في الناس كمكارم الأخلاق وصلة الأرحام.

(فقه فضل الصدقة والإهداء) قال أبو عبد الله الغرناطي: «شملت الآية استئناف الهدية والمكافأة عليها، والصدقة بمخزون وبحادث على من حضرها»، وكان ﷺ يقبل الهديَّة ويكافئ عليها. قال أبو حنيفة: أرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى: ﴿وإذَا حُيِّيتُم بتَحيَّة...﴾ (سورة النساء: ٨٦) وقوله ﷻ : ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٧) وأهدى إليه الحجَّاج[1] ألف نعل وفرَّقها، وبعد يوم أو يومين اشترى نعلا لابنه فقيل له؟ فقال: «مذهبي تفريق الهدايا والمكافأة عليها بمثلها أو أضعافها» وقال عن رسول الله: «**إذا أهدي للرجل فجلساؤه شركاؤه**». وعنه ﷺ : «**ليس منَّا من وسَّع الله تعالى عليه فلم يوسِّع على نفسه وعياله**» قال الحسن: إذا وسَّع الله عليك فوسِّع وإن أمسك فأمسك.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون، لعلَّ للتعليل أو للترجية، والمعنى: راجين الفلاح، وهو حال معنويَّة لا اصطلاحيَّة لأنَّ ذلك إنشاء.

﴿وَجَاهِدُواْ فِي اللهِ﴾ جاهدوا الكُفَّار لله، أو جاهدوا في سبيل الله. والجهاد: استفراغ الجهد أي الطاقة في شيء، والمراد: جهاد المشركين، ويقاس عليه المبتدعة والفسقة بحسب ما يكون، وجهاد الشيطان والنفس، قال جابر بن عبد الله قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة، فقال: «**قدمتم**

١- كذا في النسخ ولعلَّ المهدي إليه غير أبي حنيفة لأنَّ الحجَّاج توفي وفي عمر أبي حنيفة ١٥ سنة، أو الإهداء وقع من غير الحجَّاج.

خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل: ما الجهاد الأكبر؟ قال: «**مجاهدة الهوى**»[١].

[قلت:] وفي سنده ضعف يجبره صحَّة المعنى، والأحاديث الأخر في هذا المعنى، ولا مانع من تفسير الآية بذلك كلّه، وقرأ الحسن الآية فقال: «إنَّ الرجل ليجاهد في الله وما ضرب بسيف».

﴿**حَقَّ جِهَادِه**﴾ أي الجهاد الذي ينسب لله ويفعل لوجهه، بأن أمر به ويعبد به، وهو الذي بإخلاص وعدم تقصير، كما تقول في التمر المحبَّس لله: تمر الله، بإضافته لله، ولا حاجة إلى تقدير: جهادا فيه حقًّا.

ومن قال: المراد أطيعوا الله جدًّا، قال: نسخ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (سورة التغابن: ١٦) ، وأمَّا أن تفسَّر بلا تعصوا البتَّة فلا يقبل النسخ، لأنَّه يفضي إلى إباحة بعض المعصية، قال عمر لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : «ألسنا كُنَّا نقرأ «وجاهدوا في الله حقَّ جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوَّله»؟ فقال: بلى، قال: متى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كان بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء»، وهذه الزيادة تفسير لا تلاوة ولو كانت ونسخت تلاوتها لشهر[٢].

﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**﴾ اختاركم لعبادته وجهاد عدوِّه، ومجاهدة أنفسكم بترك ما تدعو إليه مما لا يرضى الله به ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ تكليف ما لا تطيقونه، أو يشتدُّ عليكم جدًّا وذلك إمَّا ابتداء أو تسهيل بعد تكليف، كقوله صلى الله عليه وسلم : «**إذا أمرتم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»[٣].

١- أروده **الهندي** في الكتر، باب في لواحق الجهاد (الجهاد الأكبر والأصغر): ج٤، ص٦١٦، رقم ١١٧٧٩. **والخطيب** في تاريخ بغداد: ج١٣، ص٤٩٣. من حديث جابر.

٢- يبدو في هذا الأثر أصابع الوضاع والخائضين في الفتنة الكبرى من عدَّة جوانب.

٣- رواه **البخاري** في كتاب الاعتصام بالكتاب وَالسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، =

وقيل: ذلك جعلُه التوبة لنا كلّما أذنبنا، والقصاص والدية والأرش وَالكَفَّارَة، **واستشكل بعض إدخال التوبة في ذلك.**

(نحو) ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ، إِبْرَاهِيمَ﴾ منصوب على الإغراء أي الزموا ملّة أبيكم إبراهيم، أو مفعول بـــ«أَعني» أي أعني بالدين ملّة أبيكم، قيل: أو مفعول مطلق من معنى نفي الحرج لأنَّ معناه التوسعة على حذف مضاف، أي وسِّع عليكم توسعة ملّة أبيكم، وهذا عجيب، كما أجيز أن يكون إبراهيم مفعولا لاتَّبعوا محذوفا وإنَّما هو بدل أو بيان من «أَبِيكُمْ».

والمراد بالملَّة الأصول وما لم ينسخ من الفروع، وسمِّي أبا لأنَّ أكثر العرب أو أشرفهم وهو قريش من ذرِّيـــَّته، ولأنَّه أبو رسول الله ﷺ ، وهو كالأب لأمَّته، إذ هو سبب لمنافع الدنيا والدين والحياة الطيِّبة في الآخرة، بل إبراهيم نفسه أيضا كذلك ولو كان سيِّدنا محَمَّد ﷺ أعظم في ذلك.

﴿هُوَ﴾ أي الله كما قرأ أُبي: «الله» ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلمينَ من قَبْلُ﴾ قبل نزول القرآن في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي في هذا الكتاب وهو القرآن، وهذا مما يقوِّي أنَّ الضمير لله سبحانه.

وقيل: الضمير لإبراهيم لقرب ذكره، وذلك أنَّه قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٨) وكلامه هذا سبب لتسميته في هذا الكتاب القرآن مسلمين، لدخول أكثر العرب في الذرِّيـــَّة فهو مسمٌّ لهم في القرآن مجازا، ففي قوله: ﴿سَمَّاكُم﴾ جمع بين الحقيقة والمجاز

=

رقم ٦٢٨٨. ورواه **مسلم** في كتاب الحج، باب فرض الحج مَرَّة في العمر، رقم ١٣٣٧. من حديث أبي هريرة. وَأَوَّلُ الحديث عنده: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أَيــُّهَا الناس قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجُّوا...».

بكلمة واحدة.

وقيل: «فِي هَذَا» خبر لمحذوف، أي في هذا بيان تسميته لكم مسلمين، إذ ذكر في القرآن تسميته، وقدَّر بعض: سمَّيتكم في هذا مسلمين.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ متعلّق بـ«سَمَّاكُم»، واللام للعاقبة، ويجوز أن تكون للتعليل، لأنَّه ﷺ مسلم والإسلام سبب لقبول الشهادة.

﴿شَهِيدًا﴾ يوم القيامة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أنَّه بلَّغكم، وقيل: على بمعنى اللام، وأنَّه يشهد لهم بالخير ويزكّيهم، وفي ذلك قبول شهادته لنفسه يوم القيامة، وذلك من خصائصه ﷺ ، وأمَّا في الدنيا فقد احتاج لمن يشهدان له بفرسه، حتَّى شهد له خزيمة فأذعن خصمه بشهادته[1].

ولم يقبل الله عن الأنبياء على أممهم حين أنكروا حتَّى شهدت لهم هذه الأمَّة كما قال عزّ وجلّ :

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الأمم السابقة فيقولون: أنتم بعدنا كيف تشهدون علينا؟ فيقولون: أخبر الله نبيئنا بكفركم في القرآن الذي أنزل عليه، وذلك في الأقوام المهلكة لا في الأفراد، وإن كان على العموم فقد يجعل الله لهم علامات، كما تجعل لأمَّته ﷺ له.

﴿فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ﴾ شكرا لذلك، ولأنَّ كونكم شهداء يقتضي أن تكونوا عدولا، وفي ذلك تعظيم شأن الصلاة والزكاة، ولا بدَّ من غيرهما تبعا لهما.

١- أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ج٩، ص٣٢٠. وقال: رواه الطبراني بلفظ: «من شهد له خزيمة فهو حسبه».

﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِاللهِ**﴾ في أموركم كلِّها الدنيويَّة والدينيَّة ﴿**هُوَ مَوْلاَكُمْ**﴾ ناصركم ومتولِّي أموركم، **والسيِّد لا يخذل عبده** ﴿**فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ**﴾ هو ﴿**وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ هو، لكمال ولايته ونصره.

أسأل الله أن يجعلنا ممن اعتصم به فتولاه ونصره.

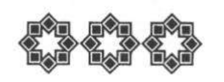
اللهمَّ زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عَنـــَّا.

[آمين]



الفهارس

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية



الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية



فهرس لبعض مختارات الشيخ

المسألة	الصفحة

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

الموضوع	الصفحات
أصول الدين	٢٣، ٥٢، ٥٨، ٦٨، ٧٥، ٨٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٧، ١٣١، ١٣٧، ١٦٠، ١٦٧، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٥، ٢٢١، ٢٣١، ٢٥٢، ٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٥٣، ٣٨٤، ٤١٢، ٤٢٠، ٤٣٢
أصول الفقه	٣٢٣
أنواع من النار	٣١٣
بلاغة	٧، ١٣، ٢٦، ٤١، ٤٩، ٧٢، ٩٣، ٩٥، ١٣٢، ١٤١، ١٤٣، ١٤٨، ١٧٢، ١٨٥، ١٩٠، ٢٠٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٦، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣١٠، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٥٧، ٣٦٩، ٣٧٣، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٢٤، ٤٢٦
رسم	١٢٦
سبب النزول	٩٢، ٢٢٣، ٢٤١، ٢٨٩، ٣٦٤، ٣٧٤، ٣٨٨، ٤٢٠، ٤٣٣
سيرة	٦٠، ١١١، ٢٢٦، ٢٤٤، ٢٤٩، ٣٤٨، ٣٥٣، ٣٦٢، ٣٨٩، ٤١٦
صرف	١٥، ١٩، ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٦٤، ٧٠، ٨١، ٨٧، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٩، ١٣٤، ١٤٧، ١٥١، ٢١٠، ٢٦٤، ٣٦٣، ٣٦٨
فضل الجهر بالذكر	١٢٢
فضل الصدقة	٤٣٥

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

تفسير سورة الحج

التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

• في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

• في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها،

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.
- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.
- في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.

و يليه بإذن الله تعالى الجزء العاشر وأوله تفسير سورة المؤمنون

ص.ب : ٦٦٨ - الرمز البريدي : ١١٣ - مسقط - سلطنة عُمان

رقم الإيداع : ٣٢٤ / ٢٠٠٥م

شركة مطابع الباطنة ومكتبتها للطباعة التكنولوجية الحديثة ش.م.م

٢٤٨١٠١٣٣ - ٢٤٨١٤١٣٢